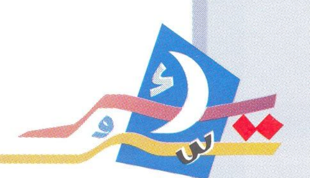


تقول الأسطورة اليونانية القديمة إن باندورا، المرأة الأولى التي أمر زيوس كبير الآلهة بخلقها لعقاب الرجال على حصولهم على النار التي سرقها بروميثيوس من الآلهة، قادها فضولها إلى فتح جرة انطلقت منها كل شرور العالم، بما في ذلك المرض والعمل الشاق. وفيما بعد حول الأدباء الجرة إلى صندوق لتصبح الصورة أقرب إلى الأذهان. وبعدها شاع استخدام تعبير «صندوق باندورا» للدلالة على أي شيء يؤدي فتحه إلى إطلاق شرور مخبوءة.

وصندوق باندورا الذي نتحدث عنه هنا ليس سوى كتابين، نعم كتابين، صدرا في وقت متقارب وأثارا العالم أجمع، شماله وجنوبه، وأعادا للأذهان - في أقبح تصوير - شرورا لا حدود لها ارتكبها المستعمرون الأوروبيون ضد الشعوب الأفريقية المسالمة. الكتاب الأول هو «شبح الملك ليوبولد **King Leopold's Ghost** لمؤلفه آدم هوشتشيلد، وصدر بالإنجليزية عن دار نشر **Macmilan**، والكتاب الثاني هو « اغتيال لومومبا **De Moord Op Lumumba** »، وصدر باللغة الهولندية.

والكتابان كابوسان حقيقيان أثارا غضبة واسعة في أفريقيا وأوروبا على السواء بعد أن فتحا جراحا عميقة أراد الجميع - ضحايا وجلادون - نسيانها. والحقيقة الكابوسية لهذين الكتابين تعود ليس فقط لكشفهما جهلنا الفظيع بما حل بالكونغو وأفريقيا والعالم الثالث على أيدي المستعمرين البيض «المتحضرين»، ولكن أيضا لأن عمق البربرية والبشاعة التي يفضحانها تلقي بظلالها على فكرة الحضارة ذاتها.

ونبدأ بكتاب «شبح الملك ليوبولد»، الذي يكشف أن الملك البلجيكي الشاب الماجن بز كل أقرانه في وحشيته تجاه «رعاياه» في المستعمرات. فما ارتكبه الأوروبيون من مجازر بحق الهنود الحمر، أو العبيد الأفارقة، كان سلوكا إنسانيا رحيما مقارنة بما فعله ليوبولد بسكان وادي نهر الكونغو. وقد كانت روايات الكتاب مفزعة إلى حد كان من الممكن أن يدفع المرء للشك في مدى دقتها لولا المكانة العلمية لمؤلفه وسمعته الأكاديمية الرفيعة. فمؤلف الكتاب آدم هوشتشيلد أكاديمي بارز في جامعة كاليفورنيا ومؤلف عدد كبير من الكتب المهمة وحاصل على جوائز مرموقة. وكتابه مليء بالحواشي والمصادر والمراجع على نحو يقطع بصحة المعلومات التي أوردها.

وكان الملك ليوبولد قد حكم بلجيكا طوال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. وقد نجح من خلال الانسلال والعلاقات العامة، واستغلال سذاجة زعماء ذلك الوقت، في فرض ملكيته

الخاصة (نعم ملكيته الخاصة) لوادي نهر الكونغو، وهي مساحة تعادل مساحة الولايات المتحدة شرق نهر المسيسيبي، أو ٦٠ ضعفا مساحة بلجيكا ذاتها، وكانت أكبر مساحة من الأرض امتلكها شخص واحد على مدى التاريخ. وكانت الكونغو في أواخر القرن التاسع عشر البلد الوحيد غير المستعمر في العالم الثالث.

ومن المفارقات الطريفة أن حجة ليوبولد للاستيلاء على الكونغو كانت حمايتها من تجار العبيد العرب! لكنه حولها في واقع الأمر إلى معسكر ضخم للعبيد، الذين عملوا جميعهم من أجل سيد واحد، هو الملك ليوبولد. ويبقى السؤال هو: هل كان العاهل البلجيكي مجرم حرب، وأول من ارتكب جرائم التطهير العرقي في التاريخ الحديث؟ وهل كانت إمبراطوريته الاستوائية ساحة لأكبر محرقة للبشر؟ فقد حكم ليوبولد الكونغو بالحديد والنار. ومن أجل جلب العاج أولا، ثم المطاط لاحقا، ارتكبت إدارته كل الفظائع التي يمكن أن يتخيلها عقل مريض ضد السكان، بما في ذلك ربط الإناث بالسلاسل كرهائن حتى ينتهي الرجال من تحقيق حصصهم الإنتاجية، وكان الرجال يجبرون على العمل تحت تهديد قطع أيديهم وأرجلهم، أو أيدي وأرجل أطفالهم. أما اغتصاب النساء والقتل والإعدامات وإحراق القرى بسكانها وقتل الأطفال بتركهم في العراء للشمس الأفريقية الكاوية فكانت ممارسات يومية وجدت أصداءها في رواية جوزيف كونراد الشهيرة «قلب الظلام».

الحقيقة أن تاريخ حكم ليوبولد للكونغو كان معروفا منذ زمن بعيد. وقد فضحت فظائعه إعلاميا على أيدي كتاب ومثقفين أمريكيين وبريطانيين في مطلع القرن العشرين (الأمر الذي دفعه في نهاية المطاف إلى التنازل عن ملكيته للكونغو إلى الحكومة البلجيكية مع بدايات القرن العشرين). لكن ما وقف بالفعل في حلق المؤرخين البلجيك كان زعم هوشتشيلد أن عشرة ملايين كنغولي قد قتلوا في هذه المحرقة المنسية، فسلطوا غضبهم على كل المؤرخين الأمريكيين والبريطانيين، زاعمين أنهم يحاولون، من خلال تسليط الضوء على فظائع البلجيك في الكونغو، تشتيت الانتباه عن مذابح الهنود الأمريكيين وحرب البوير الإنجليزية التي ارتكبت في الفترة نفسها تقريبا.

وفي الوقت الذي انهمك فيه العديد من المؤرخين البلجيك في التصدي لصفعة هوشتشيلد التاريخية، جاءتهم الصفعة الثانية. لكنها كانت هذه المرة صفعة مدوية. كتاب آخر، اعتمد في معظم مادته على مصادر بلجيكية، وعلى الوثائق السرية لوزارة الخارجية البلجيكية. والكتاب هو «اغتيال لومومبا». وقد وجه الاتهام لبلجيكا بسبب دورها المباشر في اغتيال باتريس لومومبا، أول رئيس وزراء للكونغو، وسيد شهداء حركة التحرر الوطني الأفريقية. وقد أثارت الاتهامات جدلا واسعا دفع



البرلمان البلجيكي إلى تشكيل لجنة تحقيق برلمانية للتحقيق في ملابسات الجريمة وتحديد مسؤولية بلجيكا عنها. ويقول جرت فرسنيك، النائب البرلماني الذي انتخب رئيسا للجنة التحقيق: «إن أمة تحترم ذاتها يجب ألا تخاف من الماضي، وأن تمتلك الشجاعة للتحقيق في الأخطاء المحتملة».

لكن اغتيال لومومبا، كما يبين الملف المنشور في هذا العدد، لم يكن مجرد «خطأ محتمل»، بل إحدى لحظات الذروة التي كشفت قبح النهب الاستعماري لأفريقيا، والآلام التي دفعتها القارة السمراء ثمنا لجشع المستعمرين ووحشيتهم. فقد بين الكتاب على نحو قاطع أن لومومبا تعرض للتعذيب في وجود ضباط بلجيك وفي فيلا يحرسها جنود بلجيك، قبل أن يطلق عليه الرصاص من قبل كتيبة إعدام يرأسها ضابط بلجيكي برتبة كابتن. وتمت إذابة جثته في الآسيد على يد ضابط شرطة بلجيكي اسمه جيرار سويت. ومن الأشياء المفزعة أن هذا الضابط «المتحضر»، ابن أوروبا «المتحضرة»، احتفظ بسنين من أسنان لومومبا كـ «تذكار».

إن القضية كلها تثير الغثيان. لكن هكذا يجب أن نقرأ التاريخ. فتاريخ العالم ليس ما يحاول بعض المؤرخين الغربيين إفهامنا إياه. لكنه تاريخ حافل بـ «الدموع»، والنار والدم حسب تعبيرات لومومبا نفسه، فالسيارات التي غزا بها الغرب العالم صنعت من أجساد الأفارقة الذين استعبدهم الاستعمار، والماس الذي يزين أعناق نسائهم كان ثمنه أعناق ملايين الأفارقة في الكونغو وجنوب أفريقيا، وحضارتهم كلها شيدت على عظام أبناء المستعمرات في آسيا وأفريقيا.

إننا لا نجتر الماضي المؤلم. لكننا نطالب بنوع من العدالة. فعلى القوى الاستعمارية السابقة أن تحاول اليوم التكفير عن أخطائها. وذلك لن يتأتى إلا من خلال شكل من أشكال التعويض، المالي والعلمي والفني. وإذا كانت ألمانيا قد دفعت لإسرائيل ٩٠ مليار دولار تعويضا عن أرواح اليهود الذين قتلوا في المحارق النازية، فكم سيدفع الغرب ثمنا لملايين الأرواح التي أزهقها في المستعمرات؟!

هكذا فقط يجب أن نقرأ التاريخ. وكما قال لومومبا: «التاريخ سيقول يوما كلمته، لكنه لن يكون التاريخ الذي يدرس في بروكسل، أو باريس، أو واشنطن بل سيكون التاريخ الذي سيدرس في بلدان متحررة».

محمد الرميحي

الكويت **1/9/2000**

الرأسمالية:

هل هي قابلة للإصلاح؟

بقلم: برنار ليفاسير (*)
ترجمة: حليم طوسون

منذ حوالي قرنين، ظل الفكر الاقتصادي محصورا في حدود نظام يقوم على نظريتين متضادتين، كلتاهما مخطئة: الليبرالية والاشتراكية. وقد تعرضت النظرية الثانية لتدهور مفاجئ نال من مصداقيتها، فخلت الساحة بذلك أمام الليبرالية. بيد أن ذلك كان أبعد من أن يصبح انتصارا لها، أو تجلت جوانب ضعفها وقصورها بقدر من الفجاجة يفوق ما كانت عليه من قبل، لأن تعاليم كل من النظريتين كانت تعتمد في خير حججها على أسوأ نقائص تعاليم النظرية المضادة.

---

* اقتصادي فرنسي.

العنوان الأصلي للمقال Le capita lisme est - il eformable. وظهر في مجلة Esprit الفصلية، العدد الأول للعام 2000.

يعتمد مذهب «دعه يعمل» الليبرالي على أن الفرد النشط اقتصاديا لا يخدم أبدا المصلحة العامة بشكل جيد إلا إذا سعى إلى تحقيق مصلحته الخاصة. وعليه فإن النظام التلقائي الذي تهيئه تلك التوليفة عن طريق السوق والمبادرات الفردية هو أحسن ما يمكن أن تقدم عليه السلطة السياسية، يتمثل في الامتناع عن الإخلال بذلك الوضع.

ولقيت في هذا الصدد «حكاية النحل»، وهي مؤلف لامع لطبيب إنجليزي من القرن الثامن عشر، مصيرا مدهشا حقا [1]. فهذه الحكاية المتميزة برشاقتها وروحها الفكهة تتماشى مع مزاج ذلك العصر بلوذعيتها ونفاذ بصيرتها. وقد طرحت أفكار ذلك المؤلف ببعض الشطط مما جعلها استفزازية ومدعاة للاستنكار إلى حد ما، بحيث غدت متماشية مع الرغبة في إمتاع القارئ دون أن يسيء ذلك لحقيقتها الموغلة في التعمق. فحسب الأطروحة الرئيسية في هذا الكتاب فإن الخصال والسلوكيات التي تستوعب اللوم على صعيد الفرد، ومنها التلهف على تحقيق المكسب، ونمط الحياة المسرفة في الإنفاق، تكون مصدرا للرفاهية العامة في الدولة وتشجع تقدم الفنون والعلوم. والواقع أن العنوان الفرعي للحكاية يوضح تماما المقصود منها، فهو يؤكد أن «الفضائل العامة تقوم على النقائص الفردية. فما أحلى أنه يستمع إذن الثري والمغامر إلى أن تقول له: «كن أنانيا ومسرفا في الإنفاق بقدر ما تستطيع من أجل متعتك، لأنك ستحقق بذلك خير ما يمكن أن تقوم به من أجل ازدهار الأمة وسعادة مواطنيك»».

وقد استعاد آدم سميث فكرة برنار مندفيل وطورها بمزيد من التوسع سواء في مؤلفه الرئيسي «طبيعة ثروة الأمم وأسبابها»، وفي مؤلفه السابق «نظرية المشاعر الأخلاقية». غير أن آدم سميث أقل لجوءا إلى الطرافة بالمقارنة مع ماندفيل. فقد كتب مؤلفا ضخما تتجاور فيه الأطروحات النظرية مع الأمثلة الملموسة.. كما أن تحليله الاقتصادي أعمق مما هو لدى ماندفيل.. غير أن الجانب المهم بالنسبة لنا يتمثل في أنه يستعيد لحسابه الأطروحة الرئيسية الواردة في «حكاية النحل» ويطورها. ولكنه يحد من طابعها الاستفزازي ويؤكد بقدر من سلامة الطوية بالمقارنة مع طبيبنا اللماح، ويتضح لنا ذلك من خلال تدخل اليد الخفية للعناية الإلهية في تلك التركيبة الموفقة بين مختلف ضروب الأنانية. وعلى أي حال فإن الأجيال اللاحقة ستعتبر آدم سميث أبا التعاليم الليبرالية الاقتصادية، وتفضله على تعاليم الطبيب ماندفيل المستنكرة.

ويرجع كانط بصريح العبارة إلى ماندفيل في مؤلفه «نقد الفكر العملي»، ويضع في اعتباره هو أيضا أطروحة «حكاية النحل» ويجد فيها قصدا إلهيا مثل سميث. وهناك نص له عنوانه: «فكرة بخصوص تاريخ العالم» [2]. جاء فيه أن البشر عندما ينشغلون بمصالحهم فإنهم يعملون دون أن يدروا أنهم يحققون النوايا الطيبة للطبيعة، وإن كانت خفية بالنسبة لجنسنا. ويتوسع كانط في تلك الأطروحة التي تتجاوز الاقتصاد إلى حد كبير [3]، وإن كان موقفه يوضح مدى عمق تغلغل هذه النظرة للأمور طوال القرن الثامن عشر. بيد أن هذه النظرة ظلت سارية فقط في مجال الاقتصاد، مع بعض التحولات التي طرأت عليها.

كان يتعين على علم الاقتصاد الحديث أن يدعم نظرية آدم سميث، وقد عرف كيف يمكنه التوصل إلى ذلك بأن أحلّ «مكر العقل» [4] محل

اليد الخفية. وقد لجأ الاقتصاد الحديث إلى الرياضيات رفيعة المستوى، وبشروط غير واقعية إلى حد كبير، لكي يثبت أن كل اقتصاد سوق يميل إلى تحقيق توازن وأن ذلك التوازن يكون الأمثل. وتعني صيغة التفضيل هذه بالنسبة لأي فرد أن ذلك الوضع أفضل من أي وضع آخر ممكن. ولكن كيف يكون بوسع رجال الاقتصاد أن يعلنوا أنهم قادرون (بشكل موضوعي وعلمي) على الحكم بأن وضعا ما أفضل من وضع آخر، بينما تمس المسألة المستوى العام، ثم توزيع العمل والدخول والاستهلاك بين المواطنين؟ وببساطة تامة فإن كلمة الأفضل تعني المقارنة بين «حالتين من حالات الاقتصاد». فالوضع (أ) أفضل من الوضع (ب) إذا كان فرد ما يستطيع أن ينعم على الأقل في الوضع (أ) بقدر من الاستهلاك أكبر مما يمكن أن يحققه في الوضع (ب)، دون أن يخفض من استهلاك فرد آخر. وتبدو هذه «اللقُية» التي تعود كما هو معروف إلى پاريتو (1848-1923، وهو مهندس إيطالي أصلا اتجه إلى الاقتصاد السياسي محاولا جعله علما موضوعيا، بصياغة نظرية الأمثل اقتصاديا مع تأكيده على طابعه النسبي في ظل نظام المنافسة الحرة)، أنها لا تقبل المنازعة وغير كافية إلى حد كبير نظرا للموضوع الخاص بها. وهي تستدعي إخضاعها للمناقشة والنقد. وقد صادفت نجاحا هائلا في عالم الاقتصاد لما قامت به من دور مهم للغاية بالنسبة لهم، إذ إنها أتاحت للاقتصاد فرصة الادعاء بأنه علم مستقل ذاتيا.

وبوسعنا أن نطرح على أنفسنا سؤالين: هل يقدم لنا النموذج الليبرالي وصفا صحيحا لحال الاقتصاد نتيجة لتماشيه مع آليات السوق مع كل التحسينات التي أدخلت عليه مع مرور الزمن؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يمكننا القبول بأن الأمثل يشكل عند پاريتو الأمثل الاجتماعي؟

وللإجابة على السؤال الأول، فإن افتقاد الافتراضات الضرورية لإثبات صحة هذا البرهان تعوزه الواقعية، وتلك حجة سهلة. وقد أوضح فريدمان [5] (من مواليد العام 1912) أنه يتعين ألا ندين أي نموذج من دون فحصه لمجرد تلك الحجة الوحيدة. فعلى سبيل المثال فإن بطل بلياردو معينا يتميز أساسا بمهارته وقدرته على التركيز ورغبته في الانتصار. على أن خير أداة للتنبؤ بضرباته يخضع لقوانين الفيزياء الديناميكية الخاصة بالأجسام الصلبة، والتي تعتمد على معادلات ربما لا يدري اللاعب شيئا عنها. وأيا كان النقد الذي يمكن أن يوجه إلى النموذج الليبرالي الحديث فهو يتيح إمكان فهم وتحليل بعض الآليات المؤثرة في اقتصاد السوق. ولا يحول ذلك دون أن نلاحظ أن قدرة هذا النموذج على التنبؤ بالوضع الحقيقي للسوق على اقتصاد معين، محدودة للغاية. ويعرف الاقتصاديون فعلا أن هناك مجموعة كبيرة من الظروف الواقعية، وبعضها في غاية الأهمية وكثيرة الحدوث، تدعوا إلى الاعتقاد بأن الواقع كثيرا ما يكون بعيدا عن التوازن النظري: فهناك تصلبات وعتامات، وتكلفة الحصول على المعلومات، والمضاربة، والمردودات المتنافية، والعوامل الخارجية، وتواجد أملاك عامة.

وإذا كان الجواب على السؤال الأول بالنفي، فإن السؤال الثاني يفقد أهميته من خلال مناقشة قيمة وحدود الأمثل وفقا لپاريتو. ومع ذلك فهو لم يحل دون أن يحظى باحترام فرع العلم الاقتصادي الحريص على إثبات أن هناك توازنا عاما له سمعة ذلك الأمثل المزعوم. فقد حصل على هذا الأساس چيرار دوبروه (من مواليد 1921) الفرنسي الأصل والذي اكتسب الجنسية الأمريكية (في 1975)، على جـائزة

نوبل. ومع أن أحدا لم يعترض بشكل جاد على جوانب الضعف في النموذج الذي قدمه قد لقي قبولا بوجه عام نظرا لأنه يدعم النظرية الليبرالية. ويبدو أن ذلك هو السبب الحقيقي الكافي وراء نجاح هذا النموذج. إذا إنه يحافظ على مبرر تلك النظرية المستحبة والشديدة الأهمية لتحقيق التكريس الذاتي لنموذج المجتمع الغربي، الذي راح يسلك سبيله نحو فرض نفسه على العالم بأسره. فالعجز عن جعل ما يكون مفيدا اجتماعيا في كل الأحوال دفعهم إلى جعل الربح معيارا للمنفعة الاجتماعية.

أما المفكر العظيم فردريش هايك (-1992 1899والذي حصل على جائزة ن وبل في العام 1972مناصفة مع جونار ميردال)، فقد عرض دفاعا عن ليبرالية «دعه يعمل» بالاعتماد على برهنة مختلفة تماما [6]. فقد استبعد تماما نظرية الأمثل الرياضية واقترح تفكيرا رحبا وقوي البنية يتضمن العديد من التوسعات والحجج المقنعة إلى حد كبير.

وهو ينوه بالأخص بأن المجتمعات البشرية، بما في ذلك مجتمعنا، تتوافق مع العالم الذي نعيش فيه دون أن يدرك أفرادها مدى تعقد الظواهر الشديدة التنوع التي تسهم في ذلك التكيف. وتقوم قواعد السلوك التي يحترمها المجتمع بدور أساسي، وإن كان ذلك يبرهن على صحة الحجج التي تبررها.

فتعقد الظواهر العديدة ، وكم المعلومات التي يتعين جمعها، والربط بينها من الضخامة بحيث لا يمكن التأكد من دون المجازفة بالوقوع في الخطأ، بأن كل محاولات التفسير مآلها الفشل. وهذا ما يضفي من جهة أخرى على القواعد الموروثة قيمتها والمبرر الحقيقي الذي يدفعنا إلى احترامها، إذ إنها تجسد خبرة جد ثمينة لا يمكن التوصل إليها بطريقة أخرى.

وتقدم ظاهرة السوق مثالا مهما على تلك الطريقة للنظر في الأمر: إنها «نظام تلقائي» بمعنى أنه قائم دون أن يكون أبداً ثمرة قرار اتخذه أي شخص. وإذا تم احترام قواعد الاستخدام التي أوجدها هذا النظام، فإن كل عنصر فاعل يسعى إلى تحقيق ربحه الخاص انطلاقا من المعلومات المباشرة المتوافرة لديه والأسعار التي يلاحظها، سيختار النشاط الخلاق الذي يولد القيمة، وسيسهم بذلك في رفاهية أناس لا يعرفهم ولا يفكر فيهم. ولا تستطيع أي بديهة إنسانية أو سلطة تخطيطية، أيا كان مدى تقدمها أن توفر لنفسها ما يكفي من معلومات حول إمكانات وتطلعات كل فرد لتوجيه نشاطات كل العناصر الفاعلة وتوفير ما يمكن أن يستهلكه كل فرد، وكذلك مدى كفاءة مجموع كل القرارات الفردية التي يتم اتخاذها في السوق.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الأسلوب في عرض المسائل لا يتوافق مع نظرية الأمثل الرياضية. فهناك تعارض حاسم، ما دامت مُحاجة (برهنة) هايك تعتمد على استحالة أن يعرف أي شخص كل شيء، وعلى اختلاف المعلومات لدى العناصر الفاعلة تفترض المنافسة الكاملة توافر معلومات شاملة ومماثلة لدى كل العناصر الفاعلة. ووفقا للمنطق السليم فإننا نجد أنفسنا أمام نظريتين متناقضتين في خطابهما، ولكنهما تسفران عن الاستنتاج نفسه، ولا تساند كل منهما النظرية الأخرى، بل على العكس من ذلك يجب أن يكون تواجدهما المشترك مدعاة للتشكك في استنتاجها المشترك، وإلى التساؤل عما إذا كان الاستنتاج هو الذي أرشد المنظرين، إما عن طريق اختيار بعضهم لافتراضاتهم، وإما عن طريق لجوء البعض الآخر إلى تستيف حججهم. ولكن عندما

يتعلق الأمر بالأيديولوجية الاجتماعية لا يكون كل شيء متماشيا مع المنطق السليم. فقد حصل هايك هو أيضا على جائزة نوبل في الاقتصاد السياسي (في العام 1974) قبل دوبروه بسنوات عدة (1983). وهكذا عززت مرتين الأطروحة الليبرالية التي تحول الرذائل الفردية إلى فضائل عامة.

وسرعان ما أثارت أطروحة «دعه يعمل» الليبرالية اعتراضات حامية. فمصير البرولتاريين البائس وظروف العمل اللاإنسانية التي عانوا منها في بدايات الثورة الصناعية، كانت مدعاة بسخط ذوي الضمائر الحية. وعبرت مختلف التيارات الاشتراكية عن تطلعها إلى تغيير المجتمع، وسرعان ما هيمنت عليها الماركسية. وجاهرت الاشتراكية أساسا بأن إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج هو أفضل وسيلة لتغير المجتمع وأحوال البشر تماما في اتجاه مناسب أساسا. وفيما عدا ذلك فإن الاشتراكية لا تعني شيئا سوى ذلك التطلع الجذاب إلى المزيد من العدالة الاجتماعية.

وبوسعنا أن نعتبر أن أهم إسهام لماركس لا يتعلق بالاقتصاد ولكن بالسوسيولوجيا [7]. فقد حلل بتعمق تأثير علاقات الإنتاج والتبادل في العلاقات الاجتماعية عموما، وفي الأفكار والتنظيم السياسي. وصاغ بذلك نقدا لايزال محتفظا بطابعه المعاصر، وذلك بخصوص الآثار السيئة أحيانا لاقتصاد السوق في الحياة الاجتماعية عموما. ولكنه اعتقد للأسف أنه اكتشف، من خلال رؤية طموحة، قانون تطور المجتمعات البشرية. فالتاريخ بوصفه التجسيد المادي لمصير الإنسان - البديل لليد الخفية - يوفر في رأيه الضمان العلمي لنجاح الاشتراكية. وعليه، فليست هناك حاجة إلى التفكير في الظروف الملموسة لإمكان إقامة مجتمع اشتراكي: فالبرولتاريا المسلحة بالحقيقة بحكم طبيعتها، ستحل بالضرورة وعلى خير وجه المصاعب عند ظهورها.

وقد كشفت محاولات بناء مجتمعات اشتراكية مستوحاة من تلك الفلسفة عن كوارث. فالقضية الأولى التي تطرحها الاشتراكية هي معرفة من الذي سيمارس عمليا السلطة باسم الشعب، وبالأخص السلطة المتحكمة في جهاز الإنتاج. وكانت الإجابة الوحيدة التي عثر عليها مؤسسو «الاشتراكية الحقيقية» هي إقامة بنية تكنوقراطية، بيروقراطية واسعة النفوذ سرعان ما أصبحت مستبدة، ولم تكن تتوافر لديها حتى الأدوات النظرية ألتي تقرر شروط الإدارة الاشتراكية السديدة للاقتصاد. غير أن الكثيرين لم يحاولوا تبني تلك العيوب الخطيرة طوال سنوات عدة، معتبرين أن سلامة المقترحات الماركسية تأكدت بما فيه الكفاية من خلال صحة الانتقادات الموجهة إلى المجتمع السوقي الليبرالي، وإغراءات الآفاق الوردية.

كان يتعين أن نعرف منذ أمد طويل أنه لا يكفي أن تحدث مواجهة بين أطروحتين لكي تكون إحداهما صحيحة. ومع ذلك فقد انسقنا وضللنا الطريق منذ حوالي قرنين من خلال التعارض بين أطروحتين كلتاهما باطلتان. غير أن شدة التعارض بينهما بلغ حدا لم يترك المجال لأي نقد داخلي لدى كلا الطرفي. وقد آن الأوان لإعادة النظر في ذلك.

وإذا كان الحديث يدور الآن حول فكر أوحد، فإن هذا الوضع يعود إلى أنه يبدو حاليا أن أحد المعسكرين قد لحق به الوهن بنوع خاص. ومن المؤسف أننا لم نعرف كيف نستفيد من ذلك الظرف الاستثنائي لكي نتجاوز حقا التعارض القديم، مما يتطلب بذل جهود مكثفة تتيح فرص إعادة النظر في أسس كلتا

الأطروحتين حتى نتوصل إلى تجاوز حقيقي. ولم يعد الوقت ملائما لترقيع الاشتراكية الكلاسيكية، ولا للبحث عن تسوية مشكوك في أمرها، من النوع المسمى «الاقتصاد المختلط». وهناك فكرتان يبدو أنهما أساسيتان لإعادة صياغة الفكر حول الحقائق الاقتصادية الأكثر واقعية.

الاقتصاد باعتباره مؤسسة ذاتية متَخيلة

تندرج الوقائع الاقتصادية في إطار مجموعة من العناصر المتجانسة القائمة على أساس اجتماعي ــ تاريخي (8). وقد فرضت نفسها بالطبع الدراسات التي تقاسمت مجموعة تلك العناصر المتجانسة. وتشارك التقاطعات في التأسيس الذاتي المتخيل. ومن هنا يقيم الفكر الموروث حدودا مصطنعة لتفكيرنا كثيرا ما تحجب الضوء عن أنظارنا. ولا يعني ذلك أن كل مضمون خاطئ ويعوزه الارتباط بالموضوع، كما أنه لا يعني بالأحرى الاكتفاء بالتخلص من هذا المضمون لكن نلاحظ بكل وضوح عالما بسيطا، ومنيرا، وعامرا بإمكانات غابت عن بالنا من قبل. وعلى النقيض من ذلك فإن الفكر المجرد من العكاز المبسط للأمور الذي اعتمد عليه يجد نفسه في مواجهة عالم أكثر تعقيدا وأصعب فهما... ويجب ألا يدفعنا ذلك إلى التوقف، لأننا نعرف منذ سقراط أن تحمل الجهل خير من المعرفة الباطلة.

ولو التزم علم الاقتصاد بإعادة النظر التي تستدعيها تلك النظرة للأمور لحقق لنفسه تحولا عميقا. ويتعين على هذا العلم أن يعترف بأن وجوده لا يمكن أن يكون منفصلاً عن الظروف التاريخية التي نشأ فيها، وأن دوره الأيديولوجي هو الذي يكسبه الاستقلالية والقيمة اللتين ينسبهما المجتمع إلى هذا العلم.

ومن خلال انطلاقة عارمة، يتعين على التاريخ أن يحللها، استبد بأوروبا عصر التنوير، الوريث لديكارت ونيوتن، التطلع المحموم إلى صنع كل المنتجات المادية التي أتاح العلم التجريبي الوليد إمكان توقعها، ويُذكرنا ذلك «بمعركة البذخ» التي خاضها المثقفون الأوروبيون في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأثارت الخواطر. ونادرا ما كان مصطلح «حوار المجتمع» مناسبا للواقع بهذا القدر. وانتهت المعركة بانتصار النظرية الليبرالية. ومن منطلق تلك الأخلاقيات الجديدة، أضحى بوسع رب العمل، بطل الأزمنة الحديثة، إنتاج كل ما تتيحه التقنية. وكان مجرد تحقيق الربح كافيا في حد ذاته لإثبات أن ما يقدم عليه عمل مفيد (9). ومنذ ذلك العهد نجحت النظرية الليبرالية الكلاسيكية، التي أثرتها العديد من التطورات، في كسب الاعتراف بها وتأكيد قيمتها الاجتماعية. ولا يعود ذلك إلى سلامة مضمونها وقيمته، ولكن إلى محتواها. فهي تمجد انفتاح المجال الاقتصادي المشترك من خلال المبادرات الفردية، وتنكر فضلا عن ذلك أهلية الدولة والقانون في أن يفرضا عليها قيودا باسم المصلحة العامة. وعلى أساس ذلك الدور الأيديولوجي الجوهري، لم يلق عدد محدود من النظريات الخاطئة مثل هذا الرواج وسط المفكرين البارزين، وذلك لأمد طويل. ولا تخطئ أي مدرسة أخرى بالقبول من جانب مجتمعاتنا كمدرسة علمية لها اجتهادات مهمة، لا لاكتشافها قوانين جديدة بالتجربة، ولكن لتقديمها تأكيدات نظرية لاستنتاج سبق تقرره من قبل.

وتتطلب المرحلة التاريخية التي نجتازها اليوم المراجعة الكاملة لهذا الشكل من التأسيس الذاتي المتخيل للمجتمع الحديث. ففي عصر العولمة حيث تتفاقم خطورة مشاكل البيئة، ويهدد تزايد عدد السكان العديد من مناطق العالم، لم يعد النموذج

الاقتصادي المنتصر حاليا، مقبولا. لقد وجهتنا اليد الخفية لآليات السوق نحو نوع من التطور لا تيماشى مع ما يرجوه الجميع أو يتظاهرون بأنهم يسعون إليه، ألا وهو أن يمتد مستوى المعيشة الذي ينعم أصحاب أكبر قدر من الثراء، ليشمل سكان العالم أجمعين. وقد جاء في تقرير لإحدى وكالات الأمم المتحدة: (10)

«يستهلك كل فرد في البلدان المتقدمة قدرا من الموارد يعادل ما يتراوح بين ٢٠ و٣٠ مثل ما يستهلكه الفرد في البلدان النامية: ومع ذلك يصعب تصور كيف يمكن أن ينبني الاستهلاك العالمي للموارد على هذا الأساس».

لم يقدم المجتمع الدولي على تصور للتنمية الدائمة والاعتراف بضرورته. ولايزال يتعين عليه الإقرار بأن أيديولوجيته في المجال الاقتصادي لا تتفق أساسا مع ذلك التصور.

سوق خالية من فضائل اليد الخفية

بما أننا نتحرك في إطار اقتصاد قائم على التخصص والتبادل فإن تنظيم حصص الموارد بفاعلية يكون عسيرا لو لم يتم اللجوء إلى السوق، بمعنى توفير مجال منظم تتم فيه المبادلات والمساومة على الأسعار. فلكي تعمل السوق على نحو جيد، يتعين أن تكون هناك سلطة تسهر على أن يحترم من يتعاملون في إطارها عددا من القواعد العامة للسلوك. وفيما عدا ذلك يكون كل عنصر فاعل حرا في تصرفه وفقا لأهدافه الخاصة مع أخذه في الاعتبار المعلومات المتوافرة لديه. ويحقق التفاوض الحر على الأسعار الربط في زمن محدد بين مجموع المعلومات المتاحة، علما بأن أحدا لا يمكن أن يكون على علم بتلك المعلومات بالكامل. وهكذا ينجز نظام السوق بشكل متواصل عمليات الاختيار والتوزيع دون أن يكون بمستطاع أي إرادة تنظيم أن تتكفل بذلك بمثل هذه السرعة وبتكلفة أقل. ولا يمكن تصور التحكم الدقيق في الإنتاج والاستهلاك بطريقة أخرى.

وبوسعنا أن نضيف أن المنافسة بين المنشآت تكون بصفة عامة وسيلة فعالة إلى حد كبير لاختيار خير عمليات التنظيم، والجمع بين عوامل تسمح بالحصول على منتج معين بأقل تكلفة.

وقد ثبت كل ذلك من خلال المصاعب العملية التي واجهها التخطيط الاشتراكي. فالمنتجات المخططة لا تتفق مع احتياجات المجتمع وتوقعاته، كما أن تقنيات الإنتاج المستخدمة تؤدي إلى عمليات تبديد هائلة. ولم تتوافر أبدا لدى رجال الاقتصاد السوفييت دراسة متكاملة أو طريقة فعالة، لتحديد أسعار عشرات الملايين من السلع والمنتجات التي يتم تداولها يوميا في ظل اقتصاد حديث. وقد نجمت عن ذلك تنافرات وتكاليف إنتاج مرتفعة. ومن ألمع رجال الاقتصاد ليونيد كانتوروفيتش (1912- 1986) (11)، الذي اقترح طريقة لحساب «تغييرات محدودة بطريقة موضوعية» ونادى باستخدامها لتحديد حصص الموارد المطلوبة، وهو ما يشبه إلى حد ما نموذج المحاكى (simvlator) لتحديد الأسعار في سوق تكون المنافسة فيها كاملة.

ومع ذلك لم تصحح تلك الملاحظات ما قيل آنفا. فلا غنى عن السوق، بمعنى أن التكلفة الاجتماعية لإلغاء دورها تكون باهظة، على رغم أن السوق لا تؤدي إلى تحقيق خير المجتمعات الممكنة بفضل «اليد الخفية».

وتمارس الأسواق المالية حاليا دكتاتورية حقيقية غير اسمية على سياسة المنشآت الكبرى والدول، اعتمادا على تحليلات سطحية ومتقلبة،

وبالتالي خاطئة بصفة عامة، وإن كان لا مفر منها. والسياسة التي تدبر بحكمة على المدى البعيد، ولا تفهمها «الأسواق» سياسة محكوم عليها بالفشل قبل أن يتحقق مفعولها. وينجم عن ذلك تراجع حقيقي يجعل من المحال تقريبا التوصل إلى سياسة اقتصادية رشيدة في المدى البعيد (12). ويتعذر الدفاع عن فكرة سلامة التوجهات المترتبة على آليات السوق وحدها.

ويتمثل التحدي الذي يتعين على مدرسة اقتصادية ما متحررة من النزاع القائم بين الليبرالية والاشتراكية، في اقتراح أساليب تدخل لا تترك المستقبل الاجتماعي في قبضة آليات السوق العمياء، وتستخدم خصائص تلك الأسواق التي لا غنى عنها للتوصل إلى إدارة فعالة للاقتصاد، ولكن من خلال النجاح في توجيه النشاطات نحو الأمثل الاجتماعي من الخارج. فالاقتصاد الذي يزعم أنه علم مستقل ذاتيا قادر على ارشاد البشرية نحو أقصى قدر ممكن من الرفاهية المادية يتجاوز في الواقع إمكاناته الحقيقية.

إعادة النظر في علاقات الاقتصاد بالسياسة

يعالج الاقتصاد نشاطاتنا المشتركة في الإنتاج بين مختلف العناصر المشاركة في الحياة الاقتصادية أي بين جميع المواطنين في نهاية المطاف. وتلك قضايا سياسية تماما. ويتضح من المبدأين الواردين أعلاه أن إعادة فحص العلاقات الملموسة بين الاقتصاد والسياسة، مع التأكيد على أولويات السياسة على الاقتصاد.

والفكرة القائلة بأن الاقتصاد علم دقيق، مستقل ذاتيا وقادر على أن يقدم من تلقاء نفسه تعريفا للأمثل ووسائل تحقيقه، تجعلنا في وضع تصبح فيه السياسة الوحيدة الممكنة تابعة لمفهوم أوحد. وعندئذ تتمثل المناقشات الجديرة بالاهتمام في تلك التي تجرى بين علماء الإحصاء نظرا لأن علم الاقتصاد ليس علما ناجزا. وإذا اعتبرنا علم الاقتصاد موضوع دراسة له حدود مقررة بشكل اعتباطي يحاول تحليل الوقائع من اختصاصه بوسائل تقريبية، فإن الهدف منه ينحصر في تقديم العناصر التي توضح الأفكار والاختيارات السياسية.

ويؤكد هايك أننا لن نتمكن، بأي حال من الأحوال، من تحسين ما تقرره السوق بشكل تلقائي. وأيا كان هجومه على ما يسميه البنائية، بمعنى أن هذا التعبير يقصد به كل الحالات التي تدفع البشر، بالتخمين والعجرفة الفكرية، إلى الاعتقاد بأنهم يتحكمون تماما في المجال الاجتماعي - التاريخي، ويستطيعون التنبؤ بدقة بجميع عواقب تصرفاتهم لأنهم توصلوا إلى تقنية فعالة في قطاع محدود. ومع ذلك يعلن هايك بخصوص تلك النقطة، دون أن يقدم البرهان على ذلك، لأنه يستخلص من حجج قوية، استنتاجا يتجاوز الحدود. فإذا كانت السوق واقعا لا مفر منه إلا أنه يحق لنا أن نتصور الاتجاه الذي تسوقنا إليه، وأن يكون بوسعنا السعي إلى تصحيح مسارها.

وبوسعنا أن نواجه يقينية هايك الليبرالية باقتراحات مفكر آخر كبير قريب إليه إلى حد كبير، الا وهو كارل پوپر (13) الذي يدعو إلى تدخل حذر. وهو يبدأ بالاعتراف بأن المجال الاجتماعي معقد إلى حد يجعل الادعاء بفهمه والتحكم فيه بالكامل ضربا من الجنون. وهو يقترح مذهبا فحواه «احتمال الخطأ»، يتضمن أننا نخاطر كلما نقدم على شيء، وبأن نحصل على نتائج مختلفة عن تلك التي كنا نرجوها. غير أننا نستطيع أن نعقل ونستخلص دروسا بالتجربة. وعليه يمكننا أن نتدخل ونعدل مسار

الهوامش

(1) برنار ماندڤيل، حكاية النحل، باريس، الناشر ج. ڤرين، 1990.

(2) إيمانويل كانط: «فكرة عن تاريخ الكون» ، الأعمال الفلسفية2، باريس، الناشر جاليمار، 1985.

(3) المرجع السابق «أسس ميتافيزيقيا الأخلاق، الأعمال الفلسفية، باريس، الناشر جاليمار، 1985.

(4) يعبر هذا التعبير تماما عن التغيرات التي طرأت على النظرية الحديثة. غير أنه قد يبدو غير مناسب لكونه يشير إلى فلسفة التاريخ عند هيجل. فمكر العقل يرمي عنده إلى توصل الفكر إلى مفهومه الخاص، ولا يبالي بالإنتاج المادي وتوزيعه.

(5) ميلتون فريدمان، دراسات في الاقتصاد الوضعي، باريس، الناشر لينك، 1995.

(6) فردريش هايك، القانون والتشريع والحرية، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، المجلد الأول 1980، والثاني 1981 والثالث 1983.

(7) كارل ماركس، الأعمال، المجلد الأول، باريس، الناشر جاليمار، 1963.

(8) الأطروحات الواردة باختصار في هذه الفقرة، والمفاهيم التي تعبر عنها مستعارة بالكامل من كورنيليوس كاستورياديس. انظر: التأسيس المتخيل للمجتمع، باريس، الناشر سوى، 1975، وأيضا ملتقى طرق المتاهة، للناشر نفسه 1978 للمجلد الأول، و1986 للمجلد الثاني و1990 للمجلد الثالث و1996 للمجلد الرابع.

(9) هناك تطور تاريخي متكامل بشكل أكبر، راح يثبت في الوقت نفسه نظرية أخرى تدعى الاستناد إلى العلم، وإن كانت لا تقوم هي أيضا على أساس سليم، لتبرر «الجسارة» التقنية الأشد قبحا لتجردها من الأحاسيس الإنسانية.

(10) وكالة الأمم المتحدة للسكان، حالة سكان العالم، نيويورك، 1994.

(11) ليونيد كانتوروڤيتش: الحساب الاقتصادي واستخدام الموارد، باريس، الناشر: دوند 1962 (ومثال ذلك أنه عندما اقترح على الجوسبلات ـ الهيئة المكلفة بوضع التخطيط الشامل للإنتاج ـ إصلاحا لنظام الأسعار أبلغ أن هذا الإصلاح ليس ضروريا. وعندما طبق منهجه في مؤسسة لتصنيع عربات السكك الحديدية انخفض الهالك بنسبة 50%، مما خفض ما يتم توريده من مصانع الصلب وعرضه لخطر اتهامه بتخريب هذه الصناعة. ولم يفلت من ذلك الاتهام إلا بفضل مساندة الجيش له الذي استفاد من أعماله لصنع المزيد من الدبابات والألغام، لمقاومة الغزو في الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد حصل على جائزة ستالين في الرياضيات في العام 1949، وعلى جائزة نوبل للعلوم الاقتصادية في عام 1975 مناصفة مع العالم الهولندي كويمانز تجالينج).

(12) انظر فردريك لوردون «معضلات السياسة الاقتصادية في عصر الأسواق المالية، مجلة Annales (الحوليات) يناير ـ فبراير 1997.

(13) كارل پوپر، المجتمع المنفتح وأعداؤه، مجلدان، باريس، الناشر سوى 1979.

(14) التدخلات العدة من جانب الدولة في إدارة الاقتصاد السوقي، والتي مورست من قبل ولاتزال تمارس حتى الآن في العديد من البلدان تشكل، في مجال دراسة يتعين إعطاؤه العناية اللازمة. والواقع أن عدم تزويدها إلا بقدر ضئيل من التحليلات النظرية يعود بلا شك إلى هيمنة الأيديولوجية الليبرالية.

نزال بين توجهات العولمة (*)

مناظرة بين توماس ل. فريدمان (**) وإيجناسيو رامونيه (***)

معركة رأس المال

إذا كان هناك قانون يفرض قيودا على الجرائم، فلابد من وجود قانون يفرض قيودا على كليشيهات السياسة الخارجية وشعاراتها الرنانة. وبوضع ما سبق بعين الاعتبار، فإنني أعلن هنا انتهاء «عالم ما بعد الحرب الباردة».

بقلم: باول أ. كونتر

ترجمة: شهرت العالم



• دبلوماسية الماضي: رئيس الوزراء السوفييتي نيكتيا خروشوف ونائب الرئيس الأمريكي رتشارد نكسون يتجادلان حول مزايا الرأسمالية في «حوار المطبخ» عام 1959.



• رئيس ميكروسوفت بيل جيتس يعطي نائب رئيس الوزراء الروسي أناتولي تشوبايس درسا في الاقتصاد الجديد في موسكو عام 1997.

العنوان الأصلي للمقال: Dueling Globalizations، وقد ظهر في مجلة: Foreign Policy، عدد خريف ١٩٩٩.

* نشر هذا المقال في مجلة Foreign Policy - خريف ١٩٩٩.

** توماس. ل. فريدمان: كاتب في مجال الشؤون الخارجية بمجلة New York Times ومؤلف كتاب:
The Lexus and the Olive Tree (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1999).

*** إيجناسيوراموني: محرر بجريدة Le Monde Diplomatique.

لقد كنا نتحدث، على مدار السنوات العشر السابقة، عن «عالم ما بعد الحرب الباردة». أي أننا قمنا بتعريف العالم بما لم يكُنه، إذ إننا لم نكن نعرف ماذا كان. ولكن نظاما دوليا جديدا قد حل الآن بوضوح محل الحرب الباردة: إنه نظام العولمة. هذا صحيح، إنه نظام العولمة - أي التكامل بين الأسواق، والتمويل، وتطور التكنولوجيا على نحو يقلص العالم من حجمه المتوسط إلى الحجم الصغير، مما يجعل كلا منا قادرا على الوصول إلى مواقع أبعد حول العالم، بل وأسرع وبتكلفة أرخص عما كان عليه الحال من قبل. إن العولمة لا تمثل توجها اقتصاديا فحسب، كما لا تمثل مجرد بدعة جديدة. ومثلها مثل جميع النُظم الدولية السابقة، تقوم العولمة، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، بتشكيل السياسات الداخلية والاقتصادية، فضلا عن العلاقات الخارجية لجميع البلدان عمليا.

إن الحرب الباردة، كنظام دولي، تمتلك بنية خاصة للقوة: التوازن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتي، بما في ذلك حلفاء كل منهما. وقد كان للحرب الباردة قوانينها الخاصة: ففي مجال الشؤون الخارجية، لم يكن بمقدور أي من القوتين العظميين التعدي على المجال الأساسي لنفوذ القوة الأخرى؛ بينما في المجال الاقتصادي، كانت البلدان المتخلفة تركز على تنمية صناعاتها الوطنية، والبلدان النامية على النمو القائم على الصادرات، والبلدان الشيوعية على سياسة الاكتفاء الذاتي، في حين كانت الاقتصادات الغربية تركز على التجارة المُنظمة. كما كان لدى الحرب الباردة أفكارها المهيمنة: الصدام بين الشيوعية والرأسمالية، علاوة على الانفراج في العلاقات الدولية، وعدم الانحياز، والبيرسترويكا (إعادة البناء). كما امتلكت الحرب الباردة أيضا توجهات ديموغرافية: كانت حركة الناس من الشرق إلى الغرب تعاني من الجمود إلى حد كبير نتيجة للستار الحديدي؛ في حين كانت الحركة من الجنوب للشمال متدفقة على نحو أكثر انتظاما. وامتلكت الحرب الباردة أيضا تكنولوجيات مُحددة لها: سيطرة الأسلحة النووية والثورة الصناعية الثانية، ولكن المطرقة والمنجل كانتا ماتزالان أداتين مناسبتين. وأخيرا، كان للحرب الباردة قلق خاص بها: إنه التدمير النووي. وإذا ما أخذنا هذه الأمور مجتمعة، يمكن القول إن نظام الحرب الباردة لم يقم بتشكيل كل شيء، وإنما صاغ الكثير من الأشياء.

أما نظام العولمة في يومنا هذا، فيمتلك صفات وقواعد وبواعث وسمات مختلفة تماما، ولكن نفوذه مؤثر بالقدر نفسه. لقد كان نظام الحرب الباردة يتسم بملمح واحد رئيسي: التقسيم. فلقد تم تقسيم العالم، وكانت التهديدات والفرص تميل إلى النمو من الجانب الذي تم الانقسام عنه. ويمكن، على نحو مناسب، وضع نظام الحرب الباردة بشكل رمزي في صورة واحدة: السور. ولنظام العولمة سمة واحدة رئيسية أيضا: التكامل. فالتهديدات والفرص أمام أي بلد اليوم، إنما تنمو على نحو متزايد من الجانب المرتبط به هذا البلد. ويمكن الإشارة لهذا النظام برمز واحد: شبكة الاتصالات العالمية بالكمبيوتر (الإنترنت). إذن فقد انتقلنا، بالمعنى الواسع، من نظام كان مبنيا حول أسوار إلى نظام ينبني، على نحو متزايد، حول شبكات.

وما أن يثب بلد ما داخل نظام العولمة، تبدأ النخبة في إضفاء الطابع الذاتي منظور التكامل هذا، مع محاولة وضع نفسها في سياق عالمي. لقد كنت في زيارة لمدينة عمان بالأردن في صيف 1998 عندما التقيت بصديقي رامي خوري، وهو كاتب وصاحب عمود سياسي مهم. ذهبنا معا لتناول القهوة في فندق انتركونتننتال. جلسنا، وسألته ما الجديد؟ كان أول ما قاله «لقد أضيفت الأردن أخيرا إلى النشرة الجوية العالمية بمحطة سي. إن. إن». ما كان يقصده رامي أن المؤسسات العالمية ترى

الآن ضرورة لمعرفة الجو في عمان، وهو الأمر الذي يمثل أهمية بالنسبة للأردن. وبدأ الأردنيون يشعرون بأنهم أكثر أهمية، آملين أن يجنوا أرباحا عن طريق زيادة السياحة أو زيادة زيارات المستثمرين العالميين للأردن. وفي اليوم التالي لمقابلتي مع رامي، أجريت مقابلة مع چاكوب فرينكل، مدير بنك إسرائيل واقتصادي محنك بجامعة شيكاغو. أبدى فرينكل في أثناء المقابلة، الملاحظة التالية: «عندما كنا نتحدث سابقا عن الاقتصادات الكلية، كنا نبدأ بدراسة الأسواق المحلية والنُظم المالية والعلاقة المتبادلة بينهما، ثم ننتقل بعد ذلك لدراسة الاقتصاد الدولي. وكان الشعور الأساسي الذي يتملكنا أن ما نقوم به يمثل في الأساس شأنا من شؤوننا، وهنا، بعد ذلك، بعض المنافذ التي نبيع للخارج من خلالها. أما الآن، فقد انعكس المنظور. إننا لا نسأل عن الأسواق التي سنصدر لها بعد أن نقرر ماذا سنُنتج، وبالتالي يتغير المنظور برمته».

لقد سبق التكامل، بدرجة كبيرة، عن طريق التكنولوجيات التي تحدد العولمة: استخدام الحاسوب، والنماذج متناهية الصغر، والنُظم الرقمية، ووسائل الاتصال بالأقمار الصناعية، والألياف البصرية، والإنترنت. وقد أدى هذا التكامل بدوره إلى اختلافات أخرى عدة بين نظامي الحرب الباردة والعولمة.

وعلى خلاف نظام الحرب الباردة. يمتلك نظام العولمة ثقافته المهيمنة، مما يفسر ميل التكامل نحو إضفاء طابع التجانس. لقد تحقق التجانس الثقافي، في العصور السابقة، على الصعيد الإقليمي - إضفاء الطابع الروماني، على أوروبا الغربية وعالم البحر المتوسط، وإضفاء العرب الطابع الإسلامي على آسيا الوسطى والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وأسبانيا، وإضفاء الطابع الروسي على أوروبا الشرقية والوسطى وأجزاء من أوراسيا في ظل السوفييت. وإذا تحدثنا من الزاوية الثقافية، نجد أن العولمة تمثل، بدرجة كبيرة. انتشار الأمركة (للأفضل وللأسوأ) - من ساندويتشات بيك ماك إلى ميكي ماوس.

بينما كان الثقل - وخاصة ثقل إلقاء الصواريخ - هو المقياس المحدد للحرب الباردة، فإن السرعة - سرعة التجارة، والسفر، والاتصالات، والابتكارات - هي المقياس المحدد لنظام العولمة. لقد كان نظام الحرب الباردة يتمحور حول معادلة أينشتين التي تربط بين الكتلة والطاقة (e=mc2)، أما نظام العولمة فيتمحور حول قانون مور (Moore's Law)، الذي ينص على أن قوة أداء المُشغلات الدقيقة (microprocessors) ستتضاعف كل 18 شهرا. وبينما كانت «المعاهدات» تمثل وثيقة نظام الحرب الباردة، فإن «الصفقة» تمثل وثيقة نظام العولمة. وإذا كان قلق نظام الحرب الباردة يتمثل في الخوف من الإبادة من عدو معروف جيدا في نظام عالمي ثابت أو مستقر، فإن قلق نظام العولمة يتمثل في الخوف من التغير السريع من جانب عدو لا يمكن رؤيته أو لمسه أو الشعور به - إنه الإحساس بأن وظيفتك أو مجتمعك أو مكان عملك يمكن أن يتغير في أي لحظة بفعل القوى الاقتصادية والتكنولوجيا المجهولة، التي قد تكون أي شيء إلا أن تكون مستقرة.

وفي حين كان كارل ماركس وچون ماينارد كينز الاقتصاديين المُحددين لنظام الحرب الباردة، وكان كلاهما يرغب في ترويض الرأسمالية، فإن چوزيف شومبيتر وأندي جروف يمثلان الاقتصاديين المحددين لنظام العولمة، وهما يفضلان إطلاق العنان للرأسمالية. إن شومبيتر، وهو وزير مالية النمسا السابق وأستاذ بجامعة هارڤارد، قد عبر عن وجهة نظره في كتابه «الرأسمالية، والاشتراكية، والديموقراطية» الصادر العام 1942 قائلا إن جوهر الرأسمالية يتمثل في عملية «التدمير الخلاق» - الدورة الأبدية لتدمير المنتجات أو

الخدمات القديمة الأقل كفاءة وإحلال منتجات جيدة أكثر كفاءة محلها. أما جروف، فقد اتخذ من مقولة شومبيتر «مريض البارانويا هو فقط الذي يعيش»، عنوانا لكتابه حول الحياة في وادي الترويج لوجهة النظر القائلة بأن الابتكارات التي أدت إلى تغير الصناعة آخذة في الحدوث اليوم على نحو شديد التسارع. وبفضل عمليات التقدم التكنولوجي المفاجئ هذه، أصبحت سرعة اعتبار آخر اختراع اختراعا بلاقيمة أو يحول إلى سلعة تقترب من سرعة البرق. ولذا، فإن مريض البارانويا هو فقط الذي سيعيش - أي فقط أولئك الذين ينظرون على الدوام من فوق أكتافهم لمعرفة من الذي يبتدع شيئا جديدا يمكن أن يدمرهم، وعندئذ يقومون بعمل ما ينبغي عليهم القيام به ليظلوا متقدمين بخطوة. وسوف تقل كثيرا الأسوار اللازمة لحمايتنا.

وإذا ما شبهنا الحرب الباردة بلعبة رياضية فإنها مصارعة سومو اليابانية، كما يقول ميشيل ماندلباوم، الأستاذ بجامعة هوبكينز. «إن المسألة بمنزلة رجلين ضخمين سمينين داخل الحلبة، بجميع أنواع الأوضاع والطقوس وركلات الأقدام، مع قدر ضئيل بالفعل من الاتصال حتى نهاية المباراة، وعند حدوث فترة وجيزة من الدفعات العنيفة حتى يُدفع الخاسر خارج الحلبة، دون أن يتعرض أحدهما للقتل». وفي المقابل، إذا شبهنا العولمة بلعبة رياضية، فإنها سباق المائة متر يتكرر على الدوام، لا يهم عدد المرات التي يكسبها المرء، فعليه أن يتسابق ثانية في اليوم التالي. وإذا ما خسر المرء بمقدار 100/1 فقط من الثانية، فإن الأمر يماثل كما لو أنه خسر بمقدار ساعة.

وأخيرا، والأكثر أهمية، تمتلك العولمة بنية خاصة بالقوة أكثر تعقيدا من بنية الحرب الباردة. لقد كان نظام الحرب الباردة مبنيا، على وجه الحصر، حول الدول القومية، ومتوازنا عند المركز بفعل القوتين العظميين. وفي المقابل، ينبني نظام العولمة حول ثلاث توازنات متداخلة وتؤثر في بعضها البعض.

يتمثل التوازن الأول في التوازن التقليدي بين الدول القومية. ولايزال هذا التوازن يتسم بأهمية في ظل نظام العولمة. ولايزال بمقدور هذا التوازن أن يفسر كثيرا من الأخبار التي نقرؤها في الصفحة الأولى من الجريدة، سواء أكان ذلك احتواء للعراق في الشرق الأوسط أو توسعا لحلف ناتو في أوروبا الوسطى.

ويكمن التوازن المهم الثاني بين الدول القومية والأسواق العالمية. تتكون الأسواق العالمية من ملايين المستثمرين الذين يحركون الأموال في جميع أنحاء العالم من خلال مجرد نقرة على فأرة الحاسوب. وأنا أسميهم «القطيع الإلكتروني». إنهم يتجمعون في المراكز المالية العالمية مثل فرانكفورت، وهونج كونج، ولندن، ونيويورك - أي «الأسواق العظمى». إن بمقدور الولايات المتحدة تدميرك بإلقاء القنابل، أما الأسواق العظمى فبمقدورها تدميرك بالبخس من قيمة سنداتك المالية. من الذي طرد الرئيس سوهارتو في إندونيسيا؟ ليست قوة عظمى أخرى، وإنما الأسواق العظمى.

أما التوازن الثالث في نظام العولمة - وهو الأحدث بين كل التوازنات - فيتمثل في التوازن بين الأفراد والدول القومية. نظرا لأن العولمة حطمت كثيرا من الأسوار التي كانت تحد من حركة الناس ومدى ما يمكنهم الوصول إليه، ونظرا لأن العولمة قامت في الوقت ذاته بربط العالم عبر الشبكات الإلكترونية، فإنها تمنح الأفراد قدرا من القوة المباشرة أكبر مما كان عليه الأمر في أي فترة تاريخية سابقة. إننا اليوم لا نمتلك قوة عظمى فحسب، ولا أسواقا عظمى فحسب، وإنما أيضا أفرادا ذوي قدرات تمكينية عظمى. يشعر بعض هؤلاء الأفراد بغضب شديد، ويتمتع بعضهم بروح بناءة عالية - ولكن جميعهم قادر الآن على العمل

بصورة مباشرة على المسرح العالمي، دونما حاجة إلى الوساطة التقليدية من جانب الحكومات أو حتى الشركات.

نعرف جميعا چودي ويليامز، الحائزة على جائزة نوبل للسلام لعام 1997لمساهمتها في الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية. لقد نجحت في بناء تحالف دولي لحظر الألغام الأرضية، دون أن تحصل على مساعدات حكومية كبيرة، وفي مواجهة معارضة القوى الرئيسية. ما الذي اعتبرته السيدة ويليامز سلاحها السري لتنظيم ألف مجموعة من مجموعات من حقوق الإنسان والرقابة على الأسلحة في القارات الست؟ إنه «البريد الإلكتروني».

ونعرف، على الجانب الآخر، رمزي أحمد يوسف، العقل المدبر لحادثة قصف مركز التجارة العالمي بنيويورك في السادس والعشرين من فبراير 1993. إنه يمثل جوهريا «رجلا غاضبا ذا قوة تمكينية عظمى». وإذا ما فكرنا في أمره لمدة دقيقة واحدة، فإننا نتساءل: ماذا كان برنامجه؟ وماذا كانت أيديولوجيته؟ لقد حاول، قبل أي شيء تفجير اثنين من أعلى المباني في الولايات المتحدة. هل كان يرغب في دولة إسلامية في بروكلين؟ هل كان يرغب في دولة فلسطينية في نيوچيرسي؟ كلا. لقد أخبر المحكمة الفيدرالية للمقاطعة في مانهاتن أن هدفه كان إحداث تفجير من شأنه إسقاط أحد أبراج التجارة العالمية فوق الآخر وقتل 250 ألفا من المدنيين. لم تكن رسالته تحوي أي شيء بخلاف تمزيق الرسالة القادمة من أمريكا كلية القوة إلى مجتمعه. لقد صفعته العولمة (والأمركة) على وجهه، ولكنها مكنته، في الوقت ذاته، كفرد من أن يقوم بشيء ما في هذا الصدد. إن قدرا كبيرا من قضية المؤامرة التي رفعتها حكومة الولايات المتحدة ضد يوسف (فقد خطط لتفجير عشرات من الطائرات الأمريكية في آسيا في يناير العام 1995، إلى جانب محاولة تفجيره لمركز التجارة العالمي في 1993)، كان يرتكز على ملفات جهاز الحاسوب ماركة توشيبا الخاص به. تلك الملفات التي قالت شرطة الفلبين أن يوسف تركها عندما فر من شقته في مانيلا في يناير 1995، أي قبل اعتقاله بفترة وجيزة. وعندما وصل المحققون إلى الحاسوب الخاص بيوسف ودخلوا إلى ملفاته، وجدوا برامج لرحلات طيران وخطط لعمليات تفجير، فضلا عن عينة من وثائق الهوية لبعض المتآمرين المتعاونين معه. لقد أعجبني ذلك - احتفاظ رمزي يوسف بكل خططه على الحاسوب توشيبا الخاص به! ومع ذلك، لا ينبغي أن تتملكنا الأوهام. فالرجال الغاضبون الذين يمتلكون قدرات تمكينية عظمى موجودون، ويمثلون أكثر التهديدات مباشرة اليوم للولايات المتحدة ولاستقرار نظام العولمة الجديد، ولا ترجع المسألة إلى أن رمزي يوسف يمكن أن يمثل قوة عظمى على الإطلاق، بل لأن عالمنا اليوم يمتلئ بأناس عديدين يمكن أن يكون أي منهم رمزي يوسف.

نحن إذن لم نعد نعيش في «عالم ما بعد الحرب الباردة»، ذلك العالم الذي يموج بالفوضى والتفكك. إننا نعيش الآن في ظل نظام دولي جديد، يجري تعريفه من خلال العولمة، بأجزائها وسماتها المتحركة. ولايزال أمامنا طريق طويل حتى ندرك بالكامل كيف سيعمل هذا النظام. وإذا كنا في ظل الحرب الباردة، فإنا بالتأكيد في العام 1946. أعني أننا نفهم الكثير بشأن كيفية عمل هذا النظام بقدر ما نفهم كيف يكون عمل الحرب البادرة في العام الذي ألقى فيه تشرشل خطبته حول «الستار الحديدي».

وعلى الرغم من ذلك، فقد آن الأوان كي نعترف بظهور نظام جديد، وأن نبدأ في محاولة تحليل الأحداث التي تجري داخله، وأن نطلق عليه اسما. ولسوف أبدأ باقتراح تسميته «معركة رأس المال» (DOScapital).

قصة نظامين	الحرب الباردة	العولمة
«للحرب الباردة أفكارها المهيمنة: الصدام بين الشيوعية والرأسمالية... أما الفكرة المُحركة للعولمة فهي رأسمالية السوق الحر».	في العام 1961، طرح الرئيس الكوبي فيدل كاسترو، مرتديا الزي العسكري، إعلانه الشهير: «سأظل ماركسيا لينينيا لباقي حياتي».	في يناير من عامنا هذا، ارتدى كاسترو بدلة رجال الأعمال عند حضوره مؤتمرا حول العولمة في هافانا، دُعي إليه جورج سوروس، رجل المال، وميلتون فريدمان، الاقتصادي المُحافظ.
	في فبراير 1972، سافر الرئيس ريتشارد نيكسون إلى الصين لمناقشة إقامة تحالف استراتيجي بين البلدين ضد الاتحاد السوفييتي.	في أبريل 1999، سافر الرئيس الصيني، زو رونجي، إلى واشنطن لمناقشة انضمام الصين إلى منظمة التجارة العالمية.
«إن تلك البلدان الراغبة في أن تدمر الرأسمالية بسرعة الشركات غير ذات الكفاءة، بحيث يمكن تحرير الأموال وتوجيهها للشركات الأكثر ابتكارا، سوف تزدهر في عصر العولمة. أما تلك البلدان التي تعتمد على الحكومات لحمايتها من هذا التدمير الخلاق، فسوف تسقط للوراء».	أزالت بلدان عدة حواجز التجارة وحاولت استيراد سياسات التصنيع التعويضي، والتأميم، وضبط الأسعار، والسياسات التدخلية.	تعتمد التنمية الاقتصادية على ملكية القطاع الخاص والشفافية والمحاسبة، علاوة على الاستثمار في رأس المال البشري والبنية الأساسية الاجتماعية.
	كان كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي متواجدا دائما، ولكنهما نادرا ما كانا مهتمين.	يلعب صندوق النقد الدولي دورا أساسيا، ولكنه يجب أن يقع في أحبولة شكبة من المنظمات الأخرى التي تدعم الرفاه الاجتماعي والبيئة، بينما تروج للنماء الاقتصادي.
	النتيجة: حكم تلك الفترة: تضخم مفرط، وديون خارجية ساحقة، وفساد، وصناعات لا تتسم بالكفاءة. كان 8٪ فقط من البلدان العام 1975 تمتلك نظم رأس المال الليربالي، وكان الاستثمار الخارجي المباشر منخفضا ووصل إلى 23 بليون دولار.	النتيجة: ازداد الاستثمار الخارجي المباشر بمقدار خمسة أضاف بين العامين 1990 و1997، قافزا إلى 644 بليون دولار؛ وتضاعف عدد البلدان ذات النظم الليبرالية بمقدار ثلاثة أضعاف وصولا إلى 28٪.
«(نتغير) التوازن بين الأفراد والدول القومية... والآن إذن، ليس لدينا قوة عظمى فحسب، وليس لدينا أسواق عظمى فحسب، وإنما أيضا أفراد يمتلكون قوة تمكينية عظمى».	كانت توجد 973 منظمة دولية غير حكومة في العالم العام 1956.	كانت توجد 5472 منظمة دولية غير حكومية العام 1997.
	في العام 1972، كان حجم التجارة العالمية الكلي يمثل كسرا فقط أكبر من الناتج القومي الإجمالي للاتحاد السوفييتي.	في العام 1997، كان تقدير العائد السنوي للجريمة المنظمة متعدية القومية يبلغ 750 بليون دولار. أي أكبر من الناتج القومي الإجمالي لروسيا.
	في العام 1970، كانت توجد في العالم 7 آلاف شركة فقط من الشركات متعدية القومية.	مع حلول العام 1994، ازداد عدد الشركات متعدية القومية إلى 37 ألف شركة أم، مع ٢٠٠ ألف شركة فرعية تتحكم في ٣٣٪ من الأصول الإنتاجية في العالم.

توتاليتارية جيدة

بقلم: إجناسيو رامونيه

لقد عرفنا منذ عشرة أعوام على الأقل أن العولمة هي الظاهرة المهيمنة في هذا القرن. ولم يكن أحد في انتظار توماس فريدمان ليكتشف هذه الحقيقة. وهناك عشرات المؤلفين الذين قاموا، منذ نهاية الثمانينيات، بتحديد ووصف وتحليل العولمة، سواء من الداخل أو من الخارج. أما الجديد في مقال فريدمان - بل والمثير للجدال - تلك الثنائية التي شيدها بين العولمة والحرب الباردة. لقد قدمهما باعتبارهما «نظامين» متعارضين يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر. إن تكراره الدائم لهذا الإفراط الضخم في التبسيط يصل إلى قمة الغضب.

وليس لمجرد أن الحرب الباردة والعولمة ظاهرتان مهيمنتان في عصرهما، يمكن القول إن كلا منهما يمثل نظاما. فالنظام هو مجموعة من الممارسات والمؤسسات التي تمد العالم بإطار عملي ونظري. ومن هنا، فإن الحرب الباردة لم تُشكل نظاما أبدا - ويقترف فريدمان خطأ كبيرا بطرحه ما يخالف ذلك. إن مصطلح «الحرب الباردة» الذي صاغته وسائل الإعلام يُمثل إيجازا لمرحلة من التاريخ المعاصر (1946 - 1989) تتسم بهيمنة الاهتمامات الجغرافية السياسية والاستراتيجية الجغرافية. ومع كل، فإنه لا يفسر عددا كبيرا من الأحداث غير المرتبطة ببعضها، ولكنها ساهمت أيضا في تشكيل ذلك العصر: توسع الشركات متعددة الجنسية، أو تطور النقل الجوي، أو التوسع العالمي في هيئة الأمم المتحدة، أو تخلص أفريقيا من الاستعمار، أو التمييز العنصري في جنوب أفريقيا، أو نهوض التوجه البيئي، أو تطور الحاسوب وصناعات التكنولوجيا العالية مثل الهندسة الوراثية... والقائمة مستمرة.

وعلاوة على ذلك، فإن التوتر بين الغرب والاتحاد السوفييتي يعود إلى ما قبل الحرب الباردة وهو ما يتعارض مع أفكار فريد مان. لقد كان لهذا التوتر، في واقع الأمر، أثر فعال في تشكيل أسلوب إدراك الدول الديموقراطية للفاشية الإيطالية في سنوات العشرينيات، والعسكرية اليابانية في الثلاثينيات، وإعادة التسليح الألماني بعد نهوض أدولف هتلر العام 1933، والحرب الأهلية الأسبانية بين العامين 1936و1939.

ومع ذلك، فإن فريدمان مُحق في جداله بأن العولمة لها ميل منتظم. وتدريجيا، سيقود الوحش ذو الرأسين، التكنولوچي والمالي، إلى الارتباك والتشوش. وفي المقابل، يحكي لنا فريدمان قصة عن التلاؤم بين العولمة ووالت دزني. ولكن الفوضى التي يبدو أنها تُسعد كاتبنا كثيرا، ليست جيدة كلها.

ويلحظ فريدمان، عن حق، أن كل شيء قد أصبح متبادل الاعتماد ومتصارعا في آن واحد، كما يلحظ أيضا أن العولمة تجسد (أو تصيب) كل

توجه أو ظاهرة في عالمنا اليوم ـ سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الأيكولوجية. ولكنه نسي الإشارة إلى وجود جماعات من كل انتماء قومي أو ديني أو عرقي تُعارض بقوة فكرة التوحيد أو تحقيق التجانس العالمي.

وعلاوة على ذلك، يبدو كاتبنا غير قادر على ملاحظة أن العولمة تفرض علي العالم ديناميتين قويتين متناقضتين: الانصهار والانشطار. فمن ناحية، تنشد دول عدة التحالف معنا. أي يتبعون فكرة الانصهار مع الآخرين لبناء مؤسسات، وخاصة المؤسسات الاقتصادية التي تمد بالقوة ـ أو الأمان ـ من الناحية العددية. وعلى سبيل المثال: يقوم الاتحاد الأوروبي مع مجموعة من البلدان في آسيا وأوربا الشرقية وشمال أفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، بالتوقيع على اتفاقيات التجارة الحرة وتقليص الحواجز الجمركية لتحفيز التجارة، فضلا عن تعزيز التحالفات السياسية والأمنية. ولكن العديد من المجتمعات متعددة الجنسية تسقط، في مواجهة الستار الخلفي لهذا التكامل، ضحية للانشطار، إذ تتمزق أو تنفجر داخليا إلى شظايا أمام الأعين المذهولة لجيرانهم. عندما تمزقت الدول الفيدرالية الثلاث بالكتلة الشرقية ـ تشيكوسلوفاكيا، والاتحاد السوفييتي، ويوغوسلافيا ـ تولدت منها 22 دولة جديدة! أي قارة سادسة حقيقية!

لقد كانت التبعات السياسية مروعة. فالتمزقات التي أحدثتها العولمة أدت إلى إعادة فتح الجراح القديمة. فلقد تزايدت الخلافات حول الحدود، وأيقظت جيوب الأقليات أحلام الضم والانفصال والتطهير العرقي. لقد أطلقت هذه التطورات العنان للحروب في البلقان (في أبخازيا، والبوسنة، وكرواتيا، وكوسوفا، ومولدافيا، وناجورنو ـ كاراباخ، وسلوفانيا، وجنوب أوسيتيا).

أما التبعات الاجتماعية، فلم تكن أقل وطأة. فقد كان تعجيل العولمة في أعوام الثمانينيات متوافقا مع الليبرالية المفرطة عديمة الشفقة لكل من مارجريت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا، وورونالد ريجان، رئيس الولايات المتحدة. وسرعان ما اقترنت العولمة بتزايد عدم المساواة، وتعاظم البطالة، واللاتصنيع، وتدهور الخدمات العامة والسلع.

والآن، أصبحت الحوادث والفوضى وعدم اليقين بمنزلة البارامترات التي يمكن استخدامها لقياس قوة العولمة. ماذا يمكن أن نجد إذا ما قمنا بتقييم عالم العولمة اليوم؟ سنجد أن الفقر والأمية والعنف والمرض في حالة تصاعد. إن الخُمس الأغنى من سكان العالم يملك 80٪ من الموارد العالمية، بينما يملك الخُمس الأفقر 0,5٪ بالكاد. ومن بين عدد سكان العالم البالغ 5,9 بليون نسمة، نجد أن بالكاد 500 مليون نسمة يعيشون في ظل ظروف مريحة، في حين يعاني 4,5 بليون نسمة من ظروف الاحتياج. ونجدحتى في الاتحاد الأوروبي أن 16 مليون نسمة يعانون من البطالة، ويعيش 50 مليون نسمة في ظروف الفقر. كما أن ثروة أغنى 358 فردا في العالم مجتمعة (البليونيرات ـ بالدولار)، تعادل ما يزيد عن العائد السنوي لنسبة 45٪ من الأفراد الأفقر في العالم ـ أي 2,5 بليون نسمة. يبدو أن هذا هو عالم العولمة الجديد الشجاع.

احذروا الدوجمائية

لا تملك العولمة سوى القليل الذي يمكن أن تقوم به إزاء الناس أو التقدم، ولكنها تملك الكثير إزاء النقود. وبانبهارهم ببريق الأرباح السريعة، يعجز أبطال العولمة عن تقدرير المستقبل، أو توقع احتياجات البشرية والبيئة، أو التخطيط لتوسع المدن، أو التقليص التدريجي لعدم المساواة

ومعالجة التمزقات الاجتماعية.

ووفقا لما يقوله فريدمان، سوف تُحل كل تلك المشكلات عن طريق «اليد الخفية للسوق» ونمو الاقتصاد الكلي - وهكذا يمضي المنطق الغريب الماكر لما يطلق عليه في فرنسا «التفكير المنفرد» (pensée unique أو بالإنجليزية single thought). ويمثل التفكير المنفرد مصالح مجموعة من القوى الاقتصادية - وخاصة رأس المال الدولي المتدفق بحرية. لقد وصلت عطرسة التفكير المنفرد إلى أقصاها، بحيث يمكن دون مبالغة أن نطلق عليه الدوجمائية الحديثة، وهو مثل مرض السرطان، يحيط هذا المذهب الخبيث تدريجيا بأي منطق ثوري متمرد، ويسكنه، ثم يشوشه ويشله، وأخيرا يقتله. إن هذا المذهب، هذا التفكير المنفرد، يُعد بمنزلة الأيديولوجيا الوحيدة التي تجيزها شرطة الرأي الخفية كلية الوجود.

لقد ولد التفكير المنفرد العام 1944، في فترة اتفاقية بريتون وودز (Bretton Woods). وقد نبع هذا المذهب من المؤسسات الاقتصادية والنقدية الكبرى - بنك فرنسا (Banque de France)، وبوندسبانك (Bundesbank)، واللجنة الأوروبية، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية - تلك المؤسسات التي فتحت خزائنها العميقة لحشد المراكز البحثية والجامعات والهيئات في جميع أنحاء الكوكب من أجل نشر الكلمة الطيبة.

وفي كل مكان تقريبا، أخذت أقسام الاقتصاد بالجامعات وأخذ الصحافيون (مثل فريدمان) والمؤلفون والقادة السياسيون يبتلعون أقراص القانون الجديدة هذه، ويكررونها عبر وسائل الإعلام. ووجد مذهبهم صدى نتيجة للمعلومات الاقتصادية التي يدلي بها المتحدثون الرسميون، وعلى نحو خاص ما يرد في «الكتب المقدسة» للمستثمرين وسماسرة البورصة - مثل مجلة «إيكونوميست» (The Economist)، ومجلة اقتصاد الشرق الأقصى (Far Eastern Economic Review)، ووكالة رويترز للأنباء، و«وول ستريت چورنال» - والتي عادة ما تملكها الجماعات الصناعية أو المالية الضخمة. ويقوم التكرار بدور جيد، بطبيعة الحال، في مجتمعنا الذي تصنعه وسائل الإعلام، ويصبح مثل البرهان أو الدليل.

ماذا، إذن، قيل لنا كي نصدقه؟ إن المبدأ الأساسي يتسم بقوة شديدة، حتى أن الماركسي يمكن أن يوافق عليه: يسود الاقتصاد على السياسة. أو كما يضع الكاتب ألان مينك الأمر: «الرأسمالية لا يمكن أن تنهار، إنها الحالة الطبيعية للمجتمع. غير أن الديموقراطية ليست الحالة الطبيعية للمجتمع، أما السوق فنعم مجتمع متحرر من صدمات السرعة الاجتماعية وأوجه عدم الكفاءة الأخرى هو الذي يمكن أن يتجنب التردي والأزمات.

أما التعاليم الرئيسية الأخرى للتفكير المنفرد فتنبني حول المبدأ الأساسي. وعلى سبيل المثال «تعمل اليد الخفية للسوق على تصحيح ما يشوب الرأسمالية من تفاوت وقصور»، وعلى نحو خاص الأسواق المالية التي «توجه إشارات وتحدد حركة الاقتصاد العامة». إن المنافسة «تعمل على تحفيز وتطوير الأعمال التجارية، وتؤدي إلي تحديثها على الدوام». وتُعتبر التجارة الحرة من دون حواجز» عاملا من عوامل تنمية التجارة دون معوقات، ومن ثم تنمية المجتمعات». وينبغي، بأي، شكل، تشجيع عولمة الإنتاج المصنوع، وخاصة التدفقات المالية. إن التقسيم الدولي للعمل «يخفف من مطالب العمالة، ويقلص من تكاليف العمل». ومن الضروري وجود عُملة قوية، كما هو الحال بالنسبة لكل عملية

إلغاء للقيود أو خصخصة عند كل انعطافة. هناك دائما «قدر أقل من جانب الدولة» وتحيز دائم لمصالح رأس المال بما يضر بمصالح العمالة، ناهيك عن التفاوت الصارم للتكلفة الأيكولوجية. إن مواصلة تكرار هذه التعاليم الشفهية في وسائل الإعلام - بواسطة جميع صانعي القرار السياسي، اليمينيين منهم واليساريين (خذ مثلا مصطلحي رئيس وزراء بريطانيا، توني بلير، ورئيس وزراء ألمانيا، جيرارد شرودر: «الطريق الثالث» و«الوسط الجديد») - إنما يمنحها قوة ترهيب تُطفئ كل فكر حُر متردد.

الأقطاب وعدم التوافق

ترتكز العولمة على دعامتين أو نموذجين يؤثران في أسلوب تفكير دعاة العولمة مثل فريدمان. الدعامة الأولى هي الاتصال، وتميل للإحلال تدريجيا محل المُحرك الأساسي في القرنين الماضيين: التقدم. فمن المدارس إلى الأعمال التجارية، ومن العائلات والقانون إلى الحكومة، يوجد الآن أمر واحد: الاتصال.

أما الدعامة الثانية فهي السوق الذي يحل محل التماسك الاجتماعي، بمعنى فكرة المجتمع الديمقراطي الذي يجب أن يسير بدقة مثل الساعة. لا يوجد في الساعة أي جزء غير ضروري، وكل الأجزاء موحدة. من هذه الاستعارة، التي تعود للقرن الثامن عشر، يمكننا اشتقاق صيغة اقتصادية ومالية حديثة. وينبغي، من الآن فصاعدا، أن يسير كل شيء وفق معايير «السوق الرئيسي». ما هي القيم الأساسية، من بين قيمنا الجديدة؟ الأرباح المفاجئة، والكفاءة، والمنافسة.

وفي هذا العالم المترابط داخليا ويحركه السوق، لن يعيش سوى الأقوى. الحياة معركة، غابة. إن الداروينية الاقتصادية والاجتماعية، بدعواها الدائمة للمنافسة والانتقاء الطبيعي والتأقلم، تفرض نفسها على كل فرد وكل شيء. ينقسم الأفراد، في ظل هذا النظام الاجتماعي الجديد، إلى «مُذيب» و«غير مُذيب» - أي بمعنى قابل للاندماج داخل السوق أو غير قابل لذلك. ويمنح السوق حماية للقابلين للاندماج داخله فحسب. وعندما يصبح التضامن الإنساني حتميا، في ظل هذا النظام الجديد، يصبح الباقون غير متوافقين ومنبوذين.

وبفضل العولمة، نجد أن النشطاء الذين يتحلون بأربع صفات أساسية هم فقط الذين ينجحون - وهذه الصفات هي: أنهم كوكبيون، ودائمون، وفوريون، وغير ماديين من حيث طبيعتهم. وتُذكرنا هذه الصفات الأربع بالسمات الأربع الأساسية لله ذاته. وفي الحقيقة، فالعولمة مُشيدة كنوع من النقد الإلهي الحديث، إذ تتطلب الخضوع والإيمان والعبادة وأداء طقوس جديدة. يُملي السوق الحق، والجميل، والجيد، والعادل، لقد أصبحت «قوانين» السوق بمنزلة لوح حجري للتبجيل.

ويحذرنا فريدمان من أن الابتعاد عن هذه القوانين سيجعلنا عُرضة للفناء. ومن ثم، مثله مثل دعاة العقيدة الجديدة الآخرين، يحاول فريدمان إقناعنا بوجود طريق واحد، طريق واحد فقط - طريق الليبرالية المفرطة - من أجل إدارة الشؤون الاقتصادية، ومن ثم السياسية. إن الشؤون السياسية لدي هي، في واقع الأمر الشؤون الاقتصادية، والاقتصادية هي المالية، والمالية هي الأسواق. يقول البلاشفة: «كل السلطة للسوفييت!». ويطالب مؤيدو العولمة، مثل فريدمان، بما يلي: «كل السلطة للسوق!» والتأكيد قاطع، بحيث أصبحت العولمة، بما لديها من عقيدة ودُعاة، نوعا من التوتاليتارية الجديدة.

معركة رأس المال [2]

بقلم: توماس ل. فريدمان

لقد طرح إيجناسيو رامونيه عددا من النقاط في مقاله التحريضي المتقد بالحماسة ضد العولمة. وسوف أرد على ما أعتبره النقاط الرئيسية.

يجادل رامونيه بأن الحرب الباردة لم تكن نظاما دوليا. وأختلف معه ببساطة في ذلك. فالقول إن الحرب الباردة لم تكن نظاما دوليا لأنها لم تفسر كل ما حدث خلال السنوات من 1946 إلى 1989 - مثل النقل الجوي أو التمييز العنصري - هو ببساطة قول خاطئ. فأي نظام دولي لا يفسر كل شيء يحدث في عصر معين. إنه، مع ذلك، مجموعة مهيمنة من الأفكار وأبنية القوة والأنماط الاقتصادية والقواعد التي تقوم بتشكيل السياسات الداخلية والعلاقات الدولية، لدى عدد من البلدان في عدد من الأماكن أكثر من أي شيء آخر.

لم تكن الحرب الباردة وحدها نظاما دوليا على هذا النحو، بل كان لدى فرنسا أيضا بيئة ملائمة جديدة ومتفردة ومريحة بالقدر نفسه في نظام العولمة ليومنا هذا. وكما كان الحال في أثناء الحرب الباردة، يتأتى على فرنسا، مثلها مثل أي بلد آخر أن تحدد نفسها إزاء هذا النظام الجديد. إن استحواذ العولمة على صفحات جريدة «لو موند ديبلماتيك» (Le Monde diplomatique) يُعد شهادة بليغة عن حيوية هذا البحث واستمراره على نحو جيد في فرنسا.

يقول رامونيه إنني نسبت «الإشارة إلى وجود جماعات من كل انتماء قومي أو ديني أو عرقي تُعارض بقوة... العولمة». ومع ذلك، فإن كتابي «The Lexus and the Olive Tree» يضم خمسة فصول منفصلة تعالج مختلف جوانب هذه الحركة الارتجالية. وفي واقع الأمر، يضع الفصل قبل الأخير الخطوط العريضة لأسباب اعتقادي أن العولمة ليست غير انعكاسية، مُحددا التهديدات الخمسة التي تحيط بها: قد تكون العولمة «مجرد شديدة القسوة» بالنسبة لكثير من الناس؛ وقد تكون «مجرد الترابط» بحيث يمكن لأعداد صغيرة من الناس؛ وقد تكون «مجرد شديدة اللاإنسانية». إن مقاربتي يمكن أن يُطلق عليها صيغة والت ديزني للعولمة.

وبصراحة، فإنني قادر على تحديد الجوانب المتدنية من العولمة، بل وأقوم بذلك بالفعل على نحو أقوى مما يفعله رامونيه. أعلم أن العولمة ليست جيدة في جميع جوانبها، ولكنني - على خلاف رامونيه - لست أعمى البصر تماما عن الفرص الجديدة التي تخلقها للناس - كما أنني لا أتحدث عن مجرد قلة من الأثرياء. اسألوا فحسب عمال التكنولوجيا العالية في بنجالور بالهند أو في تايوان أو في منطقة بوردو بفرنسا، أو في فنلندا، أو سواحل الصين أو في إيداهو... اسألوهم عما يعتقدون بشأن الفرص التي خلقتها العولمة. إنهم من كبار المُستفيدين من قوى السوق

ذاتها التي يشجبها رامونيه. ألا يحسب حساب هؤلاء؟ وماذا عن جميع المنظمات غير الحكومية العاملة في مجال حقوق الإنسان أو البيئة والتي منحتها شبكة الإنترنت والعولمة قدرة تمكينية. ألا يحسب حسابهم أيضا؟ أم أنه يحسب فقط حساب سائقي الشاحنات الفرنسيين؟

يقول رامونيه إنني «غير قادر على ملاحظة أن العولمة تفرض على العالم قوتين ديناميتين، قوتين متناقضتين: الانصهار والانشطار». ماذا أقول؟ لماذا يعتقد أنني أطلقت على كتابي اسم «The Lexus and the Olive Tree»؟ يدور الكتاب بالكامل حول التفاعل بين ما هو قديم وما هو فطري - البحث عن المجتمع، والأمة، والأسرة، والقبيلة، والهوية، وشجرة الزيتون - فضلا عن الضغوط الاقتصادية للعولمة، من زاوية ضرورة تفاعل هذه الطموحات مع مقتضيات يومنا هذا المتمثل في القانون. إن هذه العواطف عتيقة الطراز تتخبط في مواجهة العولمة، وتنسحق أمامها، وتنضج، أو ببساطة تتعلم أن تعيش في توازن معها.

وبمقدور رامونيه أن يتهمني بأنني أعتقد أن نظام العولمة مُهيمن الآن على نبضات شجرة الزيتون في أغلب البقاع. ولقد أشار كثير من النقاد إلى أن ملاحظتي بأنه لا يوجد بلدان لم يدخلوا في حرب ضد بعضهما، في حين يوجد ماكدونالدز لدى كليهما، قد ثبت خطؤها عن طريق الحرب في كوسوفا. هذا محض هراء، فحالة كوسوفا كانت مجرد استثناء مؤقت أثبت في النهاية قاعدتي. لماذا تحاول القوة الجوية إنهاء حرب البلقان بعد 78 يوما فقط؟ لأن حلف ناتو قصف الدبابات والقوات الصربية وأخرجها من كوسوفا؟ كلا بالطبع. لقد نجحت القوات الجوية بمفردها لأن حلف ناتو قصف محطات الكهرباء ونظام المياه والجسور والبنية الاقتصادية في بلجراد - وهي مدينة أوروبية حديثة، كان غالبية مواطنيها يرغبون في التكامل مع أوروبا ونظام العولمة. لقد تم الانتصار في الحرب على شكبات قوة بلجراد، وليس في خنادق كوسوفا. ومن أوائل الأشياء التي سيُعاد فتحها في بلجراد: ماكدونالدز. لقد انقلب الأمر في النهاية لنجد الصرب يرغبون في الوقوف في الصف من أجل الحصول على ساندويتش البرجر وليس من أجل كوسوفا.

ويقع رامونيه في الشرك الذي عادة ما يقع فيه المفكرون الفرنسيون وغيرهم، الذين يقفون ضد العولمة. إنهم يفترضون أن باقي العالم يكرهها بقدر ما يكرهونها، ومن ثم تصيبهم الدهشة في النهاية عندما يجدون أن من يُطلق عليهم صغار الناس مستعدون للتعلق بها. عزيزي السيد رامونيه، بكل الاحترام الواجب لك ولفرانك فانون، فإن تعساء الأرض يرغبون في الذهاب إلى عالم ديزني وليس إلى المتاريس. إنهم يريدون المملكة السحرية، وليس «البؤساء». وعليك فقط أن تسألهم.

وأخيرا، يقول رامونيه إنني أعتقد أن جميع مشكلات العولمة ستجد حلا لها عن طريق «اليد الخفية للسوق». ولا أعلم من أين أتى بهذه الاقتباسات، ناهيك عن الفكر ذاته. إنها لم تأت بالتأكيد من أي شيء كتبته. فالفصل الأخير من كتابي يضع بخطوط عريضة ما أعتقد أن الحكومات - والحكومة الأمريكية على نحو خاص - يجب أن تقوم به من أجل «مقرطة» العولمة، سواء اقتصاديا أو سياسيا. هل أتصور أن قوى السوق والقطيع الإلكتروني يمتلكون قوة كبيرة اليوم تمكنهم أحيانا من منافسة الحكومات؟ على الإطلاق. وهل أتصور أن قوى السوق سوف تحل كل شيء، على الإطلاق. إن رامونيه، الذي لا يعرف بوضوح الفارق بين الحاجز المالي والحاجز

القنفذي يُضفي طابعا شيطانيا على الأسواق إلى حد يبعث على الضحك. ربما يعتقد أن الحكومات تقف منزوعة القوة ضد هذه الوحوش، ولكنني لا أعتقد ذلك.

إنني أُقدر حماسة حجة رامونيه، ولكنه يشوش تحليلي للعولمة. إن كتابي ليس أداة مع العولمة أو ضدها، وأي قارئ متأن سيدرك ذلك. فالكتاب يقدم إفادة حول العالم الذي نعيش فيه الآن، والنظام الدولي المُهيمن الذي يقوم بتشكيل هذا العالم - نظام تقوده بدرجة كبيرة قوى التكنولوجيا التي لم أكن من بدأها، وليس بمقدوري إيقافها. يتناول رامونيه العولمة باعتبارها اختيارا، ويريدنا ضمنيا أن نختار شيئا آخرا مختلفا. هذه هي سياسيته. أما أنا فأرى العولمة كواقع؛ وأريدنا أن ندرك أولا هذا الواقع، ثم بإدراكنا له نحدد كيف يمكننا الحصول على أفضل ما فيه ونتجنب الأسوأ. وهذه هي سياستي.

وسوف أبوح بسر إلى رامونيه. إن جذوري تمتد بالفعل إلى فرنسا. وأتمنى أن تتمكن فرنسا من المحافظة على كل شيء جيد ومتفرد في ثقافتها وأسلوب حياتها في مواجهة القوة الوحشية المُهيمنة للعولمة. وهناك بالتأكيد مساحة لمسار آخر مختلف بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية، وأتمنى لفرنسا أن تجده. ولكن قراء «لوموند ديبلوماتيك» سيحصلون على فكرة أفضل حول كيفية إيجاد هذا المسار الوسطي إذا قرأوا كتابي، أكثر مما لو قرأوا انتقادات رامونيه.

ومع الأسف، سيكون على قُرائه قراءة كتابي بلغة أخرى غير الفرنسية. فالكتاب سيصدر بالعربية والصينية والألمانية واليابانية. وهناك دولة أساسية واحدة فقط لم يتمكن ناشري الأمريكي أن يجد فيها ناشرا محليا ليطبع الكتاب: إنها فرنسا.

دعوهم يأكلون ساندويتشات الهمبرجر

بقلم: إيجانسيو رامونيه

إنه لأمر مؤثر عن حق ما يقوله توماس فريدمان «إن بؤساء الأرض يرغبون في الذهاب إلى عالم ديزني وليس إلى المتاريس» تستحق هذه العبارة مكانا لها، لدى الأجيال القادمة، بجوار إعلان الملكة ماري أنطوانيت العام 1789 الذي صرحت به عندما علمت أن الناس تثور في باريس مطالبة بالخبز، قالت «فليأكلوا الكعك!».

عزيزي السيد فيردمان، عليك بإعادة قراءة تقرير التنمية البشرية للعام 1999، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية. يؤكد التقرير أن 1,3 بليون نسمة (أو رُبع البشرية) يعيشون على أقل من دولار في اليوم. ربما لن يزعجهم الذهاب إلى والت ديزني، ولكنني أشك في أنهم سيفضلون، أولا وقبل كل شيء، الحصول على طعام جيد ومسكن لائق وملابس مناسبة وتعليم أفضل، فضلا عن الحصول على وظيفة. إن ملايين الناس في جميع أنحاء العالم (ويتعاظم أعدادهم كل يوم) مستعدون، من أجل الحصول على هذه الاحتياجات الأساسية، أن يشيدو المتاريس ويلجأوا للعنف دون أدنى شك.

إنني أستهجن هذا النوع من الحلول، بقدر

ما يستهجنه فريدمان. ولكننا إذا تحلينا بالحكمة، فلن يصل الأمر إلى هذا الحد. وبالأحرى، لماذا لا يجري تخصيص جزء ضئيل جدا من ثروة العالم من أجل «تُعساء الأرض»؟ إذا خصصنا 1٪ فقط من هذه الثروة لمدة ٢٠ سنة لتنمية أشقائنا من البشر التعساء، من الممكن أن يختفي البؤس الشديد وتختفي معه مخاطر العنف المستوطن.

ولكن العولمة صماء وعمياء إزاء تلك الاعتبارات - وفريدمان يعرف ذلك. وبالعكس، فهي تزيد من سوء الاختلافات والانقسامات وتعمل على استقطاب المجتمعات. في العام 1960، قبل العولمة، كان أكثر من 20٪ من سكان الكوكب ثراء أغنى ثلاثين مرة من أفقر من 20٪ وفي العام 1997، في ظل قمة العولمة، كان الأكثر ثراء أغنى 74 مرة من أفقر الفقراء في العالم! وتتنامى هذه الفجوة كل يوم. واليوم، إذا جمعنا الناتج القومي الإجمالي لجميع البلدان المتخلفة في العالم (بسكانها البالغ عددهم 600 مليون نسمة)، لن يعادل ناتج الجمع مجموع ثروة أغنى ثلاثة أفراد في العالم. وإنني لعلى ثقة، يا عزيزي السيد فريدمان، أن سكان البلدان المتخلفة البالغ عددهم 600مليون نسمة لا يفكرون سوى في شيء واحد: عالم ديزني!

وصحيح أن العولمة تشتمل على أمور عدة وليس جوانب سلبية فحسب؛ ولكن كيف يمكننا التغاضي عن حقيقة انخفاض دخل الفرد في أكثر من 80 بلدا، أو في نصف دول العالم تقريبا، خلال أعوام العولمة الخمسة عشر؟ أم أنه منذ سقوط الشيوعية، عندما رتب الغرب، افتراضا، علاجا اقتصاديا عبقريا للاتحاد السوفييتي السابق - مطاعم ماكدونالدز جيدة، كما يمكن أن يضع فريدمان الأمر - وقع أكثر من 150 مليون نسمة من سكان الاتحاد السوفييتي السابق (من مجموع سكان يصل تقريبا إلى 290 مليون نسمة) في شباك الفقر؟

يا عزيزي السيد فريدمان، إذا وافقت على الهبوط من عليائك، ربما تدرك أن العولمة تمثل عرضا من أعراض نهاية الدورة. ليس نهاية العصر الصناعي فحسب (مع وجود التكنولوجيا الجديدة اليوم)، وليس نهاية الثورة الرأسمالية الأولى فحسب (مع الثورة المالية)، ولكنها أيضا نهاية الدورة الفكرية - الدورة التي كان العقل يقودها، كما عرّفها فلاسفة القرن الثامن عشر. لقد ولّد العقل السياسة الحديثة، وأشعل شرارة الثورتين الأمريكية والفرنسية. ولكن هذا العقل المشيد - الدولة، المجتمع، الصناعة، القومية، الاشتراكية - قد تغير تغيرا عميقا. ويمكن القول، من زاوية الفلسفة، إن هذا التحول يمسك بناصية الدلالة الضخمة للعولمة. عرفت البشرية، منذ العصور القديمة، مبدأين تنظيميين عظيمين: الآلهة، ثم العقل وقد أصبح السوق يخلفهما.

والآن يسبب لي انتصار السوق وتوسع العولمة الخشية من حدوث مكاشفة حتمية بين الرأسمالية والديموقراطية. تقود الرأسمالية بلا هوادة إلى تركز الثروة والقوة الاقتصادية في أيدي مجموعة صغيرة. وهو ما يقود بدوره إلى التساؤل الأساسي التالي: كم ستستغرق عملية إعادة التوزيع من وقت كي تجعل هيمنة الأقلية الغنية مقبولة لدى غالبية سكان العالم؟ تكمن المشكلة، يا عزيزي السيد فريدمان، في أن السوق يعجز عن الاستجابة. والعولمة تدمر دولة الرفاه في جميع أنحاء العالم.

ما الذي يمكننا القيام به؟ كيف نمنع نصف البشرية من التمرد واختيار العنف؟ أعرف ردك، يا عزيزي السيد فريدمان: أعطهم جميعا ساندويتشات الهمبرجر وأرسلهم إلى عالم ديزني!

أوروبا ذات الأقاليم

تأملات في تأريخ القوميات المحلية التابعة في الأزمنة الحديثة

بقلم: سليا أبيلجيت

ترجمة: شوقي جلال

اعتدنا أن نقرأ ونكرر عبارة أن أوروبا كانت ولا تزال «قارة تضم هويات إقليمية». وتسللت هذه الفكرة إلى العديد من الحوارات التي جرت على نطاق واسع بشأن مستقبل أوروبا. ونجد أن الاعتراف بالدور المهم للإقليم وللنزعة الإقليمية في أوروبا اليوم، قد استقر في هدوء وصمت سواء كان السياق تحليلا للأزمة الأخيرة التي تعاني منها الدولة ـ الأمة أم وصفا لبنية اللجان داخل المجموعة الأوروبية.

العنوان الأصلي للمقال AEurope of Regions، وقد ظهر في مجلة American Historical Review، عدد أكتوبر 1999

وكتب توم نيرن عام 1992في مجلة نيو ستيتسمان أن الأقاليم أصبحت «جزءا رئيسيا» أو هي مفتاح المناقشة بشأن الاتحاد الأوروبي. وبعد ذلك بعامين أكد رولف ليندنر Rolf Lindner في مجموعة من الكتابات تحت عنوان «من أجل عودة الإقليمي» أنه بات واضحا تماما أننا نواجه اليوم نزعة إقليمية جديدة. وفي عام 1997أكد جون نيوهاوس John Newhouse في مجلة نيو أفيرز Foreign Affairs، أن النزعة الإقليمية سواء داخل أو عبر الحدود الإقليمية هي القوة الدينامية لأوروبا الآن ومستقبلا. والملاحظ أن هذا الاهتمام بانبعاث أو تجدد أو إعادة اكتشاف الانتماء الإقليمي أبعد ما يكون عن القول إنه نتاج لما بعد الشيوعية، أو نتاج لما بعد حقبة معاهدة ماسترخت، وإنما يعود تاريخه إلى عقود عديدة مضت في تاريخ الفكر الأوروبي الحديث. وكتب هانز مومسن Hans Mommsen العام 1984، وقد أضفى على حديثه قدرا من الدرامية غير مألوف في هذه المناقشات، قائلا «لقد ماتت الأمة وليحيا الإقليم». وتساءل رينر إلكار Rainer Elkar العام 1981عما إذا كانت مظاهر القلق الإقليمي لا تمثل الآن الشبح الذي يستبد بخيال أوروبا. وعقب يوخن بلاشك Jochen Blaschke عام 1980على أحداث عقد كامل أو أكثر من عدم الاستقرار. ونشر كتيبا عن الحركات الإقليمية الأوروبية، واستهدف ذلك أن يكون دليلا يوجه من اختلط عليه الأمر عبر غابة من الباسكيين Basques وسلوفينيين Slovenes والصرب Serbs واسكندلنديين Scots اللابيين Lapps والوالونز Walloons والفلمنكيين Flemish والبريتانيين Bretons والكروات Croats والمجريين Magyars والقبارصة Cyprtots والتيروليين الجنوبيين South tiroleans وسكان جزر الماديرا والكاتالينيين Catalans والأوكسيتونيين Occitans وغيرهم.

ولكن، وعلى الرغم من هذا القدر الذي تشير إليه هذه النظرة الاسترجاعية الموجزة فإن النقاش الراهن بشأن أقاليم أوروبا أو «أوروبا ذات الأقاليم»، إذا استخدمنا العبارة التي صاغها لأول مرة دنيس دي روجمو Denis de Rougemont إنما يتضمن قدرا قليلا من اليقين، وقدرا أقل من توافق الآراء بشأن القضايا الأساسية مثل الذي نعنيه بمصطلح إقليم أو ما رأيناه بشأن قضية أكثر أساسية وهي الطبيعة الدينامية الأوروبية التي رسختها الأقاليم. إذ يرى البعض أن الأقاليم وحدات عرقية وثقافية، ويرى آخرون أنها وحدات اقتصادية، أو جغرافية بينما هي عند فريق ثالث مجرد تقسيمات سياسية تابعة للدولة ـ الأمة. ونجد إعلانا لإحدى المجلات عن «الشبكة الإقليمية» الأوروبية التي تشتمل على «أمم صغيرة» وكذلك «أقاليم». ويصف الإعلان ثلاثة منها باعتبارها «لصيقة بالناس» وتعبيرا عن التنوع الثقافي وحساسة للإيكولوجيات الإقليمية. ونلاحظ أن أولئك الذين يرون «أوروبا ذات الأقاليم» هي النموذج الأعظم لمستقبل تظهر فيه تدريجيا نزعة عالمية «كوزموبوليتانية» متسامحة، ونزعة محلية ذاتية ليمثلان في النهاية بنية متكاملة مستقرة في مواجهة جمهرة المتشائمين والواقعيين والانفصاليين، الذين يتوقعون مسبقا تزايد التباين والتمزق والتفكك والانحطاط. ونشير هنا إلى كتاب كرستوفر هارفي «صعود أوروبا الإقليمية» الذي يمثل واحدا من بين كتب قليلة تحاول التوليف والتوفيق داخل هذا الجدال المتناثر. ويشبه هارفي في كتابه هذا الحوارات الدائرة بحفل غداء نُظّم على نحو سيئ، بحيث أن الضيوف ـ وهم هنا خليط من المباحث العلمية

المتنافرة - يحتالون للتحدث، ليس إلى بعضهم البعض، بل كل يتحدث في مواجهة الآخر. ويعبر نيرن Nairn عن هذا بقوله «إن أوروبا ذات الأقاليم تظل فكرة مائعة غير محددة على نحو مثير للدهشة... بحيث لا نجد خارطة يمكن أن توضح لنا معناها». ويتساءل «هل هي نظام جديد أم فوضى جديدة؟».

ولنا أن نسأل أيضا بعد ذلك وما هو الجديد تحديدا في هذا؟ إن التفكير نادرا ما يتوقف ليعطي فرصة للتأمل التاريخي. بيد أننا هنا نجد أنفسنا غارقين في حوار يتسم بالتعقد والثبات والإصرار على نحو يكشف عن أسباب تاريخية، أعمق من أحدث تحول صادفته توجهات الاتحاد الأوروبي. ولكن ما يثير بعض الدهشة أن التحليل التاريخي المستدام «لأوروبا الإقليمية» يغذي الجدل المعاصر: أو لنقل بكلمات هارفي «إن تاريخ التكوينات المدنية والإقليمية والأمة - الثقافة في أوروبا وأخلاقياتها - والتي ستؤثر كما هو واضح في تاريخ أوروبا عند كتابته إذا ما نجحت الحركة - سوف يظل غامضا. واستطرد هارفي من أجل كتابة «تفسير موجز ولكنه شامل عن الماضي الأوروبي القريب». وأكد في كتابته «الفكرة الإقليمية» وربط تجلياتها التاريخية بتجلياتها المعاصرة. ولكن هدف مقالنا هذا مختلف عن ذلك إلى حد ما. إنني بدلا من أن أشير إلى خطوط عامة لمركب بديل، أو أن أضيف إلى ما قاله هارفي سوف ألفت الأنظار إلى بعض السبل التي استطاع من خلالها الإطار الفكري للتحديث بعد العام 1945، أن يزيد من غموض نظرتنا إلى أقاليم أوروبا أكثر مما استطاع أي نموذج مفاهيمي آخر. وسوف أوضح كيف أن هذا الإطار الفكري للتحديث قد تهاوت قبضته وعجز عن فهم التطور الأوروبي الحديث.

لقد اقترنت تحديات نظرية التحديث وتعديلاتها بظهور تدريجي لأقاليم أضحت عناصر فاعلة أساسية في المجتمع الأوروبي. ولقد تطورت كل من التحديات والتعديلات ببطء ودون إثارة وصاحبها قدر قليل من البهرجة الأكاديمية، التي يعلن عن وقوع تحولات في الإطار الفكري أو عن حركة تصحيح في مسار المعركة. بيد أن تراكماتها أفضت إلى تحول فهمنا لدلالة وأهمية الأقاليم في التاريخ الأوروبي. ويتبقى لنا أن نرى ما إذا كان هذا التحول يشير إلى نوع من المركبات أو التوليفات الفكرية الجديدة - مثل كتاب هارفي «تاريخ أوروبا كما سوف يكتب مستقبلا» - أم أنه يشير فقط إلى نمط بعد حداثي مألوف يحدثنا عن الكليات المشددة والمواقف المؤقتة والنهايات المفتوحة.

إن نظرية التحديث، أيا كان نطاق قصورها، لم تكن العلة الوحيدة لغموض التاريخ الإقليمي في الأزمنة الحديثة. وقبل أن نتحول إليها وإلى فترة ما بعد الحرب عامة، نحن بحاجة إلى أن نقيم ولو بإيجاز نتائج الحضور المكثف للأمم على المسرح الأوروبي بالنسبة للأقاليم والتاريخ الإقليمي. وإن المسألة ليست أن الأمم أكبر وأقوى من الأقاليم موضوع اهتمامنا هنا، بل إن العملية برمتها التي شكلت الأساس ليكون التاريخ المكتوب مهنة بذاتها في الحقبة الحديثة ويتدخل بقوة وعمق بشأن تشكل الدول - الأمم وتأكيد مشروعيتها. وهذه نقطة مألوفة ومعروفة ولكنها تستحق التأكيد والتكرار من منظور أقل ألفة وهو منظور التأريخ الإقليمي. وقال في هذا الصدد أيوجين فيبر Eugen Weber «كان المؤرخون هم مثقفي «انتلجنسيا» القرن التاسع عشر إذ قدر لهم أن يعيدوا كتابة أساطير أساسية. وكان التاريخ هو فقه دين القرن التاسع عشر لأنه هيأ للمجتمعات إمكان التحرر من قبضة وقيود العرف والعادة والارتباط من جديد

بماض أعيد اكتشافه، أو لنقل أعيد اختلاقه». وطبيعي أن يتسع نطاق ملاحظات فيبر هنا لتتجاوز فرنسا. وكتب المؤرخون من كل أنحاء أوروبا عن تأسيس وماضي أممهم، وعن تماسكها ووحدتها. ويعتبر توماس بابنجتون ماكولاي Thomas Babington Macaulay حالة واضحة هنا. ذلك أن كتابه «تاريخ إنجلترا منذ تولي جيمس الثاني العرش (1848-1855)» لا قيمة له إلا أنه دعوة للاحتفال بانتصار قومي. وتمثل أثره الكبير في تخليص الدراسة التاريخية الإنجليزية من قيود النظرة الكوزبولوليتانية والنظرة المحلية على السواء، وقد كانت لهما الغلبة والسيادة خلال هذا القرن، وتبدو حالة ألمانيا واضحة غاية الوضوح. ونشير هنا إلى ستيفان بيرجر Stefan Berger الذي حذرنا مؤخرا من العودة إلى ما سماه جاكوب بورخارت Jakob Burckhardt منذ زمن طويل «نزعة الانتصار الألمانية». إذ كتب وقال «إن ادعاء الموضوعية على لسان النزعة التاريخية الألمانية ليس إلا حجابا شفافا يخفي نزوعها إلى إسباغ الشرعية على الأفكار السياسية القائمة ومن ثم لكتابة تاريخ المنتصرين. إن الجميع لم يكتبوا التاريخ من أجل التاريخ بل لكي يسمحوا للألمان أن ينموا هويتهم القومية».

وهكذا نجد أن الحط من قيمة الأقاليم وماضيها خلال القرن التاسع عشر، ظهر وبشكل طبيعي في موازاة انتصار عمليات التأريخ القومي. واعتمدت على ثروة من المفردات - شاعت بين جميع أبناء النخبة البرجوازية الأوروبية منذ التنوير - والتي تتحدث عن الريفي والجزئي والمحلي الخاص. ولم تختف دراسة الأقاليم والريف والمناطق المحلية وإنما أصبحت دراسة فرعية تابعة لمشروع التاريخ القومي، وقام بها أساسا هواة ليس لهم باع كبير في الجمعيات التاريخية المحلية. وهكذا فإن الالتزام بدراسة التاريخ المحلي أو الإقليمي لذاته يعني الكشف عن قصور في التعليم الجاد للباحث، وخاصة في فرنسا وألمانيا، عن تحيزات سياسية مثيرة للريبة. وكتب روبرت جلديا Robert Gildea عن صعوبة تأسيس أي فضاء سياسي لإلغاء المركزية داخل التراث الثوري والجمهوري في فرنسا. وكانت النتيجة اللازمة عن هذا وصف النزعة الإقليمية، ومن ثم كذلك دراسة التاريخ الإقليمي بأن أيا منهما نزعة رجعية أو مناهضة للثورة، وأنها تطلعات مشكوك فيها نحو ماض ثوري مختلق عن حريات سادت تلك المقاطعات، وعن مظاهر واضحة للتنوع الإقليمي. ونجد في ألمانيا أن مذهب تاريخ المقاطعات قد شغل موقعا مغايرا وغير موات للمقاومة، وبذل دعاته جهودا لتحديد الأرض تأسيسا على الولايات الأصغر التي ابتلعها رايخ بسمارك. وعبرت هذه الجهود عن رغبة في الحفاظ بقدر من «وعي الولاية الذاتي المستقل» داخل الدولة القومية الجديدة.

وشهدت العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين تجديدات مهمة في ممارسة التاريخ، والتي أكدت جميعها وبوسائل خيالية جديدة المكانة الثانوية للأقاليم عند كتابة التاريخ القومي. ففي فرنسا اطلع مارك بلوخ Marc Bloch على كتاب عالم الجغرافيا الفرنسي فيدال دي لابلانش المعنون «الجغرافيا البشرية»، والذي يمثل نهجا لفهم «الشخصية الجغرافية لفرنسا » من خلال دراسة الأقاليثم كلا على حدة. وحاول بلوخ نفسه استخدام الإطار الإقليمي عند فيدال. وكانت أول منشوراته الرئيسية دراسة عنوانها «جزيرة فرنسا» والتي ظهرت ضمن سلسلة لوسيان بير Lucien Berr المعنونة «أقاليم فرنسا». وكان كل من بير وفيدال غير مناصرين لدراسة التاريخ المحلي من حيث

هو كذلك. بيد أنهما في الوقت نفسه يدعوان للتنوع الإقليمي بالمعنى الاجتماعي والجغرافي معا. وأطلق بير على هذا اسم «التفردات التاريخية» على نطاق صغير. وعلى الرغم من احتمالات الجدل بشأن القول إن بلوخ يعتبر وسط المؤرخين المحليين أهم وأكثر احتراما من أي أقرانه في مشروع بير، فإنه انتهى إلى نبذ فكرة الإقليم كهدف للدراسة أو فكرة أنه كيان حقيقي. وخلص إلى التاريخ المحلي الممعن في طابعه المحلي «غير ذي فائدة للتاريخ العام».

وأصدرت العام 1931 رؤيته التوليفية الباهرة التي تحمل عنوان «الخصائص العامة لتاريخ الريف الفرنسي». وأكدت دراسته هذه مكانة وأهمية الدراسات المحلية والإقليمية غير أنها مسائل مساعدة لمعالجة القضايا العامة. وقال بلوخ في مقدمته يجب علينا « أن نعي جيدا الجهود المهولة التي نبذلها في مجال البحث والتي يجري إنجازها في صمت داخل مقاطعاتنا»، واستطرد قائلا «نحن جميعا المؤرخون بحكم المهنة نذرنا أنفسنا بوجه عام للبحث على نطاق أوسع وبحاجة ماسة إلى هذه العوامل المثيرة للنشاط... وهكذا تطورت مدرسة الحوليات بعد العام 1929 تأسيسا على أعمال بلوخ وغيره كثيرين. وأحكمت المدرسة قبضتها على الإطار القومي للدراسات التاريخية عندما وسعت من مجالها وأضافت تجديدا منهجيا ومفاهيميا بوسائل أخرى كثيرة. إن المدرسة إذ أكدت على الظروف المادية التي صاغت أنشطة الناس وحدت من اختياراتهم ومن ثم أضفت على شعب ما طابعه المميز إنما أضافت وزنا جديدا للأمة، وأضحت تماثل البنية القومية أكثر من كونها نتاجا طبيعيا لاتجاهات تاريخية بعيدة المدى».

وتميز تطور التاريخ العرقي في ألمانيا خلال سنوات ما بين الحربين بتجديد في منهج البحث علاوة على إعادة التأكيد على الخصوصية القومية، وإن جاء هذا بتلوينات سياسية شديدة التباين. وهنا شرع مؤرخون من أمثال هيرمان أوبين Hermann Aubin ورودولف كوتشيكه Rudolf Kotzschke، في إظهار الجانب المفقود خلال الصراع بين مؤرخي القرن التاسع عشر وهو الجانب المعروف باسم المنهج. وعمد المؤرخون الجدد إلى إحياء وتنشيط التراث الإقليمي عن طريق تطبيق مناهج بحث جديدة ودراسات تحليلية مقارنة. وبينما واجه المؤرخون الأوائل ألمانيا تحت قيادة بروسيا بتواريخ الولايات الألمانية الأخرى، ابتعد الكتاب الجدد المعنيون بالجمهور عن الولايات والأسر الحاكمة حرصا على الشعب. ورأوا للشعب حضورا في مناطق الحدود والجيوب العرقية وكذلك في الدولة - الأمة ألمانيا بعد معاهدة فرساي. واستشهدوا بذلك دليلا على وجود نوع من الجامعة الألمانية Pan-Germania أو الولايات الألمانية الموحدة. وعلى الرغم من أن الأقاليم وغيرها من المواقع المحلية يمكن أن تكون مواقع مميزة ولها الأفضلية لبحث مسألة الشعب، فإن الإطار الأعم والأشمل كان إطارا قوميا، بل وكان بالنسبة للبعض إطارا سلاليا. وعلى أي حال ظلت الدراسة التارييخية عن الأقاليم تشغل مكانة أدنى. ذلك لأنها من ناحية كانت موضع اهتمام الباحثين الهواة، ثم إنها من ناحية أخرى أدنى من حيث منهج البحث لأنها كما قال بلوخ مسألة ذات اهتمام عام تقتضيها وثائق تهم إقليما بذاته. وواصل المؤرخون المحترفون من جانبهم موقفهم بطريقة أو بأخرى المتمثل في إعطاء أولوية مطلقة لعرض تاريخ الأمة.

ويقودنا هذا في النهاية إلى فترة ما بعد الحرب حيث يمكن أن نتوقع أن تخف قبضة الأمم على كتابة التاريخ، ونشهد بارقة لما سماه

جيمس ريتالاك James Refallack بأسلوب شاعري «فجر الوجود» للتاريخ الإقليمي. وتأكيدا لهذا نجد جيرت زانج Gert Zang وهو من أكثر المجددين براعة وخيالا في التاريخ الإقليمي خلال فترة ما بعد الحرب، يحدثنا عن «تصاعد مخاطر الوعي التاريخي القومي بعد عام 1945». ويضيف أنه بات من المتفق عليه بين المؤرخين الألمان أن يصفوا العقود التالية العام ١٩٤٥ بأنها فترة «نفي الطابع القومي Denationalization. والملاحظ أن مثل هذه المصطلحات يمكن أن تكشف بصدق عن فقدان الإيمان بالدولة - الأمة. ولكن ينبغي ألا نتصور أنها تشير إلى انتهاء الاهتمام بها خاصة داخل المؤسسات الأكاديمية. وإذا كان لنا أن نقول شيئا ما فهو أن نهاية حروب الثلاثين الأوروبية الثانية، جعلت قضايا القومية وبناء الأمة تبدو موضوعات أكثر إلحاحا في مجال البحث الأكاديمي أكثر من أي وقت مضى. وتتابعت الموجات موجة بعد أخرى من الدراسات التي اعتبرت صراحة الدولة – الأمة وأصولها وتطوراتها وتجلياتها، موضوعا للدراسة التاريخية النقدية الفاحصة والمدققة واحتلت موقعها فوق أرفف مكتبات الجامعة. (ويمكن أن تغرقنا جميعا أحدث هذه الموجات التي ترى نفسها رد فعل طبيعي للأحداث التي كان لها وقع الزلزال في أوروبا العام 1989). ومن الأمور ذات الدلالة على أقل تقدير أن تضاعفت عملية احتراف مهنة التاريخ، مثلما تضاعق الميل إلى نبذ الاعتقاد بأن كتابة التاريخ المحلي والإقليمي مؤشر على أنه أمر يخص هواة لا سبيل إلى إصلاحهم. وسرعان ما اتسع نطاق تدرب الدارسين الجامعيين، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. واقترن هذا بزيادة في استخدام مناهج بحث وأطر نظرية توصف بأنها مهنية خالصة، وأدى هذا كله إلى اتساع الهوة بين من كتبوا عن التاريخ الذي يعنينا وبين من يخالفونهم الرأي.

ولقد كانت نظرية التحديث هي جوهر الخطاب التاريخي ذا الطابع المهني خلال العقود الأولى لفترة ما بعد الحرب، وحظيت هذه البنية المفاهيمية بالذيوع والانتشار على أوسع نطاق في الموضوعات التاريخية. وبدأت تؤثر في عدد من المستويات المختلفة لتطمس أو تنقص من دور الأقاليم في التطور الأوروبي منذ أن بدأت الحقبة الحديثة. ونلحظ أن الاتجاهات الأساسية لنظرية التحديث في النظر إلى الأقاليم ربما اختزلت إلى ثلاثة اتجاهات يصف كل اتجاه منها نوعا من مظاهر اختفاء الإقليم - اتجاه سياسي وآخر اقتصادي وثالث ثقافي. وبدا واضحا وبشكل أساسي أن الأقاليم مقدر لها أن تختفي ككيانات اقتصادية مستقلة، وضعفت تدريجيا أسباب قوتها وضعفها في مجال الاقتصاد بعد أن استوعبتها أسواق ذات قاعدة قومية وتديرها مؤسسات اقتصادية قومية، وتهيمن عليها وتؤثر فيها النتائج المرتبطة بقوة العمل ورأس المال. ثانيا، افترضت نظرية التحديث الكلاسيكية وجود عملية طبيعية للتنامي السياسي بحيث إن المؤسسات المركزية للدولة - الأمة تضيف إليها المزيد والمزيد من المهام المدنية وإدراك الحكم. وهيمنت هنا الأحزاب السياسية ذات القاعدة القومية على العمليات التشريعية والانتخابية، وأصبحت الانقسامات والمنازعات السياسية فيها أكثر أو أقل تماثلا على نطاق الفضاء الجغرافي للأمة. ثالثا، اقتضى التحديث تنامي الثقافات القومية التي عبرت عنها لغة مشتركة، وذاعت وانتشرت من خلال المؤسسات التعليمية والفنية، وأصبحت تمثلها الآثار والطقوس والخبرات المشتركة. وهكذا كانت النزعة القومية نتاجا لكل هذه المدخلات، والوسيلة التي يحدد تأسيسا

أوروبا ذات الأقاليم:

عليها المواطنون أنفسهم في ضوء الذات الجمعية للأمة.

ولكن وراء ما قاله بالفعل مفكرو التحديث عن تطور الأمم نجد افتراضهم شبه البدهي تماما» والذي عبر عنه سيدني بولارد Sidney Pollard بقوله: «إن بلدانهم داخل حدودها السياسية هي الوحدات الوحيدة الجديرة بالبحث داخلها عن عملية التصنيع». ولعلي أضيف إلى هذا «بل وكل عملية اجتماعية أخرى تجرى داخلها». والمعروف أن تاريخ العلوم الاجتماعية خلال فترة ما بعد الحرب احتل مكانة متميزة على الميزان القومي للتحليل، بحيث رأى الأقاليم مجرد مفردات معلوماتية. ونلحظ أن التأكيد بقوة على هذا لم يمكن يمثل الجهد الأكبر والأساسي لبيان أن الكيان الإقليمي المعروف باسم الأمة، إنما هو خلق جديد بقدر ما كان يمثل تفضيلا لما سماه كل من جون أنيو John Agnew وجيمس دنكان James Duncan «التصور السوسيولوجي» المتسلط على «التصور الجغرافي». واستطردا قائلين «إن التصور السوسيولوجي يتطلع إلى تفسير السلوك والأنشطة الإنسانية في ضوء عملية اجتماعية، جرى بناؤها بصورة مجردة وعلى نحو قومي في الغالب الأعم». ونجد على العكس من هذا أن «التصور الجغرافي» يركز على الأماكن و«الروابط الفعلية» بينهما. وإذا قبلنا هذا التمييز سيبين لنا أن الأقاليم ملعونة مرتين داخل أطر التحديث، ومقدر لها الفناء في خضم التحولات التاريخية التي فسرتها هذه الأطر واختزلتها لتصبح مجرد تابعة للعلم الاجتماعي - أو، وهو الأسوأ أن تختفي عن الأنظار - في مناهج البحث المستخدمة.

ولكن نظريات التحديث والترتيبات المؤسسية التي غذتها في صورتها الأصلية قد تغيرت منذ زمن إن لم نقل بات غير معترف بها. إذ إن المؤرخين كفوا عن استخدام «الافتراض البديهي» القائل إن الأمم أو الأقطار يمكن معاملتها معاملة المعطيات غير الإشكالية في التحليل التاريخي، وأن الثقافات ونظم الحكم سوف تتلاقى في الأقطار المصنعة أو أن ثمة طريقا معيارية ووحدوية للتطور الحديث، يمكن تمييزها عن غيرها وسط النوبات والطفرات الأوروبية، وتنزع الآن الدراسات عن بناء الأمة والقومية والهوية القومية إلى التأكيد على التعدد والتشذر والتنوع والاحتماليات، والانتشار غير المتساوي والتقديرات المستقبلية غير التامة. والملاحظ أن هذه الطرق في تصور الأمة وخصائصها تستلزم مزيدا من الاهتمام بالأقاليم وبالهويات الأقليمية وأن نوليها اهتماما أكثر من ذي قبل. ونجد في الوقت ذاته أن ممارسة المهنة خلال فترة ما بعد الحرب اقترنت بتوسع جذري في فهمنا الجمعي للموضوعات التي تعني التاريخ حقيقة. إنها في النهاية لم تطلق الخيال إلى مدى بعيد بحيث يدرك الأقاليم داخل ذات الفئة الرحبة التي تضم النساء والأقليات والعمال والبيئات الطبيعية - ضحايا الحداثة والذين صادفوا اهمالا وتهميشا وإغفالا كاملا.

أخيرا شهدت مهنة التاريخ، علاوة على هذه التطورات، انبعاثا قويا منذ سبعينيات القرن العشرين لمظاهر الاضطراب الإقليمي ومحاولات تأكيد الذات الإقليمية داخل عدد من الأمم الأوروبية. وبدا هذا في صورة عرض لأزمة جديدة تواجه القومية في أوروبا. وامتزجت هذه العناصر جميعها ببعضها على نحو غير متمايز في الغالب. وأدى هذا المزج إلى اختلاط الأغراض وإلى مظاهر خلط أخرى. ونجد من ناحية أخرى هانز - يورجن بوهلHans jurgen Puhle - يؤكد لنا أن الاختلافات بين النزعتين القومية والإقليمية يمكن النظر إليها باعتبارها

مسألة دلالة لغوية «سيما نطيقية». وهناك من ناحية أخرى ستيفان برجر يحذر نا من إعادة صبغ التأريخ بصبغة قومية من جديد، ويرى أن السبيل الوحيد، «هو مزيج من النزعة الإقليمية والنزعة الأوروبية الجامعة ـ Pan Europeanism، وذلك للحيلولة دون النزعة القومية المدمرة من أن تطل برأسها ثانية»؛ ويعرب من ناحية، مدير مركز إقليمي للتعليم المدني عن بهجته لأن الدول ـ الأمم المركزية فقدت قداستها ، وأن الروابط الأقدم والأعمق بين الناس بدأ يعلو صوتها ليصبح مسموعا من جديد، ويراهن من ناحية أخرى، كبير المحافظين من جلزدنكيرشن Gelsenkirchen في ألمانيا على أنه في المستقبل، ستسقط جميع الحدود القومية وسوف تظهر حينئذ أقاليم عظمى لتتلاقى مع بعضها في منافسة حرة من أجل الاستثمارات والأسواق، ولم يستطع الباحثون خلال السبعينيات والثمانينيات أن يقولوا ما فيه الكفاية عن البريتانيين الباسكيين مرتفعات سكوتلاندا. ويبدو بدلا من ذلك أنهم فتنوا خلال التسعينيات نتيجة تواصل دعاة الإقليمية وتقاربهم الفكري. وأخيرا في صورة تلخيص لهذا الخليط المشوش يكتب جيمس جي. كيلاس ويقول: إن دراسة النزعة الإقليمية (أوروبا ذات الأقاليم) تتقاطع مع دراسة النزعة القومية على نحو مبهم. ويبدو أن النزعة الإقليمية مثلها مثل النزعة القومية ولكن من دون تلك القسمات الكريهة للانحياز العرقي والنزعات الانفصالية. وطبيعي أن تنهار جميع هذه التمايزات في الغالب عندما نتأمل بعض الأمثلة العملية. ولست أطمع في أن أوضح في الجزء الباقي من المقال الطبيعة الحقيقية للأقاليم، سواء باعتبارها جيوبا عرقية أو قوة اقتصادية أو يوتوبيا مدينة. بيد أنني سوف أناقش بعض الاتجاهات الجديدة الواعدة التي ظهرت مؤخرا في عدد من الكتابات عن تاريخ أقاليم أوروبا، خلال حقبة الدول ـ الأمم. وسوف أقتصر على ثلاثة اتجاهات جديدة: يعطي الاتجاه الأول الأولوية لمفهوم المجتمع ويولي الاتجاه الثاني أولوية لمفهوم الهوية، والثالث لمفهوم الإقليم المحلي. وهذه مجرد محاولات متجزأة للجمع بين ما يبدو أحيانا بحثا علميا شديد التباين. بيد أن أوجه التمايز مفيدة لنا مع ذلك كله إذ إنها حسبما أعتقد تشير إلى سبل واضحة التباين ومهمة لإعادة، التفكير في التاريخ الإقليمي.

النهج الأول، والذي صادف تحققا شبه كامل في المحاولات المعاصرة لإعادة التاريخ الإقليمي، تأثر بكل من نظرية التحديث (بالمعنى الذي حدده فيبر وليس بالصورة الأمريكية المقنعة)، والسوسيولوجيا التاريخية لباحثين من أمثال إيمانويل ڤالير شتاين Immanuel Wallerstein وميشيل هختر Michel Hechter وشتاين روكان Stein Kokkan. ويمثل هذا النهج تفنيدا مستداما للتعارض الشديد الذي تكشف عنه نظرية التحديث بين التقليدي والحديث ـ بين الظواهر المتخلفة المحكوم عليها بالزوال، والتي يمكن أن ندرج تحتها الأقاليم، وبين الظواهر التقدمية ومن أهمها الدولة ـ الأمة. بيد أنني في الوقت نفسه أدرج ضمن هذا النهج التزاما مبدئيا بدراسة المجتمع والعمليات الاجتماعية، علاوة على القوى السياسية والاقتصادية المرتبطة بها.

ويمكننا أن نسمي هذا تحديث الأقاليم بعد إعادة النظر أو مراجعته. ويوضح هذا العمل، في إجماله، أن الإطار الفكري للتحديث لايزال بإمكانه حسبما قال هانز ـ أولريتش وهلر Hans - Ulrich Wehler «توليد مسائل منتجة». وإذا شئنا التعبير عن ذلك بكلمات أخرى نقول إن

أوروبا ذات الأقاليم:

البحث الجديد بشأن المجتمع والسياسة في أقاليم أوروبا يقدم لنا مثالا مميزا ومحددا لشيء ظل زمنا طويلا واضحا بالمعنى العام وهو أن نظرية التحديث يسهل انتقادها ويصعب تقديم بديل عنها.

ومع هذا اقتضى الأمر أن يمضي بعض الوقت وإدخال سلسلة من التعديلات على ما نفهمه أنه خصائص التحديث حتى نصل إلى النقطة التي يظهر عندها أخيرا الاختلاف الإقليمي باعتباره شيئا آخر مغايرا، وليس مجرد استثناء للنموذج السائد على نحو يثير الضجر. ولعل من دواعي السخرية أن قدرا من الاهتمام الذي تجلى في الفكرة الباكرة بالأقاليم الأوروبية إنما ظهر مباشرة إثر موجة من التنظير التاريخي الكلي عن بنية أوروبا وكشف عن ذروة اللامبالاة بالأقاليم. ونذكر هنا أعمال كل من بارنجتون مور Barrington Moore وبيري أندرسون ووليام ماكنيل ونذكر قبلهم إيمانويل فاليرشتاين. انتقد هؤلاء نظرية التحديث ورأوا الاستبدال بها نظريات أو أولويات كبرى شاملة Master Narratives أكثر طموحا واستهلاكية تماما. وأكد وليام سيويل أن النتيجة المترتبة على النظرة الكونية الحاكمة عند فاليرشتاين هيأنه فسّر المحلي جملة وتفصيلا على أساس العام، «إن القضايا الكوكبية على مستوى المنظومات وليست القضايا المحلية هي التي تحدد مصير المجتمعات المحلية. علاوة على هذا فإن نموذج المنظومات العالمية قسم أوروبا إلى ثلاث أقاليم كبرى: قلب دينامي شمالي غربي، ومحيطان أو طرفان راكدان تابعان في الجنوب والشرق.

ولعله لا يكون غريبا أن إحدى الاستجابات إزاء أعمال فاليرشتاين تمثلت في مجاراتها والإسراع في إثرها التماسا لصور أكثر تعقدا لنموذج المركز - المحيط على أمل الوصول إلى «شبكة من المتنوعات الأوروبية متعددة الأبعاد،» والتي يظن أنها ستفي وتغطي جميع الاحتمالات. وصدرت من هذه الأعمال كميات كبيرة تغطي قضايا كثيرة ومثيرة ابتداء من تنفسيرات الفلاندرز ووضعهم في إطار المحيط الثقافي، وكذا دراسات من أطراف محيطية في المحيط نفسه ونعني بذلك النرويج. ونذكر هنا كتابات ميشيل هختر لقربها الشديد من هذا النهج والتي تشدد على النزعة الإقليمية في الجزر البريطانية. وأثبتت أعمال هختر إمكان صدور مثيلات لها في عديد من الأماكن المهمشة. ونلحظ هنا أن نموذج المركز ـ المحيط اكتسب طابعا تشاؤميا. ذلك أن العبارة التي يختتم بها هختر كتابه وهي «الاستعمار الداخلي» إشارت إلى عملية جوهرية بالنسبة للتصنيع ولبناء الأمة وهي عملية إنتاج مطرد ومتزايد لحالات التباين وعدم المساواة الإقليمية داخل الدولة ـ الأمة. لقد عارض هختر في البداية كارل ديوتش صاحب كتاب القومية والتواصل الاجتماعي». ويعتبر هذا الكتاب واحدا من أبرز الأعمال المتعلقة بالإطار الفكري الأصلي للتحديث، إذ ذهب ديوتش إلى أن التمايزات الاجتماعية الثقافية بين المقاطعة والحاضرة «المتروبول» سوف تختفي أو أنها على الأقل سوف تتقلص إلى أدنى حد مع الزمن. وأكد هختر على النقيض من ذلك أن أقاليم معينة ـ وقد كان معنيا أساسا بالحواف الكلتية Celtic في ويلز وسكوتلاندا وشمال أيرلندا ـ تخلفت اقتصاديا نتيجة دمجها داخل منظومة اقتصادية قومية، وأن استمرار الأشكال قبل الحديثة ذات الطابع الاجتماعي في هذه الأقاليم لا يمثل التخلف بقدر ما يمثل أدوات نافعة للتعبئة السياسية ضد المركز القاهر. وهكذا أصبح «الاستعمار الداخلي» أشبه بصيحة المعركة عند دعاة الانفصال والحركات المطالبة

بالاستقلال الذاتي في جميع أنحاء المحيط الأوروبي. ويبدو أن فائدتها العلمية أكدتها دراسات عديدة ومجموعات من المقالات المخصصة لدراسة فئة غامضة من «الأقاليم المغبونة».

وإذا تأملنا الاندفاع المحموم لوضع نماذج على أيدي مفكرين من أمثال روكان وهختر نستطيع أن نقول، بقدر ما هو متاح لي الآن، إن المؤرخين أفادوا هم أنفسهم من النماذج (التي قد تكون مفيدة بقدر أو بآخر نوازع وميول الباحث)، بأقل مما أفادوا من التحليل التاريخي الذي يفتقر إلى الحماسة، والذي التزموا به دائما. وإذا قرأنا تحليل روكان – أو روين للسياسات الإقليمية الأوروبية، يبين واضحا تماما الحاجة إلى تفسيرات تاريخية مدققة تفسر موضوعا بذاته. والملاحظ أن نموذج المركز – المحيط وإن كان مثيرا للاهتمام، إلا أنه ينزع إلى فهم طبيعة الانتماء الإقليمي كشيء سلبي بمثابة رد فعل ـ وإنه بذلك يمثل فقط تحسنا طفيفا في مجال التفسيرات المتمركزة حول الأمة. ولكن روكان وهختر جعلا بالإمكان أن نرى في ضوء مغاير أعمال بعض المؤرخين الألمان، وكذلك العلماء المحليين والأثريين وأنصار المؤرخ الفرنسي هيمات المتحمسين له، بل لنا أن نضيف علاوة على هذا أن لهما الفضل في حفز الباحثين للاهتمام من جديد بالمستوى المحلي والإقليمي للجنة التاريخية، باعتبارها هي ذاتها أحد مكونات عملية التحديث، وكتب ألان ميتشيل العام 1979 يقول إن النزعة الإقليمية في ألمانيا كانت «الموضوع الذي لن يندثر»، وإذا ما وسعنا من مدلول النزعة الإقليمية لتتجاوز حدود الإشارة إلى نزعة الأسر الحاكمة للولايات الصغرى، فسوف تكون لهذه الملاحظة أصداؤها في كل أنحاء أوروبا. وجدير بالذكر أن ما سماه بيرند فايزبرود Bernd Weisbrod «الارتباط من جديد» بالمقولة التاريخية الخاصة بالإقليم، أدى إلى صدور أعمال أطاحت برائحة العفن الناجمة عن تاريخ هيمات، وأطاحت بالميل الذي لازم دراسات المركز ـ المحيط منذ ڤالير شتاين ومن جاء بعده، إلى اعتبار العمليات المحلية أكثر قليلا من كونها نتائج عارضة ناجمة عن قوى مجردة أوسع نطاقا.

وبدأ هذا «الارتباط المتجدد» في مجال التاريخ الاقتصادي وهو أمر منطقي تماما. ذلك أن الحلقة الرابطة بين التحول الاقتصادي والدول ـ الأمم كانت دائما هي الحلقة الأضعف في سلسلة التطورات المتفاعلة، التي تألفت منها عملية التحديث، إذ قبل أن تصبح العولمة بزمن طويل الكلمة الطنانة الشائعة بشأن الاقتصاد الأوروبي، توارى تصور الحياة الاقتصادية مركزا للأمة وأفسح مجالا لكي يعيد سيدني بولارد صياغة مفاهيم جديدة عن التصنيع في اتساق مع الخطوط الإقليمية لا القومية. ولا يزال بولارد يعرض قصة مهمة تحكي التصنيع الأوروبي باعتباره عملية وحيدة تزدهر وتتوسع تدريجيا، بيد أنه فهم أن الأقاليم، وليست الأمم هي الوحدات الدينامية داخل العملية، وهي المواقع التي تجري في داخلها التحولات، كما وأنها القواعد الجغرافية أو ساحة الانتشار، ولكن السؤال عما إذا كان إقليم بذاته تحول إلى إقليم صناعي في وقت مبكر أم متأخر فإن هذا رهن عوامل كثيرة ـ اجتماعية، وسياسية وثقافية. وذهب إلى أنه ما أن يتحول الإقليم إلى إقليم صناعي حتى تسير عملية التحول وفق أنماط محددة. وأوضح بولارد، مع هذا ومنذ البداية أنه لا يعتزم التركيز على النتائج المترتبة على التصنيع بل على العملية ذاتها. وشجع هذا النهج يقينا على صدور تحرر كبير من البحوث المتباينة

عن التصنيع، بيد أنه لم ينف إمكان أن نرى الأقاليم، حتى ما تم تحديده منها اقتصاديا، باعتبارها أقل أهمية مع تقدم عملية التصنيع.

ورأى بولارد أن إقليم القرن التاسع عشر يختلف اختلافا كبيرا عن نظيره في القرن الثامن عشر. واسُتكمل هذا الفارق بكم كبير من الحلقات الرابطة والتفاعلات. غير أن هذه الحلقات ذاتها نقلت موضوع الدراسة، بعد أن بدأت عملية التصنيع، إذ نقلتها من الإقليم إلى منظومة الحلقات باعتبارها كلا واحدا سواء أكان هذا الكل الدولة ـ الأمة أم أي كيان آخر مثل «عالم البحر المتوسط» أو العالم ذاته.

وتحولت بعد بولارد دراسات عدة في اتجاه التأكيد على وجهات النظر الإقليمية بشأن التصنيع والاقتصاد السياسي. واستخدمت المنظور الإقليمي صراحة بغية تحدي الأسلوب الذي اتبعه المؤرخون للتعبير عن «التاريخ الذي يعنينا». وجدير بالذكر هنا موقف كل من بات هدسون ومعاونيها. ولعل من الأهمية بمكان بيان أن أكثرهم جاء من مؤتمر معلمي التاريخ الإقليمي والمحلي. وتناولت بات هدسون ومعاونوها موضوع الثورة الصناعية في إنجلترا وأكدوا من جديد أهمية الدراسات التاريخية الإقليمية عن التصنيع كوسيلة «لفهم وإدراك تباين الخبرات والدوافع التي أفضت إلى تكوين ذلك الكل الشامل». وتمثل أعمال هدسون الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة، من المعارك بين أولئك الذين يستخدمون المؤشرات الاقتصادية والفرق الاجتماعية القومية، لتتبع حركة التغير الاقتصادي، وبين أولئك الذين يصرون على أن مثل هذه التجمعات «تغفل بشكل منظم التحولات المهمة التي تجري تحت السطح»، والخاصة بالخبرة التي تألفت وتجمعت على صعيد قومي. ويدور الآن جدال داخل نطاق التاريخ الاقتصادي.

ونجد لهذا الجدال نظيرا في مطلع القرن العشرين يتمثل في أول ثورة كبرى تتعلق بالنزاع حول مستوى المعيشة، حيث وصم في العشرينيات كل من جي. إل. وباربارا هاموند J. L.Barbara Hamond الثورة الصناعية بأنها كارثة.

وعارضوا بذلك جي. إتش كلافام الذي قدم «تاريخا اقتصاديا» أكثر هدوءا عن «العصر الباكر للسكك الحديدية». ولقد كان كلافام يقينا أفضل باحث إحصائي، مثلما كان، ويا للسخرية جامعا لا يكل ولا يمل لإحصائيات المقاطعة. بيد أن هاموند في أول رد رسمي عليه في يناير 1930 كشف له عن خطأ إحصائي بدائي، إذ أوضح أنه لفق متوسط أجور قومي مستخرجا من متوسط متوسطات المقاطعة. وأوضح أن هذا المتوسط أغفل عدد العمال في كل مقاطعة على حدة ومن ثم أخفى بذلك حقيقة أن 60 بالمائة من عمال إنجلترا يعيشون دون المستوى، وهي الحقيقة التي وضعها هاموند في حسابه. وهكذا، وحسبما تكشف اعتراضات هدسون على القائمين بتقديم صورة كلية للتاريخ الاقتصادي الجديد أصبح موضوع النزاع هو ما إذا كانت تجربة الحداثة الاقتصادية يمكن فهمها، باعتبارها تجربة تدريجية سهلة التمييز وتمثل تحولا زاخرا بالأحداث على المدى الطويل، في صورة إنتاج أم أنها ضرب من ضروب تغير الحياة، وأنها في أزمنة وأمكنة معينة تبدو تجربة درامية تفضي إلى نتائج واضحة مميزة فيما يتعلق بالهوية الاجتماعية والسياسية.

وتقدم هدسون هنا حالة مميزة وكاملة تماما تمثل تلك الصورة الأخيرة. ولكنها تؤكد أن سبيلنا الوحيدة لكشف هذا التاريخ هو ألا يقتصر بحثنا على الأسباب فقط بل وأن نبحث أيضا عن النتائج في تحولاتها وتبايناتها وفي مظاهرها المختلفة والناجمة عن التحول الاقتصادي داخل

المجتمعات المحلية التي كانت أقاليم.

وأحدث كتاب جاري هيريجيل Gary Herrigel «البنى الصناعية» أثرا مذهلا تجسدت فيه القوة الكامنة والقدرة الكاملة للتاريخ على إعادة صوغ، ليس فقط إحساسنا بما هو مهم، بل وأيضا فهمنا الكامل لما حدث، يضعنا كتاب هيريجيل أمام تاريخ للتطور الاقتصادي الألماني الذي يتجاوز كثيرا الحدود التي ذهب إليها سيدني بولارد أو هوبرت كيسويتر Hubert Kiesewetter، أو أي مؤرخ آخر من المراجعين الذين عمدوا في الجولة الأولى إلى مراجعة التاريخ المتمركز حول الأمة، ونبذوا ليس فقط الوحدة القومية كأساس للتحليل بل وأيضا جميع التأكيدات والافتراضات الأخرى المصاحبة لها. ولكن هذا بالنسبة لحالة ألمانيا يعني أولا وقبل كل شيء نبذ التأكيد على وجود أشكال خاصة بذاتها للتنظيم الاقتصادي والحكم والتي أشار إليها أول من أشار ألكسندر جيرشنكرون في كتاباته ذات النفوذ الواسع والمهول. ويذهب جيرشنكرون إلى أن التصنيع في ألمانيا تطور في اتجاه بناء مؤسسات كبرى عالية التركيز ومتقدمة تكنولوجيا ومندمجة رأسيا، ومتحالفة مع المصارف الكبرى ومدعومة من جانب مؤسسات مرتبطة بالدولة القومية. وافترضت هذه النظرة، حتى حينما لم تثبت بالبرهان والدليل، وجود تحول اجتماعي موحد وقع في الأماكن التي شهدت عملية التصنيع. وهكذا يبدو التصنيع في ألمانيا غير متساو من حيث النطاق ولكنه بدا مع هذا متماثل المظهر والنتائج والمرمى. وظلت هذه النظرة كما هي دون أن يمسها أي تغيير على الرغم من موجات المراجعة، ذلك لأن الدراسات التي بحثت جوانب تطور الاقتصاد الألماني والتي لم يكن لها سلوك أو مظهر القلب من دراسات جيرشنكرون ظلت عند الهامش.

ويؤكد هيريجيل أن ما حدث لا يقل عن وقوع تحول في الإطار العام، إذ يطرح هيريجيل جانبا نظرة المؤرخين «للرأسمالية المنظمة عضويا» والتي يرون فيها الصناعات الصغيرة والمتوسطة في الأقاليم أمرا غير مألوف، ويعمد بدلا من ذلك إلى تجميع كل الحالات الاستثنائية ويجري تحليلا دقيقا للأشكال المميزة لها من حيث التنظيم والتكوين المؤسسي والإدارة، ويضعها في ترتيب فوق النمط القديم للتنامي. ويخرج من هذا بتصور مختلف تماما عن التطور الاقتصادي في ألمانيا. ونلحظ أن الصورة البديلة هي صورة إقليمية في جوهرها بحيث تغدو التفسيرات السابقة وعلى نحو عرضي هكذا فقط، ويسوق الحجج ليؤكد وجود «منظومتين للتنظيم والممارسة الصناعيين، وأنهما منظومتان متمايزتان، متوازيتان ومتنافستان دوليا. ويذهب إلى أن كلا من هاتين المنظومتين إقليميتان، وأن كلا منهما استحدثت أشكالا متمايزة للإدارة ومتغايرة حتى على المستوى القومي. ويطلق هيريجيل على المنظومة الإقليمية الأولى اسم «نظام صناعي لا مركزي»، ويرى أنها تميزت منذ بدايات التصنيع في الأراضي المتحدثة بالألمانية بصيغات محددة هي: منتجون صغار متخصصون، واستحدث هؤلاء مؤسسات داعمة لحفز التجديد ولجعل المخاطرة اجتماعية الطابع، وأيضا لتشجيع التعديل والملاءمة. أما المنظومة الإقليمية الأخرى التي يسميها «النظام الصناعي المكتفي ذاتيا»، فإنه يشبه كثيرا جدا صناعات المركز أو القلب عند جيرشنكرون ولكن أعيد وضعه في سياق آخر باعتباره إقليميا وليس منظومة قومية كما كان مفهوما ضمنا. وهكذا نجد أن إسهام هيريجيل يتجاوز حدود الدعوة إلى فهم التباين أو مقاومة التعميم، وإنما يمثل إسهامه جهدا مهولا وناجحا لبيان أن المناطق

أوروبا ذات الأقاليم:

موضوع الدراسة لم تختف عن الأنظار، وأنها في الحقيقة تواصل وبقوة تأكيد صلتها الوثيقة بأوروبا اليوم وأنها هي وليس الأم (وليس أيضا المدن أو البلدان الصغيرة)، منذ البداية كلبنات البناء الرئيسية التي تم بها شُيّدت بها منظومات مختلفة للتنامي الصناعي داخل وخارج أوروبا.

وجدير بالذكر أن مثل هذه المحاولة لإعادة الهيكلة بصورة شاملة ليس مرجحا حدوثها في عالم التاريخ السياسي التقليدي وذلك من ناحية، لأن الدراسات المحلية عن السياسات القومية وكذا السياسات المحلية في الحقيقة، كانت حاضرة منذ زمن طويل في صورة المؤرخين السياسيين. ونذكر بهذه المناسبة، رغبة في بيان الفارق إزاء الفقرة السابقة، أن التواريخ الإقليمية للسياسات القومية كانت شائعة جدا لطمس الحاجة إلى تواريخ إقليمية جوهرية عن الحياة السياسية للأمة. ولايزال المؤرخون السياسيون الذين يواصلون التأكيد على العمليات الاجتماعية والنمذجة العلمية الاجتماعية، يشعرون بالحاجة إلى صقل مفاهيم إضفاء الطابع القومي مثل مفهوم التحديث السياسي ـ وذلك لاستكشاف «الإمكانات التحليلية للمفهوم ولنبذ إمكاناته المعيارية». وإن هذه المراجعات التي تحدث داخل نطاق عمليات شديدة التباين للتأريخ القومي، تنشد الوصول إلى فهم كامل للانتماء الإقليمي للدول ــ الأمم الحديثة. ولكن، وكما حدث في مجال التاريخ الاقتصادي، فإن تحقيق ذلك صعب، بل وأصعب بما يبدو للوهلة الأولى. ذلك لأن مصطلحا يبدو أول الأمر مصطلحا واضح المعنى ـ وهو الانتماء الإقليمي ـ إنما ينتمي إلى طابع متناقض عند استخدامه في الحقبة الحديثة. ونشير هنا إلى أن أبرز وأهم الكتابات التاريخية الإقليمية (مدرسة الحوليات والمدرسة الألمانية والتاريخ الفيكتوري لمقاطعات إنجلترا وغيرها)، أغرقت نفسها بالعناية البالغة ببواكير الفترة الحديثة بل وربما قبل ذلك، وقتما كانت عبارة الانتماء الإقليمي التي تشي في ظاهرها بالتناقض ليست أقل من قسمة تعينية تميز التنظيم السياسي. وأوضح مؤخرا بيرند فايزبرود أنه كان أيسر على من يكتبون تاريخ الحضر، أن يسهموا في التاريخ المعاصر بدلا من أولئك الذين يكتبون التاريخ الإقليمي، وذلك لأن المدن وليست الأقاليم هي التي تجلت لنا وظهرت في صورة مواقع الحداثة. وهكذا نجد أن التوسع الحضري وليس غلبة الطابع الإقليمي (أيا كان المعنى المقصود) هو الذي نقرنه بعملية التحديث، وشكلت عودة ظهور الحركات السياسية الإقليمية خلال السبعينيات والثمانينيات إضافة جديدة إلى صعوبة صياغة فهم للانتماء الإقليمي في السياسات الحديثة. وهكذا خلقت الحركات الإقليمية خلال فترة ما بعد الحرب ماردا عملاقا مراوغا أمام المؤرخين ـ مارد تعين على كثير من الباحثين المؤمنين بفكرة المركز ـ المحيط أن يتعقبوه منذ ذلك التاريخ. لقد أفاد المثال الذي قدموه أن الانتماء الإقليمي في السياسة الحديثة تألف فقط وعلى سبيل الحصر بفعل تأثير الأقاليم المتمردة والتعيسة والتي هي في الأساس غير متلائمة مع الدولة ـ الأمة. وتمثل هذه الأقاليم شاهدا بطريقتها الخاصة على مركزها الأسبق المفضل في العالم الحديث. وهكذا نجد قدرا كبيرا من الأعمال التاريخية المتعلقة بالنزعة الإقليمية في التاريخ الأوروبي تحصر نفسها في إطار سياسة نزعة الاستقلال الذاتي أو الانفصالية. ولا ريب في أن هذا موضوع مهم ولكنه ليس الموضوع الذي يستوعب كل الاحتمالات القائمة على الانتماء الإقليمي السياسي خلال الحقبة الحديثة. إذ يتعين ألا نفهم الأقاليم فقط باعتبارها أمما كانت

محتملة الظهور. ذلك لأنه من خلال هذا المنظور لن يكون أمامنا سوى خطوة واحدة لنعود مرة أخرى إلى فكرة أن النزعة الإقليمية نزعة رجعية وقديمة بل وقبل كل هذا عملية انتقالية.

إن الشيء اليقين أن الحركات الإقليمية سواء أكانت تنزع إلى الاستقلال الذاتي أم إلى الانفصال أو غير ذلك، هي عنصر مهم من عناصر الانتماء الإقليمي في الدولة ـ الأمة الحديثة. ولكنها وحدها لا تستطيع أن تزودنا بتعريف غني ومثمر للانتماء الإقليمي أو إسباغ الطابع الإقليمي أو الهوية الإقليمية أو النزعة الإقليمية. ولكننا بدلا من هذا نرى أن أهم الأعمال التاريخية الواعدة تتحرك في اتجاه الوصول إلى فهم للسياسة الإقليمية التي تتجلى في كل مكان سواء في ساكسونيا أو بافاريا، أو بريتاني أو في الشمال. وتبدو عنصرا تكوينيا ـ وليس محاكاة ـ في سياسة الدولة ـ الأمة. وتمثل نتيجة لهذا البنية التحتية الأساسية للعملية السياسية في مجموعها، ليس معنى هذا أن السياسة الإقليمية ذات وجه محلي، أو أن بإمكانها أن تحدق لصورتها هي المنعكسة على صفحة مرآة إقليمية. وإنما على العكس فإن العمليات ذاتها التي تنهض بها السياسة القومية كانت رهن الأوساط السياسية الإقليمية، وأن كل وسط من هذه الأوساط كوّن وأعاد تكوين ذاته من جديد فيما بين وعلى مدى المنعطفات التاريخية الكبرى في التاريخ السياسي، أو لنقل بعبارة أخرى إن كلا منها كان مركزا أو موقعا للتحول والتحديث. ونضيف إلى هذا أن اتجاهات حقيقية وواقعية تماما تهدف إلى إضفاء الطابع القومي على المسائل السياسية والأحزاب السياسية والسلوك السياسي، قد اقترنت باتجاهات معاكسة ومثيرة للتعقيد تهدف إلى التباين الإقليمي، بل وأحيانا إلى المقاومة الصريحة السافرة.

والملاحظ أن هذا الفهم للانتماء الإقليمي في الدول - الأمم الحديثة، ربما يتسلل بسهولة أكبر في التاريخ السياسي للدول الأمم الفيدرالية على غرار ألمانيا الحديثة. والمعروف أن مؤرخي ألمانيا قد نهضوا على مدى العقدين الأخيرين بعدد من المشروعات الجمعية المكثفة بشأن تحديث الأقاليم بغية الوصول إلى فهم أفضل لتحديث ألمانيا ككل. وجدير بالذكر أن هذه المشروعات تعارضت وبوعي ذاتي مع تقاليد وتراث التاريخ المحلي وتاريخ الولايات. ونراها بدلا من ذلك تبنى على تراث وتقاليد أكثر حداثة خاصة للتاريخ العلمي الاجتماعي خلال فترة ما بعد الحرب الجمهورية الاتحادية، وتلتمس تعقد تحليلاتها للسياسات القومية. وبذلت جهود مماثلة بغية إعادة فهم وتحديد التاريخ المحلي والإقليمي، الأمر الذي أفضى إلى تحديثها بحيث يمكنها أن تلقي ضوءا على التحديث. وأدت هذه الجهود إلى الدخول في حقبة جديدة تماما في تاريخ الأحزاب السياسية والتغير الدستوري في ألمانيا، علاوة على فيض لا ينتهي من الدراسات المرتكزة على أساس إقليمي لدراسة الاشتراكية القومية. وإن من نوافل القول تكرار إنجازات مثل هذه الدراسات التاريخية وقد جاءت على نطاق واسع وبكميات كبيرة جدا. ويكفينا هنا القول إن جميع هذه الدراسات المدققة عن البنية التحتية الإقليمية للسياسة، لم تكن لا سبب أزمة عاتية ولا مراجعة شاملة لفهمنا عن الأمة الألمانية. وأحسب أن ليس لنا أن نتوقع هذا أو ذاك. ولكن حدث بدلا من هذا أن أفرزت هذه المراجعة على أساس إقليمي حركة توسع بطيئة لمفاهيم ارشادية جديدة، والتي من شأنها أن تحل محل المفاهيم القديمة أو تصححها لنقرأ مفاهيم مثل الدمج الثانوي والتحديث من دون

مقرطة بل ونزعة شمولية. مثال ذلك أن بيتر شتاينباخ أكد أن عملية من عمليات «إعادة إضفاء الطابع الإقليمي» إنما هي أصيلة في التحديث السياسي في ألمانيا. وتشير عبارة «إعادة إضفاء الطابع الإقليمي» إلى القوة المتنامية لنوع من النزعة السياسية المحافظة المقترنة بتقاليد فيدرالية وتخصيصية، بيد أنها تشير أيضا وفي توسع أكبر إلى الطرق التي تدعمت وتعززت بها الثقافات السياسية الإقليمية وكذا طرق تحولها على نحو غير متوقع في تواز مع نمو الحركات السياسية القومية. وهذا هو ما تمثل في توسع الدولة الإمبريالية وفي حشد جماهير الناخبين.

وهكذا فإن الثقافة السياسية القومية، وفي الحدود الذي لايزال يسمح فيها هذا المفهوم بالمراجعة، أصبحت أمرا متعدد الأوجه، ومزيجا أكثر تركيبا وتعقدا من حركات متشابكة تتجه نحو الاندماج والتباين أكثر من كونها مجموعة من الخصائص المتناهية والواضحة كميا أو مجموعة من الاستراتيجيات ذات الطابع المهيمن والمركزي. لقد كانت دائما في صورة عملية مستمرة ولم تبلغ غايتها أبدا ـ ومثل هذا المنظور كما هو الحال في مفهوم التصنيع عند بات هدسون يضفي قيمة جديدة على تصوراتنا على التغير والحدث والأفعال الفردية، وتبدأ بالمثل الطبقات الممتدة على نطاق قومي تظهر في صورة أبنية لا مبرر لها وتفرض وجودها على واقع الانقسام الاجتماعي المتباين إقليميا، وتظل القوة السياسية لمثل هذه الانقسامات الاجتماعية بمثابة توكيد أولي، غير أن المراجعة على أساس الانتماء الإقليمي تشير إلى أدق الصور الدالة على تقاطع البيئة الاجتماعية والمنظومة السياسية للطبقة الاجتماعية والرأي السياسي، إنما سيتم تحققها أو إنجازها على الصعيد الإقليمي وأكثر من هذا أن المؤرخين الإقليميين الجدد يرفضون أساسا الفهم المجازي الذي كان ذات يوم هو الحاسم لدى بناة الأمة الحديثة. وكانت هذه الفكرة المجازية تفيد بأن مثل هذه الصور الصغيرة والكثيرة يمكن أن تتجمع وتترابط على نحو غامض لتشكل صورة مركبة عن الأمة، ونجد أن الفهم الجديد على اختلاف مظاهره للاندماج القومي الاجتماعي والسياسي، إنما ينطلق دون شك من هذا البحث الجديد. بيد أن كتاب التاريخ في المستقبل الراغبين في وضع هذا البحث موضع الاعتبار بالكامل، سوف يواجهون مهاما ثقيلة جدا تستهدف التعميم.

وإن التشديد القويم على الانتماء الإقليمي كخاصية جوهرية للسياسة الحديثة لم يكن قاصرا على دراسة أمم لا تقوم على المركزية كما هو واضح بالنسبة للأمة الألمانية. ونلحظ أن المؤرخين في البلدان ذات المركزية العالية مثل فرنسا بدأت هي الأخرى إعداد تأويل جديد لمكان التباين الإقليمي في التاريخ القومي. ولكن الصياغات المفاهيمية الجديدة للتاريخ الإقليمي، كما هو الحال بالنسبة لألمانيا تسمح بعمل تأويلات جديدة. وما دمنا اعتبرنا أي تاريخ محلي مثل تاريخ باريس، تاريخا معياريا وأن كل التواريخ المحلية والإقليمية الأخرى لا تعنينا إلا بقدر ما تكشف عنه من تماثل مع التطورات الباريسية أو انحراف عنها فإن أي دراسة عن الأقاليم سوف يكون مآلها أن تصبح دراسة حالة وتفصيلات توضيحية. علاوة على هذا فمادام أي انحراف لا يمكن تفسيره إلا في ضوء إما تراجع أو انبعاث جديد أو كليهما معا، إذن فإن فهم التحديث باعتباره عملية توحد تجري في اتجاه واحد سوف يظل فهما راسخا لا يجد ما يقابله ويتحداه. وإذا شئنا كتابة تاريخ سياسي مثقل بالطابع الإقليمي عن فرنسا، فلن يكفي

الاعتراف بتباين التجربة السياسية والثقافية داخل الحدود الفرنسية، وإنما يتعين على المرء أيضا أن تتوافر له رؤية متباينة عن الوسائل التي تهيأت لفرنسا لكي تصبح دولة ـ أمة حديثة. وهذه عملية لا هي متمركزة داخل باريس ولا هي مدمرة للتباين الإقليمي، بل، وهذه حقيقة، وليست موضع تقدير بوجه خاص من الفئات الإقليمية في الحقب الزمنية الأسبق. وهكذا نجد كتاب تيد مارجادانت Ted Margadant «المنافسون الحضريون في الثورة الفرنسية» ينظر إلى إعادة التنظيم المكاني لفرنسا داخل الجمعية الوطنية، باعتبارها عملية سياسية دينامية على الصعيد المحلي حيث تم التغيير بالفعل. وتمثل هذا التغيير في إعادة تجديد إقليمية وهي العملية التي ترتبت عليها نتائج بعيدة المدى بالنسبة للعلاقات بين الأقاليم والدولة وبالنسبة للاقتصادات الإقليمية، بل وبالنسبة للتطور الديموجرافي للأقاليم. ويضرب نهجه البحثي بجذور عميقة في مناهج وتأكيدات التاريخ الاجتماعي ذي الطابع القومي، بيد أنه مع هذا يبني إطارا جديدا لفهم الانتماء الإقليمي.

وثمة صورة أخرى مماثلة لتاريخ سياسي من دون مركز يدور حوله وهي التاريخ السياسي المرتكز على الجمهورية الثالثة دون الأولى. ونجد هذا في دراسة حديثة قدمتها كارولين فورد عن مقاطعة بريتانيا في إقليم فينيستير في فرنسا. وعلى الرغم من أن فورد بدت أكثر صراحة من مارجادان فإنها تتحدى النظرة التقليدية عن الأمة الفرنسية، باعتبارها في جوهرها كيانا حضريا يتحدث الفرنسية وكيانا صناعيا وعلمانيا. وترى أن الجديد والحديث حقا في سياسة الجمهورية الثالثة إنما هو ظهور مركبات فعالة ومؤثرة جدا من النزعة الجمهورية والإصلاح الإجتماعي والديني والهوية الإقليمية، وتتجاوز في دراستها مفهوم الاندماج القومي الذي يستثير الإقليم ضد الأمة، ويحرض الجديد ضد القديم، ويثير «تباينا لا نهائيا» ضد التماثل المطرد. وتقدم بدلا من ذلك تفسيرا مركبا ومقنعا عن الكيفية التي كانت بها الأقاليم الحديثة ساحات حيث واجهت «السياسة المركزية» دعامة لها واستحوذا عليها في آن واحد، وحيث تشكلت أيديولوجيات سياسية جديدة تأسيسا على الفهم المحلي المنطلق منها، ونجد أوجه تماثل كثيرة بين هذا التفسير ومفهوم بيتر شتاينباخ عن «إعادة إضفاء الطابع الإقليمي في ألمانيا الإمبريالية». وبينما نجد كتاب فورد، شأنه شأن كتابات غالبية كتاب التاريخ الإقليمي الجديد، يروي لنا تاريخ إقليم بذاته، إلا أنه يتخلص بنجاح من عملية تقسيم الأمة إلى أجزاء متمايزة تطابق دراسات الحالة، ويقدم لنا الكتاب بدلا من هذا إسهاما إضافيا علاوة على ما قدمه مارجادان بشأن «التاريخ الاجتماعي للمحليات» ومن ذلك محاولة أصيلة لإعادة تحديد معالم وصورة القومي.

لا تلوح لنا نظرية التحديث في صورة شيء شديد الضخامة سواء كشيء يمكن تحديه أو مراجعته، بحيث تظهر في مجموعة ثانية من النهج لدراسة التاريخ الإقليمي الأوروبي. لقد هيأت الهوية الإقليمية بؤرة تفاهمية لعدد من المؤرخين وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا من أصحاب العقلية التاريخية، المعنيين بأنطولوجيا البنية الجمعية أكثر من اهتمامهم بموضوع تقدم الحداثة. وكانت هنا، أيضا بطبيعة الحال وحوش كاسرة يتعين قتلها ومن أهمها خطاب القرن التاسع عشر عن طابع الجماعة، إذ أكد هذا الخطاب وجود سمات محلية أو إقليمية وقومية متباينة على نحو ما جسدت الخبرة التاريخية المتراكمة على مدى قرون، وعلى نحو ما جسدت

أوروبا ذات الأقاليم:

أيضا البنية الجمعية الجوهرية. ولا يعالج هذا الخطاب البنية الجمعية القومية باعتبارها أكثر حداثة أو تقدما من البنية الجمعية الإقليمية أو المحلية، إن جميع صور هوية الجماعة لها جذورها الأولية الأصلية، ونجد نظير ذلك أو خليفته الخطاب العلمي الاجتماعي في القرن العشرين، ويتمثل هذا الخطاب في تأكيد ما انتقده بروباكار معتبرا إياه «النزعة الواقعية للجماعة» أو بعبارة أخرى الجماعات التي نفهمها باعتبارها كيانات واقعية أو مجتمعات محلية أو بنى جمعية موضوعية ودائمة».

إن غالبية الدراسات الأكاديمية عن الهويات القومية أو غيرها من الهويات الجمعية تمثلت نقطة انطلاقها في نبذ «واقعية الجماعة بغية الوصول إلى فهم للبنية الجمعية التي تشيع بكثافة في لغة الإمكانية والممارسة وعدم الاستقرار والأحداث الطارئة، وتطبع فكرة أن الجماعة من هذا المنظور المغاير كينونة موضوعية مستقرة وواقعية شيئا أقرب ما يكون إلى وهم جمعي ونتاجا لعمليات تاريخية ـ اجتماعية وثقافية وسياسية ـ التي يتعين على الباحث بيانها. ولقد كان الإحساس بالأمية، أي بالانتساب إلى أمة، حسب صياغة بنيديكت التي صادفت ترحيبا، ظهر نتيجة تخييلات جمعية ذات نوع خاص بيد أن كتاباته أكدت على التخيل ذاته وليس على نتيجته. وقدم بروباكار مؤخرا دراسة تحليلية موضوعها «النزعة القومية في إطار جديد في أوروبا المعاصرة». ونجده أيضا يفهم هنا الأمة من حيث هي مقولة ممارسة وساحة معرفية للصراع، ومجموعة من العبارات والممارسات والإمكانات ـ أو بعبارة أخرى أنها ليست كينونة يمكن للمرء أن يسأل عنها ما هي؟ ويحذو بروباكار حذو بيير بورديو ويرى الأمة «مبدأ لرؤية وتقسيم» العالم، ويرغب أيضا مثل بورديو في تأكيد العمليات شبه الأدائية Quasi Performative - التي يجري تكوّن الأمة على أساسها، وكيف تتبدى للعناصر الفاعلة في المجتمع التقسيمات التعسفية بين جماعات الناس وكأنها أشياء طبيعية. وتجد النظرة التكوينية للهويات الجمعية صياغة أكثر تأكيدا في المواقف العولمية بعد الحداثية، والتي عبر عنها مفكرون من أمثال أرجون أبادوراي Arjun Appadurai وخاشيج تولوليان Khachig Tololyan. ويفسر أبادوراي «المواقع بعد القومية» فيقول يتعين النظر إلى أي هوية إقليمية على اختلاف أنواعها، باعتبارها «علاقية وسياقية مشتركة» وليست «عددية أو مكانية». وبينما يتحدث بورديو عن مظاهر الأداء الاجتماعي والسياسي للهوية، يحدثنا أبادوراي عن ما تقصه هذه المظاهر مثلما يحدثنا عن دور الخيال في إنتاج واستدامة أحاسيس التمييز المتمركزة في مواقع محددة. ويؤكد تولوليان من جانبه على الكيفية التي استطاع بها الناس في الوطن أو في المنفى «اختلاق الأمة وإضفاء وجود عليها وإثباتها وجودا أو عدما».

وبينما أضحت النزعة التكوينية constructivism ضربا من ضروب الابستمولوجيا الحاكمة، في البحث التاريخي الراهن عن الهوية القومية والانتساب إلى أمة، نجد أن طاقتها على تشكيل حوارات بشأن الهوية الإقليمية أو المحلية لم تتطور إلا في صورة نوبات ومجرد بدايات.

وجدير بالملاحظة هنا أن هذا الإغفال ليس نتيجة (مثلما هو الحال بالنسبة للدراسات المتعلقة بالتحديث) تحيزات إلى النظرية الأصلية. لقد حاول جميع أنصار النظرة التكوينية تقريبا إفساح مجال كاف في أطرهم النظرية لتشمل مجموعة كاملة من الجماعات البشرية،

إذ أكد ماكس ڤيبر على سبيل المثال أن أي نوع تقريبا من مظاهر الروح الجماعية وتباين العادات والأعراف يمكن أن يتولد عنه اعتقاد ذاتي بأن ثمة نسبا عميق الجذور قائما بين جماعات تتجاذب أو تتنافر مع بعضها البعض، أو اعتقاد بنفي هذا النسب وكان يعنيه بوضوح أن تشمل ملاحظاته جميع صور «الروح الجماعية الذاتية» أو الإقليم أو الأمة على السواء، وعمل بورديو أول الأمر على تطوير أفكاره بشأن الصراع بين التصورات في سياق مناقشة مظاهر الأداء الخطابي للحركات الاقليمية المطالبة بالاستقلال الذاتي في فرنسا المعاصرة. ويقول بنيدكت أندرسون في كتابه ولعله أهم الكتب قاطبة في هذا المجال البحثي، «إن جميع المجتمعات المحلية التي يتجاوز حجمها حجم القرى الأولية التي تقوم على اتصالات المواجهة المباشرة (وربما هذه أيضا) هي تخييلات» ولكننا نلحظ بطئا في تطبيق استبصارات ڤيبر أو بورديوأو أندرسون على ظواهر النزعة الإقليمية الأوروبية. ويشير هذا البطء إلى الغموض النسبي الذي يحيط بدور الأقاليم في التطور الأوروبي. رد على هذا أن تشريح الأساطير القومية الكبرى يهيئ للبحث العلمي مرونة أكثر من تشريح الأساطير الثانوية والأدنى مرتبة، والتي تدعم الهويات الإقليمية في أوروبا. وتعتبر الحركات الانفصالية هي المراقب النادر للمشهد الأوروبي الذي يرى التجليات المعاصرة للعاطفة الإقليمية يمكن أن تكون أي شيء إلا أن تكون الترياق الصحي لعلاج مشاعر الحرب والاستعباد القومية. ولهذا نجد أن البحوث المعنية بدراسة الممارسات والعبارات الدالة على التوحد الإقليمي أعوزها غالبا شعور بالإلحاح والعجلة الذي يغذي الكثير من الدراسات عن النزعة القومية.

ولايزال بالإمكان في الدراسات الحديثة الإشارة إلى أنماط للهوية الإقليمية، والشيء اليقيني أن القسط الأكبر من هذه الدراسات يلتمس ببساطة استكشاف جميع مظاهر التباين لأشكال هوية الجماعة في أوروبا الحديثة، مثال ذلك أن عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية شارون ماكدونالد يعتقد أن من الضروري مواصلة البحث في موضوع الهويات الأوروبية على جميع المستويات الاجتماعية ـ القومية والإقليمية والمحلية ـ ويرى أن هذا ربما يمكننا أخيرا من «رسم خارطة تعتبر صورة كاملة وشاملة لهويات أوروبا الغربية»، على الرغم من التوزيع الراهن المرقع للتفسيرات الإنثوجرافية والتاريخية عن الجماعات. ولكن مؤرخي أوروبا الحديثة يرون من ناحية أخرى أن المسائل الأهم والأجدر بمتابعة دراستها هي التفاعلات والتطورات المتشابكة للهويات الإقليمية والقومية، وتشير التفسيرات التاريخية المتوافرة لدينا عن تكوين الهويات الإقليمية إلى أن دراستها ستوفر لنا أيضا فهما أكثر تفصيلا وتعددية للأمية nation-ness أو تكون مشاعر الانتماء إلى أمة في الدول الحديثة. ويذهب أندرسون، إذا ما التزمنا نص كلامه إلى أننا لكي نفهم على نحو أفضل كيف تم تصور الأقاليم، فسوف يؤدي هذا الى تعقد كل فهمنا لكيفية تصور الأمم، وكذلك وبالقدر نفسه من الأهمية، في أي ظروف لم يتهيأ تصورها وجرى نقضها ومقاومتها وانهيارها. ويمكن القول بعبارة أخرى إن ممارسات الهوية الإقليمية والكلمات المعبرة عنها هيأت الفرصة لكل من مقاومة قوى إضفاء الطابع القومي وكذلك للتلاؤم معها، وحدث هذا غالبا في الأماكن ذاتها ولكن بدرجات متفاوتة.

وتؤكد مدرسة «التوفيق» للهوية الإقليمية أن إعادة الابتكار في العصر الحديث للهويات الإقليمية كانت جزءا جوهريا من بناء الأمة في

أوروبا. ففي حالة ألمانيا كان الفهم المهيمن لبناء الأمة واضحا تفصيلا في المفهوم المركب لمصطلح Sonderweg، أو الدرب الخاص الذي طرح نموذجا لكل من التحديث الفاشل وإضفاء طابع القومية على نحو معطل لوظيفة الأمة. وكان مؤرخو «الدرب الخاص» معنيين في الغالب الأعم بالتأثير الطاغي لبروسيا. إذ أصبحت مشكلاتها هي مشكلات ألمانيا، وأصبحت مظاهر أخطائها في التكيف الاجتماعي والسياسي هي عين أخطاء ألمانيا، كما وأن صورتها عن الهوية القومية فرضت ذاتها من خلال عمليات متباينة للتلاعب بعقول الجماهير والتلقين الاجتماعي على جميع موضوعات الرايخ، وخلفت وراءها هنا وهناك آثار المقاومة في صورة نزعة جزئية تخصيصية مؤسفة ومتخلفة. ولكن حدث هنا ما حدث في حالة دراسات الأوساط الإقليمية السياسية والاجتماعية التي ناقشناها في الفصل السابق. ذلك أن الدراسات عن الهوية الإقليمية في ألمانيا ناهضت فكرة أن «الدرب الخاص Sonderweg» درب واحد فريد. لقد لفتت الأنظار إلى الطريقة التي أخذ بها الشعور بالانتمائية الألمانية Germanness والانتساب الجمعي للأمة الجديدة صورا أصيلة، للتعبير داخل المؤسسات الإقليمية وفي الروايات التاريخية الإقليمية المحورة وفي الممارسات الجمعية. مثال ذلك أنه في حالة المقاطعة المسماة البلاطينية على نهر الراين Rhenish Palatinate كمثال، ظهرت روابط تطوعية كرست جهودها للأنشطة التاريخية الإقليمية والتاريخية الطبيعية التي توسطت عن وعي بين مستويات الانتماء الجمعي: وعي بالاحداث التاريخية الإقليمية والتي يراها بعض الناشطين في مثل هذه الروابط أحداثا تدعمها وتقويها النزعة الوطنية الإقليمية والقومية على السواء. ونجد بالمثل دراسة صدرت مؤخرا عن كتب التاريخ الدراسية في عدد كبير من الأقاليم المختلفة في ألمانيا. وتكشف هذه الدراسة عن تباين مذهل من طرق تشجيع الولاء القومي وغرسه في نفوس التلاميذ. ولعل أكثرها شيوعا الموضوعات الإقليمية والافتتان بالفولكلور والأعراف الإقليمية، ويفيد الإقليم في كل من الحالتين كإطار للإدراك الفئوي لتصور وتقسيم النظرة إلى العالم مثلما يهيئ إمكان تولد إحساس بالتغيرات من الحياة الجمعية، مثلما كانت الأمة قادة على توليد إحساس بالأمة ذاتها. ويمكننا هذا الإطار من أن نفسر الأشكال النوعية المميزة التي تتشكل بها الهوية، القومية وتتغير من مكان إلى آخر، ومن ثم تهيئتها كمجال للنزاع والتفاوض وليس القهر القسري أو المناورة. ونلحظ على الأقل في حالة ألمانيا أن الإقليم والأمة بل والانتماء المحلي في الحقيقة لم تكن إنتماءات متناقضة وينفي بعضها، بعضا بل كانت انتماءات متكافلة يعزز أحدها الآخر.

ولا تظهر ألمانيا كشيء خاص استثنائي بالنسبة لتاريخها عن الهويات الإقليمية المتشابكة، ونذكر هنا شارلوت تاك Charlotte Tacke التي كتبت تفسيرا مقارنا للهوية القومية الفرنسية والألمانية.

وتؤكد تاك أن توحد الفرد مع بقية الأمة يتم تأسيسا على مجموعة كبيرة ومتنوعة من الروابط الاجتماعية التي تصوغ في وقت واحد الحلقات التي تربط الفرد بالأمة. وترى أن أهم الروابط التي تتوسط هذه العلاقة تكونت داخل الإقليم. ويمثل هذا الرأي في دراستها التحليلية كحيز اجتماعي ثقافي جرى تكوينه، وأيضا «كنظام» للتواصل المدني، وظهرت في كل من الأمتين، فرنسا وألمانيا، هوية إقليمية مجددة، واصطبغت في الأساس بطابع حديث. وظهرت هذه الهوية خلال الفترة الحديثة من خلال

النشاط الثقافي للبرجوازيات المحلية، مما دعم أوضاعها الاجتماعية. وأفاد في هذا تحديدا نوع من الأداءات التمثيلية التي حددها بورديو (وهي في حالة تاك تشييد آثار اثنين من قدامى الأبطال هما هيرمان وفيرسنجيكوريكس). وتقتفي تاك أثر بورديو إذ ترغب في الجمع بين التحليل الاجتماعي والتحليل الثقافي. وترى في هذا تعويضا عن ميل التحليل الاجتماعي إلى إغفال قضايا الانتشار والنتائج الاجتماعية. وأكدت هي هينتز جيرارد الأسئلة التي ظلت من دون إجابة في دراسة الهوية القومية والنزعة القومية، ورأت ضرورة متابعتها إلى أن يتهيأ لنا إمكان محو خطوط التقسيم داخل المجتمع، وأن يتم تعزيزها أو حتى مجرد إعادة طرحها وبحثها من جديد. وتهتدي إلى إجابات شديدة الاختلاف على هذه الأسئلة في فرنسا وفي ألمانيا. ولا تتوافر لها هذه الإجابات بفضل بحث الهوية القومية عند مستوى قومي مجرد، بل عن طريق التشديد على الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي للساحات الإقليمية في بناء روح جماعة جمعية.

وتفهم دراسات تاك العلاقة بين الهوية الإقليمية والهوية القومية باعتبارها نوعا من «التفاوض»، غير أن هذا التفاوض سار من «سلاسة» حسب روايتها. وتلمس توترا في قصتها على مدى خطوط التقسيمات الطبقية التي لا تتوافق مع الخطوط الإقليمية، ولكن ومثلما كان الحال بالنسبة للدراسات عن السياسة الإقليمية أصبح المؤرخون أكثر انجذابا نحو الأقاليم داخل أوروبا، حيث الناس إما أنهم لم يدر بخلدهم أبدا أنهم جزء من مجتمع قومي، أو فهموا مشاركتهم فيه حدثا زاخرا بالنزاعات وعدم المساواة، ونلحظ أن الهوية القومية في مثل هذه الحالات لا تتلاءم مع الأمة بل تنازعها. ونجد تعبيراتها تكشف عن المقاومة، كما تكشف ممارساتها عن السخط وكذلك كانت الحالة القائمة على النظرة التكوينية تنطوي بالمثل، إن لم تكن أكثر، على طابع الإرغام والقهر في مثل هذه الأماكن ذلك لأن الصراع للتحكم في تمثيلات الجماعة طغى عليه غالبا الطابع السياسي فضلا عن أنه صراع قائم على وعي ذاتي. لقد اشتمل على كل من جهود التحليل والحجة السياسية ونجد في صياغة بورديو الملتوية أن «الخطاب الإقليمي النزعة هو خطاب أدائي يهدف إلى فرض تعريف جديد للحدود باعتباره تعريفا مشروعا، كما يهدف إلى دفع الناس من أجل معرفة الإقليم والاعتراف به ليغدو بذلك كيانا محددا في مقابل التعريف السائد.

والجدير بالذكر أن القسط الأكبر من الدراسات الحديثة عن هذه الأقاليم مثل أراضي الباسك وبريتاني، قد ضاعفت من ر بط بناء هويات اقليمية مميزة بالنتائج المترتبة على التطور الاجتماعي الاقتصادي غير المتساوي. وقدمت ماريان هيبرج Marianne Heiberg دراسة عن «أمة» الباسك. وتؤكد هذه الدراسة على سبيل المثال أن ابتداع هوية قومية للباسك كان عملية إعادة ابتكار وتحويل جيب إقليمي متخلف إلى أمة طموحة بغية مواجهة تحديات سياسية بذاتها والإستجابة لتحولات اقتصادية ضاغطة. وهناك بالمثل دراسة قدمتها ماريون ماكدونالد عن اللغة والثقافة، وتصور هذه الدراسة هوية برتانياوقد تكونت عبر عملية تجسد إشكالي لبرتيانيا داخل فرنسا الحديثة. ويرى ويني ليم Winnie Lem أن بناء هوية إقليمية في لانج دوك Languedoc كان عملا صريحا ومباشرا، نتيجة مقاومة طبقية من جانب الفلاحين ضد «القوى المشتركة للنمو الاقتصادي». ويذهب هيدي كيلي Heidi Kelley

أوروبا ذات الأقاليم:

في دراسة عن الجاليسيين Galicians (من ينتمون إلى مقاطعة جاليسيا Galicia الإسبانية)، أن دعاة النزعة الإقليمية بعثوا من جديد واصطنعوا أسطورة عن نظام اجتماعي أمومي «ماتريارتي» جاليسيا نظرا «لملاءمة الرموز النسوية» للتعبير عن العلاقة المهمشة التابعة لإقليمهم بالنسبة إلى الأمة الإسبانية.

وسواء أفضت الهوية القومية إلى مقاومة أو إلى توافق مع الدولة ـ الأمة فإن الأمة ذاتها تظهر، على الأقل من منظور تكويني، في صورة المنظومة الحاكمة للقيم والمفهوم الذي يشيع الهيمنة، وإن الهويات الإقليمية المقاومة قد تحددت صورتها في الغالب الأعم حول دعوى تطالب بالانتماء إلى أمة، بينما الهويات المتوافقة أكدت تمايزا يمكنه أن يعزز القوميين صناع الاختلاف أو يخلقون تباينات بشأن فكرة قومية مشتركة. ويرى المؤرخون أن دراسة الهوية الإقليمية لا تقوض التواريخ القومية بقدر ما تعقدها وتؤكد خاصة في حالة أقاليم الحدود، وظاهر الغموض وعدم الاستقرار لمشروع إضفاء الطابع القومي. حقا إننا إذا نظرنا إلى الهويات الإقليمية عبر الزمان نجدها أكدت وجودها واستمرارها، ولكن ليس فقط بفضل قوة التكيف المطردة مع التغيرات في الحدود القومية ومنظومات المعنى. وإن ما يتعين على دراسة الهويات الإقليمية في التاريخ أن تؤكده هو ما حدث لهذه الهويات عندما تخفف الأمم، أو ما هو الدور في الحقيقة الذي يمكن أن تلعبه في إخفاق الأمم. وتفيد حالات كل من ألمانيا الغربية خلال ما بعد الحرب وروسيا بعد الشيوعية وألمانيا الشرقية، أن الأشكال الإقليمية للتوحد الجمعي تتمتع بقدرة لا تفسير لها على أن تعود إلى الصدارة في أوقات الأزمات والانهيارات. ولعل البحث عن السبب يمثل اتجاها مفيدا يقتضي مزيدا من الدراسة.

الطريقة الثالثة والأخيرة لإعادة التفكير في التاريخ الإقليمي لا تصور بنية قائمة بالفعل للبحث التاريخي بل هي على الأصح وعد بتأليف مركب من الأشكال القديمة والمعاصرة للبحث العلمي. ونعود ثانية إلى الصورة المجازية عند كريستور هارفي لنرى أنها تقترح طريقة لتشجيع المدعوين في حفل الغداء على التحدث إلى بعضهم البعض. وقدمت صياغة أبا دوراي لمشكلة الانتماء المحلي صورا عن مظاهر الفهم «العلاقية والسياقية لهذه المشكلة مقابل مظاهر فهم «كمية أو مكانية». واستطرد ليحدثنا عن استكشاف حلقات تربط بين «الحس بالبداهة الاجتماعية وتكنولوجيات التفاعلية ونسبية السياقات»، بيد أن ذات الطريقة التي يصف بها «الحالة الظاهراتية المركبة» للانتماء المحلي تكشف عن حاجة إلى إدخال اعتبارات المكان والدرجات وكذا الوضعية الطبيعية المادية للأماكن في محاولتنا لفهم دور المناطق في التاريخ الأوروبي. وسبق أن أبرز عدد من المؤرخين المشكلات الكامنة في الدراسات عن الهوية التي تغفل الإنجازات التي تم إحرازها بجهد جهيد في التاريخ الاجتماعي الاقتصادي ـ أو وهو الأسوأ، تستخدم تحليلات اجتماعية فجة لا تفيد كثيرا من تخفيف حدة المحاباة العفوية لتصنيفات جمالية وثقافية. ولكن ثمة نقص بالمثل في مظاهر فهم هوية الجماعة أو التغير الاجتماعي الذي لا يفيد في إظهار الروابط بين الناس والأماكن الجغرافية والتغير التاريخي. ويتضح أن الالتزام بمفهوم غير مستقر عن الهوية يفسح مجالا كبيرا لتفلت من التمييزات بين الإقليم والأمة والانتماء المحلي، ونبقى عاجزين عن الكلام عن اقتناع بغية فهم الفارق بالنسبة للوجود الجمعي البشري بين الكبير والصغير، وكذا بين الضعيف والقوى، وأيضا بين الريفي والحضري. مثال ذلك ترى ماريون ماكدونالد أنه يتعين النظر إلى الهوية في إطار

حركتها الدائبة وفي اقتران بالعمل على إبطاء الحركة، بغية وصفها هي ذاتها مصدرا للانحراف: وتقول إن الفئات ذاتها «فرنسي» و«بريتاني» تفلت وتتسل «ولا يوجد لا فرنسا ولا بريتاني (ولا أي فئة أخرى) في أي صورة ملموسة أو موضوعية، سوى ما هو في أذهان أو أفكار الناس عنها. وعلى الرغم من أن هذا يمكن أن يكون صحيحا فإن مثل هذه الفئات لا تفلت وتتسل بأي طريقة كانت وفي جميع الاتجاهات وعبر جميع الحدود، ربما نستطيع بقدر من الممارسة المتواضعة «لخيالنا الجغرافي» أن نجد سبيلا للكتابة عن حدود الهوية التي يفرضها لا المجتمع فقط بل والمكان أيضا.

وإن الالتزام بهذا المشروع يفرض على المرء أن يفكر ويبحث مسألة حاولت حتى الآن أن أنحيها جانبا، وأعني بذلك أن نحدد بدقة ما الذي يعنيه مصطلح إقليم. إن التراث الفكري زاخر بمحاولات لوضع تعريفات. مثال ذلك أن كيث سترنجر Keith Stringer يرى أن هناك خمسة شرائح أساسية من «التجمعات الاجتماعية» وهي المباشر والمحلي والإقليمي (مثل الإقطاعية والأبرشية)» والسيادي وما فوق القومي Supra- national. ونلحظ أن القسط الأكبر من الأعمال التي ناقشتها تفهم الأقاليم من حيث هي مصطلحات سياسية في جوهرها، أي مساحات من الأرض تشكلت فيها، في وقت أو آخر، وحدة إدارية داخل منظومة سياسية، ولكن ثمة ما يدعونا إلى التفكير في أن المحاولة الأولية لا تفيد كثيرا على نحو ما يبين عادة في تطوير فهمنا للمسائل المركبة التي تنطوي عليها. ويكشف روجرز بروباكر عن صواب أنه لم يدهش للجهود المبذولة من أجل تحديد معنى الأمة. ونراه يؤكد المرة تلو الأخرى أن الخطأ في السؤال ذاته.

ويقول إن الأمة ليست شيئا بل مجموعة ممارسات وبداية معرفية. ويصدق الشيء ذاته يقينا على الإقليم. بيد أننا، وللمرة الثانية، يمكن أن نميز الأقاليم عن الأمم بناء على تحليل الممارسات المميزة تأسيسا على الانتماء إلى مكان أو لنقل بعبارة أخرى الأشكال التمييزية للعلاقات الثقافية التي أبقت على بعض المناطق وثيقة الصلة بالحياة الجمعية لفترة طويلة بعد أن تقلصت أهميتها الساسية. ولكن مثل هذا النهج في البحث ينطوي على أخطار كثيرة: النزعة الوجدانية «التي تعلي من الوجدان وتعطيه الأولوية»، والماهيوية essantialism أي النزعة التي تعطي الأسبقية والأولوية للماهية أو الجوهر على الوجود. وشرك هيدجر Heideggerian Trap الذي ينفث الحياة في العلاقة بين المكان والوجود، بيد أن تجنب حدوث مواجهة صريحة مع دور الجغرافيا، أيا كان تعريفنا لها من النهاية، يبدو في ضوء تجاربنا الحديثة بشأن الانتماء الإقليمي، أمرا مكتوما بفعل الإرادة إنه تجنب غير ضروري لتعقيدات ليس لها من أثر سوى إثراء فهمنا لمعنى الإقليم.

وعلى أي حال يوجد كم من الأدبيات الفكرية التي يمكن للمؤرخين أن يفيدو من الارتباط بها وأعني بذلك مجال الجغرافيا التاريخية. ولاريب في أن مثل هذه النقلة لمنهج البحوث المتداخلة هي نقلة غير مسبوقة على وجه اليقين. لقد عايش المؤرخون عددا من مراحل الارتباط والالتزام والتحرر من أسر المبحث العلمي. ويتجلى هذا واضحا من خلال تطور مدرسة الحوليات. ولكن الجدل خلال السنوات الأخيرة بين علماء الجغرافيا بشأن «جغرافيا إقليمية يعاد بناؤها من جديد» قد حدد معالم عدد من المسائل التي يتعين أن تشغل المؤرخين كذلك، إن قدرا كبيرا عما نراه «تاريخا إقليميا» يستخدم الإطار الإقليمي، أو كما قال ألكسندر مورفي، يستخدم كخلفية لمناقشة التغير الاقليمي مع قليل من الاهتمام والاعتبار بالكيفية التي أصبح بها الإقليم أولا وقبل كل شيء

وحدة مكانية اجتماعية مهمة، ولا كيف يفهم المواطنون الإقليم وينظرون إليه، ولا كيف ولماذا تغير هذا الفهم مع الزمان. وحجة مورفي هنا أن على المرء أن لا يأخذ الأطر الجغرافية مأخذ التسليم، ويرى أن علينا النظر إلى خصوصية المكان باعتبارها نتاج عمليات اجتماعية وثقافية متفاعلة مع البيئات الطبيعية.

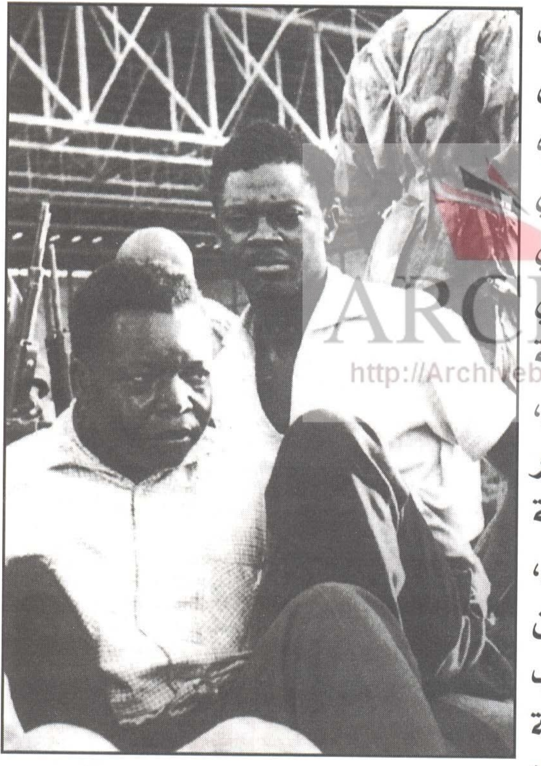
إن الأماكن ليست سياقات تلقائية للحياة الجمعية، بل هي منتجة لذاتها وليست جبرية «إنها تؤلف» بنية عامة تجدد الأفعال وهي « موارد من أجل الاستخدام في سبيل خلق وإعادة خلق وإعادة بناء السياقات التي ينشأ فيها الناس» - أو التي يصنعون فيها أنفسهم.

وإذا ما فهمنا الأقاليم على هذا النحو فربما لن تكون ساكسوني أو بورجوندي أو كتالوني كذلك، وربما تكون كذلك. وجدير بالذكر أن بياتريس بلوخ وهينز شلنج التزما مجال بحث هيس ليكون نقطة انطلاقهما في دراسة وجود الأقاليم وكيفية عملها. غير أنهما لم يغلقا الباب دون احتمال ظهور حدود أخرى يمكن أن تتولد عن بحثهما. وخلصا إلى أن الأقاليم لم تتكون سياسيا وإنما كانت على الأصح ساحات عمل ونشاط وساحات معنى وتجربة ومقترنة فقط بعلاقات متحولة تربطها بحدود تاريخية وإدارية. وقدم وولفجانج ليب Wolfgang Lipg في جامعة وورتزبرج مشروعا عن «الثقافات الإقليمية والمجتمع الصناعي». ونراه في مشروعه هذا يفهم الأقاليم من حيث هي «عوالم حياة اجتماعية ثانوية في المكان ومتطورة تاريخيا». وسعى من أجل تجاوز المقولات السياسية والانتقال إلى ما يسمى في السياقات الأخرى «تاريخ الحياة اليومية». وبحث زميله كارل روه Karl Rohe مكانة إقليم الرور كمقولة مكانية / إقليمية ذات أهمية. ويعتقد أن بإمكان المرء أن يتحدث عن ثقافة إقليمية وقتما تجد التوجهات المألوفة للفكر والشعور والفعل قد توزعت على مدى عملية تاريخية، بحيث تظهر إلى الوجود تمايزات ثقافية تمايز بين الإقليم والمناطق المحيطة به مهما كانت صعوبة إثبات ذلك تجريبيا. ويبدو على الرغم من كل شيء، أن الجهد المبذول في سبيل ذلك أمر جدير بالتقدير للغاية حتى وإن تكن النتائج مؤكدة.

إن الشيء المحفوف بالمخاطر هنا في كل ما ناقشناه في هذا المقال (وما أغفلناه أيضا وهو كثير)، وهو المدى الذي يمكن أن يصل إليه الالتزام من جديد بالمستوى الإقليمي للخبرة ـ إلتزام حساس إزاء التفاعلات الخاصة بالمجتمع والهوية والمكان ـ وإلى أي مدى يمكن هذا أن يقوض وعلى نحو مثمر مدركاتنا عن التاريخ الأوروبي. وهكذا فإن الكثير من الوصفات التي تشير إلى اتجاهات جديدة في الدراسات التاريخية تغدو قوائم غير قابلة للتحقق وتتضمن توليفات لا سبيل إلى إنجازها مما يجعلنا نتردد عن إضافتها. علاوة على هذا فإن الأقاليم تمثل مقولة من أكثر المقولات التاريخية غموضا حتى في هذه اللحظة التي يسود فيها الغموض جميع الأشياء. لقد عشنا زمنا طويلا تيسرت لنا فيه آليات التعرف على وجود الأمم، ولكننا اعتدنا أن نرى دون المستوى القومي وجودا حتى وإن كان مجردا وغير مستقر، لأقاليم ومحليات وفقا لما نلمسه ونحتاج إليه. ولقد ساعدتنا دراسة الأقاليم، في هذه الآونة، بوسائل دراسية نعرف بعضها ويخفى عنا أكثرها على أن نستمر زمنا طويلا ومثمرا، من أجل نقض وتفكيك الكثير من الروايات التاريخية السائدة حتى الآن ومن أبرزها روايات التحديث. وبقي علينا أن نرى كيف يمكن أن يساعدنا التركيز على المستوى الإقليمي للخبرة في أن نتروى وأن نفكر بعمق من جديد.

من قتل باتريس لومومبا

ترجمة: رنا مأمون نجيب



بعد الاتهامات البشعة التي وجهت لبلجيكا بسبب دورها المباشر في اغتيال باتريس لومومبا، أول رئيس وزراء للكونغو، وسيد شهداء حركة التحرر الوطني الأفريقية، صوت البرلمان البلجيكي لمصلحة تشكيل لجنة للتحقيق في ملابسات الجريمة وتحديد مسؤولية بلجيكا عنها. وفي 24 فبراير الماضي، أعطى البرلمان «رسميا» الضوء الأخضر للبدء في التحقيقات. وبدأت لجنة التحقيق عملها في مطلع مايو الماضي، ومن المتوقع أن يستمر عملها لأكثر من عام. ويقول جرت فرسنيك، النائب البرلماني الذي انتخب رئيسا للجنة التحقيق: «إن أمة تحترم ذاتها يجب ألا تخاف من الماضي، وأن تمتلك الشجاعة للتحقيق في الأخطاء المحتملة».

لكن اغتيال لومومبا، كما يبين هذا الملف، لم يكن مجرد «خطأ محتمل»، بل إحدى لحظات الذروة التي كشفت قبح النهب الاستعماري لأفريقيا، والآلام التي دفعتها القارة السمراء ثمنا لجشع المستعمرين ووحشيتهم.

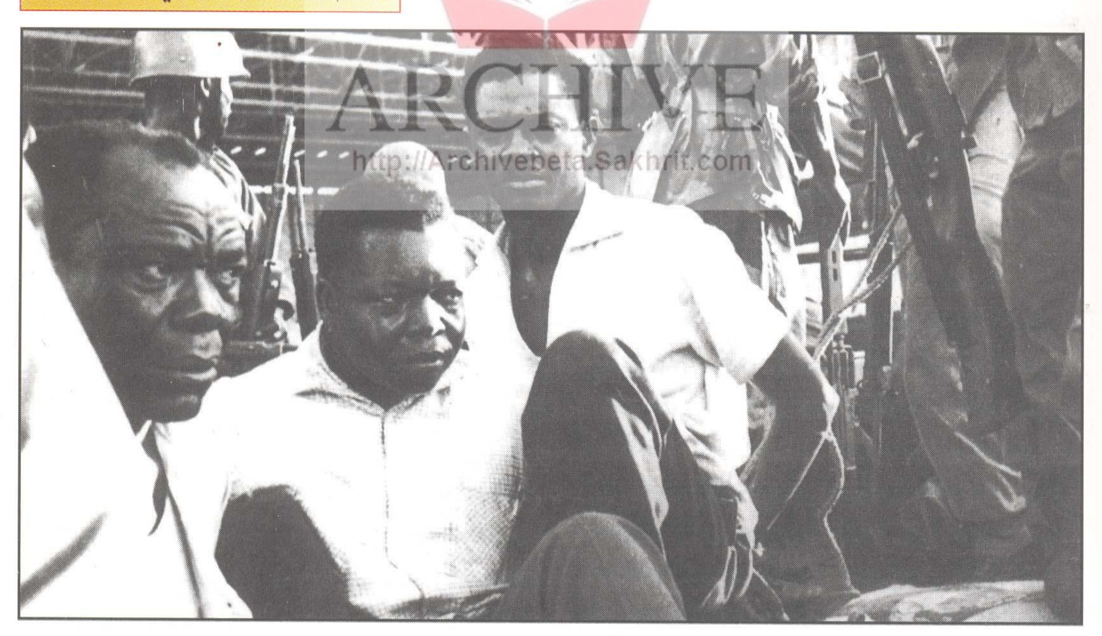
(1)

"التاريخ سيقول يوما كلمته"

البلجيك يفتحون أخيرا تحقيقا رسميا في اغتيال لومومبا، بعد 39 عاما من الجريمة

أخيرا يرتد الكيد إلى نحر صاحبه. فبعد تسعة وثلاثين عاما من اغتيال رئيس الوزراء الكونغولي باتريس لومومبا في 17يناير 1961، تظهر الحقيقة فجأة. وكانت القنبلة كتاب صدر مؤخرا اعتمد على وثائق بلجيكية سرية أفرج عنها حديثا. فقد وجه الكتاب أصابع الاتهام بصورة قاطعة إلى بلجيكا في هذه الجريمة. وكانت الحقائق التي كشفها الكتاب، بما في ذلك تقطيع جسد لومومبا إلى أجزاء وإذابتها في حمض الكبرتيك لإخفاء معالم الجريمة، مذهلا إلى حد دفع البرلمان البلجيكي في ٩ ديسمبر الماضي إلى تشكيل لجنة تحقيق رسمية في مصرع لومومبا ومسؤولية بلجيكا عنها. وعلق صحافي بلجيكي على هذا القرار بقوله: «إن علبة ديدان على وشك أن تنفتح، وستطال واشنطن على الأرجح».

بقلم: فرانسواميسي



• مكبلين وموثقين، لومومبا (الثالث من اليمين) ورفيقاه، جوزيف أوكيتو (نائب رئيس مجلس الشيوخ) وموريس موبولو (وزير الإعلام) يبدأون رحلتهم التي أوصلتهم إلى قبور حمض الكبريتيك.

العنوان الأصلي للمقال:
History will one day have its say وظهر في مجلة New African، عدد فبراير 2000.

زوجتي العزيزة

أكتب إليك هذه الكلمات ولا أعلم إذا كانت ستصل إليك أو لا، أو متى ستصل إليك، وهل سأكون على قيد الحياة عندما ستقرئينها؟

طوال نضالي من أجل استقلال بلادي لم أشك لحظة واحدة في الانتصار الحاسم للقضية المقدسة التي كرست أنا ورفاقي كل حياتنا لها. وكل ما أردناه لبلادنا هو الحق في حياة كريمة، وفي كرامة لا تشوبها شائبة، وفي استقلال بلا أي قيود، وهو ما لا يتمناه الإمبرياليون البلجيك وحلفاؤهم الغربيون الذين يجدون دعما مباشرا وغير مباشر، متعمدا وغير متعمد، من مسؤولين كبار في الأمم المتحدة، المنظمة التي وضعنا كل ثقتنا فيها عندما طلبنا مساعدتها.

لقد أفسدوا بعض مواطنينا، وقاموا برشوة البعض الآخر. وعمدوا إلى تشويه الحقيقة، ووصموا استقلالنا بالعار.

حيا أو ميتا، حرا أو في السجن بأوامر الإمبرياليين، الأمر لا يتعلق بي، ولكنه يتعلق بالكونغو، وشعبنا الفقير الذي حولوا استقلاله إلى قفص حبسوه فيه ليتفرج عليه العالم الخارجي، أحيانا بتعاطف شفوق، وأحيانا باستمتاع وبهجة.

لكن إيماني سيبقى راسخا. فأنا أعلم وأدرك بقلبي أن شعبنا سيتخلص إن عاجلا أو آجلا من أعدائه، في الداخل والخارج، وسيقف وقفة رجل واحد ليقول لا للحرمان والعار على الاستعمار، وسيستعيد كرامته تحت ضياء الشمس الساطعة. وبالنسبة لأطفالي الذين تركتهم، والذين قد لا أراهم ثانية، أود أن يعلموا أنه من أجلهم، ومن أجل كل كونغولي، كان تحقيق المهمة المقدسة المتمثلة في إعادة بناء استقلالنا وسيادتنا: فمن دون كرامة لا توجد حرية، ومن دون عدالة لا توجد كرامة، ومن دون استقلال لا يوجد رجل حر.

إن الوحشية، والقسوة والتعذيب لن تجبرني على طلب الرحمة، فأنا أفضل الموت برأس مرفوعة، وإيماني راسخ وثقتي عميقة بمصير بلادنا، وليس العيش في ظل الخضوع والتخلي عن الحقوق المقدسة.

التاريخ سيقول يوما كلمته، لكنه لن يكون التاريخ الذي يدرس في بروكسل، أو باريس، أو واشنطن أو الأمم المتحدة، لكنه سيكون التاريخ الذي سيدرس في بلدان متحررة من الإمبريالية وعملائها. أفريقيا ستكتب تاريخها مجيدا ومشرفا في شمال وجنوب الصحراء.

زوجتي العزيزة، لا تبكي من أجلي، فأنا أعلم أن بلادي التي عانت كثيرا ستعرف كيف تدافع عن استقلالها، وعن حريتها. عاشت الكونغو عاشت أفريقيا».

كانت الزوجة التي وجهت إليها هذه الرسالة في منتصف يناير 1961 هي باولين لومومبا. وكان الكاتب هو باتريس لومومبا، أول رئيس وزراء للكونغو، والذي كان يبعد عن الموت بضعة أسابيع. «زوجتي العزيزة، لا تبكي من أجلي... فالتاريخ سيقول يوما كلمته»، هذا ما قاله لومومبا. ويبدو أن فجر هذا اليوم على وشك الطلوع.

فقرار البرلمان البلجيكي تشكيل لجنة رسمية في اغتيال لومومبا جاء بناء على توصيتين من رئيس الوزراء البلجيكي جي فرهوفستادت ووزير الخارجية لوي ميشيل. وقد صدم الرجلان من الحقائق التي أوردها لودو ديفيت في كتابه الجديد «اغتيال لومومبا Dee Moord op Lumunba»، (الذي نشر باللغة الهولندية في دار نشر Van Halewyrck في لوفيان في بلجيكا)

وعلى رغم أن الترجمة الفرنسية للكتاب

شارفت على الانتهاء، بينما الترجمة الإنجليزية أمامها بعض الوقت، فإن أصل الكتاب الهولندي قد سبب الكثير من الذعر في وسائل الإعلام البلجيكية، بحيث أسقط في يد رئيس الوزراء البلجيكي فرهوفستادت ووزير الخارجية ميشيل.

والواقع أن ديفيت، وهو متخصص في علم الاجتماع، لم يورد أي تكهنات في كتابه. فقد أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن «بلجيكا تتحمل المسؤولية الأكبر عن اغتيال لومومبا. فالبلجيك تولوا قيادة العملية كلها - بدءا من نقل لومومبا إلى كاتانجا، حتى إعدامه وإخفاء جثته».

ووفقا لما ذكره ديفيت، الذي اطلع بطريقة ما على وثائق سرية في الأرشيف الوطني البلجيكي، فإن قرار اغتيال لومومبا اتخذه مسؤولون بلجيك بعد بضعة أسابيع من استقلال الكونغو في 30 يونيو 1960. وفي 14 يوليو 1960، أخبر سفير بلجيكا لدى حلف الناتو المشاركين في اجتماع مجلس شمال الأطلسي أن: «الوضع سيكون أفضل بكثير إذا اختفى من الساحة الرئيس الكونغولي ورئيس الوزراء ووزير الإعلام».

ومن الواضح أن السلطات في بروكسل لم تغفر للومومبا خطابه الناري الذي ألقاه يوم الاستقلال في وجود الملك البلجيكي بودوان، الذي اتهم فيه بلجيكا بأنها أتت «بالعبودية والقمع إلى الكونغو» ووصف كفاح الشعب من أجل الاستقلال بعبارات «الدموع، والنار والدم».

ومن باب الأمانة التاريخية فإن لومومبا قد استفزته بشدة تلك الكلمة الخالية من اللياقة التي ألقاها بودوان قبل ذلك بلحظات. فكل كونغولي تواجد في الاحتفال كان حانقا، ولم يكن لومومبا يعبر سوى عن مشاعر شعبه.

ولم تنس بلجيكا لومومبا أيضا طرده للضباط البلجيك من الجيش الكونغولي، ومطالبته اللاحقة بانسحاب القوات البلجيكية التي قصفت ميناء ماتادي في 11 يوليو 1960 بعد قتل عدد من الأوروبيين في البلدة.

ووجدت المشاعر البلجيكية مشاركة تامة من الحكومة الأمريكية، التي كانت متلهفة على منع لومومبا من دعوة القوات السوفييتية لمساعدته في استعادة إقليمي كاتانجا وكاساي الجنوبية الانفصاليين، بعد أن أعلنا استقلالهما من جانب واحد في 11 يوليو و8 أغسطس 1960 على التوالي.

وكان الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور قد أعطى قبل ذلك بفترة طويلة، الضوء الأخضر لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية للتخطيط للتخلص من لومومبا، وفقا لما ذكرته مادلين كالب في كتابها «برقيات الكونغو Congo Cables»، الذي صدر عن دار نشر Macmillan في العام 1982 استنادا إلى برقيات سربت من وزارة الخارجية الأمريكية.

وقالت كالب في كتابها إن روبرت جونسون، عضو مجلس الأمن القومي الأمريكي، قد كشف في شهادته أمام لجنة المخابرات في مجلس الشيوخ العام 1975، أنه في أثناء اجتماع لمجلس الأمن القومي عقد في 18 أغسطس 1960 «قال الرئيس أيزونهاور شيئا - لا أتذكر الآن عباراته بالضبط - فهمته على أنه أمر باغتيال لومومبا».

أما محاضر اجتماعات اللجنة الفرعية للعمليات السرية في مجلس الأمن القومي الأمريكي العام 1960 فكانت أكثر صراحة: «اتفق في النهاية على أن الخطط المتعلقة بالكونغو يجب بالضرورة ألا تستبعد اللجوء إلى أي نوع من العمليات التي من شأنها الإسهام في التخلص من لومومبا».

وتقول مادلين كالب إنه في 26 أغسطس 1960، طلب رتشارد بيسل، رئيس العمليات الخاصة في المخابرات المركزية الأمريكية، من

مساعده الخاص للشؤون العلمية، د. سيدني جوتليب، تجهيز مواد بيولوجية قد تستخدم لاغتيال زعيم أفريقي لم يذكر اسمه. وقد وصل جولي بالفعل إلى كنشاسا في 26 سبتمبر لكن الخطة فشلت في نهاية المطاف.

وقد أخبر جوتليب في وقت لاحق لجنة المخابرات بمجلس الشيوخ بأنه قام بإغراق السم في نهر الكونغو في 5 أكتوبر، لأن رئيس محطة المخابرات المركزية الأمريكية في كنشاسا عجز عن العثور على شخص يمكنه الاقتراب المباشر من لومومبا، وأيضا بسبب القلق من فعالية السم الذي كان من المفترض أن يوضع في طعام لومومبا أو معجون أسنانه.

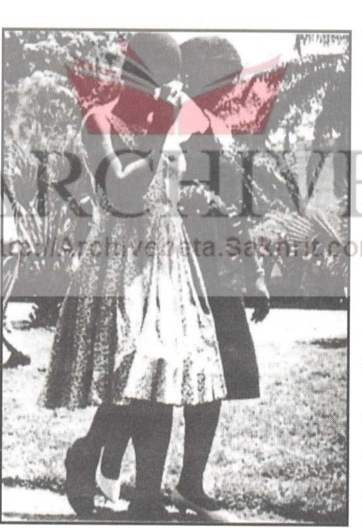
وفي العام الماضي، أشار المؤلف الأمريكي آدم هوشتشيل في كتابه «شبح الملك ليوبولد King Leopold's Ghost» أن الرئيس أيزنهاور قد أعطى موافقته الشخصية على اغتيال لومبومبا.

ووفقا لما ذكره هوشتشيلد فإن: «ريتشارد بيسل قال لاحقا: كان الرئيس يفضل تماما التخلص منه بوسيلة أخرى غير الاغتيال، لكنه كان ينظر إلى لومومبا، مثلي ومثل كثيرين آخرين، باعتباره كلبا مسعورا... وقد أراد حل المشكلة. وبعد اعتقاله وتعرضه لعمليات ضرب عدة، أطلق عليه (أي لومومبا) النار سرا في إليزابثفيل في يناير 1961. وقد انتهى الأمر بعميل للمخابرات المركزية الأمريكية يطوف حول المدينة وجثة لومومبا في صندوق سيارته. محاولا العثور على مكان يتخلص من الجثة فيه».

العملية باراكودا

من الواضح أنه كانت هناك خطتان لتصفية لومومبا يجري تنفيذهما في الوقت ذاته، لكن المرجح أن البلجيك لم يعرفوا بالخطة الأمريكية (وهو أمر مستبعد)، أو أنهم فضلوا تولي الأمر بأنفسهم.

فقد كانت وطنية لومومبا أكثر مما يمكن أن يحتمله البلجيك وحلفاؤهم الغربيون الذين اعتبروه شيوعيا. وفي سنوات الحرب الباردة تلك نظروا إلى لومومبا بوصفه تهديدا للشركات البلجيكية، والأمريكية، والفرنسية والبريطانية التي هيمنت على الاقتصاد الوطني الكونغولي، بما في ذلك المعادن الاستراتيجية - اليورانيوم والكوبالت في إقليم كاتانجا، والنحاس والماس ومزارع المطاط في كاساي الجنوبية.



• صانع الاضطرابات: مويس تشومبي الذي كان إعلانه لاستقلال كاتانجا من جانب واحد بداية لكل المآسي.

وكان بيير فيجني، وزير الخارجية البلجيكية آنذاك، صريحا إلى أبعد الحدود في الإعلان عن نواياه. وكشف ديفيت في كتابه الجديد أن فيجني أصدر تعليماته، في رسالة تحمل تاريخ 10 سبتمر 1960، بأن: «من واجب السلطات أن تجعل لومومبا غير ضار».

وبعد ذلك بثلاثة أيام، أرسل المستشار العسكري البلجيكي للكولونيل موبوتو البرقية التالية إلى هارولد داسبرمونت ليندن، وزير الشؤون الأفريقية البلجيكي، جاء فيها: «خطة التحرك يجري بحثها في ليو (أي ليوبولدفيل) بموافقة حكومية إليو».

ولم تلغ «الخطة» حتى بعد أن قام موبوتو، الذي كان واجهة للمخابرات المركزية الأمريكية،

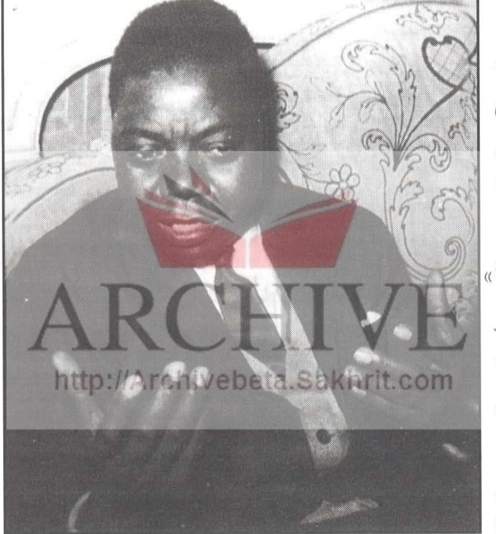
بانقلابه في 14 سبتمبر - وهو أول انقلاب عسكري في أفريقيا المستقلة - لـ «تحييد» رجال السياسة الكونغوليين. فالبلجيك لم يثقوا في قدرة موبوتو على إبقاء الوضع تحت السيطرة، على رغم أنهم ساهموا بدفع نحو 20 مليون فرانك بلجيكي لموبوتو لكي يدفع بدوره مرتبات الجنود الكونغوليين الذين أضربوا بسبب عدم دفع الحكومة الاستعمارية البلجيكية الراحلة لمرتباتهم المستحقة. وكان الهدف من دفع هذا المبلغ هو تقوية مركز موبوتو كرئيس لهيئة الأركان.

ووفقا لما ذكره ديفيت، فإن المستشار العسكري البلجيكي لموبوتو قد أعد خطة بديلة أسماها «العملية باراكودا Operation Parracuda» مع ضابط بلجيكي آخر مقيم في إليزابثفيل، عاصمة كاتانجا، «من دون مشاركة حكومة موبوتو».

وانطوت الخطة على توجيه ضربة بلجيكية مباشرة لتصفية لومومبا تلبية للتعليمات الواردة في البرقية التي أرسلت في 6 أكتوبر 1960 إلى القنصلية البلجيكية في برازافيل وإلزابثفيل، التي كتب فيها وزير الشؤون الأفريقية البلجيكي داسبرمونت ليندن: «إن الهدف الرئيسي الذي ينبغي السعي إليه من أجل مصلحة الكونغو وكاتانجا وبلجيكا هو بوضوح القضاء التام على لومومبا».

ويقول ديفيت إن الديبلوماسيين البلجيك ظلوا، حتى نهاية أكتوبر، يتجادلون حول الحاجة إلى تنظيم عملية مباشرة تشنها القوات الخاصة على مقر لومومبا، الذي كانت تحميه القوات الغانية التابعة للأمم المتحدة ويطوقه جنود موبوتو الذين تلقوا تعليمات باعتقاله.

وكان لومومبا آنذاك تحت الإقامة الجبرية في منزله يسيطر عليه شعور بالعجز. وقد أراد بشكل ملح إنهاء عزلته. ولكي تكتمل مأساته، رفضت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتعليمات أمريكية استقبال مبعوثيه، وبدلا من ذلك منحت مقعد الكونغو لوفد كاسافوبو. وكان هذا أكثر مما يحتمله رئيس الوزراء المحاصر.



• «لا تبكي من أجلي يا زوجتي العزيزة»، هذا ما كتبه لومو مبا لزوجته، لكن هذا ما لم تستطع أن تفعله زوجته باولين.

في مهب الريح

يقول ديفيت: «ليلة 27 نوفمبر، وبينما كانت عاصفة رعدية تضرب ليوبولدفيل تسلل لومومبا عبر الطوق المزدوج لقوات الأمم المتحدة وجنود موبوتو الذي كان يحاصر بيته، مع مجموعة من أصدقائه في سيارة مظلمة. وكان هدف لومومبا الذهاب إلى ستانليفيل (مدينة كيسنجاني حاليا) التي كان يسيطر عليه أنصاره.

وكان الديبلوماسيون الأمريكيون أول من تحرك بعد هروب لومومبا. وقد حذروا موبوتو، وبدأت عملية المطاردة. وبعد أربعة أيام، انتهت المغامرة، وألقى جنود موبوتو القبض على لومومبا في مطار فرانكي (إليبو حاليا) على نهر كاساي.

ووفقا لما ذكره ديفيت، فإن الجنود الغانيين التابعين للأمم المتحدة في مطار فرانكي لم

يعارضوا اعتقال لومومبا، وكانوا يطيعون الأوامر التي تلقوها من الجنرال السويدي كارل فون هورن، الذي كان بدوره ينفذ الأوامر التي تلقاها من القيادة العليا لوقات الأمم المتحدة في نيويورك، والتي تقضي بعدم التدخل «لإعاقة مطاردي لومومبا، أو لأخذه إلى محبس آمن».

وقد تعرض لومومبا للضرب على أيدي جنود موبوتو الذين نقلوه إلى الثكنات العسكرية في معسكر هاردي في سيثفيل (بلدة مبانزا نجونو الحالية)، حيث كتب هناك رسالته الشهيرة إلى زوجته، والتي اوردنا مقاطع منها في صدر المقال.

وبعد اعتقاله، تغيرت الخطة من «عمل مباشر» ضد لومومبا إلى«تسليمه لأسوأ أعدائه في كاساي الجنوبية وكاتانجا بناء على نصيحة القنصل البلجيكي في 24 ديسمبر.

لكن فاندين بلوك، الديبلوماسي البلجيكي في إليزابثفيل، اعترض على هذه الخطوة على أساس أنه سيتم ببساطة اتهام بلجيكا بالتواطؤ إذ أرسل لومومبا إلى إليزابثفيل، وخاف بلوك أيضا من أن «سجينا محرجا» مثل لومومبا سيلحق المزيد من الضرر بمصداقية كاتانجا بين تحالف الدول الأفرو آسيوية في الأمم المتحدة، ووفقا لديفيت، فإن بلوك بدلا من ذلك اقترح نقل لومومبا إلى باكوانجا، عاصمة كاساي الجنوبية، حيث الوجود البلجيكي هناك أقل وضوحا على رغم أن جيشها كان يرأسه بلجيكي هو الكولونيل جيليت (المشهور باسم «الكنغارو السمين»).

ويقول ديفيت إن هذه الفكرة حظيت بتأييد لاري ديفلين، مسؤول المخابرات المركزية الأمريكية في ليوبولدفيل، وحكومة موبوتو، التي فضلت، على رغم رغبتها في التخلص من لومومبا، ترك هذه المهمة القذرة ليقوم بها آخرون.

ومن وجهة النظر البلجيكية، كانت كاساي الجنوبية، التي كان يقودها ألبرت كالونجي، اختيارا جيدا حيث أن كالونجي وساسته أبناء قبيلة بالوبا كان لديهم حساب ليصفوه مع لومومبا، يتعلق بالمذبحة التي سقط فيها ألف من رجال قبيلة البالوبا على يد قوات لومومبا في بلدات تشيبومبو، وبونزولو وكاسنجولو في الفترة من 24 اغسطس و 4 سبتمبر 1960.

ومع هذا، خيم جو من عدم الارتياح، فمطار باكوانجا كان بين أيدي القوات الغانية التي قد تقرر حماية لومومبا إذا تركت لهم حرية القرار، ومن أجل حل المشكلة، أرسل وزير الشؤون الأفريقية البلجيكي داسبرمونت ليندن إلى القنصل البلجيكي في إليزابثفيل البرقية التالية: «إن وزير الخارجية داسبر مونت يحث شخصيا الرئيس تشومبي على ضرورة نقل لومومبا بأسرع ما يمكن إلي كاتانجا.

ويقول ديفيت إن الجميع كانوا يعرفون أن لومومبا لن يعيش إذا أرسل إلى كاتانجا، لكنهم إلى كاتانجا تحديدا أرسلوه.

وفي 31 يناير 1964، بعد ثلاث سنوات من موت لومومبا، وجه تشومبي رسالة إلى صديق لومومبا، الرئيس الغاني كوامي نكروما، نفى فيها أي دور له في عملية الاغتيال، وجاء في الرسالة: «يشرفني أن أخبركم أنني كنت حريصا دائما على ألا أكون مسؤولا بأي صورة من الصور عن الموت المأساوي لفخامة الرئيس باتريس لومومبا، وأعتقد أنه قد آن الأوان لتسليط كل الضوء على هذه القضية، فلم يعد في وسعي الاستمرار في ترك نفسي متهما من قبل الأفارقة، بل والعالم أجمع، بارتكاب تلك الجريمة».

لكن نكروما لم يصدق تشومبي، لأنه كان يملك بين يديه صورة فوتوغرافية من رسالة وجهها تشومبي يوم 13 يناير 1961 إلى جوستين بومبوكو، وزير خارجية لومومبا الذي خانه وانضم إلى أعدائه، جاء فيها صراحة: «سيدي الرئيس

(كان بومبوكو آنذاك رئيسا لمفوضية النبلاء في ليوبولد فيل) بعد الرسالة التي وصلتنا للتو، نفيدكم بموافقتنا على نقل الشيوعي لومومبا فورا إلى إليزابثفيل، وينبغي أن يتم هذا سرا، وهل لك أن تبلغني بموعد وصوله دون أدنى تأخير؟».

وقد نشر نكروما صورة من الرسالة في كتابه «تحديات الكونغو» Challenges of the Congo (الذي صدر عن دار نشر Panaf في لندن العام 1967).

جثث في الأسيد

جرى نقل لومومبا إلى عرين أعدائه الرئيسيين فعليا في 17 يناير 1961. وقد أرسل إلى هناك مع اثنين من رفاقه، الأول هو موريس مبولو (وهو وزير في حكومة لومومبا انتخب عن كاتانجا)، والثاني هو جوزيف أوكيتو (نائب رئيس مجلس الشيوخ).

وبينما أيديهم مقيدة خلف ظهورهم، ضرب الرجال الثلاثة بلا رحمة ثم قتلوا بالرصاص في الليلة نفسها. وفي كتابها «برقيات الكونغو»، تقول مادلين كالب إن واشنطن علمت بخطة قتل لومومبا ورفاقه منذ 14 يناير لكنها لم تفعل شيئا لإيقافها. ولم تعلن حكومة تشومبي الانفصالية مصرع لومومبا إلا بعد ما يقرب من شهر (في 13 فبراير 1961).

ويكشف ديفيت في كتابه الجديد أن الضباط البلجيكيين لم يكونوا متورطين فقط في التحضير لخطة القتل، بل شاركوا أيضا في إعدامه. وعندما هبط لومومبا من الطائرة في مطار إليزابثفيل، اقتيد فورا إلى السجن من قبل ضباط من درك كاتانجا تشومبي. وكان ستة من الجنود السويديين التابعين للأمم المتحدة حاضرين لحظة اقتياد لومومبا من المطار.

ويقول ديفيت إن لومومبا ورفيقيه قد نقلوا إلى سجن بلجيكي في الساعة العاشرة مساء، قبل ساعات من قتلهم بالرصاص. حيث نقلوا بسيارة جيب إلى مكان يبعد عن إليزابثفيل بنحو خمسين كيلو مترا. وكان سائق السيارة الجيب ضابط شرطة بلجيكيا. وقد اقتادهم، أي لومومبا ومبولو وأوكيتو، الواحد تلو الآخر إلى كتيبة الإعدام التي كان يقودها ضابط بلجيكي برتبة كابتن. وأعدم الرجال الثلاثة رميا بالرصاص. وكان لومومبا لحظتها في السادسة والثلاثين من عمره.

وتم التخلص نهائيا من الجثث بعد أربعة أيام. وأنيطت المهمة القذرة بضابط شرطة بلجيكي، اسمه جيرارد سويت، وشقيقه الأصغر. حيث أمرهما قائدهما بالتخلص نهائيا من الجثث. ومن ثم قام سويت وشقيقه بتقطيع جثث لومومبا ومبولو وأوكيتو إلى قطع صغيرة ثم أذابوها في حمض الكبريتيك. وكان الحمض في شاحنة مملوكة لشركة التعدين العملاقة Union Miniere de Haut Katanga.

وفي لقاء أجراه معه التليفزيون البلجيكي مؤخرا، اعترف جيرارد سويت بأنه قام بنشر جثث لومومبا ورفيقيه، وأغرقها في حوض مليء بالأسيد (حمض الكبريتيك المركز). وقال أمام عدسات التليفزيون: «لا يزال هذا الكابوس يطاردني».

لكن سويت لم ينته من شهادته بعد، فقد كان لديه تفصيل أكثر بشاعة أعلن عنه. فقد اعترف أمام المشاهدين المصدومين بأنه احتفظ لسنوات عدة بسنين من أسنان لومومبا كـ «تذكار»، ثم تخلص منهما في نهاية المطاف بإلقائهما في بحر الشمال، في منطقة بين شواطئ بلجيكا وإنجلترا.

ومع قراءتك لهذا المقال، ستكون لجنة التحقيق البلجيكية مستغرقة في عملها. وعلينا أن نستعد لتلقي المزيد من الصدمات.

(2) لومومبا: "سنظهر للعالم ما يمكن أن يفعله الرجل الأسود عندما يسمح له

بقلم أوزي بواتنج

ولد باتريس لومومبا في العام 1925 في ستانليفيل (كيسانجاني حاليا) في مقاطعة الكونغو الشرقية. وكان ينتمي إلى قبيلة باتيليلا، وهي فخذ من قبيلة المونجو. وفي العام 1957، عمل في مكتب البريد في ستانليفيل، وفي وقت لاحق عمل مدير مبيعات في مصنع براكونغو للجعة في ليوبو لدفيل.

وفي سنواته المبكرة، كان لومومبا مثله مثل أي شاب آخر من أبناء النخبة الكونغولية الصغيرة - والمعروفة باسم Congolese evolue، أي الكونغوليين المتطورين - التي صنعتها بلجيكا على أمل أن تتولى رعاية مصالحها بعد الاستقلال. غير أن لومومبا كان مختلفا في شيء واحد - فقد قرأ بشغف ونهم، وتبنى الأفكار الجديدة، وكان اهتماماته الرئيسية هي الفلسفة والاقتصاد والقانون.

وفي البداية لم تكن بلجيكا تنوي مغادرة ما كانت - ومازال يمكن أن تكون - أغنى بلدا في أفريقيا، ففي العام 1958، كان الكونغو تنتج 50في المائة من يورانيوم العالم (كانت أمريكا تشتريه كله تقريبا)، 75 في المائة من كوبالت العالم، و70 في المائة من الماس الصناعي العالمي، وكانت أكبر منتج للمطاط في العالم.

وكان أكثر من 80 في المائة من يورانيوم القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين في العام 1945 قد جاءت من منجم شينكولوبوي



• رفاق السلاح: بودوان ملك بلجيكا وموبوتو في العام 1985.

الكونغولي الذي يخضع لحراسة مشددة. وبمعايير المصالح الجغرافية السياسية الغربية في أوج الحرب الباردة، فإن الكونغو كان بلدا مهما جدا. فأين سيجدون مطاطا يستخدمونه في تصنيع إطارات عرباتهم العسكرية أرخص من ذلك الذي تنتجه الكونغو.

وهذا بالضبط ما كان يجب أن يفعله الكونغوليون المتطورون. أي أن يعملوا من أجل توفير سبل الحياة لبلجيكا وحلفائهم، حتى بعد الاستقلال. لكن لومومبا قلب هذه الخطة رأسا على عقب عندما عاد في العام 1958 من مؤتمر عموم شعوب أفريقيا، الذي عقد في

ـــه بالعمل بحرية»



العاصمة الغانية أكرا تلبية لدعوة من الرئيس نكروما. وقد جعلت منه راديكاليته العدو رقم واحد للحلفاء الغربيين. وأطلقوا عليه لقب «الشيوعي». وهو لقب شديد الخطورة في تلك الأيام. لكن لم يكن هناك من طريق للتراجع أمام لومومبا والحركة الوطنية الكونغولية التي كان يقودها.

فخلال العام التالي لمؤتمر أكرا، حول لومومبا الحركة الوطنية الكونغولية إلى حركة وطنية حقيقية ذات قواعد شعبية واسعة. وقد تفوقت بكثير على الحركات السياسية الأخرى في البلاد، بما في ذلك حزب آباكو، الذي كان يقوده جوزيف كاسافوبو، وحزب كوناكتا، الذي كان يقوده مويس تشومبي. ولم تكن هذه الحركات سوى تجمعات ذات أساس قبلي. لكن الحركة الوطنية الكونغولية ظلت حركة وطنية حقيقية. وفي وقت لاحق، انشق جوزيف إليو، أحد قادة الحركة التاريخيين، ليكون حزب كلونجي. لكن هذا لم يؤثر في معنويات لومومبا.

وقد نبهت شعبيته الشخصية المتزايدة البلجيكيين الذين قاموا باعتقاله في يناير 1959 بتهمة «التحريض على الشغب» في ليوبولدفيل. وكان خمسون شخصا قد لقوا مصرعهم وأصيب مائتان آخرون في الثورة الجماهيرية التي أشعلها رفض السلطات البلجيكية التصريح للحركة الوطنية الكونغولية بتنظيم مؤتمر جماهيري. وفي اليوم الثاني للثورة قتلت قوات الأمن الاستعمارية بالرصاص 26 كونغوليا وجرحت أكثر من مائة آخرين. وعلى رغم عدم توافر الأدلة على تحريض لومومبا على أحداث الشغب، فقد حكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر. وقد حضرت محاكمته مع مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في بروكسل في 20 يناير 1960 لمناقشة المستقبل الدستوري للكونغو. وقد حضرت المؤتمر الحركات السياسية الأربع البارزة في البلاد – الحركة الوطنية الكونغولية، وأحزاب آباكو، وكوناكات وبالوكات. وقد شكلت الحركات الأربع، لأول وآخر مرة، جبهة موحدة وطالبوا بالاستقلال الوطني وبإطلاق سراح لومومبا.

كانت المواقف واضحة ولم يكن أمام بلجيكا سوى الإذعان. وهكذا أفرج عن لومومبا على الفور ونقل بالطائرة إلى بروكسل لكي ينضم إلى رفاقه في المؤتمر، الذي طالب بأن يكون الأول من يونيو 1960 هو الموعد المحدد ليوم استقلال الكونغو. ووافقت بلجيكا بعد تعديلات

بسيطة: حيث اتفق على أن يكون يوم 30 يونيو هو يوم الاستقلال. وعاد الوفد بالطائرة إلى الوطن لكي يستعد الجميع لانتخابات الاستقلال. وكانت تلك ستمثل نهاية ثمانين عاما لحكم بلجيكا الملك ليوبولد للكونغو.

وبينما كانت بلجيكا تفقد قبضتها على الكونغو، كانت رؤوس الأموال الأمريكية تتسلل خلسة إليها. وحقيقة أن المؤسسات الأمريكية الكبرى كان لها موطئ قدم في الكونغو منذ 1908، ومن بين الشركات التي صاغت تاريخ الكونغو كانت هناك شركتان كبيرتان هما شركة Union Miniere de Haut-Katanga، التي تأسست في العام 1906 (وكانت تنقب عن النحاس، واليورانيوم، والكوبالت الخ)، وشركة Société International Forestriere et Miniére du Congo (المعرفة باسم فورمينير Forminire)، والتي بدأت التنقيب عن الماس في الكونغو العام 1907، وبحلول العام 1929، أصبحت الكونغو ثاني أكبر منتج عالمي للماس، بعد جنوب أفريقيا، وكانت شركة فورمينير تمتلك أيضا مناجم للذهب والفضة في الكونغو، بالإضافة إلى مزارع شاسعة للقطن، والكاكاو، ونخل الزيت والمطاط، فضلا عن قطعان الماشية، ومناشر الأخشاب وسلسلة من المتاجر.

وكانت شركة Union Miniere تسيطر عليها رؤوس الأموال البلجيكية، والفرنسية والإنجليزية، بينما شركة فورمينير تسيطر عليها المصالح الأمريكية. لكن في العام 1950، أصبحت مجموعة روكفلر الأمريكية شريكا رئيسيا في Union Miniere من خلال شرائها لشركة Tanganika Concessions، التابعة لشركة Union Miniere، وهو ما فتح الباب أمام المصالح الأمريكية في Union Miniere. وبالتالي كان بقاء الكونغو في مجال النفوذ الغربي أمرا حيويا.

وكانت الخطة بسيطة: إما أن تعثر بلجيكا على «الرجال المناسبين» لإدارة البلاد بعد الاستقلال، أو يجهض استقلال الكونغو. ولسوء حظ البلجيكيين، فإن «الرجال المناسبين» لم يحرزوا النصر في انتخابات الاستقلال، على رغم محاولات بروكسل وحلفائها الغربيين، بما في ذلك شركتا التعدين العملاقتان فورمينير وUnion Miniere للتأثير في الانتخابات.

وتنافس في الانتخابات البرلمانية في مايو 1960 أكثر من مائة حزب، لكن الحركة

• لومومبا وأطفاله يرحبون بعودته إلى البيت في العام 1958.

الوطنية الكونغولية التي يقودها لومومبا حققت نصرا مقنعا، حيث فازت بثلاثة وثلاثين مقعدا من إجمالي عدد المقاعد البالغ 137 مقعدا. وفاز أقرب منافسيه، حزب التضامن الأفريقي، الذي كان يقوده أنتوني سيزنجا وبيير موليلي، باثني عشر مقعدا فقط، وحزب آباكو الذي كان يقوده كاسافوبو باثني عشر مقعدا أيضا، بينما لم يحصل الحزب الوطني بقيادة بول بوليا (وهو الحزب الذي أنشأه البلجيكيون في العام 1959 وعلقوا عليه آمالهم للفوز بالانتخابات) سوى على ثمانية مقاعد. ووقعت بروكسل في حرج شديد حتى أنها لم تستطع إعلان النتائج وأبقتها سرا طوال ثلاث سنوات.

وفي هذه الأثناء، حاول جانشوف فان ديرمرك، وزير الشؤون الكونغولية البلجيكي آنذاك، الاستفادة من عدم إعلان النتائج لتعيين، أولا جوزيف إليو، ثم سيريل آدولا، رئيسا للحكومة. لكن الضغط الشعبي الكونغولي أجبر جانشوف في نهاية المطاف على أن يطلب من لومومبا تشكيل الحكومة.

وفي 23 يونيو 1960، تشكلت أول حكومة كونغولية منتخبة وطنيا، وكان لومومبا أول رئيس وزراء لها، وعين جوزيف كاسافوبو رئيسا فخريا، وطار بودوان ملك بلجيكا إلى ليوبولدفيل ليقوم بالتسليم الرسمي للحكم. وفي هذا الاحتفال ألقى لومومبا خطاب «الدموع والنار والدم» الذي أغضب البلجيكيين إلى أبعد الحدود.

وقبل وصول الملك بودوان، قرر مجلس وزراء لومومبا أن البلاد يجب أن تبدو كجبهة موحدة في احتفالات الاستقلال، وأن يرد الرئيس كاسافابو على خطاب الملك (فالدستور الوطني للكونغو الذي فرضه البلجيكيون قد وضع كل السلطات العليا في يد رئيس الوزراء. وكان الرئيس، مثله مثل رؤساء إسرائيل وألمانيا و دول أخرى، يلعب فقط دورا شرفيا دون أي سلطات تنفيذية).

الملك... الملك

وفي يوم الاستقلال، 30 يونيو، قرر الملك بودوان، البالغ من العمر آنذاك 30 عاما، على نحو مثير للاستغراب (أو هكذا بدا حينذاك)، أن يلقي أحد أكثر الخطابات التي سمعها العالم منافاة للأعراف الديبلوماسية. فأمام ملايين الكونغوليين المبتهجين في ليوبولدفيل، قال الملك:

«إن استقلال الكونغو هو ثمرة عمل عبقرية الملك ليوبولد الثاني، بدأه هو بشجاعة وواصلته بلجيكا بكل قناعة. (قتل الملك ليوبولد وعملاؤه ما يقدر بعشرة ملايين كونغولي خلال الفترة من 1885 و1908. غير أن الملك بودوان،، الذي اعتلى العرش العام 1951، واصل:).

«لثمانين عاما، أرسلت بلجيكا إلى أرضكم أفضل أبنائها - أولا ليخلصوا وادي الكونغو من تجارة العبيد المخزية التي كانت تستأصل السكان، ثم ليجمعوا شمل القبائل التي تستعد الآن، على رغم أنهم أعداء سابقون، لتكوين أعظم جمهوريات أفريقيا المستقلة».

«لقد شيد الرواد البلجيك السكك الحديدية، والمدن، والصناعات، والمدارس والمرافق الصحية والزراعة الحديثة... ومهمتكم أيها السادة، أن تثبتوا أننا كنا على حق عندما وثقنا فيكم».

«إن المخاطر التي تجابهكم تتمثل في عدم خبرة الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه، والتطاحنات القبلية التي سببت الكثير جدا

من الضرر، والتي يجب أن تتوقف مهما كان الثمن، والعوامل التي يمكن أن تجذب لبعض مناطقكم قوى خارجية على استعداد لاستغلال أدنى بادرة ضعف...».

وعليكم أن تتخيلوا شكل الوجوه التي كان عليها أن تحيي الملك. بل إن كاسوفوبو المعتدل نفسه، الذي ألقى كلمة جوابية باسم الدولة الكونغولية الجديدة، اضطر إلى تجاهل النصف الثاني من كلمته المعدة من قبل، والذي كان يشيد بالملك.

أما لومومبا، الذي لم يكن من المقرر رسميا أن يلقي خطابا ذلك اليوم، فلم يستطع تمالك نفسه أكثر من هذا. ومن المعروف أنه لم يكن يوما يحب الاستعراضات الخطابية. لكنه اعتلى المنصة وتوجه إلى صلب الموضوع مباشرة:

«أيها الكونغوليون والكونغوليات يا من كافحتم وحققتهم الاستقلال الذي نحتفل به اليوم، أحييكم باسم الحكومة الكونغولية».

«أخاطبكم جميعا، أصدقاء كافحوا بلا هوادة جنبا إلى جنب من أجل أن يصبح الثلاثون من يونيو تاريخا خالدا سيظل محفورا في قلوبكم، تاريخا ستفخرون بأن تعلموا دلالاته لأطفالكم، والذين سينقلون بدورهم لأبنائهم وأحفادهم قصة كفاحنا المظفر من أجل الحرية».

• مع تخريب الاستقلال، اختزل وجود الشعب الكونغولي لمجرد الغناء للإشادة بموبوتو.

«والآن، بينما نعلن اليوم استقلال الكونغو بالاتفاق مع بلجيكا، البلد الصديق الذي تعاملنا معه على قدم المساواة، فإن كل كونغولي جدير بهذا الاسم لن ينسى أبدا أن الاستقلال تحقق فقط بالكفاح، كفاح لم يتوقف يوما، كفاح النار والمثالية، كفاح دفعنا ثمنه بجهودنا، وحرماننا، ومعاناتنا ودمائنا».

«إن هذا الكفاح، المليء بالدموع، والنار والدم، أمر نفخر به في عميق قلوبنا، لأنه كان كفاحا نبيلا وعادلا، احتجنا لكي ننهي به العبودية المهينة التي فرضت علينا بالقوة».

«ذلك كان قدرنا طوال ثمانين عاما في ظل النظام الاستعماري. ولا تزال جروحنا دامية ومؤلمة بحيث لن نستطيع نسيانها الآن، عرفنا العمل الشاق الذي فرض علينا مقابل أجور لم تكن تكفي لكي نأكل أو نلبس أو نسكن كما يليق، أو لنحقق لأطفالنا ما نصبو إليه.

«عرفنا المهانة، الإذلال، والاعتداء والضرب، والحداد، ليلا ونهارا لأننا كنا من السود. لن ننسى أن الرجل الأسود كان ينادي يا هذا (tu بالفرنسية)، ليس لأنه صديق وإنما لأن الرجل الأبيض هو الوحيد الذي كان يستحق أن ينادى حضرتكم (vous بالفرنسية)».

«شاهدنا أرضنا تنزع منا بحجة أننا لا نملك سندات ملكية قانونية، وهي لم تكن سوى إقرار

بالقوة الغاشمة. وتعلمنا أن القانون لم يكن بالنسبة للرجل الأبيض هو نفسه بالنسبة للرجل الأسود، فللأول كان رحيما، وللثاني كان قاسيا وغير إنساني».

«شاهدنا المعاناة المؤلمة لهؤلاء الذين اعتنقوا آراء سياسية ومعتقدات دينية والذين تعرضوا للنفي داخل بلادهم، وكانت محنتهم أقسى من الموت. شاهدنا بيوتا رائعة في المدينة للبيض، وأكواخا بائسة من القش للسود. الرجل الأسود لم يكن يحق له الذهاب إلى دور السينما، والمطاعم والمتاجر الخاصة بالأوروبيين. الرجل الأسود كان لا يسافر إلا في الأجزاء السفلى من السفينة تحت أقدام البيض في كبائنهم الفاخرة».

«وأخيرا من بوسعه أن ينسى القتل بالرصاص للكثير من أصدقائنا، أو الزنازين التي كانت مصير أولئك الذين لم يتمكنوا من الإذعان لحكم عدالة القمع والاستغلال؟»

«كل هذا، أيها الأخوة، كان يعني أكثر أنواع المعاناة بشاعة. لكننا، نحن الذين انتخبنا كممثلين لكم في حكم بلدنا الحبيب، يمكننا الآن القول إن كل هذا قد انتهى الآن. فقد أعلنت جمهورية الكونغو، وأرضنا الآن في أيدي أبنائنا. ومعا، أيها الأخوة والأخوات، سنبدأ كفاحا جديدا، كفاحا نبيلا سيجعل بلادنا تنعم بالسلام، والازدهار والمجد».

«سنظهر للعالم ما يمكن أن يفعله الرجل الأسود عندما يسمح له بالعمل بحرية. وسنجعل الكونغو نقطة أفريقيا المحورية...».

ولم تكن التعبيرات التي اعتلت وجه الملك بودوان ولومومبا ينطق بهذه الكلمات توحي بأي مشاعر ودية. ولم يكن من المستغرب أن الكونغو لم تنعم بعد الاستقلال سوى بأسبوعين من السلام في ظل حكم لومومبا.

لومومبا والأمم المتحدة والدور الأمريكي (3)

بقلم أوزي بواتنج

بعد أسبوعين فقط من استقلال الكونغو، غاصت البلاد في سلسلة لا نهائية من الأزمات. وبدأ الأمر كله عندما قام جنود القوات العامة، وهو الجيش الاستعماري الذي كان يدربه، ويرأسه ضباط بلجيك، بتمرد بسبب رفض رئيس أركانهم البلجيكي لأي تحسينات في أجورهم وفي ظروف عملهم. وكان الجنود لم يحصلوا على مرتباتهم طوال شهور عدة، وعندما رفض رئيس أركانهم، الجنرال يانسن، النظر في طلباتهم لتحسين ظروف عملهم، صبوا جام غضبهم على حكومة لومومبو التي كان عمرها أسبوعين.

وسرعان ما انضم إلى الجنود الموظفون الحكوميون الذين تأخرت رواتبهم هم أيضا لشهور عدة.

وفي هذه الأثناء، كان حزب كوناكات الذي يقوده تشومبي، والذي فاز فقط بثمانية مقاعد من إجمالي مقاعد الجمعية الوطنية البالغ عددها 137، يطالب بأهم حقيبتين وزاريتين في الحكومة - أي الدفاع والداخلية - كشرط لانضمامه إلى الحركة الوطنية الكونغولية التي يقودها لومومبا في الائتلاف الحكومي. وقد رفضت الحكومة هذا الطلب. وانهارت المفاوضات.

وكان حزب تشومبي قد فاز بخمسة وعشرين مقعدا من مقاعد المجلس الإقليمي في كاتانجا البالغ عددها 60 مقعدا، لكن وفقا للدستور الكونغولي الذي وضعته بلجيكا (وعرف باسم Loi Fundamental) فإن الحزب لم يكن يحق له تشكيل الحكومة الإقليمية في كاتانجا لأنه لم يفز

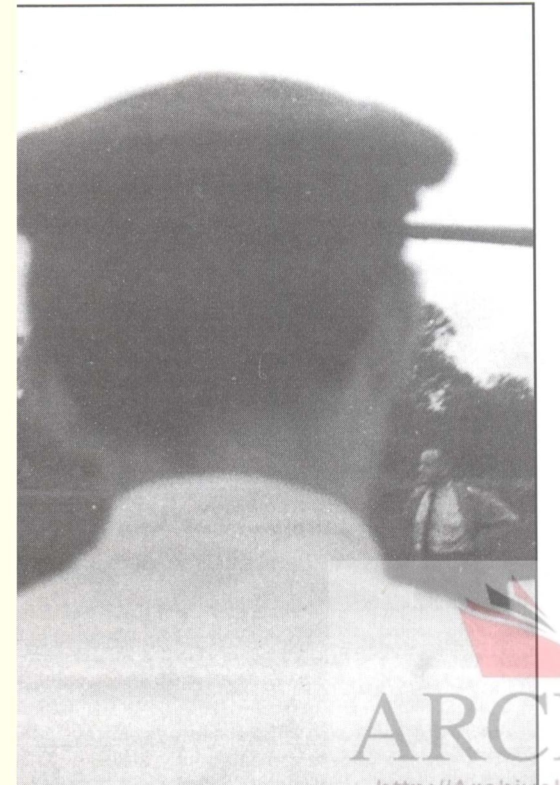
بالأغلبية المطلقة في الانتخابات المحلية. وعلى رغم أنه فاز بخمسة وعشرين مقعدا (أغلبية نسبية)، فإنه كان يحتاج إلى واحد وثلاثين مقعدا على الأقل ليشكل حكومة الإقليم.

غير أن بلجيكا، تحت ضغط تشومبي، عدلت الدستور دون استشارة الأحزاب الأخرى، وبالتالي مهدت الطريق لتشومبي لكي يشكل حكومة إقليمية في كاتانجا. وكانت هذه الحكومة الإقليمية هي من أعلن استقلال كاتانجا من جانب واحد - في 11 يوليو 1960، بعد أقل من أسبوعين من استقلال الكونغو.

وكانت كاتانجا، التي غير موبوتو اسمها فيما بعد إلى شابا، هي أغنى مناطق البلاد وأكثرها تطورا. وكانت أيضا مقر شركة المناجم العملاقة Union Miniere de Haut Katanga، وكان الإقليم على درجة من الأهمية بالنسبة لمستقبل الكونغو بحيث كان من المستحيل على أي زعيم وطني، بما في ذلك لومومبا، التنازل عنه. لقد كان وضع كاتانجا بالنسبة للكونغو مثل وضع دلتا نهر النيجر بالنسبة لنيجيريا (حيث تتركز الثروة النفطية).

وعشية الاستقلال، وقعت حكومة لومومبا «معاهدة صداقة» مع بلجيكا، نصت على أن القوات المسلحة البلجيكية في الكونغو لا يمكنها التدخل عسكريا في الشؤون الداخلية إلا بطلب من الحكومة الكونغولية. لكن ما إن أعلن تشومبي استقلال كاتانجا حتى سارعت بلجيكا (دون استشارة حكومة لومومبا) بتحريك قواتها إلى عاصمة كاتانجا إليزابثفيل (لومومباشي الآن). لكنها لم تذهب هناك لسحق تمرد تشومبي، وإنما لدعمه.

وهكذا فإن حكومة لومومبا، في ظرف أسبوعين من الاستقلال، كانت تواجه أربع مشكلات خطيرة: تمرد عسكري، واضطرابات



• الرحلة الأخيرة - مطار إليزابثفيل، 17 يناير 1961 وبينما ضباط الأمم المتحدة (السويديون) يتسامرون ويبتسمون، حملت هذه السيارة لومومبا ورفيقيه إلى وجهتهم الأخيرة.

عمالية، وانفصال كاتانجا وإعادة احتلال بلجيكا. وكان خطأ لومومبا الجسيم أنه قرر دعوة قوات الأمم المتحدة لمساعدته في حل مشكلة كاتانجا. فقد وضع مصيره بين أيدي هؤلاء الذين لم يتمنوا له الخير يوما.

كيف فعلتها الأمم المتحدة؟

أصدر مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة قرارين في 14 و22 يوليو 1960: (أ) دعوة بلجيكا لسحب قواتها فورا من كاتانجا، (ب) إعلان أن دخول قوات الأمم المتحدة إلى كاتانجا



هو ضرورة للتطبيق الكامل لقرارات الأمم المتحدة، و(جـ) التأكيد مجددا على أن قوات الأمم المتحدة في الكونغو لن تكون طرفا، ولن تتدخل بأي شكل من الأشكال، أو تؤثر نتيجة أي صراع محلي، دستوري أو غير دستوري.

لكن هذا ما لم يحدث. ففي 25 يوليو، كان لقوات الأمم المتحدة 8396 جنديا في الكونغو، وكان توزيعها على النحو التالي: 2340 غانيا، و2087 تونسيا، و1220 مغربيا، و1160 إثيوبيا، و741 غينيا، و623 سويديا و225 ليبيريا. وفي وقت آخر انضمت قوات من أيرلندا، ومالي، وسيلان وبلدان أخرى إلى القوة الرئيسية. وعلى رغم أن القوة كان يهيمن عليها الأفارقة، فإنه لم يكن هناك أفريقي واحد في قيادة عمليات الأمم المتحدة (المعروفة اختصارا باسم يونوك UNOC) في نيويورك.

وكما قال الرئيس نكروما لاحقا: «كان مساعدا السكرتير العام للأمم المتحدة لشؤون اليونوك هما السير ألكسندر ماكفراكر، والبريجادير روخ، وتحتهم مباشرة كان هناك ثلاثة أمريكيين. أما قائد الجانب العسكري فكان الجنرال (السويدي) كارل فونهورن. وبمعنى آخر، كان أصحاب القرارات في كل القضايا هم هؤلاء الرجال المنتمون إلى بلدان غربية، وكان الأفارقة، الذين حتى لم يستشاروا، هم من يتلقى التعليمات المتعلقة بتنفيذ تلك القرارات. وهكذا يمكننا أن نفهم تلك المسرحية التي استخدم فيها الأفارقة لسحق أفريقي مثلهم. وتم هذا باسم المواد الطنانة لدستور الأمم المتحدة».

فهل يثير الاستغراب إذن أن ترسل قوات الأمم المتحدة في بادئ الأمر إلى سائر أنحاء الكونغو، باستثناء كاتانجا حيث كانت تكمن المشكلة. وبعبارات أخرى، احتلت قوات الأمم المتحدة كل المناطق التي كانت تسيطر عليها حكومة لومومبا، وتركت كاتانجا حرة في أيدي البلجيك ومتمردي تشومبي - وهو عمل يتنافى مع روح ونصوص قراري الأمم المتحدة الصادرين في 14و22 يوليو. واستغرق الأمر حتى 14 أغسطس لكي يدخل أول جندي تابع للأمم المتحدة إلى إقليم كاتانجا. وحتى عندما حدث ذلك، طلب تشومبي من الأمم المتحدة ألا ترسل إلى كاتانجا جنودا غانيين أو غينيين. وقد استجابت الأمم المتحدة لرغبته.

وتم هذا عندما احتلت «المصالح القومية» الأمريكية مكانة محورية في عمليات الأمم المتحدة في الكونغو.. وأدارت واشنطن، التي تخفت خلف

صوت الأمم المتحدة، المسرح من خلف الستار، واستخدمت قوات اليونوك كرافعة لدعم الانفصاليين.

وفي أغسطس 1960، كانت المناصب الرئيسية في سكرتارية الأمم المتحدة في نيويورك يشغلها الأمريكيون وحلفاؤهم الغربيون. وكان السكرتير العام للأمم المتحدة، وهو السويدي داج همرشولد، محاصرا بمستشارين أمريكيين - وأبرزهم رالف بانش (السكرتير المساعد للشؤون السياسية)، وهاينز فونشوف (نائب بانش والممثل الشخصي في الكونغو) وأندرو كورديي (المساعد التنفيذي). وكان همرشولد نفسه تربطه علاقات شخصية بالعائلة الملكية البلجيكية.

وأظهرت السجلات أن العملية، التي كان يفترض أنها عملية للأمم المتحدة، كانت تمول في جانبها الأكبر من الولايات المتحدة. ففي الفترة من يوليو 1960 ويونيو 1963، بلغت «المساعدات» الأمريكية للكونغو 299,7 مليون دولار، 40 في المائة منها (118,5 مليون دولار) ذهبت إلى قوات الأمم المتحدة وحدها. وبالإضافة إلى ذلك، وضع الكونجرس عشرة ملايين دولار إضافية تحت تصرف الرئيس في حالة وقوع أحداث طارئة في الكونغو.

وهكذا، فإن القيادات «الأفريقية» لقوات الأمم المتحدة لم تكن تأخذ تعليماتها من حكوماتها الوطنية، ما لم تأت عبر قيادة اليونوك.

ومن أشهر القيادات «الأفريقية» السيئة الذكر الثلاثي المسؤول عن الفرقة الغانية، الوحدة الأكبر في قوة الأمم المتحدة، وعلى رأسهم الميجور جنرال هـ.ت. ألكسندر (وهو بريطاني أعير لغانا في 1959 وعين رئيسا لهيئة الأركان). والواقع أن الجنرال ألكسندر لم تكن له أي مهمة رسمية في الكونغو، فهو من الناحية الرسمية لم يكن قائدا للوحدة الغانية ولم يكن يحتل أي منصب رسمي في فريق الأمم المتحدة. وكان قائد الوحدة الغانية هو البريجادير ستيفن أوتو، ويساعده الكولونيل ج. أ. أنكراه.

ومع ذلك فقد ذهب الجنرال ألكسندر إلى الكونغو متذرعا بأنه رئيس هيئة الأركان الغانية، وبحجة استعادة «القانون والنظام» في مناطق نفوذ لومومبا، لتنفيذ مهمة تقويض «القوات الشعبية» (الجيش الذي كان يسيطر عليه لومومبا)، والقيام في غضون ذلك بتحقيق هدف مزدوج يتمثل في تجريد لومومبا ونكروما معا من أي وسائل تحرك فعالة. والواقع أنه حول نكروما فعليا إلى مجرد أضحوكة، فمع أن نكروما كان أفضل أصدقاء لومومبا إلا أن الجنود الغانيين استخدموا لقطع كل الطرق على لومومبا.



● لومومبا ونكروما في أكرا، 8 أغسطس 1960.

وفي نهاية المطاف، صرف نكروما ألكسندر من الخدمة العام 1961. لكن عندها كان قد فات الأوان. ففي تلك اللحظة كان لومومبا قد قتل، وأطيح بحكومته في انقلاب عسكري.

كاسافوبو يدخل على الخط

قبل موته تعرض لومومبا لضربة قاسية. فجوزيف كاسافوبو الرئيس الفخري الذي كان حليفا وفيا للومومبا، غير فجأة ولاءه، ومن المرجح أنه وقع في حبائل المخابرات المركزية الأمريكية. وفي خطاب إذاعي مفاجئ في 5 سبتمبر 1960، قال كاسافوبو للكونغوليين:

«لدي أخبار شديدة الأهمية أذيعها عليكم. إن رئيس الوزراء الذي نصبه ملك بلجيكا قد خان الأمانة التي كلف بها. فقد أخذ يحكم بطريقة استبدادية، بل إنه الآن على وشك أن يلقي هذا البلد في أتون حرب أهلية. لذا قررت فورا حل البرلمان.

وذهب كاسوفوبو إلى أبعد من ذلك عندما عين حكومة جديدة برئاسة جوزيف إليو، رئيس مجلس الشيوخ.

وذهل لومومبا. وأعلن في اليوم نفسه بيانا مضادا. «ستبقى الحكومة الشعبية في السلطة. وأعلن ابتداء من اليوم لم يعد كاسافوبو، الذي خان الأمة بتعاونه مع البلجيك والفلامنج، رئيسا للدولة».

لكن كان بانتظار لومومبا المزيد من الأخبار السيئة. فقد اندلعت حركت تمرد جديدة في كاساي، بقيادة ألبرت كالونجي، فضلا عن تحركات انفصالية في إقليم با-الكونغو.

وانتقل وزير خارجية لومومبو جوستين بومبوكو إلى صفوف أعدائه. لكن عندما تبددت كل الآمال، ظهر فجأة ضوء خافت في نهاية نفق لومومبا. فقد صوت مجلسا البرلمان بأغلبية ساحقة في 7 سبتمبر لتأييد موقف لومومبا ضد كاسافوبو. حيث صوت مجلس الشيوخ بأغلبية 41 صوتا ضد ستة أصوات (وامتناع اثنين عن التصويت)، على إدانة محاولة كاسافوبو نزع الصفة القانونية عن حكومة لومومبو. لكن هذا القرار المهم لم يكن له قيمة تذكر لأن كاسافوبو كان يحظى لحظتها فعلا بدعم أمريكي.

وخلال هذا الوقت استخدمت قيادة اليونوك القوات الغانية لإلحاق الضرر بلومومبا. ففي 6 سبتمبر، بعد 24 ساعة فقط من التحاق كاسافوبو بصفوف الأعداء، أمرت القوات الغانية بالاستيلاء على مطار ندجيلي ومحطة الإذاعة الوطنية في ليوبولدفيل ومنع لومومبا من استخدامهما لحشد مؤيديه. وفي غضون هذا، سمحت الأمم المتحدة لتشومبي وكاسافوبو باستخدام محطة إذاعة إليزابثفيل ومحطة إذاعة برازفيل على التوالي، لبث دعايتهما المضادة للومبومبا.

وفي 11 سبتمبر، قاد لومومبا الغاضب مجموعة من الجنود للاستيلاء على محطة الإذاعة. وهدد الغانيون بإطلاق النيران عليه وعلى جنوده إذا لم ينصرف في الحال. وقد احتج لومومبا بشدة لدى نكروما في أكرا، وأبلغ الأخير سفيره في ليوبولدفيل، كوفي دجين،، بضرورة التدخل. وقال قائد الوحدة الغانية، البريجادير أوتو، للسفير في وجهه إنه يتلقى أوامره فقط من قيادة قوات اليونوك وليس منه.

واضطر نكروما للاحتجاج لدى السكرتير العام للأمم المتحدة، داج همرشولد، في 12 سبتمبر، وجاء في مذكرة الاحتجاج:

«لقد ذهبت غانا أصلا إلى الكونغو من أجل مساعدة حكومة لومومبا الشرعية... لكن كل التطورات منذ ذلك الوقت أساءت للهدف الأصلي وقوضت الموقف الغاني على نحو خطير، حيث تستخدم القوات الغانية حاليا فقط كمخلب قط

ضد لومومبا، لتمنعه من استخدام محطة إذاعته. وفي الوقت نفسه، يسمح لإذاعة برازافيل، التي تسيطر عليها فرنسا، العضو الدائم في مجلس الأمن، بإطلاق العنان لدعاية شديدة الخبث ضد حكومة لومومبا الشرعية. ويسمح لإذاعة إليزابثفيل، التي يسيطر عليها البلجيك فعليا، ببث دعاية مماثلة. وهكذا فإن غانا تستخدم في واقع الأمر لتقييد يدي لومومبا خلف ظهره بينما يسمح لدولة عضو دائم في مجلس الأمن بجلده».

وهدد نكروما بأنه ما لم تقم الأمم المتحدة بالتحرك لتصحيح هذه الأخطاء، فإنه سيسحب القوات الغانية من تحت قيادة الأمم المتحدة ويضعها تحت تصرف حكومة لومومبا.

ولو كان نكروما فقط قد نفذ تهديده، لكان لهذا تأثير كرة الثلج في الفرق العسكرية الأفريقية الأخرى في قوة الأمم المتحدة، ولظل لومومبا على قيد الحياة.

لكن نكروما لم يكن يهدد جديا - وأوضح منطقه في ذلك في رسالة وجهها إلى لومومبا في 12 سبتمبر: «لا يجب أن تدفع قوات الأمم المتحدة خارج الكونغو حتى تعزز مركزك، وعندها فقط يمكنك أن تطلب منها الرحيل... لكن إن خرجت قوات الأمم المتحدة الآن فلربما لن تتمكن من مجابهة التشوش الذي سينشأ عن ذلك، والذي ستغذيه القوى الاستعمارية، بلجيكا والإمبرياليون الآخرون الذين يعملون مع القوى الرجعية في الداخل».

وكان ذلك سوء تقدير قاتلا من جانب نكروما، لأن قوات اليونوك، التي هيمنت عليها القوى الغربية، لم يكن لها أبدا أن تنقذ لومومبا. وكلما ازداد بقاء القوات الغانية تحت قيادة الأمم المتحدة، ازداد استخدامها لطعن لومومبا في ظهره، وازداد تعرضها لحبائل ومناورات أجهزة المخابرات الغربية. لذا فلم يكن من الغريب أن اثنين من أبرز



• موبوتو (في الوسط) قام بأول انقلاب في تاريخ أفريقيا

أسماء عصبة الجنرالات التي قادت بعد ذلك بست سنوات انقلابا عسكريا - تعترف المخابرات المركزية الأمريكية الآن بأنها هي التي دبرته - ضد نكروما كانا أنكراه وأوتو. بل إن أنكراه نفسه أصبح الرئيس العسكري للدولة في العام 1967 بعد أن قتل جنرال كوتوكا، قائد الطغمة العسكرية في انقلاب مضاد.

انقلاب موبوتو

لكن عودة إلى الكونغو لنجد أن الدراما الحقيقية للأزمة لم تكن قد بدأت بعد. ففي 14 سبتمبر 1960، قاد الكولونيل موبوتو، رئيس الأركان آنذاك، أول انقلاب عسكري في تاريخ أفريقيا المستقلة. وكان لومومبا قد منح، في اليوم



المستقلة في 14 سبتمبر 1960.

السابق، سلطات استثنائية من قبل جلسة مشتركة لمجلسي البرلمان. وبعد ذلك بأربعة وعشرين ساعة، توجه موبوتو إلى محطة الإذاعة ليعلن أن الجيش قد استولى على السلطة، وأنه قد تم «تحييد» البرلمان والحكومتين المتصارعتين في البلاد حتى 31 ديسمبر 1960، وقال إن الحكومة سيتم استبدالها بـ «مجموعة من طلاب الجامعة».

وكانت خطوة موبوتو مثيرة للاهتمام لأنه كان قريبا جدا من لومومبا. فقد كان موبوتو عضوا في حزب لومومبا حتى خدعه ووثق به. وكان لومومبا يعتبره ذكيا، ومستقيما سياسيا ورجلا ذا مستقبل باهر. وعينه في مجلس الوزراء كوزير بلا وزارة، ثم لاحقا كرئيس لهيئة أركان الجيش الكونغولي المؤفرق الجديد، الذي سمي Armée National Congolese الجيش الوطني الكونغولي.

لكن ما لم يعلمه لومومبا أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت قد جندت موبوتو تحديدا من أجل المهمة التي نفذها في 14 سبتمبر. وكانت المخابرات المركزية الأمريكية تعتبر موبوتو أحد «اكتشافاتها العبقرية»، لأنه كان يعرف لومومبا وحزب الحركة الوطنية الكونغولية مثل راحة يده.

وقبل أربعة أيام من الانقلاب، منحت المخابرات المركزية الأمريكية وبلجيكا ملايين الفرانكات البلجيكية لموبوتو لكي يطوف بالثكنات العسكرية في ليولولدفيل ويدفع الرواتب المتأخرة للجنود. وكان الهدف من هذه الأموال، التي جاءت عبر نظام الأمم المتحدة، هو مساعدة موبوتو على التودد لجنوده، وتعزيز مركزه وجعل انقلاب 14 سبتمبر مبررا.

ولم يكن مثيرا للاستغراب أن يكون أول إجراء يقوم به موبوتو بعد الانقلاب هو إغلاق السفارة السوفيتية في ليوبولدفيل في 40 سبتمبر. وأعقبها بعد شهر بإغلاق السفارتين المصرية والغانية. ورد الرئيس المصري عبدالناصر بإغلاق السفارة البلجيكية في القاهرة.

الأمم المتحدة في قفص الاتهام

في بداية الأزمة الكونغولية، لم تكن العلاقة الشخصية بين لومومبا والسكرتير العام للأمم المتحدة، داج همرشولد، سيئة على الإطلاق. فبعد لقائهما الأول في 24 يوليو 1960 في نيويورك عندما حضر لومومبا اجتماع الجمعية للأمم المتحدة، سمع أحدهم همرشولد يقول: «الآن لا يمكن لأحد أن يقول لي إن الرجل لاعقلاني».

لكن بعد ذلك ببضعة أسابيع، عندما بدأت قيادة اليونوك في استخدام القوات الغانية ضده، وجه لومومبا لهمرشولد خطابات عدة غاضبة،

خاصة بعد زيارة همرشولد لعاصمة التمرد، إليزابثفيل، في 12 أغسطس 1960. بل إن همرشولد ذهب إلى أبعد ذلك عندما لبى رغبة تشومبي بعدم إرسال قوات غانية ضمن قوة الأمم المتحدة التي أرسلت إلى كاتانجا في 14 أغسطس. واحتج لومومبا على ذلك في رسالة بقوله: «إن شعب وحكومة الكونغو قد فقدا الثقة في السكرتير العام للأم المتحدة».

وتدهورت العلاقات بين الرجلين إلى حد دفع همرشولد، وفقا لما ذكرته مادلين كالب في كتابها برقيات الكونغو، إلى إخبار ديبلوماسيين غربيين في حوار خاص بأن: «لومومبا يجب أن يحطم».

وفي وقت لاحق، بدا أن ممثل الأمم المتحدة في الكونغو، السيد دايال (وهو هندي الجنسية)، يحاول تحسين العلاقة بين الرجلين عندما نشر تقريرا رسميا، في 2 نوفمبر 1960، كان مؤيدا بشدة لموقف لومومبا. وانتقد دايال في هذا التقرير الدور البلجيكي، وانقلاب موبوتو والقوى الأجنبية التي تؤيده، وطالب بعودة حكومة لومومبا الدستورية. وعارضت واشنطن تقرير دايال، وقالت إنها ستقبل عودة حكومة برلمانية في الكونغو فقط إذا تم تعيين مرشح كاسافوبو رئيسا للوزراء.

لكن موبوتو، وليس كاسافوبو أو مرشحه، هو الذي كان يقوى ويقوى - بدعم من الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين. وفي يناير 1961، رقي موبوتو من كولونيل إلى جنرال. وبقي رئيسا للدولة طوال السنوات السبع والثلاثين التالية، وعاصر ثمانية رؤساء أمريكيين، وكرم في البيت الأبيض، وجعل من كنشاسا المقر الرئيسي لعمليات المخابرات المركزية الأمريكية في أفريقيا. وفي نهاية المطاف، بعد أن أطاح به متمردو كابيلا في العام 1997، وصفه أصدقاؤه الأمريكيون بأنه «صانع للتاريخ».

(4)

لومومبا.. التداعيات

تحليل بقلم: فرانسوا ميسي

إذا خلصت لجنة التحقيق البلجيكية إلى أن البلد (أي بلجيكا) يتحمل مسؤولية كبيرة عن اغتيال لومومبا، فإن تأثير هذا القرار قد يشبه كرة الثلج بالنسبة لبلجيكا، والكونغو ذاتها، وأيضا بالنسبة لأمريكا وحلفائها خاصة فرنسا وبريطانيا، وأخيرا الأمم المتحدة والبلدان الأفريقية.

وفي رأي البروفيسور جان كلود ويليام، أستاذ علم السياسة ومؤلف كتاب «باتريس لومومبا: وعودة الأزمة الكونغولية» Patrice Lumumba: La Crise Congolaise Revisitee، أن قرار البرلمان البلجيكي تشكيل لجنة للتحقيق في مسؤولية البلاد عن الاغتيال لم يأت مصادفة.

ويرى ويليام، الذي يدرس في المعهد الأفريقي في بروكسل، أن وراء القرار لعبة سياسية محلية. ويعتقد أن لوي ميشيل، وزير الخارجية البلجيكي الحالي، والذي يؤيد بقوة فكرة تشكيل اللجنة، ربما يحاول إحراج الحزب الاجتماعي المسيحي، الذي خرج من التحالف الحاكم في يونيو الماضي. فهذه هي المرة الأولى التي يكون فيها الحزب الاجتماعي المسيحي خارج الحكومة منذ العام 1961. والواقع أن الشخصيات السياسية البلجيكية الرئيسية إبان اغتيال لومومبا - وزير الخارجية هارولد داسبريمو ليندن (وبالأخص وزير الشؤون الأفريقية) وجاستون إيكنز (رئيس الوزراء) - كانت تنتمي جميعها إلى الحزب الاجتماعي المسيحي. لكن أيا منهم لن يستطيع



• على خطى والدهما: جولين وفرانسوا لومومبا في العام 1981. وهما يسيران في الدرب نفسه الذي خطه والدهما، جولين عضو في مجلس وزراء كابيلا، وفرانسوا من معارضي كابيلا.

الدفاع عن نفسه أمام لجنة التحقيق لأنهم جميعا أموات الآن.

ومع ذلك، وباستثناء حزب الخضر الذي لم يكن موجودا عندما اغتيل لومومبا، فإن الأحزاب السياسية الرئيسية الأخرى في بلجيكا لا يمكنها الزعم أنها تمتلك سجلا نظيفا فيما يتعلق باغتيال لومومبا. وكما قالت مؤخرا صحيفة لاسوار La soir البلجيكية اليومية إن الاشتراكيين الذين يشكلون جزءا من التحالف الحكومي الحالي، لم يعترضوا آنذاك على السياة العدوانية التي انتهجتها الحكومة حينئذ ضد لومومبا. والواقع أن الحزب الليبرالي، الذي ينتمي إليه لويس ميشيل، كانت تربطه صداقات حميمة وسط دائرة المسؤولين البلجيكيين الذين أيدوا عدو لومومبا الرئيسي مويس تشومبي.

وأخيرا ربما توقع القضية في شباكها بكامل الجهاز السياسي البلجيكي، باستثناء الشيوعيين الذين أيدوا لومومبا. والحقيقة أن كل الأحزاب الرئيسية إن لم تكن قد شاركت بفعالية في السياسة التي أدت إلى موت لومومبا، فإنها كانت على الأقل غير مكترثة.

وإذا كان كل هذا بالطبع يهم المؤرخين، فإنه لن يقول على الأرجح إلى توجيه أي اتهامات جنائية. ويعود هذا ليس فقط لأن كل اللاعبين البلجيكيين الرئيسيين المشكوك في تورطهم في عملية الاغتيال قد ماتوا، ولكن أيضا لأن القانون البلجيكي لا يجيز تقديم جرائم إلى القضاء انقضى على ارتكابها أكثر من عشرين عاما. وبالتالي فإن أعضاء فرقة القتل التي صفت لومومبا سينامون ملء جفونهم في أسرتهم، فهم يعلمون أنه من المؤكد أنهم لن يذهبوا إلى السجن بسبب جريمتهم، بل وربما لن يطلب منهم أحد دفع تعويضات كبيرة.

ومع ذلك، فمن المنظور الأخلاقي والسياسي، إذا اعترفت الدولة البلجيكية بمسؤوليتها عن عملية الاغتيال، فإنه سيكون من الصعب رد أي قضية تعويض قد ترفعها عائلة لومومبا أو الدولة الكونغولية ذاتها.

ويقول جان - بابتيست سوندجي، وزير الصحة السابق في حكومة كابيلا: «إذا أكدت لجنة التحقيق ما كتبه ديفيت فلن يكفي الحكومة البلجيكية أن تعتذر. إذ سيتعين عليها أن تدفع ثمن ما يعتقد كل كونغولي أنه مسؤلياتها عن أربعين عاما من المآسي والبؤس في الكونغو».

ويخطط وزير الخارجية البلجيكي لوي ميشيل للقيام لزيارة إلى الكونغو تعبيرا عن حسن النوايا، وتريد الحكومة البلجيكية أن تبيض صفحتها من أجل إعادة التقارب بين بروكسل وكنشاسا قبل الزيارة المرتقبة لميشيل.

لكن هذه الإيماءة الإيجابية، التي كان القصد منها إرضاء كابيلا، تحولت إلى مصدر إحراج له. ولهذا السبب لم تقفز حكومة كابيلا من الفرح عندما أعلنت الحكومة البلجيكية عزمها التحقيق في

مصرع لومومبا في منتصف ديسمبر الماضي. فبعض السياسيين الكونغوليين المعارضين لكابيلا، مثل جورج كيمبا، يقولون: «لا يمكن لبلجيكا أن تعتذر لحكومة كابيلا التي خانت استقلال الكونغو، عندما دعت الدول المجاورة لإعادة احتلال البلاد».

ويزعم كابيلا نفسه أنه «لومومباوي». والواقع أنه في مطلع الستينيات كان قائدا للجناح الشبابي للحركة الوطنية الكونغولية (حزب لومومبا) في ألبرتفيل (كاليمي الآن). ويقول مؤيدوه في بروكسل، بمن فيهم لودو مارتن زعيم حزب العمال، إن كابيلا «لومومباوي فعلا، غير أنه أصبح، مثل لومومبا نفسه قبل أربعين عاما، ضحية لـ «مؤامرة غربية» تقودها الولايات المتحدة. وفي رأي مارتن أن القوى ذاتها التي قتلت لومومبا تقف اليوم خلف مؤامرة زعزعة استقرار حكومة كابيلا.

وإجمالا فإن التحقيقات البلجيكية ستفتح من الجروح القديمة أكثر مما ستقفل. وربما حتى ستهدد تماسك حكومة كابيلا. فالحكومة الحالية في كنشاسا تضم ابنة لومومبا جولين وابنة تشومبي إيزابيل. فكيف ستتلقى الوزيرتان نتائج لجنة التحقيق البلجيكية، لا أحد يمكنه أن يخمن ذلك.

وكانت ماري ابنة تشومبي الأخرى قد قالت بالفعل إن الحكومة البلجيكية ينبغي أن تحقق في «مسؤولياتها» عن اختطاف والدها وإعدامه في الجزائر العام 1969. وفي كتابه «اختطاف تشومبي» Le Rape de Tshombe، الذي نشر في بروكسل، اتهم ابن أخيه، جوزيف تشومبي، جواسيس بلجيكا وفرنسا بالتورط اختطاف عمه وقتله.

وكان فرانسوا ابن لومومبا، الذي لا يعتبر صديقا لكابيلا مثل جولين، قد دعا بالفعل كل كونغولي يعرف أي شيء عن اغتيال والده أن يتقدم بالشهادة أمام لجنة التحقيق البلجيكية. أما أنصار لومومبا الآخرون، مثل ابن عمه ألبرتو أوناويلهو لومومبا (رئيس منظمة «الحركة الوطنية الكونغولية - لومومبا») الذي يعيش في المنفى في بريطانيا، فقالوا إنهم جاهزون بالفعل لتقديم بعض الأدلة للجنة التحقيق. وكان أوناويلهو سكرتيرا شخصيا للومومبا، ويقال إنه من يحفظ وصيته.

بوروندي قد تطالب بالتحقيق

وبعيدا عن الكونغو، فإن التحقيق في اغتيال لومومبا ربما يشجع بوروندي (وهي مستعمرة بلجيكية سابقة أخرى) على أن تطلب من بروكسل التحقيق في اغتيال بطلها الوطني، الأمير لويس رواجاسور، الذي أردي قتيلا بالرصاص في 13 أكتوبر 1961 في بوجومبورا على يد رجل يوناني الجنسية يدعى كاكيو رجيس يعتقد أنه كان يعمل آنذاك لمصلحة المخابرات البلجيكية.

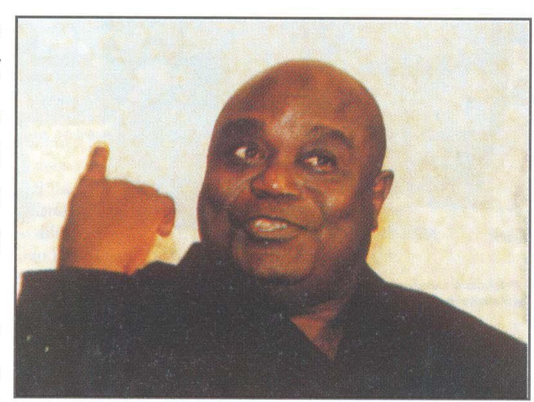
وتعتقد رواندا (وهي الأخرى مستعمرة بلجيكية سابقة) أن ملكها السابق موامي تشارلز رودا هيجوا موتارا الثالث، الذي مات في منفاه في بوروندي العام 1959، قد قتل أيضا على يد عملاء بلجيكيين. وكان الملك قد مات فجأة بعد أن تلقى حقنة من طبيب بلجيكي. ويقول مؤيدوه أنه قد قتل بالسم.

وفي أفريقيا نفسها، ربما تشجع التحقيقات في اغتيال لومومبا أسر الزعماء الوطنيين الآخرين الذين قتلوا على يد المستعمرين على المطالبة بتحقيقات مماثلة، وبدفع تعويضات في آخر المطاف.

وبعيدا عن أفريقيا، ربما تمتلك فرنسا وبريطانيا ما تقولانه عن دورهما في مصرع لومومبا. فالمؤرخون يقولون إن الجنرال ألكسندر، الضابط البريطاني الذي كان يشغل منصب رئيس الأركان في غانا، ما كان له أن يلعب الدور الذي لعبه ضد لومومبا ما لم يكن يحظى ببعض الدعم من بلده الأم. وقدمت فرنسا كل الدعم لكاسافوبو، بما في ذلك سماحها له باستخدام مبنى الإذاعة في الكونغو برازافيل المجاورة ليذيع منها دعايته التحريضية ضد لومومبا في الوقت الذي كانت فيه قوات الأمم

المتحدة تسيطر على محطة إذاعة لومومبا في ليوبولد فيل.

أما بالنسبة للولايات المتحدة فيؤكد المؤرخون أن مسؤوليتها عن اغتيال لومومبا تأتي في المرتبة الثانية، إن لم تكن الأولى، بعد بلجيكا. فدور أمريكا الشيطاني في الكونغو موثق جيدا في كتاب «الوجه الآخر». ومن المرجح أن تسلط لجنة التحقيق البلجيكية المزيد من الضوء على دور الولايات المتحدة.



• كابيلا قد تحرجه التحقيقات البلجيكية.

ثم يأتي بعد ذلك دور الأمم المتحدة. فبعد أن جعلت من نفسها ألعوبة في يد القوى الكبرى التي أرادت لومومبا ميتا، لن يكون بوسع الأمم المتحدة تفادي اللوم (وربما قدر من المسؤولية) على نتيجة الأحداث.

فحتى اللحظات الأخيرة، أمرت الأمم المتحدة قواتها بألا تفعل شيئا من أجل إنقاذ لومومبا. وكانت مادلين كالب قد أوردت في كتابها «برقيات الكونغو» شهادة من الجنرال السويدي كارل فونهورن أكد فيها أن ضابطا غانيا في كاساي طلب السماح له بإنقاذ لومومبا «وقد أمرنا (من القيادة العليا للأمم المتحدة) برفض طلبه، بل وعلى النقيض من ذلك أصدرنا أوامر للقوات الغانية بعدم التدخل».

واستنادا إلى رواية فونهورن نفسه (التي ضمنها كتابه «جندي السلام» Soldate de la Paix الصادر في باريس العام 1966)، فإنه لم يكن متعاطفا مع لومومبا. وقال فيه: «على النقيض من لومومبا، بدا موبوتو لي وطنيا حقيقيا لا يضيع وقته في التسلي بالنظريات الشيوعية».

وتقول كالب إنه عندما نقل لومومبا من بورت فرانسوا إلى إليزابثفيل، كان هناك ستة جنود سويديون تابعون للأمم المتحدة على أرض المطار لكنهم لم يفعلوا شيئا للحيلولة دون قتله.

وفضلا عن ذلك، تبقى هناك ألغاز غامضة تحيط بذلك الحادث المريب غير المبرر الذي سقطت فيه طائرة فوق الجانب الزامبي من الحدود، بالقرب من ندولا، مات فيها سكرتير عام الأمم المتحدة داج همرشولد ومستشاره فنشوف في سبتمبر 1961. وكان همرشولد قد وصل إلى ليوبولدفيل في 13 سبتمبر، وأعلن بعد ذلك بثلاثة أيام أنه سيذهب إلى ندولا، في روديسيا الشمالية (زامبيا حاليا)، حيث كان تشومبي يعيش في منفاه الاختياري، ليرتب وقفا لإطلاق النار في الكونغو.

وغادر همرشولد ليوبولدفيل في 17 سبتمبر في طريقه إلى ندولا لكنه لم يصل إليها أبدا. وفي اليوم التالي، عثر على حطام طائرته بالقرب من ندولا. ونجا من الحادث شخص واحد، ولكنه سرعان ما فارق الحياة قبل أن يخبر أحدا بأي معلومة عما حدث فعلا.

وفي كتابه «تحديات الكونغو»، يقول نكروما: «كانت هناك نظريات عدة حول تحطم الطائرة، لكن أيا منها لا يمكن تصديقه كاملا، وتبقى ظروف مصرع همرشولد في علم الغيب. لكن كما هو الحال في قضية اغتيال لومومبا، يبقى هناك أناس على قيد الحياة بوسعهم إلقاء الضوء على المأساة. وذات يوم سيتقدمون للإدلاء بما يعرفونه».

فهل لجنة التحقيق البلجيكية هي ذلك الـ «ذات يوم» الذي تحدث عنه نكروما؟



● « معاناة الأطفال الصغار » : إمبونجي طفل بترت يده وقدمه في الكونغو في عهد الملك ليوبولد كعقاب على فشل قريته في إنتاج الحصة المطلوبة من المطاط.

أضـواء جديـدة على

قلــب الظــلام

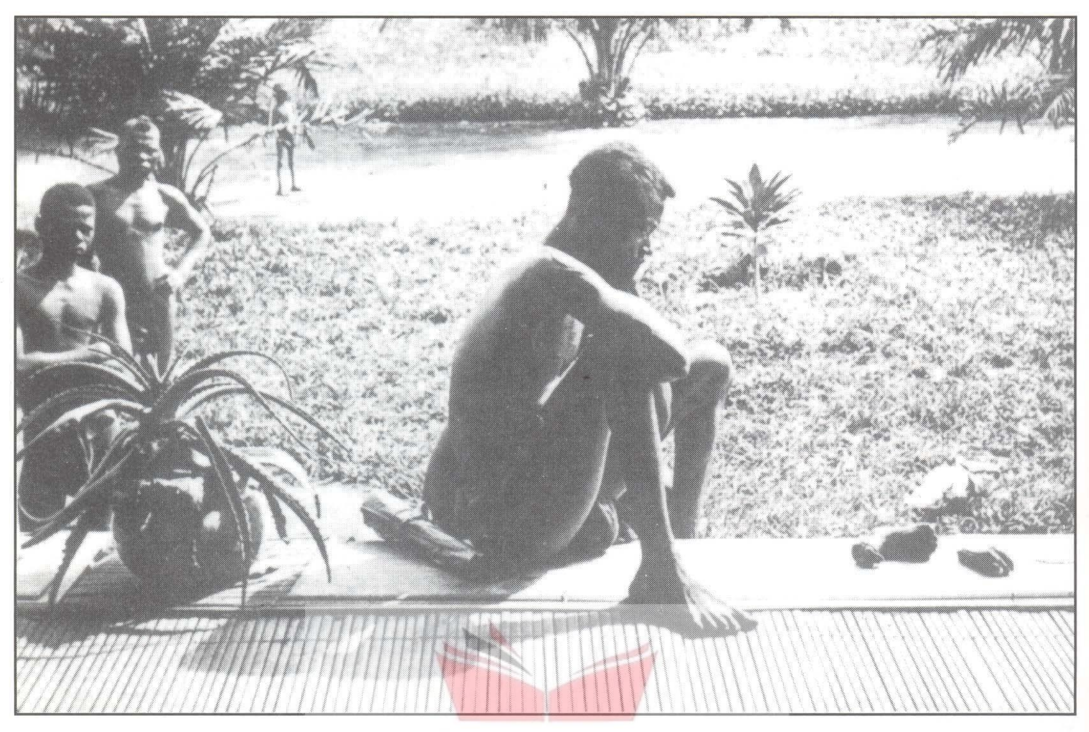
بقلم : أنجوس ميتشيل

ترجمة : تراجي فتحي

بعـد مضي قرن من الزمـان علـى نشر روايـة «قلب الظلام» لجوزيف كونراد يتأمل أنجوس ميتشيل الواقع المروع الذي تضمنته الرواية .

عندما نشرت روايته « قلب الظلام » على حلقات في مجلة « بلاك وودز » في ربيع العام 1899 م، كان من العسير على جوزيف كونراد تخيل أنه كتب واحدا من أكثر الأعمال الأدبية استفزازا و إثارة الخلاف في القرن التالى . وعبر قرن من الزمان ، مثلت تلك الرواية القصيرة نافذة يرى الأوروبيون من خلالها زحف أجدادهم على أفريقيا . وخلف رحلة البحث عن كورتز عبر نهر مارلو، تكمن الصراعات بين المدنية والهمجية وبين الطبيعة والتقدم ، والوحشية والحضارة ، والمسيحية والسحر، كل تلك الأضداد تتصارع من خلال التطور الدرامي المزدحم في الرواية .

العنوان الأصلي للمقال New light on the "Hert of Darkness وظهر في مجلة History Today



● رعب جديد : رعب لا يمكن وصفه اقترفه الأوروبيون بدعوى المدنية

وتعد « قلب الظلام » أول رواية تهاجم (مبادئ) التقدم الغربي والمواقف الداروينية الاجتماعية المريبة التي وُظفت من أجل تبرير المظاهر الوحشية العدة التي واكبت بناء الإمبراطورية . وقد شهدت رواية قلب الظلام هديرا من المناقشات حولها لم يهدأ أبدا ، لدرجة أنه أصبح الآن مجرد ذكرها يعد ابتذالا. فلقد جذب موضوعها العقول الخلاقة ، بل استحوذ عليها أحيانا، مما دفع أورسون ويلز لإعدادها للإذاعة. أما المخرج السينمائي فرانسيس فورد كوبولا فقد قدم فيلمه «نهاية العالم الآن» العام 1974 معيدا تفسير كابوس العراف لينطبق مع الحماسة المجنونة للحماقة الأمريكية في ڤيتنام .

كما قام ناقدو الإمبراطورية الراديكاليون أمثال إدوارد سعيد والكاتب الأفريقي شينوا أشيبى بمدح وذم الرواية على التوالي .

ومما لا شك فيه أن الجدل الأدبي والخلاف حول كونراد سوف يستمر لقرن آخر. فما زالت أفريقيا تعيش في ظل الرعب ويتحقق مغزى الرواية مع مرور السنين.

ولكن ما الأهمية التى تمثلها تصورات كونراد في رواية « قلب الظلام » بالنسبة للمؤرخين ؟ هل هناك «قلب ظلام» تاريخي ؟ هل من الممكن الآن أن تتطابق مع التاريخ ؟ هناك بالفعل مؤخرا جهود تبذل من أجل دراسة الخيال في ظل الواقع.

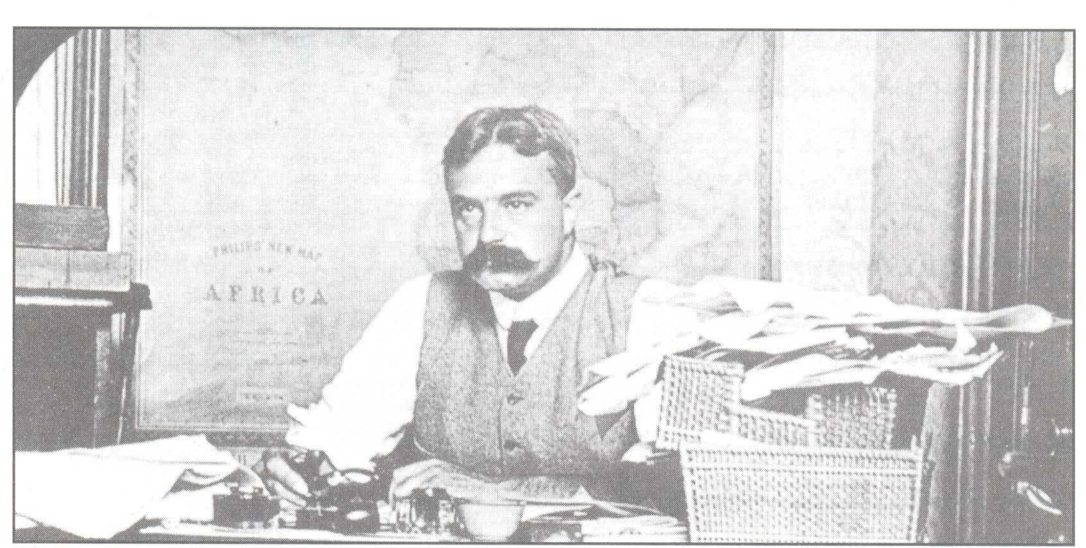
وقد نظر لعدد من المغامرين الأفارقة كنموذج للعبقري الكوني « كورتز » الذي أدت به مهارته الفائقة في جمع العاج إلى تحوله من شخص متحضر إلى شخص

همجي .

تبدأ القصة على ضفتي التيمز - الشريان الإمبراطوري الضخم للتجارة والمدنية - أما الميدان الرئيس للأحداث فهو نهر آخر مختلف تماما وهو نهر الكونغو . ويتحدد الإطار التاريخي للقصة من خلال الفزع الذى كمن تحت سطح فترة حكم الملك البلجيكي ليوبولد الثاني لدولة « الكونغو الحرة » . ولم يتم ذكر ليوبولد باسمه في الرواية على الإطلاق ، مع ذلك فهو يتوارى بين السطور .

ظهرت رواية « قلب الظلام » في اللحظة التي بدأ الرعب يكتسب فيها بعدا جديدا في التصورات والأفكار الأوروبية حول العبودية، مطالبا بإعادة تعريفها . وخلال تسعينيات القرن التاسع عشر بدأ انتشار الأفكار التى ترى أن مفاهيم السياسة الاستعمارية سارت في اتجاه خاطئ تماما ، ومنح كتاب كونراد الذي يبدو محض خيال قوة ثقافية لتلك الأفكار .

وأعقب نشر الكتاب انبثاق مواقف جديدة تجاه أفريقيا بين المفكرين الإنسانيين الراديكاليين . وبدأ البعض يتساءل إلى أين سيؤدي الزحف الإمبراطوري، وتزايدت سرعة عملية فتح القلب الأفريقي وكشفه . ففي العام 1800م كان جنوب الصحراء الأفريقية بالكامل عبارة عن أرض مجهولة لا توجد خرائط خاصة بها . وفي مؤتمر برلين العام 1884- 1885م تقاسمت القوى الاستعمارية القارة الأفريقية فيما بينها ، وحينئذ كانت معظم الأراضي قد تم اجتيازها . وتردد صدى أسماء المغامرين الأبطال المسؤولين عن فتح القلب الأفريقي في حجرات الدراسة حتى اليوم، من أمثال : سير جيمس بروس ، جون هانتج سبيك ، سير ريتشارد بورتون ، دافيد ليفينجستون وسير هنريمورتون ستانلي . فقد ساعدت كتاباتهم الخاصة برحلاتهم إلى أفريقيا على تغلغل الأراضي الأفريقية في الخيال الفيكتوري، وزادت قصص هؤلاء المغامرين من

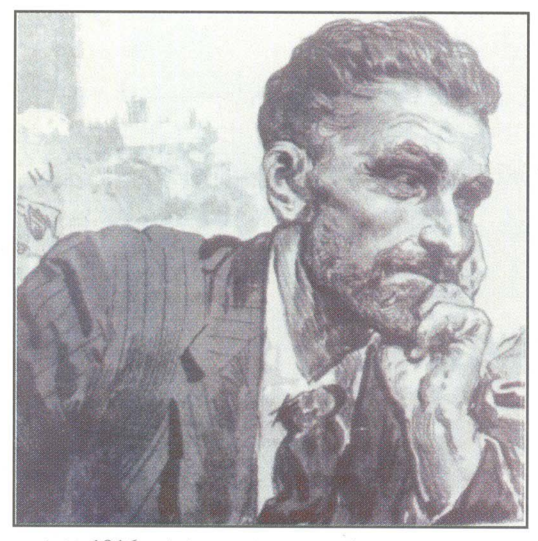


● حملة موريل : الصحافي إ . د. موريل يؤسس جريدة « ذي ويست أفريكان ميل » لإثارة الشعور العام من أجل وضع نهاية للممارسات الوحشية في الكونغو.

مبيعات الجرائد ، وأصبح المغامرون - سواء كانوا مستكشفين من الجنود أو الموظفين من البحرية أو مبشرين أو أصحاب مشاريع هم نجوم الإمبراطورية ذاتها .

ولكن خلال تسعينيات القرن التاسع عشر أصبح من الواضح على نحو متزايد تراجع روح الإيثار التي بررت التوسع من أجل بناء الإمبراطورية الأوروبية، وبدأت القصص الوحشية تصل أصداؤها عبر الموانئ، وأصبح الإحساس بالرعب أكبر من مشاهدته، وبوضوح سارت بعض أوجه حكم الرجل الأبيض في اتجاه خاطئ وأصبح التوسع الإمبراطوري ستارا للمغامرات التي دمرت الحياة المحلية بشكل متزايد . وكان هناك الكثير من الممارسات والأخطاء العسكرية المثيرة للتساؤل . وبدت بعض البعثات التبشيرية شريكة تكتيكية متواطئة في جريمة الخداع، وكانت الطرق الإنجيلية للمسيحية القوية مثيرة للشبهات أيضا . فقد فتح كل من التوازن التجاري والمسيحية - التي ساعدت في القضاء على تجارة العبيد - الطريق أمام رعب جديد: رعب لايمكن تصويره تولى الأوروبيون القيام به بدعوى المدنية.

وكرد فعل لذلك أرغمت الحركة الإنسانية في القرن التاسع عشر على القيام بالإصلاح، ووجدت الاتجاهات الفكرية التي تدين العبودية وتدافع عن الأراضي والحقوق القبلية ضد الغزو الأجنبي - والتي يرجع الفضل فيها إلى المواعظ التي كان يلقيها آباء الكنيسة، أمثال بارتلومي دي لا كاساس وأنطونيو فيرا - أتباعا جددا في بريطانيا بل وفي أماكن أخرى من أوروبا بين الجماعات الاشتراكية والراديكالية الناشئة. وقد بزغ على السطح خلال القرن التاسع جمعيتان



• روجر كيزمينت في حوض السفن العام 1916: الطريق الطويل من الكونغو أوصل الأيرلندي المناهض للإمبراطورية إلى حبل المشنقة، ولكن هل كان كيزمينت خائنا أم شهيدا؟.

عملتا (كراعيتين) لحقوق السكان الأصليين وهما : «الجمعية البريطانية والأجنبية المناهضة للعبودية» و«الجمعية الحامية لسكان البلاد الأصليين» . وتعين على كلتا الجمعيتين توطين النفس على عصر جديد من سوء استغلال الحقوق الإنسانية.

أُنشِئت «الجمعية المناهضة للعبودية» في عشرينيات القرن التاسع عشر من خلال حملة سياسية قامت بها « طائفة كلافام » وأتباع جماعة كويكر، وأيضا نشاط عدد من السياسيين منهم ويليام ويلبر فورس وبعد ذلك توماس فوويل بوكستون . ومارست مجموعة تضم أيضا عددا من السياسيين والنبلاء والأساقفة ضغطا سياسيا هائلا في كل من ويستمنستر ووزارة الخارجية . وفي العام 1900أصبح ملك المستقبل إدوارد السابع نصيرا للجمعية . كما ضمت قائمة أعضائها المعتبرين رجل الدولة

● بعثة الرحمة : ساعد المبشران البريطانيان جون هاريس وزوجته على وشك كشف « قلب الظلام » في الكونغو . وهنا تعبر مسز هاريس نهر أرووِيمي.



اتضح في التغطية الإعلامية الصاخبة لأسواق عمالة العبيد في الدول الإسلامية، مثل إيران والمغرب وزنجبار ومصر والبرتغال وأراضي أفريقيا الخاضعة للسيطرة الألمانية.

أما الجمعية الأكثر تأثيرا - بعد إلغاء الرق - فكانت «جمعية حماية السكان الأصليين» . إذ بعد نشر الدليل الحكومي الذي وضع مسودته « ويليام جلادستون » عام 1837 أُنشئت جمعية حماية السكان الأصليين العام 1838، لمواجهة الممارسات الخاطئة الهائلة التي مارسها الاحتلال الأوربي ضد السكان الأصليين. وفي تقريرها المعلن حددت الجمعية روح المغامرة المستمرة وأيضا تزايد الهجرة القادمة من دول أوروبا كثيرة السكان كسببين رئيسيين من أسباب تصعيد تلك الممارسات . ومرة أخرى جذبت لجنتها شخصيات مهمة من السياسيين ورجال الكنيسة ورجال الأعمال. وفي أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر برزت الجمعية كأشهر الأصوات نتيجة للمساهمة الإيجابية من قبل أعضائها السياسيين الليبراليين الراديكاليين، أمثال سير تشارلز ديلكي وجيمس برابس والفيلسوف هربرت سبنسر وأيضا الليبرالي الصاعد أوجستين بيريل . واهتم سكرتير الجمعية هـ. ر فوكس بورن - والذي عُين العام 1889 - بقضايا عدة من بينها قضية الكونغو.

وكنتيجة لحرب البوير* تغيرت مواقف الجمعية إزاء الإمبروطورية. فقد ولدت روح إنسانية جديدة، تمثلت جزئيا في المعارضات الشعبية للسياسة الحكومية في جنوب أفريقيا

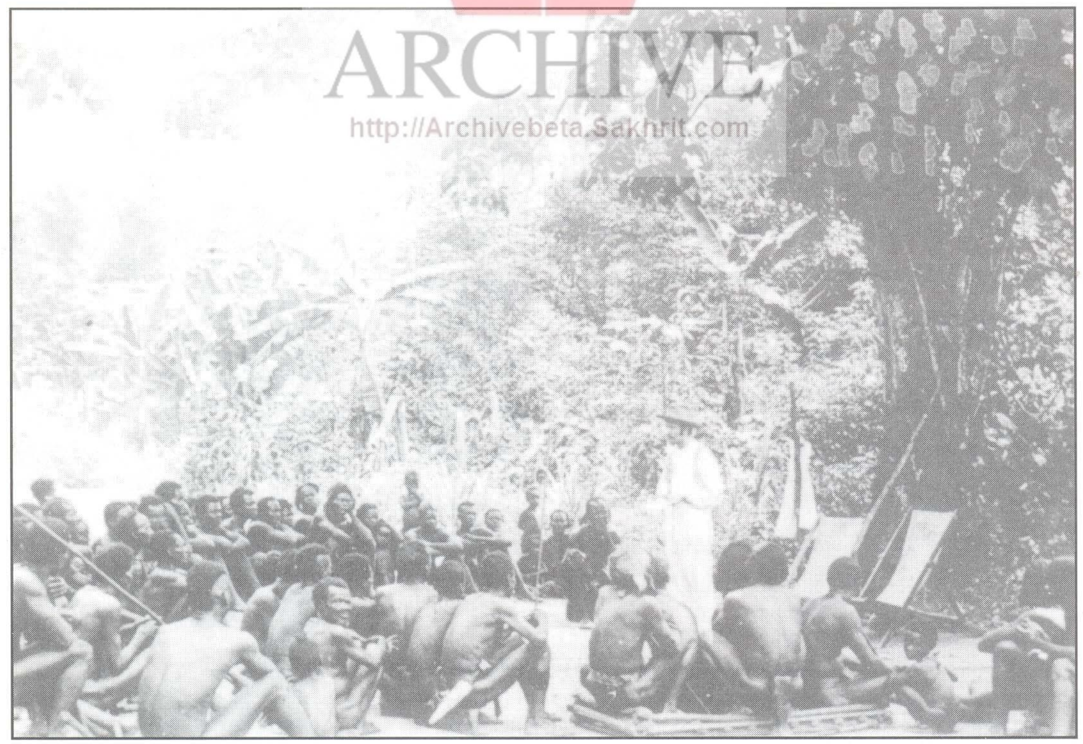
ومخطط إلغاء العبودية في البرازيل جو كوين نابو كو .

وتوضح مجلة الجمعية الربع سنوية The Anti-Slavery Reporter أنه بينما كان محور اهتمام الجمعية عند منعطف القرن هو مسألة السكان الأصليين في أفريقيا، فإن فاعليتها أخذت في التراجع. وكانت هناك تقارير متفرقة ومختصرة حول القضايا وثيقة الصلة بالعبودية، مثل العلاقات العرقية في الولايات المتحدة ونظام الرق في أمريكا اللاتينية، والمعروف بنظام السخرة ونظام استئجار المحكوم عليهم والعمالة الصينية . وباستعراض بلدان مثل بورما وفيجي يتضح لنا أن العبودية كانت مشكلة عالمية . وأينما تمت مناقشة مواضيع وثيقة الصلة بالعبودية داخل أرجاء الإمبراطورية مثل موضوع الممارسات الوحشية ضد السكان الأصليين في غربي أستراليا، تتسم المناقشات بالارتباك والصعوبة. وقد خيم عنصر دعائي واضح على رؤية الجمعية المناهضة للعبودية

بما في ذلك المعسكرات المكتظة وإحراق مزارع البويريين، وجزئيامن خلال الحملات التي قام بها المناهضون للإمبراطورية أمثال إميلي هوبهاوس. وكان العمل الإنساني ما زال ينظر إليه كعمل مهم من أجل الصعود السياسي.

وفي محاولة لصرف الانتباه بعيدا عن تجاوزات السلوك البريطاني المثيرة للحرج في حرب البوير، تركزت المناقشات حول قضية (الكونغو)، ودفع البحث عن الحقيقة الواضحة في «قلب الظلام» العديد من الأفراد إلى القيام بسلسلة من الرحلات عبر نهر مارلوسك بنية كشف الكذب في قلب مدينة الرجل الأبيض. وقد ساعد ذلك أيضا على وضع الحركة الإنسانية على مسار أيديولوجي جديد أكثر راديكالية.

وفي العام 1900م أُسست «الجمعية الأفريقية» تكريما لذكرى الكاتبة والرحالة وعالمة الأعراق البشرية ماري كينجسلي، والتي ساهمت رحلاتها إلى غرب أفريقيا في تسعينيات القرن التاسع عشر بالكثير من أجل زيادة الوعي العام بالموروثات الحضارية الثرية للحياة القبلية في المنطقة. وكانت أليس ستوبفورد جرين عالمة التاريخ وزوجة ج. ر. جرين مؤلف «تاريخ الشعب الإنجليزي» والحاصلة على الدكتوراه الفخرية هي السكرتيرة الجديدة للجمعية، حيث لعبت دور القوة الدافعة لتأسيسها. أما أمين صندوق الجمعية، فكان جورج ماكميلان صاحب دار النشر. ومن بين أعضاء لجنة الجمعية رئيس

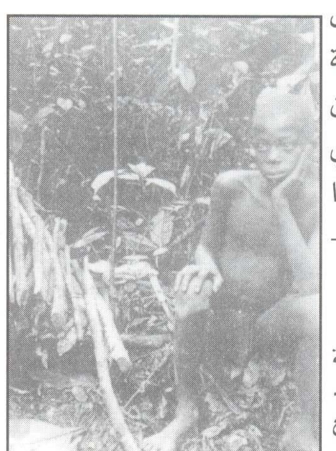


● دعونا نصلي: المبعوثون الأوروبيون يشنون حملتهم ضد الممارسات الوحشية في الكونغو. يظهر في الصورة جون هاريس

● أصل كل الشرور : إن تطور صناعة السيارات هو الذي زاد الاحتياج إلى المطاط كما يوضح هذا النقش الكونجولي .

الوزراء الليبرالي المنتظر هربرت أسكويث والمحاور جلادستون وكاتب السيرة الذاتية جون مورليوالعالم بعلم الإنسان ج . ج فريزر مؤلف « الغصن الذهبى » ، وحاكم «الساحل الذهبي» ماتيو ناثان . وتحمس أعضاء الجمعية – قبل كل شيء– لغرس « احترام عادات السكان الأصليين » وتغيير المفهوم السائد عن أفريقيا والأفريقيين .

وفي أبريل من العام 1903م بدأ الصحافي الشاب إ . د . موريل في إصدار صحيفة أسبوعية أسماها « ذي ويست أفريكان ميل»، وتمثل المبدأ الأساسي للجريدة في توفير الأخبار الصادقة الجديرة بالثقة حول المشاريع التجارية في غرب أفريقيا، وحمل العدد صورة ضخمة لونستون تشرشل – الذي انضم حديثا لليبرالية –

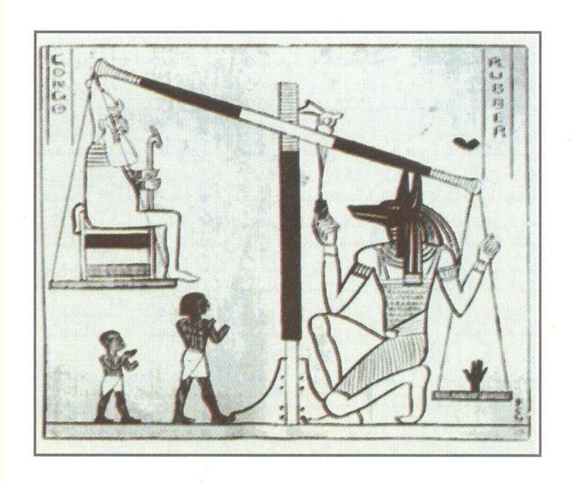


● استجلاب المطاط بالأساليب التقليدية (يسارا)، تسبب في سقوط الأشجار بأعداد ضخمة مما يشكل كارثة بيئية (يمينا)، وذلك مع ازدياد الطلب على المطاط .

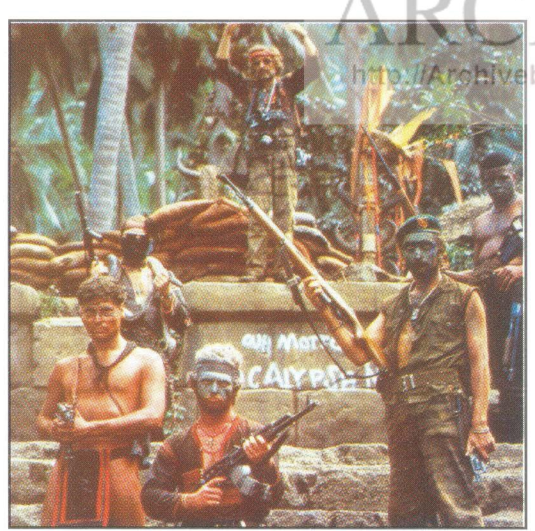
مصحوبة بخطاب منه يؤيد فيه مشروع موريل . كما كان هناك أيضا مزيد من الأمنيات الطيبة التي أرسلها مالكا الخطين الملاحيين في ليفربول وهما سير ألفريد جونز وجون هولت . كما برز أيضا اسم أليس ستوبفورد جرين بجوار اسم الجريدة . ولكن بالإضافة الى تغطية الشؤون التجارية اهتم موريل بشكل أعمق بتحسين الإدراك العام بالممارسات الوحشية في الكونغو وكشف تصعيد تهجير العبيد من داخل البلاد .

وقررت وزارة الخارجية التدخل العام 1903م عندما أقر مجلس العموم قرارا بالحد من الكارثة في الكونغو . فاختارت أقدر قنصل لها في أفريقيا لإدارة التحقيقات لمصلحتها، ألا وهو روجر كيزمينت. و كان كيزمينت قد قضى بالفعل عشرين عاما في أفريقيا عمل لمدة عشرة أعوام منها بشكل رسمي في وزارة الخارجية في سلسلة مناصب قنصلية، ولكن عمله القنصلي كان ستارا لنشاطات استخباراتية . وفي بداية عمله القنصلي كان يقوم بهذه النشاطات لحساب كل من استخبارات الحرب والاستخبارات التجارية التي كانت تعد جزءا من وزارة التجارة . وفي أثناء حرب البوير قام بتدبير « بعثة خاصة » لمهاجمة خطوط سكك حديد البويريين .

وقد انعكست جولة كيز مينت داخل البلادعلى« رحلة نهر مارلو » من نواح عدة. فقد استأجر القنصل قاربا نهريا وقضى شهرين في الإبحار واجتياز الأراضي التي قطعها قبل العام 1897، جامعا الأدلة من ضحايا الممارسات الوحشية ومرتكبيها على حد سواء. وفي طريق عودته إلى لندن تقابل مع كل من موريل وكونراد . ونُشر تقريره في فبراير 1904بعد أن تم اختصاره وتحريره وأصبح ممثلا للاتجاه



• آثام ليوبولد أثقل : في هذا الكارتون من صحيفة ويست أفريكا ميل التي أسسها موريل وضعت روح ليوبولد (يسارا) في كفة الميزان، أمام آثامه الممثلة في الأعضاء المبتورة لفلاحي الكونغو.



• « الرعب ! الرعب ! » : ترددت أصداء رواية كونراد عبر القرن، موحية بفكرة فيلم « نهاية العالم الآن» المناهض للحرب الفيتنامية .

الحكومي الرسمي. وتخاطفت الصحافة الوطنية القصة واجتاح بريطانيا احتجاج عنيف . وقد منح كيزمينت نفسه أول شيك بمبلغ مائة جنيه إسترليني لموريل من أجل تأسيس « جمعية إصلاح الكونغو» والتي أصبحت على مدار العقد التالي أكثر القوى الإنسانية راديكالية في الإمبراطورية . فقد أثارت قضية المبادئ الأساسية للسياسة الإمبراطورية، وفي آخر الأمر أرغمت ليوبولد الثاني على التنازل من حكمه الذاتي للكونغو.

وبدأ الصحافيون المشهورون والجرائد والصحف الليبرالية الراديكالية في إدانة الفظائع التي تمارس في أرجاء العالم باسم الإمبراطورية .وبدأ تشكل صورة للفظائع العالمية التي يمارسها من يطلقون على أنفسهم المتمدنيين ، مثل الوحشية التي يمارسها الألمان ضد سكان جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا الآن) ، وأفعال اليابانيين في فورموزا (تايوان) .

وقد قام الصحافي البريطاني هـ. ونيفينسون بتحقيق حول العبودية في منطقة غرب أفريقيا التابعة للسيادة البرتغالية (أنجولا) ونُشِر تحت عنوان «العبودية الحديثة » العام 1906م . كما جذبت التماسات الشجب باهظة الثمن التي تقدمها الشركات المدافعة عن الأنشطة التجارية في المقاطعات الإمبراطورية، بعض المحامين أمثال روفوس إيزاك وسير إدوارد كارسون. وتزايد السخط الشعبي إلى حد كبير نتيجة مشاركة شخصيات مهمة أخرى ذات ثقل أدبي كبير . فقد كتب مارك توين « مناجاة الملك ليوبولد » وكتب آرثر كونان دويل « جريمة الكونجو »، كما حضر الآلاف الاجتماعات الحاشدة لجمعية إصلاح الكونغو بطول البلاد وعرضها .

وكشف نشر رواية « المطاط الأحمر » بقلم إ. د. موريل العام 1906م، أن أبشع الجرائم أُرتكبت من أجل سد الاحتياج المتواصل للمطاط مع نمو وتطور صناعة السيارات والدراجات الناشئة . وكان العام 1906م هو العام الذي بدأ فيه هنري فورد إنتاج موديل - تي - وهو أول إنتاج ضخم للسيارات ذات المحرك. وبدأ الاحتياج للمطاط حينئذ يفوق بكثير المعروض منه . وكنتيجة لكون المطاط مادة عازلة يستخدم في الأسلاك و الدوائر الكهربائية بالإضافة إلى استخداماته في صناعة السيارات، أصبح المطاط سلعة محدودة لصنع القرار السياسي الإمبراطوري .

وفي تلك السنوات الحاسمة ما بين 1892و 1918 كان المطاط ما زال يستجلب من الغابات الاستوائية . وأشعلت مناورات التلاعب بالأسعار في سوق المطاط سلسلة من أحداث الإبادة الجماعية التراجيدية عبر القرن العشرين، وغيرت تلك الأحداث وجه المناطق الاستوائية في العالم إلى الأبد. بالرغم من أنه في رواية كونراد « قلب الظلام » تشكلت سمعة شخصية كورتز من شهرته الواسعة في مجال جمع العاج ، كان جمع المطاط هو الذي أدى في الواقع إلى أضخم تغير قبلي وبيئي في العصر الحديث . فكانت هناك أعداد لا تحصى من أمثال كورتز من الرجال البيض يقومون بإجبار السكان الأصليين على تقديم المطاط عبر أفريقيا الاستوائية والأمازون .

وفي العام 1909م وفي محاولة لتعزيز الجبهة المناهضة للاستغلال في أفريقيا، اندمجت الجمعية المناهضة للعبودية مع جمعية حماية السكان الأصليين ليشكلا جمعية «

مناهضة العبودية وحماية السكان الأصليين » وانتُخِب جون هاريس وهو مبعوث بابوي سابق قضى سنوات عدة في أفريقيا ليعمل كنائب سكرتير للجمعية . وخلال بضعة شهور من الاندماج انهمكت الجمعية في فضيحة عبودية جديدة .

كانت الفضيحة هذه المرة في منطقة الجبة المتنازعه في شمال - غرب الأمازون يحدها كولومبيا والبرازيل وبيرو وإكوادور . وعرفت هذه التراجيديا باسم « مذابح يوتومايو » ومرة أخرى كان هناك كيزمينت وكان هذه المرة في منصب القنصل العام البريطاني في ريودي جانيرو، حيث جنده وزير الخارجية الليبرالي سير إدوارد جري لكي يحقق في الأمر على مستوى رسمي . قام كيزمينت برحلتين للأمازون في العام 1910و 1911م ومرة أخرى على نمط رحلة نهر مارلو، اتسمت الرحلتان بالسرية الكاملة . وقام كيزمينت بكشف فظائع توازي الوحشية التي شهدها الكونغو، بل وتتفوق عليها . ومرة أخرى ، ومن خلال تعاون الإعلام، احتل الموضوع أعمدة الصحف حول العالم لشهور عدة. وفي العام 1911م أذيع العمل الإنساني والإنجاز الضخم الذي قام به كل من موريل وكيزمينت . ومنذ ذلك الحين أصبح اسم الرجلين مألوفا بطول الإمبراطورية وعرضها . وفي التاسع والعشرين من مايو العام 1911م، نظم احتفال عام للاحتفاء بموريل في فندق متروبول ترأسه لورد كرومر .

وكان هناك عشرات من الرسائل من الذين لم يتمكنوا من الحضور وعشرات من الخطب التحريضية من الحاضرين : فقد جاء في خطبة أسقف وينشستر : « إن كل شخص محايد وعلى دراية جيدة يعلم ، كما توافق الشخصيات العامة من كل الأحزاب أنه يوجد الآن في الكونغو وفي حكومتها أحد هؤلاء الوحوش اللاأخلاقيين، الذين يشوهون التاريخ ويسخرون من الضمير الإنساني . وقد يمارس هذا الوحش وحشيته بسهولة دون أن يعرفه أحد ، وحتى لو عرف خلف حجاب المسافة والظلام قد يذهب بسهولة - حتى بعد معرفته - دون أن يتعرض للهجوم، فيما عدا بعض كلمات الاعتراض عديمة الجدوى . وإذا لم يحدث ذلك فالفضل يرجع كاملا للسيد موريل . ولا أخجل من الاعتقاد بل والقول إن العناية الإلهية قد وهبتنا هذا الرجل لضرورة أخلاقية ملحة » .

جمعت تلك المأدبة عشرات الأساقفة والعديد من النبلاء وقادة الصناعة، فقد منح كل من أندرو كارنجي و و. هـ ليفر وويليام كادبوري وأيضا جون هولت - الذين يعدون أفضل أربع رجال صناعة حينئذ أسماءهم لهذه المناسبة . وأصبح اجتماعا حاسما في عصره .

وبعد ذلك ببضعة أسابيع تلقى كيزمينت أنباء عن منحه لقب الفارس ، وفي أوائل أغسطس شرع في رحلة أطول إلى الأمازون بغرض اعتقال مرتكبي المذابح . وبالنسبة لرحلات كيزمينت الثلاث عبر نهر مارلوسك كانت تلك الرحلة أكثرهم غموضا . وعند أعالي النهر شهد كيزمينت نهاية عهد ازدهار مطاط الأمازون وانهيار قشرة المدينة التي شيدت على كاهل اقتصاد المطاط . فقد بدأت الحمى الصفراء في الانتشار، وبدأت أسعار المطاط في الهبوط . فقد غادر الذين يقومون بجمعه البلاد وفي رحلة العودة اتجه كيزمينت إلى واشنطن وقضى بضعة أيام مع السفير البريطاني هناك جيمس

برايس، وأيضا أجرى مقابلة خاصة مع الرئيس الأمريكي ويليام هوارد تافت .

أدى نشر تقارير كيزمينت عن الأمازون في يوليو العام 1912 إلى بلوغ المناقشات على صفحات الجرائد ذروتها. وأجبر رئيس الوزراء هربرت أسكويث على تأسيس لجنة مساءلة مختارة من أعضاء البرلمان وفُضِح العديد من الممارسات الفاسدة التي كانت تتم لمصلحة التجارة الإمبراطورية. وأصدرت روما منشورا بابويا عاما . وبعد مرور عامين أصدر مجلس العموم قانونا يقضي بتحميل رؤساء الشركات البريطانية مسؤولية نشاطات شركاتهم خارج البلاد .

ومع اندلاع حرب 1914 انقسم أولئك الذين وحدتهم الحركات الإنسانية منذ بداية القرن ، تبعا لوجهة نظر وولاء كل منهم .

وفي غضون ساعات من اشتعال العداوات قام موريل بتأسيس اتحاد التوجيه الديمقراطي، بالاشتراك مع جيمس رامسي ماكدونالد ونورمان أنجل وتشارلز تريفيليان. وأصبح الاتحاد أقوى الأصوات المعارضة الناقدة لدخول الحكومة البريطانية الحرب العالمية الأولى ، كما قام بمهاجمة الرؤية الحكومية لكيفية حدوث وسير الحرب متهما الحكومة الليبرالية بتعمد نشر الأكاذيب . وقد تعالت أعلى الاحتجاجات ضد ممارسة الدبلوماسية السرية وسيطرة عصابة صغيرة من السياسيين على السياسة الخارجية . وكان برتراند راسل من ضمن أولئك الذين انجذبوا لهذه الحركة ، ومما يوضح نفوذ تلك الحركة أن تسعة أفراد من أعضائها أصبحوا وزراء في أول وزارة عمال 1924.

اتخذ المسار المهني لكيزمينت اتجاها أكثر ثورية، فبعد استقالته من وزارة الخارجية في أغسطس العام 1913م شرع في تجنيد متطوعين أيرلنديين، كرد على تسليح القادة الاتحاديين سير إدوارد كارتسون و . ف . إ . سميث لمتطوعي يولستر . وعندما ترك كيزمينت أيرلندا في يوليو 1914م قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بحوالي شهر كان لديه جيش من المتطوعين يزيد عدده عن 12ألف فرد تحت تصرفه . وبعد وصوله إلى أمريكا ببضعة أيام وصلت أول شحنة أسلحة لهؤلاء المتطوعين إلى هاوث عن طريق إرسكين تشايلدرز وتمت تلك الصفقة الجريئة في منزل أليس ستوبفورد جرين في جروز فينور رود في لندن . وفي أمريكا جمع كيزمينت مزيدا من التبرعات وخطط لتمرد على ضد الإمبراطورية البريطانية . وفي خريف العام 1914عاد إلى أوروبا باذلا جهوده من أجل الحصول على التأييد الألماني لحركة استقلال أيرلندا . ولكن السلطة الألمانية العليا راوغته كما بدأت حملة دعائية في الصحافة البريطانية بهدف تشويه سمعة كيزمينت لدى الرأى العام .

وفي أبريل العام 1916 وبعد فشل كيزمينت في تجنيد سجناء الحرب الأيرلنديين للانضمام إلى الفرقة الأيرلندية الداعية للاستقلال ، عاد إلى أيرلندا في غواصة ألمانية ، ولكن البحرية البريطانية اكتشفت شفرة توضح تفاصيل خططه التي وضعها للقيام بالعصيان . وكان من المتوقع وصوله ، واعتقاله في قلعة « أيرن إيدج» بدأت سلسلة الأحداث التراجيدية في أسبوع عيد الفصح من العام 1916م، فكثير من الذين شاركوا كيزمينت وموريل في حملتهما من أجل

إصلاح الكونغو أمثال أسكويث وسير إدوارد جري ووينستون تشرشل وهربرت صامويل، وسير ماثيو ناثان أصبحوا يطالبون الآن بتنفيذ حكم الإعدام في كيزمينت بتهمة الخيانة العظمى . وبعد المحاكمة أُعدِم كيزمينت وأصبح بذلك آخر قادة التمرد الأيرلنديين الستة عشر الذين أُعدِموا في أعقاب الثورة .

وفي العام 1917م سُجِن موريل بموجب قانون المملكة بسبب استمراره في شن الحملات ضد الحرب . وقد أثر السجن في صحته بشكل خطير ووافته المنية في ديسمبر 1924م . منذ ذلك الحين غابت السياسة الأخلاقية التي فرضها كل من كيزمينت وموريل على وزارة الخارجية، والتي حفزت السياسيين الليبراليين الراديكاليين. وفي العام 1914م أصبحت بريطانيا وبلجيكا حليفتين في الحرب وصار كل ما يخص الموضوع إصلاح الكونغو في الهواء فقط خلال ثمانينيات القرن العشرين أفرج الأرشيف الحكومي البلجيكي أخيرا عن وثائق مهمة بها تفاصيل الممارسات المرعبة في الكونغو، أما في بريطانيا فقد تأخر الأمر كثيرا عندما سمحت الحكومة العام 1995م فقط بإجراء فحص تاريخي يتسم بالاستقلال لعدد من أوجه الملابسات المحيطة بسيرة حياة كيزمينت الخارقة، كشخصية إمبراطورية عبقرية تحولت لتصبح شخصية إنسانية ثم شخصية ثورية.

وفي نهاية رواية « قلب الظلام » يعود مارلو إلى بروكسل ليحكي لعروس كورتز التي كانت تنتظره عن موته . ولكن بدلا من أن يروي لها الحقيقة كذب وادعى أن كورتز كان يردد اسمها مع آخر أنفاسه.

إن العمل الإنساني الذي وحد عديدا من الشخصيات الفكرية والسياسية والدينية قبل العام 1914م بقي كمنطقة مجهولة في التاريخ : إن أوجها عدة من القصة بقيت في طي الكتمان حتى اليوم . وبقيت الأكاذيب كجزء من السجل التاريخي.

لقد آن الأوان أن يتمكن المؤرخون من فهم الأمر برمته بشكل أفضل . إن المبادئ والأفعال التي تسببت في تأسيس الحركات المناهضة للعبودية والجهود التي بذلت من أجل حماية السكان الأصليين في الكونجو والأمازون وأماكن أخرى، أصبحت الأساس الذي شيدت عليه المنظمات الإنسانية ومنظمات حقوق الإنسان بما في ذلك منظمة العفو الدولية .

وتعود أيضا جذور المبادئ الأخلاقية للسياسة الخارجية والتي يتم تعزيزها الآن كقوة دافعة للسياسة الخارجية للعمال الجدد إلى مناقشات تلك الفترة .

وأصبح من المفهوم الآن أن حركة إصلاح الكونغو ومجازر بوتومايو، التي عملت معا على إثارة الغضب العام ما بين العامين1903و 1914م، اعتبرت هي الفصل الأخير من الحملة الطويلة المدى ضد العبودية ، بالرغم من أ ن هذا الفصل ما زال بحاجة للكتابة، مثله مثل التاريخ.. فقد تمت التعمية على دلالته – جزئيا بسبب موقف موريل المناهض للحرب وأهميته في نشأة حزب العمال البريطاني ، ولكن بدرجة أكبر بسبب تورط كيزمينت في النشاطات الثورية . غير أن ما تكشفه قصة تلك الفترة هو أن رواية كونراد «قلب الظلام» عكست الحقيقة والفظائع الكامنة في جوهر الامبراطورية الذي أمل البعض ألا ينكشف بالحقائق أبدا .

إلى من ستؤول ملكية جسدك؟

تأليف: د. سوزان ألدريدج

ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم محمد

سيكتمل مشروع الجينوم البشري العام مبكرا كثيرا عما كان متوقعا له من قبل، وذلك بفضل التقنيات المتقدمة للغاية، ونتيجة للتهديد المخيف من قبل القطاع الخاص.

أوشك مشروع الجينوم البشري Human Genome Project، والذي يعرف اختصارا باسم «هوجو HUGO» على الانتهاء، كما أن ثورة في علم الأحياء والطب قد بدأت لتوها. وستخبرنا قدرتنا على قراءة الجينات الموجودة في جميع خلايانا، وبصورة دقيقة، بماذا يعني كوننا بشرا. والأهم من ذلك أنها ستمنحنا فهما أكبر بكثير لأمراض معقدة مثل السرطان، ومرض ألزهايمر(*)، والفصام Schizophrenia، وستحملنا إلى حقبة جديدة للطب المبني على الجينات.

وقد لقب مشروع الجينوم البشري بأنه المقابل البيولوجي لإرسال إنسان إلى القمر، ويقال إنه على بعد أسابيع قليلة من إصدار «مخطط عمل» Working draft ستغطى فيه نسبة 90% من الجينوم. ويعد القائمون على المشروع بنسخة كاملة في العام 2003. وبالنسبة لمشروع شعبي حدد لانتهائه، موعدا في العام 2010، يعد ذلك تقدما فعالا بدرجة مدهشة.

ويرجع سبب تعجيل موعد التسليم بهذه الصورة الدراماتيكية إلى رجل واحد هو كريج فينتر Craig Venter. ونتيجة لانعزاله عن المجتمع العلمي الأمريكي بسبب تكتيكاته العنيفة فيما يتعلق بمنح براءات الاختراع في أثناء عمله في المعهد الوطني للصحة NIH، فقد أنشأ معهدا مستقلا للأبحاث أطلق عليه اسم معهد الأبحاث الجينومية The Institute for Genomic Research، أو تيجر TIGR اختصارا، ثم أعلن في مايو 1998 إنشاءه لشركة Celera genomics، حيث تعني celera السرعة، وهي شركة خاصة أعلن أنها ستكون أول من ينتج الجينوم البشري. كان «فينتر» مدعوما من قبل شركة Applied Biosystems، والتي ساعدها على تطوير أول كمبيوتر موال للجينات Gene sequencer.

غضب عارم حول براءات الاختراع:

كان ذلك يمثل موقفا شبيها باكتشاف وكالة الفضاء الأمريكية NASA في الستينيات أن شركة خاصة كانت تخطط لسبقها إلى القمر! كانت جرأة «فينتر» لاستباق المشروع HUGO ليصبح أول من «يقرأ» الجينوم البشري، قد

العنوان الأصلي للمقال؟ 'Who' II own your body ونشر في مجلة Focus عدد أغسطس 2000

* Alzheimer's Disease . أو الخرف الشيخوخي . المترجم

أصابت المجتمع العلمي بالصدمة والغيظ، وخصوصا عندما أعلن أنه ينوي تسجيل براءة اختراع لكل جين في خلايانا يقوم هو باكتشافه. ويعد عدم إتاحة الوصول العام والمجاني لهذه المعلومات الأساسية عن أنفسنا، وقاحة في نظر الأغلبية.

لكن ذلك لم يثن «فينتر» عن عزمه، فقد ادعى أنه سينهي مشروع الجينوم بحلول العام 2001، وأنه يمتلك بالفعل «مسودة أولية» عنه. ولتحقيق ذلك، فقد عمل على تشغيل 300 من أقوى أجهزة الكمبيوتر الفائقة Supercomputers، المخصصة للأغراض المدنية في العالم - تبلغ قيمتها 80 مليون دولار أمريكي، وعلى مدار الساعة، لالتهام الكميات الهائلة من البيانات خلف الشفرة الجينية البشرية - والتي تساوي كم المعلومات التي يحتوي عليها 1000 دليل للهواتف.

ولم يتمكن المشروع HUGO سوى بشراء أجهزة مشابهة لتلك، من تسريع وتيرة عمله. وقد وصل المشروع الشعبي حاليا لمرحلة التسابق رأسا لرأس مع فينتر. وتختلف طريقة فينتر في التحليل نوعا ما عن تلك التي ينتهجها المشروع HUGO ، والزمن وحده هو الذي سيخبرنا عن أي المعسكرين سيفوز، الخاص أم العام.

ولفهم الطريقة التي سيقرأ بها الجينوم البشري، الأفضل هو العودة



عالم يحمل الأنابيب الشعرية capillary tubes المستخدمة في المراحل النهائية في قراءة شفرة الـ DNA البشري (أعلى).

ينفذ أغلب العمل في مشروع الجينوم البشري في مركز سانجر بمدينة كامبريدج (يسار)، وهو مبنى عالي التقنية تموله الهيئة الخيرية البريطانية، مؤسسة ويلكام.

* نسبة للأحماض الأمينية الأربعة الرئيسية التي يتكون منها الـ DNA؛ وهي الأدينين Adenine، والسيتوزين Cytosine، والثيمين Thymine، والجوانوزين Guanosine - المترجم.

رجل أعمال في القطاع الخاص يتحدى مشروعا عميوميا:

في العام 1998، أنشأ كريج فينتر (أو «دراث فينتر» كما يطلق عليه منتقدوه)، شركة Celera خصيصا ليسبق مشروع الجينوم البشري إلى هدفه. أما الآن، فهو يقول أن شركته على بعد عام واحد من القراءة الكاملة للجينوم، وأنه سيسجل براءة لكل جين تكشفه شركته. لكن أغلب الناس يعتقدون بأن الوصول لمعلومات الجينوم البشري أي خاصتنا يجب أن يكون مجانيا.

يمتلك فينتر أكبر الكمبيوترات الفائقة المخ
للاستخدامات المدنية، بفضل علاقته القدي
شركة الأنظمة الحيوية التطبيقية lied
Biosystems.

للأساسيات. فكل خلية من كل كائن حي (من البشر إلى البكتيريا)، تحتوي على نسخة من كتيب الإرشادات الخاص بهذا الكائن الحي، مكتوبا بالشفرة الكيميائية للحلزون المزدوج Double helix للحمض النووي DNA (الدنا). وتحتوي هذه الشفرة على أربعة حروف A وC وT وG، مرتبة (ظاهريا) بصورة عشوائية. ويعرف إجمالي كل هذا الكم من الـ DNA بالجينوم (المجين Genome)، ويتمثل الهدف النهائي لمشروع الجينوم في اكتشاف ترتيب أو تسلسل هذه الحروف.



صورة مقربة لربوط يختار المستعمرات البكتيرية المحتوية على الـ DNA. ويتم تلوين الـ DNA ليمكن تمييز الأطباق المحتوية عليه. والمستعمرات الباهتة التي تظهر في الصورة هي تلك المحتوية على الـ DNA.

الجزئيات الرئيسية بالخلايا:

يمتلك البشر ثلاثة بلايين أو نحوها من تلك الحروف، بينما تمتلك الأنواع الحية الأخرى أعدادا أقل، أو أكثر (مما قد يثير الدهشة). ويتكون اثنان بالمائة فقط من الجينوم من جينات فعلية ـ وهي استطالات extensions من الـ DNA تحتوي على التعليمات الخاصة بتصنيع البروتينات، وهي الجزيئات الرئيسية بالخلية. وحسب أحدث التقديرات، يحتوي الجينوم البشري على نحو 40.000 جين، وهو عدد كاف تماما لتفسير التركيب المعقد للجسم البشري. ويمثل الجزء المتبقي من الجينوم «الـ DNA الخردة» Junk DNA، والذي لم تحدد وظيفته بعد، إن وجدت.

تتكون مصادر تمويل المشروع HUGO من جهات عمومية، حيث تنفذ الجهود البحثية الدولية في مختبرات بالمملكة المتحدة، والولايات المتحدة، وفرنسا، وألمانيا، واليابان، والصين. ويعمل كل من تلك المختبرات بصورة متوازية، حيث ينتج كميات كبيرة من المتوالية الجينية

المرحلة الأولى: يستخلص الـ DNA من دماء المتطوعين ويجمد عند درجة صفر فهرنهايت. تظهر الصورة فنية تسحب صينية للعينات من ثلاجة التخزين.

يتم تجزيء عينات الـDNA ثم استنساخها في البكتريا. ومع تكاثر المزرعة البكتيرية، تنتج نسخا جديدة من الـ DNA. تظهر الصورة ربوطا (إنسانا آليا) لاقطا robot picker يختار المستعمرات البكتيرية المحتوية على الـ DNAلنقلها إلى المرحلة التالية.

من أجزاء مختلفة من الجينوم، وتنشرها بصورة يومية على شبكة الإنترنت.

وفي المملكة المتحدة، تتركز أبحاث سَلسَلة الجينوم Genome sequencing، في مركز «سانجر» Sanger Centre بمدينة كامبريدج، وهو موقع عالي التقنية مبني لهذا الغرض وتكلف 300 مليون جنيه استرليني دفعتها مؤسسة ويلكام The Wellcome Trust، وهي أكبر هيئة خيرية طبية في بريطانيا، والتي وفرت ثلث تكاليف المشروع HUGO. وحتى الآن تمت سَلسَلة بليوني حرف من الجينوم البشري. ويظهر تأثير التكنولوجيا الحديثة، مثل الربوطيات Robotics، جليا على المشروع، وذلك من حقيقة أن سَلسَلة البليون

"تعددات الأشكال تعد بأدوية شخصية للجميع"

بالإضافة إلى صنع أدوية جديدة، يمكن اعتبار مشروع الجينوم البشري كبداية لحقبة جديدة من الطب الشخصي personalized medicine. فالناس يميلون للاستجابة بصورة مختلفة تماما للأدوية التي يصفها لهم الأطباء - حتى 50% من الأشخاص الذين يتناولون دواء معينا سيجدون أنه إما غير مؤثر، أو أنهم سيتعرضون لتأثيرات جانبية غير مرغوبة. ويعد أسلوب «اضرب واخسر» مضيعة مرعبة للوقت والمال، بل إنه قد يعرض الحياة ذاتها للخطر. وبالإضافة إلى ذلك، فنحن جميعا نختلف في قابليتنا للإصابة بالأمراض المختلفة، فبينما قد ينتهج رجل نمطا صحيا نسبيا للحياة قبل أن يسقط ضحية لنوبة قلبية في منتصف العمر، قد يظل صديقه الذي يدخن عشرين سيجارة يوميا ويتناول إفطارا مقليا كل يوم، قويا حتى سن الثالثة والتسعين، لكن لماذا؟... يقع جزء مهم من الإجابة في الجينوم البشري.

وقد اتضح أن 99.9% من متتاليات الـ DNA متشابهة في جميع البشر (ولذلك فنحن ننتمي جميعا للنوع الحي نفسه). لكن هذا الفرق الذي لا يزيد على 0.1% قد يفسر استجاباتنا الفردية للأدوية وقابليتنا للإصابة بالأمراض.

الخرائط الطبية:

تحدث هذه الاختلافات بمعدل واحد لكل نحو 1000 حرف من جينوم كل إنسان (قد يكون لديك حرف A في حين يمتلك صديقك G)، وتعرف باسم «سنيبس SNPs»، وهو اختصار تعددات الأشكال وحيدة النوكليوتيد Single Nucleotide Polymorphisms,SNPs، (النوكليوتيد أو النوويد هو مادة مكونة من بيورين وبيريميدين وسكر خماسي ومجموعة حمض الفسفوريك، ويكون البوليمر أو المكثور السائد فيها هو الحمضين النوويين RNA وDNA - المترجم) وقد دفع إدراك الأهمية المحتملة لـ «سنيبس» بجميع شركات الأدوية الكبرى (وهم منافسون ألداء في العادة) للاشتراك معا في مشروع أطلق عليه اسم «اتحاد تعددات الأشكال وحيدة النوكليوتيد SNP) (Consortium. وستنتج هذه الشركات خريطة تعددات الأشكال وحيدة النوكليوتيد في الجينوم البشري خلال العام القادم أو نحوه.

وعلى ذلك، فقد يمكنك في يوم ما من مراجعة طبيبك وبيدك خريطة تعددات الأشكال وحيدة النوكليوتيد الخاصة بك، وسيكون بوسعه المعرفة الدقيقة لأي أدوية يصفها لك وأي نظام غذائي يمكنك من الوقاية من الأمراض التي لديك قابلية للإصابة بها. وفي المستقبل، سيتركز الطب في الكيفية التي تتحقق بها أفضل استفادة من الجينوم خاصتك.

قد يفسر الاختلاف الذي لا تزيد نسبته عن 0.1% الاستجابات الفردية للأدوية والقابلية للإصابة بالمرض.

حرف الأولى قد استغـرقت ست سـنوات، بينما استغرقت سلسلة البليون الثانية أربعة أشهر فقط.

تبدأ سَلسَلة الـ DNA البشري بأخذ عينات الدم من المتطوعين، والتي تستخلص باستخدام الطرق الكيميائية الروتينية، ثم تجمع pooled وتبرد عند درجة صفر فهرنهايت، ثم تقطع إلى متواليات متراكبة يبلغ طول كل منها نحو 150.000 حر ف. وعلى الرغم من ذلك، لا يوجد في هذه العينات الأصلية مقدار من الـ DNA يكفي لتحليله، ولذلك فالخطوة التالية هي استنساخ (تتسيل Cloning) كل شظية (شدفة: Fragment) في البكتيريا، والتي تصنع نسخا عدة منها مع تكاثرها.

سَلسَلة بندقية الرش:

تستخدم الربوطات (*) Robots في نقل هذه المستعمرات البكتيرية إلى آلة تضخمها Amplify لدرجة أكبر.

وتسمى التقنية التي تستخدمها هذه الآلة «تفاعل سلسلة البوليمراز» (**)، وقد أهل مكتشفه الكيميائي الأمريكي كاري موليس Mullis لنيل جائزة نوبل العام 1993.

وبعد ذلك، تفك شفرة متوالية كل شظية باستخدام آلة تسمى «المسلسل» Sequencer والتي تنفذ مجموعة من التفاعلات الكيميائية التي طورها العالم البريطاني فريد سانجر Sanger، والحائز جائزة نوبل. وللتبسيط، نقول إن تلك التفاعلات تتضمن تمييز كل حرف في أي شظية بعينها بجزيء ملون يمكن قراءته بواسطة أشعة الليزر (***). ويقوم جهاز كمبيوتر بتحليل نتيجة الفحص بالليزر لإنتاج متوالية sequence لهذه الشظية، ثم يجمع جميع متواليات الشظايا (الشدف) المتراكبة overlapping، وذلك لتكوين جينوم العينة الأصلية.

ومرحلة السَلسَلة sequencing من العملية هي التي يستخدم فيها فريق «فينتر» مقاربة approach مختلفة عن تلك التي يعتمدها القائمون على المشروع HUGO. وفي تقنية تعرف باسم سَلسَلة بندقية الرش shotgun sequencing تتضمن مقاربة شركة Celera «تفجير» كامل الجينوم إلى نحو 70 مليون شظية مختلفة. وتتم سَلسَلة هذه الشظايا بواسطة آلة خاصة، وينظم ترتيب كل منها على الجينوم بواسطة كمبيوتر فائق يشغله 1200 معالج processor فائق التقنية من النوع ألفا، تعمل جميعها بصورة متوازية، وهي قادرة على التهام البيانات بسرعة 1.3 تيرافلوب teraflops (1.3 تريليون) عملية في الثانية. وفي الوقت نفسه يقوم 230 ربوط بمعالجة الشظايا في المختبر.

وقد أثبت فينتر فعالية تقنية سَلسَلة بندقية الرش عندما أنتجت شركة Celera المتوالية الجينومية لجرثومة المستدمية النزلية Haemophilus influenzae في العام 1995. كان هذا الميكروب، وهو المسؤول عن عدوى infections خطيرة مثل الالتهاب السحائي Meningitis، من أوائل الكائنات الحية التي تمت سلسلتها. وفي شهر مارس من

---

* مفرد ربوط (Robot)، وهو الإنسان الآلي - المترجم.

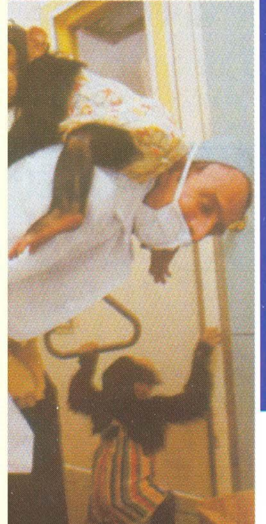
** Polymerase Chain Reaction: PCR

*** Light amplification by atimulated emission of radiation: LASER؛ الليزر (مختصر) تضخيم الضوء بانبعاث الإشعاع المستحث - المترجم.

يقول جون سولستون Stulston وهو مدير مركز سانجر: «لاتزال العلاجات الشافية للأمراض على بعد عقود زمنية، ولن يتحقق بعضها إلا في أواخر القرن الحادي والعشرين».

العام 2000، أكملت شركة Celera جينوم ذبابة الفاكهة fruit fly المكون من 120 مليون قاعدة، والتي ظلت الدعامة الأساسية للأبحاث الجينية لأكثر من مائة العام. كان ذلك إنجازا مذهلا بحق.

لكن خطة شركة Celera تتمثل في تخزين بيانات الجينوم البشري على قاعدة بيانات خاصة، بحيث يتوجب على من يريد استخدامها أن يدفع مقابل ذلك، وهو ما يقلد علماء المشروع HUGO أكثر من أي شيء آخر. وفي المنظور التقليدي، يزدهر الفن على التبادل المجاني والمفتوح للمعلومات. ولكن عندما يكتنف الأمر شركة خاصة مثل Celera، مثلما هو الحال



«الإنسان وأعمال القرود»

هناك اختلاف نسبته 1.5% فقط بين DNA الشمبانزي وبين مثيله في الإنسان، فهل يكفي ذلك لتفسير سبب كون وزن أدمغتنا ضعف مثيله في أبناء عمومتنا من الرئيسيات أولئك، أو سبب كون قردة الشمبانزي نادرا ما تصاب بالسرطان؟ وسنعرف ذلك فقط عندما نقوم بسلسلة جينوم الشمبانزي ومقارنته بمثيله في البشر، وذلك لأن بيانات الإنسان الجينية لا تعني بمفردها القيمة نفسها التي تكون لها عند مقارنتها بمثيلاتها في الأنواع الحية الأخرى.

ويرجع إلى ذلك سبب وجود مشروعات أخرى للجينوم تجري حاليا في جميع أنحاء العالم.

أهمية كبرى للحياة

نحن نمتلك بالفعل الجينومات الكاملة للعديد من أنواع البكتيريا والخميرة، وقد تم استكمال جينوم الديدان في العام 1998، وفي العام نفسه انتزعت شركة Celera جينوم ذبابة الفاكهة. وفي أواخر العام 2000، قرر الباحثون نجاحهم في سلسلة الكروموسومين chromosomes رقم 2 و4 لنبات الخردل الضئيل المعروف باسم Arabidopsis thaliana، وهو ما يمثل 30% من جينات ذلك النبات.

ومن المؤكد أنه سيتوجب سلسلة جينوم نوع آخر من الفقاريات vertebrates بعد الجينوم البشري، وذلك لأغراض المقارنة. وجار العمل في جينوم الفئران، لكن الشمبانزي يمثل مرشحا مفضلا أيضا.

بعد الاستنساخ في البكتيريا، يضاعف الـ DNA مجددا بواسطة هذه الآلات، باستخدام نوع من تفاعل سلسلة البوليمراز (PCR) (البوليمراز (Polymerase) هو إنزيم ينشط تكوين جزئيات الحمض النووي RNA من نوكليوتيدات ريبوزية، أو الحمض النووي DNA من نوكليوتيدات ريبوزية منزوعة الأكسجين - المترجم). ويؤدي هذا التفاعل لمضاعفة الـ DNA مليون مرة من خلال تقنية للمنابلة الجينية genetic manipulation.

بمجرد تضخيم عينات الـ DNA للحجم المطلوب، تعد تلك العينات للسَلسَلة sequencing، ويستخدم محقن متعدد لتلوين كل من الحروف الأربعة بصبغ خاص.

تؤدي شحنة كهربية إلى جذب شظايا الـ DNA إلى أنابيب شعرية رفيعة (الصورة)، وتتم قراءة متوالية الحروف بواسطة شعاع ليزري حساس للأصباغ المستخدمة.

يتم تسجيل هذه البراءات باسم الشركة في النهاية، على رغم أن تلك الحركة لشركة Celera، في حد ذاتها، تخلق سابقة مثيرة للقلق. ويوافق أغلب العلماء، حتى أكثرهم سذاجة، على أن البراءات ضرورية لحماية الأعمال الأصلية وإتاحة الفرصة للحصول على الدخل اللازم لتمويل الأبحاث التالية. لكن البراءات تمنح عادة للاختراعات، وليس الاكتشافات، وللأشياء التي لا تنشأ في الطبيعة، والتي لها استخدامات محددة.

ولا ينطبق أي من ذلك بحق على متواليات الـ DNA «الخام». ويشبه الحصول على براءة للـ DNA خاصتنا، تسجيل حقوق الملكية الفكرية copyrights للحروف التي تتكون منها قصيدة أو مسرحية، وليس العمل الأدبي ذاته. وقد ذكرت مؤسسة ويلكام أنها ستتحدى تسجيل براءات للجينات البشرية. ويقول خطاب للمشروع المشترك للجينوم البشري، تسرب في السادس من مارس 2000 ما نصه: «في حين قد يكون إنشاء احتكار monopoly على الاستخدامات التجارية لمتوالية الجينوم البشرية في مصلحة شركة Celera من الناحية التجارية، فلن يكون ذلك في مصلحة العلم أو عامة الجمهور».

أدى ذلك إلى تضارب مصالح مشروع الجينوم البشري مع مصالح شركة Celera، وكثير من الشركات الأخرى العاملة في المجال في جميع الصناعات، يكون الهدف ببساطة هو مضاعفة الأرباح.

سابقة مثيرة للقلق:

حاول فينتر أن يخمد هذه المخاوف بقوله إنه لن يفرض رسوما على الباحثين الأكاديميين للوصول إلى قاعدة البيانات خاصته، لكن الأمر يبدو وكأن هناك خيوطا مرتبطة بعرضه هذا. وقد تقدمت شركة Celera بالفعل بطلبات لتسجيل براءات patents أكثر من 20.000 جين بشري اكتشفتها. ومن المشكوك فيه أن

نفسه. لكن مؤسسة ويلكام تحظى بمساندة الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير، واللذان أصدرا في الرابع عشر من مارس بيانا مشتركا نادرا، يقولان فيه أنهما يريدان رؤية «وصول لا يعوقه شيء» لبيانات الجينوم البشري. وقد أدى هذا البيان إلى إصابة مستثمري شركة Celera بالذعر لدرجة أن سعر السهم في الشركة انخفض من 225 دولارا إلى 64 دولارا فقط.

ومن الممكن في أي لحظة الآن أن نعرف ما إن كانت الروح الشعبية أو المؤسسات التجارية هي الفائزة في السباق المحموم لقراءة المخطط الفعلي لوجودنا. وعلى أي حال، سيكون علينا الانتظار لوقت أطول بكثير قبل أن نرى هذه المعرفة مطبقة بطريقة بناءة في مجال الطب.

يقول جون سولستون Sulston وهو مدير مركز سانجر: «تتمثل الفكرة كلها (لمشروع الجينوم البشري) في إنتاج معلومات بالغة الأهمية. وأستطيع أن أخبرك بأن هذه المعلومات تستخدم حاليا في جميع أنواع المشروعات البحثية، لكن العلاجات الشافية للأمراض لاتزال على بعد عقود زمنية ولن يتحقق بعضها إلا في أواخر القرن الحادي والعشرين».

وحتى في هذه الحالة، فقد أسرع بعض الباحثين بتحويل المعرفة الجينية إلى أدوية محتملة. وعلى سبيل المثال يخضع حاليا بروتين مكون للعظام (تم التعرف عليه من الجين المقابل له)، للتجارب كعلاج لمرض تخلخل العظام Osteoporosis وغيره من الاضطرابات المسببة لترقق العظام.

إذا توقف فريق فينتر عن...؟

يضيف سولستون قائلا: «تشمل الأشياء الأخرى التي قد تراها قريبا، الأدوية التي تستهدف الخلايا السرطانية. فعلى المدى البعيد جدا، ستحصل على المعالجة الجينية الفعالة التي يمكنها تقديم جينات عاملة. وفي الوقت الحاضر أثبتت المعالجة الجينية gene therapy أنها متطلبة للغاية من الناحية التقنية. لكن هناك الكثير من الدراسات التي تجرى حاليا والتي ستبدأ تدريجيا في تحقيق النجاح».

وعلى رغم كل الخوف والاشمئزاز الذي سببته أفعال فينتر في جميع أرجاء المعمورة، فهناك شيء واحد مؤكد، فلو لم يكن قد دلف إلى عالم قراءة الجينوم البشري، لكانت المضامين العلاجية لفك الشفرة الجينية أبعد بعشر سنوات عن إنقاذ حياة البشر عما هي عليه الآن.

وإذا منعت محاولاته لتسجيل براءات الجينات (ونأمل في أن يدعم كل من كلينتون وبلير ذلك المنع)، فسنجد أنفسنا في النهاية سعداء بأن الحد التنافسي للمؤسسات الخاصة قد أدخل إلى مشروع الجينوم البشري. ففي بعض الأحيان، لا شيء يعدل المنافسة لتحقيق أفضل النتائج.

لمزيد من المعلومات:

على شبكة الإنترنت: توجد بيانات الجينوم البشري على الموقع:
http: www.sanger.ac.uk

توجد بيانات الجراثيم المسببة للأمراض المعدية على الموقع:
http:beowulf.org.uk
لأخبار شركة Celera راجع الموقع: http:celera.com



شكل الجنون

بقلم: دانا ماكنزي

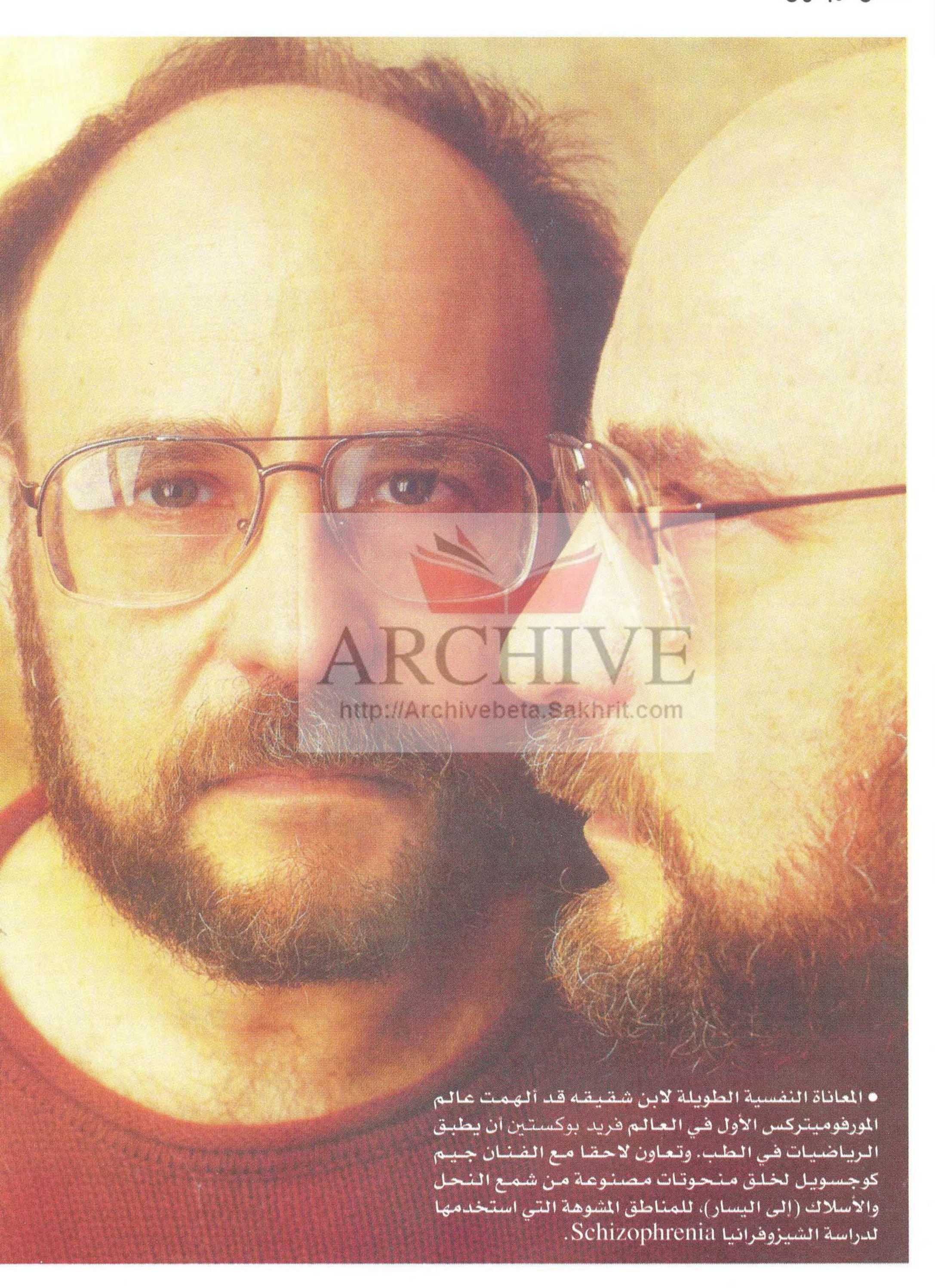
ترجمة: نادية شكري

يبدو أن مرض الفصام Schizophrenia يأتي من حيث لا نعلم لتدمير العقول. والآن يظن أحد علماء الرياضيات غير التقليديين أنه عرف أين يختبئ الفصام.

في أول يوم لي كطالب دراسات عليا في جامعة برنستون Princeton في العام 1979، حذرني طالب أقدم مني، من أنني سأصادف شخصيات غريبة في قسم الرياضيات، وأن أغربهم على الإطلاق على حد قوله شخص كالشبح يعرف باسم ناش Nash. وفي الأسابيع التالية رأيت هذا الناش يجر قدميه في الردهة المقابلة مرتديا معطفا باليا وحذاء رياضيا أحمر براقا. ومرة أخرى رأيته جالسا في الكافيتريا بمفرده يحدق في الفراغ، كنت أشعر بوجوده بشدة من الرسائل التي يكتبها فوق (السبورة) في الليل. كانت هذه الرسائل تأخذ شكل المعادلات الرياضية ولكنها لا تمت للرياضيات بصلة مثلما لا يمت عزف قطة على البيانو للموسيقى بصلة.

العنوان الأصلي للمقال: Shape of Madness، وقد ظهر في مجلة Discover، عدد يناير 2000.

مراجعة: ذكي خبيز



• المعاناة النفسية الطويلة لابن شقيقه قد ألهمت عالم المورفوميتركس الأول في العالم فريد بوكستين أن يطبق الرياضيات في الطب. وتعاون لاحقا مع الفنان جيم كوجسويل لخلق منحوتات مصنوعة من شمع النحل والأسلاك (إلى اليسار)، للمناطق المشوهة التي استخدمها لدراسة الشيزوفرانيا Schizophrenia.

وذات يوم كان عدد من الطلبة مجتمعين مع أحد الأساتذة في نقاش حر. وسأل أحد التلاميذ عن هذا الرجل الغامض. أخبرنا الأستاذ هامسا أن (ناش) ليس سوى جون ناش، أذكى طالب وسط ألمع مجموعة طلاب درست الرياضيات في برنستون Princeton على الإطلاق.

في أواخر الأربعينيات وحتى الخمسينيات حقق، جون ناش Jhon Nash العديد من الاكتشافات في مجال الرياضيات، والتي لاتزال تستخدم نظائرها كل يوم حتى الآن على رغم أنهم يشيحون بصرهم عنه.

نظرية ناش للتوازن The Nash equilibrium، نظرية ناش للتغلغل Nash embedding. و بدأ هذا الرجل في وقت ما يفقد توافقه مع الواقع، وبدأ في الاعتقاد بأنه يستقبل رسائل من الفضاء الخارجي وأن هناك ثمة مؤامرات تحاك ضده.

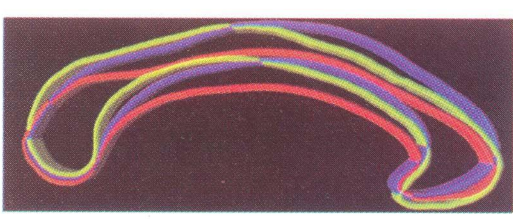
والآن وبعد مرور أربع عقود - ضاع فيها بسبب الرياضيات - فإن الرياضيات نفسها قد يكون لديها المفتاح لعلاج حالات الشيزوفرينيا، هذا المرض العقلي الذي احتجز عقل ناش كرهينة. وهناك طريقة جديدة لتحليل الأشكال تسمى (قياس الأشكال) مورفوميتركس Morphometircs ، قد تمكن الأطباء من معرفة كنه التغيرات التي تحدث داخل عقول مرضى الشيزوفرينيا قبل أن يفقدوا اتصالهم بالواقع. هذه الطريقة تمدنا أيضا بمفاتيح لفهم أمراض مثل الزهايمر Alzheimer، وتحسن قدرة جراحي المخ على رسم خريطة دقيقة للطرق التي يجب عليهم اتباعها عند إجراء جراحات دقيقة. وفي دراستنا للمخ فإن شكل الأشياء التي ستظهر لنا سنطلق عليها مجرد اسم Shape (شكل).

أمضى فريد بوكستين أستاذ الإحصاء بجامعة ميتشجن Michigan أكثر من عقدين، في محاولة لتحويل المورفوميتركس إلى علم كمي. والفكرة الأساسية كما يقول، ترجع إلى القرن السادس عشر، وإلى عمل الفنان الألماني البرشت ديورر Albercht Durer، الذي حاول أن يرسم شبكة من الخطوط على وجوه البورتيرهات مستلهما في ذلك الاكتشاف الحديث آنذاك لهندسة المنظور ، ثم قام بتحريك هذه الخطوط مع الاحتفاظ بملامح الوجه لأي شكل يريده، محولا الجبين العريض مثلا إلى آخر مائل أو الذقن إلى فك عريض.

إن تنويعات بوكستين الحديثة والتي على منهج ديورر نفسه هي لأربع وجوه صغيرة تطل عليه من خارج مكتبه. إحداها لبوكستين نفسه والتي يبدو فيها كنسخة كئيبة لبيلي كريستال والثلاثة الأخريات مرسومة بالكمبيوتر كأشكال كاريكاتورية مأخوذة عن الصورة الأولى. أدخل بوكشتين الصورة الأصلية أولا على شاشة الكمبيوتر وبعد ذلك رسم شبكة علم فيها ثلاث عشرة علامة على الوجه مثلا على أعلى الجبهة، على أطراف الأذن... وعندما فعل ذلك أصبح من السهولة بمكان أن يحرك بعض العلامات من مكانها وبذلك أجبر الشبكة على

الانثاء أو الالتواء كأنه الحق لوحا رقيقا من المعدن بها. واتضح أن المهندسين كانوا يستخدمون مثل هذه الشرائح الرقيقة لأعوام، لكن بوكشتين هو الوحيد الذي أثبت أن الصور هي الطريقة المثلى لتمثيل التغيرات التي يطلق عليها المتخصصون من علماء المورفوميتركس اسم شكل الفراغ Space shape، وأن يحددوا الفروق في الشكل سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

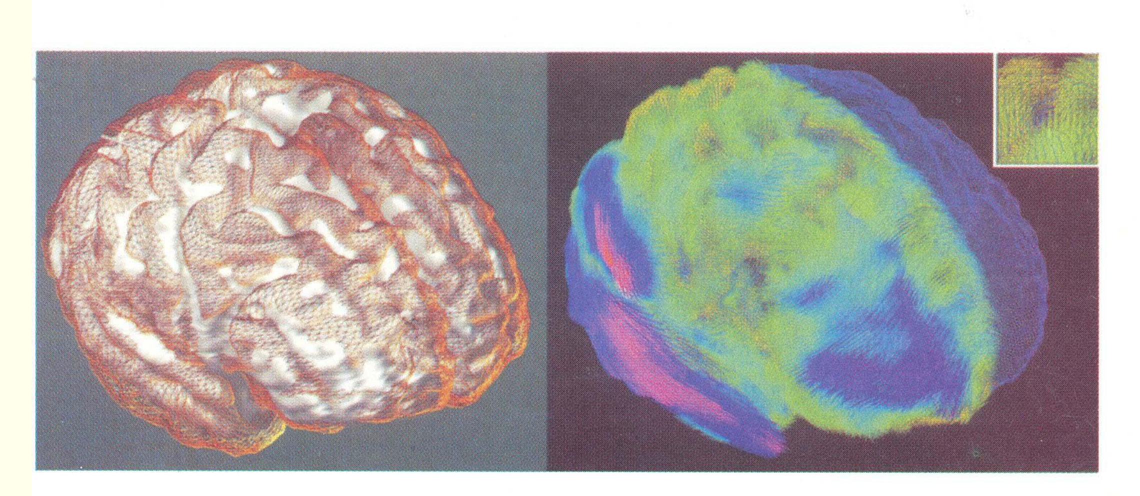
إن مفهوم (الشكل) محير بشكل مدهش. صحيح أن للبشر قدرة غير عادية على التمييز بين الفروق الدقيقة في الشكل - وإلا كان من المستحيل على الإنسان مثلا أن يتعرف على صديق في محطة مزدحمة تحت الأرض، أو يميز بين تنورة على الموضة وأخرى راح زمانها ـ ولكن وصف الفروق في الشكل يصبح مشكلة بشكل دائم. دعنا نتحدث عن «قرن آمون» Hippo compus. وهي المنطقة المعنية بتكوين الذاكرة في المخ. بالنسبة لبوكستين فإنها تشبه اللفائف القديمة المطوية جزئيا مثل التوراة. بالنسبة لعالم أعصاب آخر تحدثت



• في أوكلا UCLA تقدم عالم الأعصاب بول تومبسون paul Thompson خطوة للأمام بأعمال بوكستين الثورية في الشيزوفرانيا، وذلك بدمج رسومات مخ مريض الشيزوفرانيا (الشبكة نحاسية اللون أسفل الصورة) بالمخ السليم المرسوم بالأبيض.

أظهر تومبسون هذه الفروق في الشكل ثم قارن هذه الاختلافات مع تباينات المخ السليم (المرسومة إلى أسفل اليمين).

الاختلافات خارج مدى التباين العادي موضحة باللون الوردي الداكن. وركز تومبسون نظره على نقطة الاختلاف الأساسية. ـ الجسم الجاسئ Corpus callosum (بأعلى) وقارن متوسط شكله عند مرضى الشيزوفرانيا (بالأزرق)، وعند مرضى الألزهايمر (بالأخضر) وعند المخ السليم (بالأحمر).



معه قال إنها تشبه ملعقة الشاي، وبالنسبة لعالم التشريح أسماها بهذا الاسم «حصان البحر» حيث إن هيبو كامبس تعني حصان البحر باللاتينية.

إن العلوم الحديثة تحتاج منا وصفا أكثر دقة للأشكال كما يقول جيم رولف Jim Rohlf من جامعة ولاية نيويورك في ستوني بروك Stony Brook وهو مؤلف مجموعة برامج الكمبيوتر الأكثر شيوعا والتي تختص بتحليل المورفوميتركس يقول: «يمكنك أن تقول إن هذا الشكل يشبه الشكل الآخر باستثناء أنه متمدد هنا أو مضغوط هناك» يقول أيضا بالرغم من هذا فإن المروفوميتركس يعني أكثر من مجرد صور، لأنه يعتمد على نظرية إحصائية تشرح لماذا الشرائح الرقيقة هي الطريقة المثلى التي تمثل الاختلافات في حيز الشكل.

ويحتفظ بوكستين في مكتبه بالصور السابقة الذكر المأخوذة من شكل فريد Fred مع الاختلاف، والتي تبرهن على مدى الاختلاف الذي يمكن أن يحدثه تغيير بسيط في الشكل. بينما واحدة من الصور المعلقة خارج مكتبه لوجه رجل متفائل، هي الصورة المخبأة لوجه رجل كئيب. وبدلا من الوجه ذي الابتسامة العريضة الساذجة، هذه الصورة لوجه رجل ذي شفاه دقيقة ساخرة. وبدلا من الوجه الكمثري المنتفخ هذه الصورة لوجه رجل ذي أنف عريض ونظرة زائغة متسعة.

يحتفظ بوكستين بتلك الصورة ربما لتذكره بالفروق الدقيقة بين الحالة الطبيعية والمرضية. ولكن ما الحدث الذي دفع بوكستين لتطبيق المورفوميتركس على الشيزوفرينيا؟.

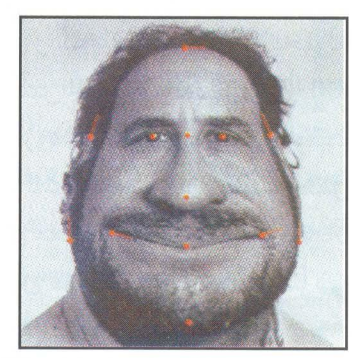
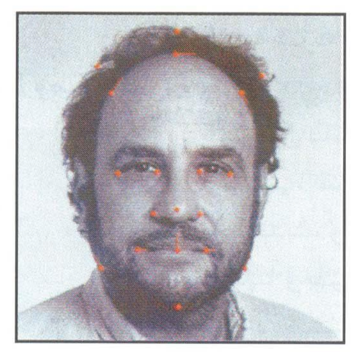
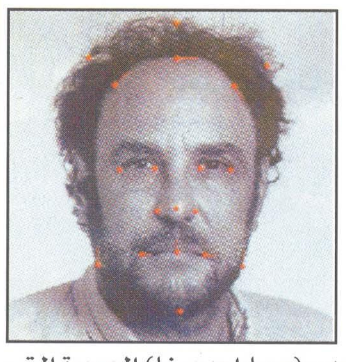
في العام 1980 عاد أحد أبناء شقيقه من الكلية لمنزله وفي رأسه أصوات دفعته لمحاولة قتل والديه، ولحسن الحظ تم تشخيص حالته كمريض بالشيزوفرينيا وعولج في الوقت المناسب، تفاديا للتراجيديا التي كانت يمكن أن تحدث، ولكن معالجته أخذت وقتا طويلا وبطيئا وحتى الآن فهو لا يتذكر ما حدث في سنوات معينة في حياته.

إن قصة ابن أخيه كانت مطابقة بشكل مدهش لما عرفه بوكستين فيما بعد. على رغم أن مرضى الشيزوفرينيا لا ينزعون إلى العنف فإن كثيرا منهم يسمعون أصواتا ويهلوسون أو يعانون من هوس العظمة أو الاضطهاد أو كليهما معا.

إحدى مريضات الشيزوفرينيا والتي تم علاجها، تصف تجربتها بالمستشفيات العقلية، بأنها كانت تخرج لتدخل مرة أخرى. كثير منهم لا يستطيع أن يتفاعل مع الناس حتى بين النوبات النفسية. وحوالي 10٪ من الحالات يحاولون الانتحار. وحتى الآن وبالرغم من كل هذه الأعراض الدرامية فإنها تتسلل إلى ضحاياها ولم يتم معرفة سبب واحد لحدوثها. ومعظم مرضاها لا تأتيهم النوبة النفسية الأولى إلا في سنوات المراهقة المتأخرة أو في بداية العشرينيات.

والأكثر من ذلك أن شكل المخ. في مرضى الشيزوفرينيا لا يختلف عن الحالة العادية بشكل واضح إلا عند رؤيته من خلال شريحة

مرضى الشيزوفرانيا قد يسمعون أصواتا أو يهذون أو يعانون من هوس العظمة ولكن مازال هذا المرض اللعين يتسلل إليهم دون استئذان

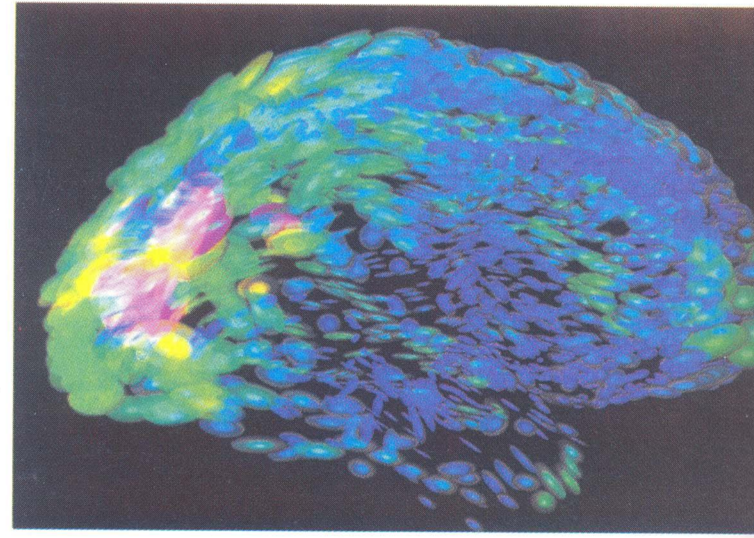
تحريك العلامات المميزة هنا وهناك يجعل من صورة فريد بوكستين «لافريد». (يسارا ويمينا) الصورة التي بالمنتصف هي صورة «فريد» الحقيقة، ولكن على حد قول بوكشتين نفسه فإن الصورة التي باليسار كانت صورة Fred في تخيل أمه.

حساسة رقية جدا.

منذ خمس سنوات فقط وبتأثير من ذكرى محنة ابن شقيقه، درس بوكستين رسم المخ على أربع عشرة حالة من المرض ومثلهم من غير المرضى من المتطوعين، والذي ساعده في تجميعهم زميله جون ديكاردو John De quardo. وضع ثلاثة عشرة علامة مميزة على مخ كل واحد فيهم وحول هذه العلامات إلى أشكال ووضع لها متوسطات.

من النظرة الأولى كان من الصعب أن نميز بين الشكل المتوسط للمخ العادي والشكل المتوسط للمخ المصاب بالشزوفرينيا، ولكن حينما قارن بوكشتين بين الحالة العادية والحالة المرضية باستخدام الشرائح الدقيقة Thin plate spline كان الفرق واضحا - في مرضى الشيزوفرانيا Schizophrenai وجدوا أن المساحة المثلثة الصغيرة للجزء الخلفي Corpus callosum (أو الجسم الجاسئ) تبدو متورمة. وكأن الطبيعة انتزعت بعض العلامات المميزة بعيدا لخلق شكل كاريكاتوري. إن شكل **الجسم الجاسئ** نادرا ما يختلف عند الإحصاء، لذا فإن هذا التورم البسيط يعتبر ذا قيمة إحصائية.

يقول بوكستين Bookstien «لقد أردت بكل جدية أن أرى لو أمكنني تقديم خدمة بشكل ما لمساعدة المصابين بالشيزوفرينيا ...، قال ذلك وهو يشير إلى الجسم الجاسء المتورم... ويكمل «على قدر صحة هذا النموذج سوف يتيح لي أن أميز الذين على وشك الإصابة قبل إصابتهم بالنوبة الأولى» فلو استطاع الأطباء أن يعرفوا أيا من المرضى يظهر عليه علامات الشيزوفرينيا لأصبح من الممكن أن يصفوا العلاج المناسب مبكرا، فعلى الأقل من الممكن أن ينصحوا المرضى بالامتناع عن تناول



• مثل هذه الخرائط للمخ - والتي هي متوسط صور كمبيوترية بأيدي عشرين من أكفأ الخبراء في هذا المجال - وضح أين وكيف يتباين المخ في الشكل.
• أكثر الاختلافات وضوحا (باللون الوردي) تتركز في الفص الأمامي الجانبي Temper - Parietal lobe، حيث مركز اللغة والمنطق وسمات أخرى ينفرد بها البشر عن سائر المخلوقات.
• بفضل هذه الخرائط أصبح باستطاعة جراحي المخ أمثال Arthur Toga وAndrew cannestra (بالأسفل يسار)، أن يستأصلوا أوراما لم يكن يجرؤ أحد من قبل على الاقتراب منها.

الكحوليات والعقاقير المنشطة التي تفاقم حالة المرض.

إن أعمال بوكستين في الشيزوفرينيا تعتبر خطوة متقدمة. فإن عقله يتحرك دائما بشكل أسبق من غيره. فعندما يقول عن نفسه: «أنا كنت بحق نوعا من المعجزة» فإنه يشير إلى شيء حقيقي. ففي سن الحادية عشرة علم نفسه الجبر من كتب المكتبة. وفي سن الرابعة عشرة فاز في مسابقة كبيرة على مستوى الولاية في الرياضيات.

وفي سن الخامسة عشرة التحق بجامعة ميتشجن Michigan، وبعد ذلك بثلاث سنوات تخرج في كلية الرياضيات بهارفارد Harvard وكأن القدر يعده ليحلق في آفاق الرياضيات منذ طفولته.

لكنه عندما كان في جامعة هارفارد أحس عالم الرياضيات العصامي الفذ بأنه لن يستطيع تحقيق ما يطمح إليه بعد الآن. ويقول بوكستين: «لقد انتظرت أربعة أسابيع وبعدها أدركت أن هذا لن يجدي فتيلا وسوف أصبح مجرد عالم رياضيات مثير للإزعاج». بعدها تحول بوكشتين إلى علم الاجتماع ولكن الأمور لم تسر كما ينبغي... فكل أفكار أبحاثه الطموحة كان يضرب بها عرض الحائط. وعندما قدم رسالته العلمية عن كيفية استخدام رياضيات النسبية العامة لقياس التغيرات الاجتماعية تذكر بوكستين ضاحكا ما قالوه له: «نحن لا ندري ما هذا في الحقيقة، ولكننا نعلم أنه ليس علم اجتماع. نرجو أن تفكر في شيء آخر تفعله في حياتك!!».

بعد أعوام عدة من العمل في مهن مختلفة، سمع بوكستين عن برنامج في ميتشجن، يطلب دارسين غير عاديين ذوي أفكار مبدعة ومن

بين مائتي متقدم كان هو أحد سبعة اختيروا لهذا البرنامج.

في آن آربر Ann Arbor مازالوا يتذكرون ما حدث منذ ثماني سنوات عندما عاد إلى هناك العام 1974، جاء بمخطط في ذهنه شديد التميز بعمل نظرية رياضية عن الشكل Shape.

مازال الحديث مع بوكستين حتى هذه الأيام يمثل تجربة ثقيلة الوطء، على رغم زعمه أن الأمور بدأت تخف حدتها منذ بدأ ممارسة حياته الطبيعية مع زوجته إديث Edith.

تقول ليزي ف. ماركوس Leslie f. Marcus عالمة المورفوميتركس بكلية كوينز Queens، والتي وصفت بأنها مبسطة علم المورفوميتركس الحديث «عندما يلقي بوكستين محاضرة، فإن معدل المعلومات لديه تتدفق وكأنك وضعت في فمه خرطوم حريق!».

حقا إن بوكستين يتحدث بسرعة مكونا فقرات مترابطة وكأنه ينقل عن كتاب ويكتب على الكمبيوتر بشكل أسرع. وملاحظتك له وهو يبحر في صور المخ المجسمة على وحدة الكمبيوتر الخاصة به، تكون كافية لتصيبك بدوار.

هذا النموذج الذي يصيبك بالرهبة، وهذه الرياضيات الجهنمية التي تقبع خلف المورفوميتركس، قد تكون هي السبب في بطء علماء الفيزياء في تبني تقنياته.

يقول دافيد كيندي David Kennedy عالم الأعصاب في Harvard Medical School Center، للتحليل بواسطة المورفوميتركس ما سبب عدم القدرة على استخدامات قياسات الأشكال؟ إنه مفهوم صعب ويضيف: «لو قلت إن حجم «قرن آمون» هو 13 سم ٣ فإننا جميعا نعلم ما أعني». ولو تحدثت عن التجانس الكروي Spherical Harmonics أو Thin plate spline، فإن الأطباء الممارسين لا يستطيعون أن يدركوا ما معنى ذلك «بيولوجيا»».

إن مجال الأبحاث في الشيزوفرانيا يزدهر هذه الأيام بعد طاقة النور التي فتحت لنا في أبحاث المخ، بواسطة صور الرنين المغناطيسي Magnetic Resonance Imaging (MRI).

لكن الكثير من الباحثين لا يحسون أنهم في حاجة إلى نظرية جديدة كاملة للشكل لتفسير كل ما يمكن استنتاجه من صور الرنين المغناطيسي.

معظم الباحثين مثل كيندي يفضلون دراسة الأحجام.

يقول بول تومبسون Paul Thompson عالم الأعصاب في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس «لكي نكون أمناء فإن القياسات الحجمية قد أدت دورها بكفاءة من خلال أدوات أخرى».

وجد الباحثون أن حجم «قرن آمون» عادة ما يكون أصغر في حالة المصابين بالشيزوفرينيا، بينما البطينات الدماغية Ventricles (أربعة تجاويف مملوءة بالسائل النخاعي المخي في مركز ووسط الدماغ) أكبر حجما، لكن هذه النتائج متناقضة بشكل مثير.



ربما تكون تقنيات المورفومتريكس جديدة بالنسبة للأطباء ولكن علماء الحفريات يستخدمونها منذ ما يقرب من عقدين. في العام ١٩٩٦ بين عالما الإحصاء بجامعة (واتر لوو) بأونتاريو «كريستوفر سمول» Christopher Small ومايكل لويس Michael Lewis، أن التطور بجمجمة الإنسان من الممكن إعادة تخليقه بمجرد تحريك ثلاثة علامات مميزة على طول خط واحد (إلى اليسار).

● والآن أضاف كل من بوكستين وهورست سيدلر Horst seidler (الأستاذ بجامعة فيينا Vienna تحريرا دراماتيكيا للفكرة نفسها في جريدة نشرت الشهر الماضي، استخدم بوكستين وسيدلر وزملاء لهم لأول مرة المورفومتريكس ورآسمات الأشعة المقطعية الكمبيوترية، للمقارنة بين ما بداخل جمجمة الإنسان الحديث ونظيره البدائي. الصورة العليا لليمين هي جمجمة للإنسان البدائي Australopithecus Homo Hoeidelbergansis عمرها، مليونين ونصف المليون عام. الجماجم التي بأسفلها واحدة عمرها 600.000عام Proto - Neanderthal أخرى عمرها 300.000 عام وثالثة حديثة (بالترتيب). ولوحظ أن المخ الأقدم (Australopithecus) أصغر بشكل واضح، بينما تطابق الآخران تقريبا في الشكل والحجم. على رغم أن جباهنا قد تجعلنا نبدو أذكى من أسلافنا، فإن الجزء الأمامي من المخ البشري لم يتغير منذ ما يقرب من 600.000عام كما أن عظمة الأنف انكمشت قليلا. استنتج بوكستين أن الإنسان حتى منذ نصف مليون سنة كان يمتلك القدرة الطبيعية لكي يلعب البوكر أو يخطط للمعارك، ولكن لم تكن الحضارة قد تطورت وقتئذ.

فثلاثة أرباع الدراسات المنشورة تجد البطينات الدماغية أكبر عند مرضى الشيزوفرينيا والربع الباقي لم يجد ذلك. ثلاثة أرباع هذه الدراسات أيضا وجدت أن «قرن آمون» أصغر بينما الربع لم يجدوا ذلك.

يقول بول هاريسون paul Harrison

أستاذ الأمراض النفسية بأكسفورد في مقاله النقدي الذي كتبه العام الماضي: «هناك تداخل ذو مغزى في الحالات موضع الدراسة والحالات الطبيعية في مدى الانطباعات الذهنية وفي باثولوجيا الأعصاب». ويضيف: «لهذا السبب... فإن الشيزوفرينيا لا يمكن تشخيصها لا برسم المخ ولا بالميكروسكوب».

من المحتمل أن يعطينا علم المورفوميتركس الإجابة. لكنه اكتسب أيضا بعض المعارضين.

ففي Case Western Resen في كليفلاند بولاية أوهايو، استخدم بيتر بكلي Peter Buckly طرائق بوكستين ليبين أن البطينات الدماغية Ventricles في المصابين الذكور بالشيزوفرينيا، تختلف في الشكل وأيضا في الحجم عن غير المصابين بها. ويخشى بوكستين ألا تلقى تلك الدراسات الرائدة الاهتمام اللائق ويقول: «لقد وجدت نفسي (لدهشتي) راديكاليا وأنا في عمر الـ٥٢ تماما كما كنت وأنا خريج حديث».

في الوقت نفسه أوجد الكثير والكثير من العلماء تطبيقات للتكنيك الذي ابتدعه بوكستين في مجالات أخرى. فقد عمل ماركوس Marcus قائمة بالمحاورين اشترك فيها أربعمائة مشترك. وأقام بوكستين وماركوس مؤتمرات علمية في فينا وباريس وتوسكانيا وتايوان وأماكن أخرى. وبسبب حساسية المورفوميتركس للفروق الدقيقة فهي مفيدة بشكل خاص في تصنيف الكائنات الحية.

استخدم علماء الأحياء بدورهم طرائق بوكستين لدراسة مجموعات كبيرة من الكائنات الحية مثل الوطاويط، الأسماك، الذباب، الفئران، المرجان، وحيوان الزبابة Shrews (حيوان يشبه الفأر) وحتى الديدان الدبوسية.

ربما الأكثر أهمية من هذا أن جراحي المخ الآن يستخدمون علم الشكل Shape في غرف العمليات، حيث تملكهم الحيرة طويلا في تحديد مواضع الجراحة أكثر من إجراء الجراحة ذاتها.

فالمخ عضو في غاية الغرابة والرقة واللين، والخطأ في شريحة صغيرة منه قد يفقد المريض فيها الرؤية الجزئية أو قدرته على معرفة الاتجاه أو فهم لغته. لذلك أصبح مألوفا أكثر فأكثر استعانة جراحي المخ بالصور المجسمة (ذات الأبعاد الثلاثية) والمنتجة بواسطة راسمات الأشعة المقطعية وصور الرنين المغناطيسي للتخطيط للعمليات ولرؤية ما يحدث في أثناء العملية.

هذه الرسومات المجسمة تمكنهم أيضا من رؤية البناء الداخلي للمخ لأقرب ملليمتر وللعمل خلال شرائح صغيرة جدا بدلا من فتح جزء كبير من الجمجمة. هذه التكنولوجيا الجديدة مازالت تطرح مشاكل ولا يمكن حلها إلا بالتحليل المتطور للشكل Shape، فمن الممكن أن يظهر جزء من المخ بشكل تفصيلي ولكن ماذا عن وظيفة هذا الجزء؟

هذا السؤال من الممكن الإجابة عليه باستخدام تكنيك الزيغ الدماغي Brain Warping حيث العلامات المميزة المرسومة على أبعاد متقاربة، تحدد خريطة المخ وذلك باستخدام الشريحة الدقيقة Thin Plate spline أو تحوير يشبهها.

هذا التكنيك يحدد للكمبيوتر الاختلافات الهندسية في المخ للمريض عن المخ المعياري، ويسمح بتعريف حدود المناطق الوظيفية مثل المنطقة المسؤولة عن الرؤية Visual Cortex مثلا ... وعندما يدخل الجراح غرفة العمليات فهو يشاهد عرضا ضخما بالألوان على شاشة الكمبيوتر مثل دليل راند ماكنلي Rand Mcnally لمخ المريض.

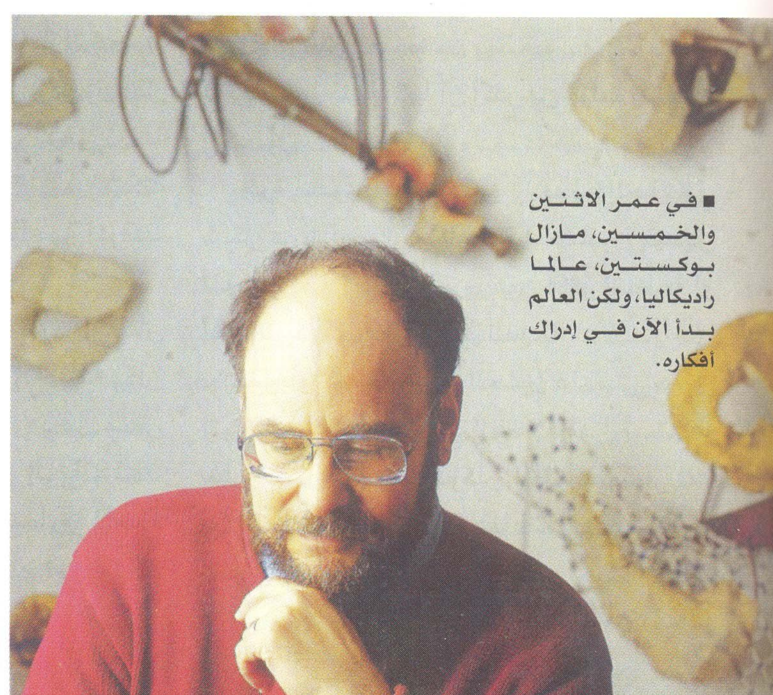
أما عن أكثر اكتشافات بوكشتين إثارة هذه الأيام فهو أنه من الممكن إجراء اختبار «متلازمة الكحول الجنيني» والذي يوجد بشكل ما في الطرف الآخر من حيز المريض العقلي للشيزوفرانيا.

يبدأ تأثير «متلازمة الكحول الجنيني»، على حياة المرضى في طفولتهم المبكرة ويصيب حوالي مليون مواطن أمريكي، لكنه أقل انتشارا من مرض الشيزوفرينيا بحوالي النصف كما أنه يصعب التشخيص لبعض الأسباب: منها أن أمهات كثيرة يكابرن ولا يعترفن بأنهن يتناولن الخمور بكثرة في أثناء الحمل، أمهات أخريات لا يستطعن العناية بأطفالهن لسبب أو لآخر فتتنازل عنهم للتبني. وبذلك تكون الأسرة المتبنية للطفل أول من يدرك أن في هذا الطفل شيء ما غير طبيعي. فهم لا يملكون معلومات سابقة عن تاريخ تعاطي أمهاتهم للخمور.

إن هناك طريقة لتشخيص سلوك مرضى متلازمة الكحول الجنيني حتى لو لم يتم معرفة ماذا حدث للطفل من أثر الكحول داخل رحم الأم. هؤلاء الضحايا الذين لا ذنب لهم نستطيع أن نمد لهم يد المعاونة والرعاية التي هم في أمس الحاجة إليها.

فالأطفال المصابون بهذا المرض يكون لهم جفون أصغر من غيرهم وجبهة ضيقة ولا يوجد لديهم Philtrum تلك الثنية بين الشفة العليا والأنف. لكن هؤلاء الذين تبدو عليهم الأعراض بشكل أقل تعرف بآثار الكحول الجنيني علهم لا يحملون الملامح السابقة بوضوح.

وتقول آن سترا يسجوث Streiessguth Ann أحد أعضاء مجموعة الباحثين الذين اكتشفوا المتلازمة في 1973 «إن الكثير من هؤلاء الأطفال لا تشخص حالاتهم



■ في عمر الاثنين والخمسين، مازال بوكستين، عالما راديكاليا، ولكن العالم بدأ الآن في إدراك أفكاره.



● طفل لم يكتمل نموه، شخصت لديه أعراض متلازمة الكحول الجنيني Fetal Alcohal syndrome ينتظر العلاج في وحدة العناية المركزة.

ويبدأون في التصرف بغرابة أكثر فأكثر بينما آباؤهم لا يدرون ماذا حل بأطفالهم».

إن الناس المصابين بمتلازمة الكحول الجنيني أو آثار الكحول الجنيني يكونون أقل من حيث القدرة العقلية على الأقل تبعا لاختبارات الذكاء (I.Q) ويكون لديهم مشكلة التشتت الدائم ولا يستطيعون مواجهة الموقف المستجد عليهم.

إحدى الحالات التي تعاملت معها آن كان صبيا التحق بأحد المطاعم كـ Busboy وكان أداؤه جيدا إلى أن طلبوا منه أن يحل محل الصراف بالمطعم. انتهى به الأمر إلى أنه أخذ يلقي بقطع الأثاث هنا وهناك اضطروا لأخذه إلى المستشفى مقيدا.

والأمور تسير إلى الأسوأ عندما يكون المريض في سن النضج. إن 60٪ من المرضى بأي من هذين المرضين يتسربون من المدارس أو يطردون منها. كما أن أكثر من الثلث يدخلون السجون.

مرة أخرى من الممكن إن نجد الحل في شكل قرن آمون، في حالة المصابين بهذين المرضين فإن قرن آمون يكون أكثر اتساعا أو أقل اتساعا من الحالات العادية.

يقول بوكستين إن الجنين عندما يتعرض إلى تأثير الكحول في الرحم نجد اختلافا خارجا عن أيدينا، وكأن الطبيعة أرادت أن تفعل شيئا لكنها أتت به على نحو آخر.

إن اختبار علامات المرض المبكرة لمتلازمة الكحول الجنيني في الأطفال والمرضى أو الشيزوفرانيا أو تحديد تطورات المرض في المخ ليست بالمهمة السهلة.

إن راسمات صور الرنين المغناطيسي معقدة ومكلفة كما أنها مخيفة لحد ما وتحتاج إلى موافقة خاصة من الوالدين.

إن طريقة بوكستين عندما تستخدم في حالات الناضجين تكون أداة فعالة. في دراسة مشتركة لبوكستين وسترايجوث تحت الطبع حاليا، رصدا نتائج اختبارات السلوك ورسومات المخ لخمسة وأربعين بالغا، منهم ثلاثون مصابا بأحد المرضين والباقون غير مرضى (أصحاء).

ورغم أن كلا من بوكستين وزميلته لم يقابلا هؤلاء المرضى مطلقا فإنهما خمنا التشخيص الصحيح لأغلب الحالات.

في مجال بوكستين فإن النتائج الملموسة شيء نادر لدرجة أنها تتعرض في الغالب للشك فيها.

إن معظم علماء الرياضيات يشعرون بالتباهي لغموض أعمالهم وعدم صلتهم بالواقع المعاش.

يقول هنري بوانكاريه أحد علماء الرياضيات الفرنسيين «إن علماء الرياضيات لا يدرسونها لأنها يمكن الاستفادة بها، بل لأنهم يشعرون فيها بالبهجة النابعة من جمال الرياضيات ذاتها». ولكن نظرية الشكل عند بوكستين هي تجسيد للرياضيات، فهي لا تلقي فقط ضوءا جديدا على المرض العقلي ولكن من الممكن أن يغير الطبيب تشخيصه أو قراره في أين يكون موضع القطع في المخ الحي.

يقول بوكستين: «إنني عندما أسترجع الأمور أجد أن الرياضيات تستهويني باعتبارها شيئا له جماله الخاص، وهذا ليس السبب الوحيد فإنها أيضا تجعل للعالم معنى بشكل غير متوقع على الإطلاق».

وبالنسبة للشيزوفرينيا يعترف أن هذا المرض معقد تماما ومحل خلافات وأن اختيار التشخيص الحقيقي أنه ربما لا يتحقق إلا بعد عشرين عاما.

مثل هذا الاختبار عند تحقيقه فربما ينسف ما أسسه بوكستين في أعماله. إن بوكشتين مثله في ذلك مثل ناش Nash يعتبر دخيلا على الموضوع أو تجرأ على التفكير فيه خارج الإطار المألوف، ومهتما بمشكلات يجزم العلماء حتى الآن أنها بلا حل.

هل حقا الأمر يستحق؟ بوكستين كان سيرد بالموافقة بكل وضوح أما ناش Nash فإنه سينكر مرتين، فلو تناول العقاقير لعلاج الشيزوفرينيا لكانت حياته أكثر سهولة. ولكن هذه العقاقير كانت ستقلص من عبقريته الرياضية.

يقول بوكستين: «كنا وقتها سنفقد نظرية ناش Nash للتغلغل وربما فاز شخص آخر بجائزة نوبل في الاقتصاد للعام 1994»، ولكن هل جائزة نوبل حقا تعادل ثلاثين عاما من الجنون؟

إن كل من شاهد ناش Nash خلال معركته الطويلة والكئيبة مع عقله ستكون إجابته واضحة.

هل يمكن التفكير من دون لغة؟

بقلم: دومنيك لابلان (*)

ترجمة: صابر أوبيري

استطاع مختص في المعلوماتية كان ضحية حادث مرور دمر المناطق الدماغية للكلام، الاحتفاظ بحاصل ذكائي مقدر بـ 120 نقطة.

أما الطبيب المريض الذي فقد استعمال كلماته توصل على رغم ذلك إلى إجراء تشخيص ذاتي. هل باستطاعة منحبسي اللسان (**) التفكير دون مساعدة اللغة؟ وهل الحال كذلك بالنسبة لحديثي الولادة والقردة و... شبكات الخلايا العصبية؟ هل يجب علينا مراجعة دروس الفلسفة؟



• القدرات المعرفية واللغوية لدى الأطفال لا تنمو بشكل متواز. ذلك أن الأولى غالباً ما تسبق الثانية. كما تبين ذلك منذ 1923 جان بياجي Jean Piaget هنا، في هذه الصورة تجربة حديثة عن اكتساب اللغة، قام بها فريق جاك مهلر بالمركز الوطني للبحث العلمي.

العنوان الأصلي للمقال: Contreverse, Existe-t-IL une pensée sans Langage? La Recherche, no 325, p. 62, nov. 1999.

مراجعة د. المنصف الشنوفي.

هل بإمكاننا التفكير دون اللغة؟ طرح هذا السؤال القديم جدا في الساحة الإعلامية ستانيسلاس ديهاين (Stanislas Dehaene) وزملاؤه في جامعة أورساي (Orsay) ضمن مقال يدور حول مصادر الفكر الرياضي [1]، حيث تتعاكس فيه الخاصية اللسانية للحساب الدقيق مع خاصية التقييم اللاشفوية (بما في ذلك النتائج المعقدة قبلا كاللوغاريتمات وجذور التربيع). كما يوضح المقال أيضا عن طريق المصورات الوظيفية، المناطق الدماغية المتميزة تماما والمعنية بطريقتي الحساب: ينشط في الأصل الحساب الدقيق المنطقة الجبهية السفلى وتحديدا الجانب الأيسر منها، بينما ينشط التخمين المناطق الجدارية لمنتصفي كرة الدماغ أي تلك المناطق المتميزة عن تلك distinctes de celles classiquement المربوطة تقليديا باللغة.

ويذكرنا هذا العمل بإثبات عالم الرياضيات الفرنسي هادامار [2] Hadamard، حيث قال «لا يولي عالم الرياضيات ثقة عمياء بنتائج القواعد التي يستخدمها لأنه يعلم بأن أخطاء الحساب ممكنة بل متكررة. وإذا كان هدف عملية حسابية هو التحقق من نتيجة توقعها الوعي أو شبه الوعي، وإذا فشل هذا التحقق فإنه ليس من المستبعد أبدا أن يكون الحساب الأول خاطئا ويكون الإلهام صحيحا. ويضيف قائلا «عندما يرتكب خطأ، ينبهني نفاذ بصيرتي بأن حساباتي لا تظهر بالمظهر الذي يجب أن تظهر به». وقد جمع هادامار أقوالا مماثلة من قرنائه بما فيهم أينشتاين.

أما بالنسبة لـ ستيفان بينكر Steven Pinker من معهد ماساشوست التكنولوجي (MIT)، فإن الفكرة القائلة بأن الفكر واللغة متماثلان تعد أيضا مثالا على العبث الاصطلاحي.

هل بإمكاننا بلوغ مرحلة نقترح فيها بأن هذا الأمر ينطبق كذلك على الفلسفة؟ يجب علينا في كل الحالات القبول بذلك، إذا سلمنا مع نيتشة - في كتابه ما وراء الخير والشر - أن الفلاسفة «جميعا يتظاهرون بالوصول إلى آرائهم عن طريق التطور الطبيعي لجدلية هادئة ومحضة، ولا مبالية إطلاقا... في الوقت الذي يدافعون في الواقع عن فرضية مسبقة، وفكرة مفاجئة أي «إلهام»، بينما هم يدافعون عموما عن رغبة داخلية يقدمونها في شكل مجرد، ويتفحصونها بدقة، مدعمينها بحجج بحثوا عنها بعناء». (هنا أنا الذي أؤكد ذلك). بعبارة أخرى، فإن نيتشة يشير إلى أن الفيلسوف يحمل آنفا في ذهنه النقطة التي يريد الوصول إليها، والبرهان ما هو إلا دعم لذلك. زيادة على ذلك فإن هذه هي البداهة. ومن الواضح تداخل الكلمات في جميع الأطوار، ولكن عبارة نيتشه: «فكرة مفاجئة، وإلهام ورغبة داخلية» تستدعي حتما الطابع اللاشفوي لنقطة الانطلاق هذه، وذلك بالتطابق الدقيق مع لفظ «التطور» الذي يشير إلى عرض تعاقبي، مثل العرض اللغوي، بينما يستعمل الهدوء بسبب مفهومه المنطقي الاستدلالي أيضا.

وبوصولنا إلى هذه النقطة، يقودنا الأمر للتساؤل عن معنى الفكر. إلا أنه من الصعب تسوية هذه المسألة المثيرة للجدل في بضعة أسطر، ولكننا على ما أعتقد، نستطيع الاتفاق حول بعض النقاط. بادئ ذي بدء، يحتوي الفكر الكامل على اللغة، ثم إن اقتصار الفكر من دون لغة على اللاشعور يوقعنا في الابتذال إذ أن الأعمال حول اللاشعور الفرويدي لا تحصى طبعا، كما لا تعد الأعمال حول اللا شعور الإدراكي. وفي الأخير، لن يكون للمسألة أهمية إلا إذا تحدثنا عن فكر شعوري لا شفوي. ويمكن أن تظهر هذه المسألة مثيرة، لأننا نعلم بالتجربة أننا عندما نشرع في التفكري أي في التأمل تتدفق الكلمات.

ويسمح مع ذلك تطبيق سيكولوجية الجهاز

العصبي بالتشكيك في مبدأ غياب الفكر دون الكلام، وفي فرنسا، ساهم فرانسوا ليرميت Francois Lhermitte (3) كثيرا في التسليم بوجود هذا المبدأ. ويمكن أن نذكر في الخارج أسماء المختصين في سيكولوجية الجهاز العصبي من أشهرهم:

ف. نيوكومب (F. Newcambe)، و ل. فايسكرانتز(L. Weiskrantz)، وتعود الصيغة الأكثر جلاء لستيفن بينكر مدير العلوم دائرة الإدراكية بمعهد ماساتشيوست (MIT)، الذي قال «تعد الفكرة القائلة بأن الفكر واللغة متماثلان عبث اصطلاحي». يا ترى ما هي العناصر التي يستند إليها شبه الإجماع هذا؟

يستند هذا الأخير إلى الفعالية التي قد يصلها الفكر كونه محروماً ومسلوباً من اللغة، كما يستند إلى البداهة القائلة بأن الفكر لا الكلام هو الذي يتحكم في اللغة. هذا التسلسل الوظيفي ليس تسلسلا في القيم، وقليلون هم الذين يزعمون أن اللغة لا تصلح بالنسبة إلى التفكير. وإنني في كل الحالات لست ممن يرون هذا الرأي.

انحباسات اللسان:

إن نقطة الانطلاق الطبيعية بالنسبة لطبيب مختص في علم الأعصاب هي دراسة منحبسي اللسان. يفقد المرضى - الذين يعانون من إصابات في منطقة اللغة، التي تحتل قسما كبيرا من الجانب الأيسر لكرة الدماغ - الفهم ويفقدون استخدام الرموز المنطوقة أو المكتوبة التي يتواصل الناس من خلالها، وذلك بالرغم من كمال أعضاء الإرسال والاستقبال (السمع والبصر) التي تضطلع بهذه الوظيفة. ويشمل هذا التعريف إذن، ترابط اضطرابات الجانبين (الإرسال والفهم). وبالمقابل، نميز في انحباس اللسان أشكالا متنوعة حسب تفوق اضطرابات جانب على آخر، وحسب طبيعتها الدقيقة. ودقق التعريف التقليدي منذ أيام شاركو (*) (Charcot) قائلا: «بالرغم من كمال العقل». وتمت مناقشة هذه المسألة كثيرا في بداية هذا القرن (انظر الإطار المعنون بوجهة نظر بعض الفلاسفة)، حيث كان علم الأعصاب الفتي بحاجة للوقت لتفحص الأمر. من بين الاضطرابات الملاحظة على منحبسي اللسان، تلك الاضطرابات المتعلقة حقا بإصابة اللغة والاضطرابات الأخرى التي يمكن لعلم الأمراض إلحاقها بها لأسباب مختلفة. بيد أننا بحاجة فقط لبعض ملاحظات حالات انحباس اللسان الشديدة المحتفظة بالعقل، حتى نبين أن كمال وظيفة الكلام ليس ضروريا لممارسة سلوكيات العقلاء، وملاحظة مثل هذه الحالات ليس أمرا نادرا ولا تافها. وقد تابعت بنفسي مع الأستاذ برونو دوبوا (Bruno Dubois) مختصا في المعلوماتية ذا مستوى عال ومصابا بانحباس شديد في اللسان، بلغ حاصل ذكائه(*) في الاختبارات اللاشفوية 120 نقطة.

والاعتراض الذي يجول في الأذهان فعلا هو أنه يبدو من الصعب جدا معرفة ما إذا كان منحبسو اللسان لا يحتفظون بلغة داخلية. وأجمع أولئك الذين استعادوا الكلام بقدر كاف على أنه لم يكن لديهم كثير من الكلمات داخليا بالقدر الذي كان لديهم خارجيا(4).

ملاحظات ذاتية:

أصبحت الآن الملاحظات الذاتية لمنحبسي اللسان عديدة ومتطابقة. والشهادة الأكثر أهمية والأقدم أيضا هي شهادة الدكتور لوردا Lordat أستاذ بكلية الطب في جامعة مونبوليي Montpellier، الذي ترقى منشوراته الأولى حول انحباس اللسان الذي سماه Alalie إلى عامي1820، 1823. وهذا يدفعنا للقول إنه كان الرائد الحقيقي في هذا المجال. وأصيب لوردا

مصادفة – ولحسن الحظ – بانحباس اللسان سنة 1825، ولكن تناقص اضطرابه بقدر كاف ليسمح له لاحقا بالرجوع للتدريس. ونشر مذكراته سنة 1843 في شكل محاضرة من محاضراته [5]، شهد إذن الدكتور لوردا مصيبته الشخصية كطبيب سريري مجرب، حيث كتب قائلا لم أكن أشعر بأي انزعاج في ممارسة تفكيري، وبما أنني معتاد منذ سنوات عدة على النشاطات التعليمية، فقد هنأت نفسي على مقدرتي أن رتبت في ذهني الجمل الرئيسية في محاضرة ما، كما أنني لا أجد صعوبة في التغيرات التي أرغب في إدراجها ضمن ترتيب الأفكار. وكان بالنسبة لي تذكر الأحداث والمبادئ والأفكار المجردة، كما لو كان في الحالة الصحية.. وإثر تفكيري في الصيغة المسيحية المسماة تسبيحة الشكر لله: التسبيح للرب والتسبيح للابن، والتسبيح للروح القدس، فإنني كنت أشعر أنني أعرف جميع أفكارها. بيد أن ذاكرتي لم توح لي بأي كلمة من هذه الأفكار». وقد نندهش جدا بهذه التأكيدات، ولكن يجب الاعتراف بأن تجربة لورداة جعلته يتقدم تقدما هائلا في فهم انحباس اللسان الذي كان هو الأول في وصفه بشكل صحيح، ويستمد منه سيادة لانزاع عليها.

وقد أكدت تصريحاته أن مصابين آخرين بانحباس اللسان، كان شفاؤهم شفاء طفيفا. وورد التأكيد على الخصوص من الفيلسوف المعاصر ألكسندر[6] الذي يقول عن نفسه: «وأصبحت بعد السكتة الدماغية الشخص نفسه وبالأيديولوجيات ذاتها والاعتقادات نفسها.

هل بإمكاننا الاعتماد كلياً على هذه الأقوال

وجهة نظر بعض الفلاسفة

أفلاطون Platon

«إذا لم نكن نمتلك لا صوتا ولا لسانا وأردنا تعريف الأشياء لبعضنا البعض، أفلا نتفاهم بالطريقة الحالية التي يتفاهم بها الصم البكم، ونشير إلى هذه الأشياء بأيدينا ورأسنا أو سائر جسدنا؟ كتراتيل Cratyle.

ديكارت Descartes

«والحال أنه لم يكن هناك وجود البتة لدابة كاملة للغاية لمجرد أنها استخدمت بعض الإشارات (...) بالإضافة إلى أنه لا وجود إطلاقا لإنسان ناقص جدا لا لسبب إلا أنه لم يستعمل بعض الإشارات. فالأمر الذي يبدو لي حجة دامغة لإثبات أن سبب عدم تكلم الدواب كما نتكلم نحن يعود إلى افتقادهم لأي فكر وليس لافتقادهم للأعضاء» (رسالة لمركيز نيوكاسل Newcastle، 23 نوفمبر 1646).

روسو Rousseau

«لا تستطيع الأفكار العامة الدخول للعقل إلا بمساعدة الكلمات ولا يتناولها الإدراك إلا باستعمال الجمل» (خطاب عن أصل وأسس التفاوت، 1755).

هيغل Hegel

«إننا نفكر باستخدام الكلمات» (مختصر موسوعة العلوم الفلسفية، 1817).

بارس Peirce

«إن الفكر الوحيد الذي نعرفه هو الفكر عن طريق الإشارات. ولكن لا وجود لفكر لا يمكن معرفته، وهكذا يجب بالضرورة على كل فكر أن يكون فكرا بواسطة الإشارات». (نصوص معارضة لديكارت، 1878).

دي سوسور De Saussure

«تقارن اللغة بورقة مكتوبة: الفكر وجهها والصوت ظهرها فلا نستطيع قص الوجه دون أن نقص في الوقت ذاته الظهر». (دروس اللسانيات العامة، 1916).

Wittgenstein فيتجنشتاين

إذا طرحنا الآن السؤال التالي «هل لديك الفكر قبل أن تجد الكلمات للتعبير عنها؟ فبماذا علينا أن نجيب؟ وبماذا نجيب عن السؤال الآتي: «وفيم تتمثل هذه الفكرة، إذا وجدت قبل أن تجد الكلمات للتعبير عنها؟» (مباحث فلسفية، 1953).

ميرلو بونتي Merleau - Ponty

«ليس للفكر ميزة داخلية، فهو لا يوجد خارج نطاق العالم وخارج عالم الكلمات». (الإشارات Signes, 1960).

بنفينيست Benveniste

تبدو مسألة معرفة ما إذا كان باستطاعة الفكر التخلي عن اللغة أو تجنبها

الذاتية؟ ألا يخطئ الضحايا حول إمكاناتهم الحقيقية؟ إن ذلك ماكان يتساءله الطبيب الكلينيكي الشهير، العامل بأقدم مستشفى والمعاصر للدكتور لوردا ألا وهو أرمون تروسو Armand Trousseau، حيث قال فليسمح لي الأستاذ المشهور بجامعة مونبوليي بالقول: «ألم ينخدع؟». غير أن العلماء تعلموا الاحتراس من المعطيات الذاتية.

وتؤكد المصورة الطبية بشهدات شهادات المرضى: أن المصابون بالانحباس اللساني يفقدون كل لغة داخلية في الوقت نفسه الذي يفقدون فيه استخدام الكلمات.

إلا أن أقوال المصابين بالانحباس اللساني، الذين استعادوا عافيتهم بما فيه الكفاية تتطابق بشكل كبير. وتأتي هذه الشهادات من أشخاص أذكياء وغالبا ذوي كفاءة في الميادين التي لها علاقة بالموضوع، والكثير منهم أطباء، ولكن جاءت أيضا هذه الأقوال من فيلسوف. كما أضفت مؤخرا إلى هذه المجموعة عالم لسانيات قرأ لي وراسلني مؤيدا رأيي. زيادة على أن وجود أشخاص بسطاء داخل المجموعة، يجعلنا في مأمن من الأحكام النظرية المسبقة.

كما علينا أيضا الاعتراف بأنه لا وجود لعلم نفس بشري دون عون من المعالجة النفسية الذاتية.

جول ديجرين - بيار ماري Pierre Marie - Jules Déjerine النزاع الطويل

لقد ساهم كل شيء في تعارضها، باعتبارهما من الجيل نفسه. بيد أن جول كان يكبر بيار بأربع سنوات، وكانا يتمتعان بطاقة العمل نفسها، ولكن باستعمال مناهج مختلفة تماما. كان ديجرين يمتلك عقلا تقليديا، زيادة على إفراطه في الدقة وكونه فنانا عظيما في عالم تشريح الجهاز العصبي (بمساعدة زوجته أوغستا ديجيرين كلومباك Augusta Déjerine klumpke).

أما بيار ماري فيتمتع بعقل متحرر ومبتكر (كان أول من استخدم مجموعات الروائز في فحص مرضاه)، ولكنه بطبعه عدو التقاليد، حتى أن طموحه فاق كل الطموحات، ألا وهو استخلاف شاركو Charcot في استعلاء منبره الوحيد: منبر علم الأعصاب. بمستشفى الأمراض العصبية (1) La Salpêtriére. اندلعت معركة الزعامة منذ موت الأستاذ سنة 1893م، حيث تم تعيين نائب له بالوكالة يدعى فولجنس رايمن Fulgence Raymond. وأخذ الصراع طابعا عنيفا حيث لم يكن هناك بدا من تجنب المبارزة لولا توسط الشهود، ولم تحدث المواجهة الكلامية على الأقل إلا سنة 1980، وذلك بمناسبة انعقاد ثلاث جلسات بجمعية علم الأعصاب، خصصت للنقاش حول الإصابة بمرض انحباس اللسان، وبقيت هذه الجلسات ذائعة الصيت. وكان كل شيء يفصلهما في مفاهيمهما للإصابة بانحباس اللسان، حيث استمر دجيريمن في المعارضة حسب المذهب التقليدي والأخذ بمفهوم انحباس اللسان المحرك (الذي يقول به بروكا Broca)

ويعد في هذا الصدد مثال حالات الاكتئاب، مقنعا يتأسس التشخيص على استنباط حالة أولئك المصابين بالاكتئاب على الرغم من إخفائنا لهذه الذاتية وراء مجموعة الاختبارات الموحدة، ولا أحد ينزعج لذلك. وهكذا فعلينا في الوقت نفسه جمع المعلومات الذاتية بحذر وتفتح. وتكتسي هذه المعلومات قيمتها الحقيقة عندما تؤكدها معطيات موضوعية. والحال أن المصورة الوظيفية للمخ سمحت لنا برؤية أن المناطق الدماغية المنشطة بتمارين شفوية داخلية محضة، هي نفسها المناطق المنشطة بتمارين مجسدة خارجيا (8,7). ومن جهة أخرى لا يتعلق الأمر هنا إلا بحالة خاصة لقاعدة عامة تقتضي بأن التمثيل الداخلي الوحيد لحركة ما ينشط المناطق المحركة (9)، وينشط التمثيل البصري المناطق البصرية الأولية (10)، بالقدر الذي تعتبر فيه المصورة الوظيفية انعكاسا حقيقيا للنشاط الدماغي، فإنها تبين أن اللغات الداخلية والمجسدة خارجيا تعالج في المناطق الدماغية نفسها. ومن المعقول إذن الاعتراف بأن وقوع خلل في هذه المناطق يؤدي إلى فقدان هاتين الصورتين اللغويتين، وذلك مثل ما يدعونا مرضانا للتصديق به.

القسم الأبكم من نصف كرة الدماغ:

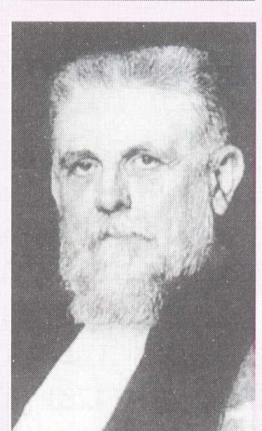
ولكن يمكن الرد علينا بالقول إن اللغة شكلت

ومفهوم انحباس اللسان الحواسي (الذي يتبناه ورنيك Wernicke). أما بالنسبة لماري فإن انحباس اللسان انحباس واحد، فهو يعتقد أن انحباس اللسان الذي وصفه بروكا لم يكن إلا انحباسا مزدوجا مع اضطراب في النطق.

حتى أن بيار ماري عدو التقاليد ذهب للتأكيد على أن القسم الثالث للتلفاف الجبهي الدماغي - المنطقة التي وصفها بروكا والتي كانت أساسا لمذهب التمركز الدماغي - لا يلعب أي دور في الإصابة بهذا الاضطراب. وتذرع بيار ماري بوجود إصابات تحتية لقشرة الدماغ، والتزم برأيه وبقي أقل حصرا للإصابة من ديجرين ودعاة المذهب التقليدي.

زيادة على أن بيار ماري طرح موضوعا ثانيا على الساحة العلمية، وذلك بتعريفه لانحباس اللسان - مناهضا للتقليديين - باعتباره اضطرابا عقليا. وعلى الرغم من أنه قلل من شأن هذا التأكيد عقب الجلسة الأخيرة لسنة 1908، فإنه تمسك برأيه القائل بأن الأمر يتعلق باضطراب «عقلي». أما بخصوص ديجرين، فالأمر عكس ذلك لأنه يربط انحباس اللسان باضطراب عقلي. وبمرور الزمن، تبين أن بيار ماري لم يكن مخطئا إثر اعتراضه على إعطاء الطابع الذري(2) لانحباس اللسان. ولم يكن مخطئا عندما بين صعوبة التطابق بين الاختلالات وتنوع اضطرابات اللغة. ولكنه بالمقابل، لم يعط ذكاء منحبسي اللسان حق قدره. وانتهى النزاع باعتلاء ديجرين أولا لمنبر معلمه شاركو، ثم عقبه بيار ماري سنة 1918م.





أدمغة المصابين بانحباس اللسان، ويجب البحث إذن عن تجارب أقيمت على «كائنات» مسلوبة اللغة. ومن أجل دراسة مستوى تفكير عال، علينا أيضا التوجه نحو الإنسان، ويمكننا في معالجة بعض حالات الصرع اللجوء إلى انتقاء الملتقيات (بين جسمين وعضوين) التي تصل بين القسم الأصم والأبكم لكرة الدماغ. غير أن المرضى لا يعانون قليلا، لأن القسمين ينهلان من مصادر المعلومة نفسها في الظروف العادية للحياة. ولكن يمكن أن نبين في المختبر، بأن القسمين يعملان مستقلين الواحد عن الآخر، ونسألهم الواحد بمعزل عن الآخر. وهكذا فإننا عندما نطلب من مريض تسمية جسم موضوع بعيد عن مرآه في يده اليسرى، ألن نحصل على جواب أو أجوبة خيالية بالرغم من أن المريض لا يزال قادرا على استعمال الجسم استعمالا صحيحا. فعلا إن قسم الدماغ الأيمن الشبه محروم تماما من اللغة وهو وحده الذي يستقبل المعلومات. والحق يقال إن هذه المقدرات بخصوص استعمال كلمات منطوقة الواحدة تلو الأخرى ليست أقل شأنا من مقدرات قسم الدماغ الأيسر إن لم تكن أقل بقليل. غير أن هذه الأخيرة ضعيفة جدا، إذا استخدمنا اختيارات اللغة باتم معنى الكلمة (11). بعبارة أخرى فإن قسم الدماغ الأيمن (بالرغم من أنه أكثر مقدرة من القسم الأيسر في بعض الميادين) فهو غير قادر على استعمال النحو ولا قادر على استخدام الروابط المنطقية، أي أنه عنصر أساسي في الفكر الشفهي. زيادة على أنه غير قادر على توليد لغة مجسدة خارجيا، ومن دون شك غير قادر على توليد لغة داخلية. وأما بخصوص دور القسم الأيمن للدماغ في استرجاع المصابين بالانحباس للغة، فإنه أكثر تواضعا مما كنا نظنه قبل استخدام مصورة الدماغ الوظيفة، الأمر الذي يؤكد المقدرات اللسانية الضعيفة لهذا القسم (13, 12).



● كان الدكتور لورد أول من وصف وصفا صحيحاً للانحباس اللغوي، الذي أصابه في 1825، ولقد كتب، في مذكراته المنشورة في شكل محاضرات: «لم أكن أشعر بأية صعوبة في ممارستي ملكاتي الفكرية».

عادة ما يظهر الصم البكم غير المدربين قدرات عادية في الاختبارات الشفهية

قد مضى الآن زهاء الثلاثين عاماً على إجراء روجي سبيري(14) Roger Sperry سلسلة من الأعمال حول هذا الموضوع، كانت ثمرتها الحصول على جائزة نوبل. وتناول خلاصتها بشكل تام ج. ج. بوجن J.Bogen سنة 1997، وهي «إن كل ما لا حظناه في جميع أنواع التجارب خلال سنوات، يدعم الخلاصة القائلة أن القسم الأبكم من نصف كرة الدماغ يملك تجربة داخلية كبيرة من شكل مقدرة القسم المتكلم نفسه، إلا أنه يختلف عن القسم الأبكم على مستوى النوعية وطبيعة الملكات الإدراكية. ومن الواضح أن القسم الأيمن للدماغ يدرك ويفكر ويتعلم ويتذكر في

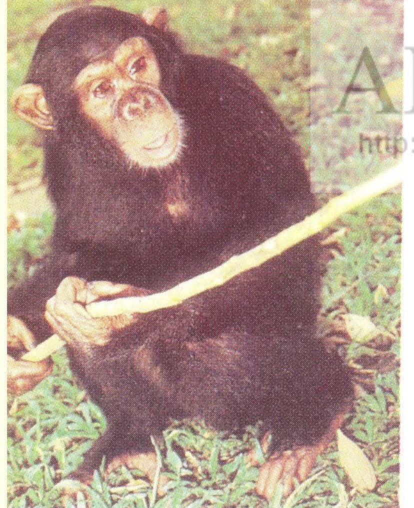

• فلم تروفور الطفل المتوحس، يروي قصة فيكتور وهو طفل ترك وشأنه في احضان الطبيعة حتى سن المراهقة والذي لم يتوصل قط لا الى الكلام بطريقة سليمة ولا إلى تربية ملكات ادراكية طبيعية، ولكن كيف تعلم انه سبق أن كان له نقص عندما صار ضحية للترك والهجران.

مستوى بشري تماما، ويبرهن دون عون من اللغة ويتخذ القرارات «الإدراكية» ويستخدم أفعالا إرادية جديدة. كما يستطيع أيضا توليد ردود انفعالية - على الخصوص إنسانية - عندما يواجه مواقف مشحونة بالمؤثرات.

وباستطاعتنا زيادة على ذلك دراسة الصم البكم لإثبات ذلك. فأولئك المحرومون اليوم من تجديد التدريب لحسن الحظ نادرون، بسبب الكشف المبكر للصمم، وبسبب الوسط الطبي البيداغوجي. ومع ذلك فقد لاحظت حالتين: طفلين هاجرا إلى فرنسا في حوالي سن العاشرة. قدم أحدهم من الصين والآخر من المغرب، وينحدران من أوساط محرومة ولذلك لم يحصلا على أي تربية لسانية(15). وكانت الاختبارات اللاشفوية في كلتا الحالتين طبيعية، كما بينت متابعة الطفلين مقدرات مرضية على التكيف. ومن الصعوبة بمكان اعتبار أن الطفلين لم يمتلكا فكرا واعيا (لا شفويا) يتصل بمستوى مقدرتهما، ولا يؤكد ذلك سوى معطيات تقليدية مثل حالة هلين كيلر Hellen Keller التي شهرتها السينما بصفة خاصة. هلين طفلة صغيرة ولدت ضريرة وصماء بكماء، وتعلمت بعد مرور سنين من الصمت التواصل باستعمال لغة الإشارات، وكانت الفتاة قبل هذا التمرن منعزلة وراء الجدران، ولكنها لم تكن معتوهة، وبمقابل ذلك فإن مثال الأطفال الذئاب قلما ينيرنا . كما أنه لا واحدة من الحالتين المدورستين جيدا في تاريخ الطب. كانت بمثابة نجاح للتدريب المتجدد. بيد أن الانعزال الاجتماعي والافتقار للمحفزات أو القصور العاطفي قد تفسر قسما كبيرا من التخلف العقلي. وفي كل الحالات فإننا لا نعرف شيئا عن الأبناء ولا الآباء وقت تخليهم عن أبنائهم، وربما لم يكن الأولون طبيعيين، ولاشك أن الآخرين لم يكونوا طبيعيين أكثر من ذلك.

ذكاء القردة:

يظهر ذكاء الحيوانات أدنى بكثير قياسا بذكاء الإنسان، ولكنه موجود لا محالة. وقد علم دافيد بريماك David Premack من جامعة بينيسليفانيا Pennslyvania، القردة لغة اصطناعية تؤسس على تناسق فيشات ملونة. وهكذا توصل إلى جمع كسور للشمبانزيات (نصف


• القردة قادرة، دون الاستعانة باللغة وكعديد الحيوانات الأخرى، ان تبني تفكيرا مركزا ومعقدا وان تخطط لأعمال وان تستعمل الادوات.

تفاحة زائدة ربع قارورة على سبيل المثال). وتسهل هذه الفيشات استخدام مفاهيم «التشابه» و«الاختلاف». ألم نثبت حينئذ ضرورة اللغة بمعنى عكس ما تم البحث عنه؟ والحقيقة أن التعليم الذي حصل عليه القرد لا ينطوي فعلا على اللغة، ولكنه ينطوي فقط على بعض الكلمات. ويقدر بريماك دور الكلمات بالجلب البسيط لانتباه الحيوان حول تمييز يستطيع الحيوان القيام به، ولكن لا يستطيع أن يستغله بشكل عفوي.

وماذا عن الأطفال؟ إن دراسات جون بياجي Jean Pieget (أعاد جاك ميلر Jacques Mehler في المركز الوطني للبحث العلمي CNRS صياغة قسم منها)، التي أصبحت منذ ذلك الوقت دراسات تقليدية بينت ابتداء من 1923 أن نمو المقدرات المنطقية واللغوية للطفل لا يتم بشكل مواز.

إن الخلاصة الأولى التي نرغب في استخلاصها هنا هي أن مقدرات الفكر دون لغة قد تكون مرتفعة (16). وإليكم بالقضية العكسية، لا تستطيع لغة سليمة القيام بالشيء الكثير، إذا لم يكن الفكر اللاشفوي سليما.

لغة واقعة تحت التأثير:

إن الأمثلة هنا كثيرة أيضا. ولن أختار سوى حالتين من جملة الحالات التي تواجه علم الأعصاب، أي الأعراض الجبهية وهذيانات المصابين بالعمه (*) Asomatognosiques. يلعب الفص الأمامي دورا خاصا جدا في تنظيم الفكر، حيث تمنع الإصابات في هذه المنطقة المرضى من حل مسائل مثل: بيير أكبر من بول ولكنه أصغر من جاك. من هو أكبرهم؟ غير أن المرضى لا يشتكون من أي أضطراب أساسي في اللغة، ولا يبقيهم كمال الوحدة اللسانية في معزل عن عدم قدرة منطقية. أما حالة المصابين بالهذيان فحالة نموذجية كذلك: لا يرتبط اضطراب فكرهم بأي شكل من الأشكال باضطراب اللغة. ولا شك بأننا سنتساءل إذا أصبح مريض ما منحبس اللسان فهل بإمكانه الاستمرار في الهذيان؟ ليس لدي ملاحظة أقدمها بهذا الشأن، ولكن أعتقد أن كل المختصين في علم الأعصاب وعلم النفس سيردون بالإيجاب.

أما حالة هذيان المصابين بالعمه فتجيب بشكل مخالف على سؤال فكر واع يتحكم في اللغة. وتحمل هكذا إصابات معينة في الفص الجداري الأيمن المرضى على تجاهل وجود القسم الأيسر من أجسادهم الفاقد للحس والمشلول. وكم يبدو هذا شديد الغرابة. إلا أنهم على رغم ذلك ينكرون شللهم، فبالنسبة إليهم لا وجود لا لاضطرابهم ولا لإصابة في نصف جسدهم. وإذا طلبنا منهم حينئذ تفسير سبب وجودهم في المستشفى فإنهم يتكلمون عن تعب وتوعك. ويخوض البعض منهم في أقوال هذيانية مثل أقوال أحد مرضاي، الذي سخط على مستخدم سرق يده اليسرى وأخفاها في درج خزانته. وأكد مريض آخر شد يده المجهولة طبيب بين يديه، أنه كان للطبيب ثلاث أياد. ومن الواضح أن اضطراب «الوعي الجسدي» (نتحدث إذن عن الوعي، وبطبيعة الحال وعي لا شفوي) يقود إلى أقوال غير عادية وصفها - بسياك E. Bisiach من دائرة علم النفس بجامعة ميلانو غير متردد في وصف هذه الملاحظات الأخيرة - بكونها «لغة دون فكر» (17).

وبإمكاننا البدء في استشفاء الخدمات المتبادلة التي يقدمها الفكر اللاشفوي واللغة لبعضهما البعض. والحق أن الاضطرابات اللاشفوية تسبب (بالمعنى التعريفي تقريبا) انخفاضا في مقدرات واضطرابات السلوك، وذلك ليس الحال بالنسبة لاضطرابات اللغة عندما تكون في عزلة. ويتم التمهيد إذن لفكرة الترتيب بمعنى أن اللغة تبدو كأداة في خدمة الفكر. ولاسبيل لإنكار الأهمية

القصوى للغة، ولكن بصفتها أداة من جملة الأدوات وليس شرطا من الشروط.

وكيف باستطاعتنا إذن التعريف بهذا النوع من الأدوات؟ إن القول بأن اللغة واستخدام الكلمات – مثل قول لوردا – يسمح بـ « تجسيد الأفكار» والتحكم فيها بسهولة ليس ضربا من المخاطرة. ويمكن مقارنة وظيفة اللغة بالمساعدة التي يقدمها الجبر لحل المسائل (18)، ولكن اللغة تصلح للتواصل ومن أجل ذلك يجب توافر نظام رموز. ومن هنا تبرز الفكرة القائلة بأن اللغة ليست إلا تجسيدا اصطلاحيا للفكر واستنباطا وليد العهد على أقل تقدير. وإذا كانت مزايا الاستنباط كبيرة، فلا يجب التقليل من عيوبه. وهكذا كلما كان الاستنباط في اللغة أكبر، كانت دقة اللغة أضمن. ولكن بمقابل ذلك يكون مجال الدلالة الذي يغطيه الاستنباط أضعف.

وهكذا تمثل اللغة الصورية – في نظر المنطق – الدرجة العليا مع سلامة قصوى، ولكنها تمثل أيضا فراغا دلاليا كاملا، ففي اللغة الصورية لا يعني الحرف «ب» سوى «ب». ولكن لا وجود لأي نظام رموز باستطاعته فعلا التعبير عن عواطفنا، والتي على رغم ذلك تشكل قسما من فكرنا. وهكذا فإن الاستنباط يقلص من مجال تطبيق لغة ما.

وهناك خطر آخر للاستنباط ألا وهو «تعويض الأفكار بالكلمات»، والذي يعد بالخصوص حالة مألوفة تعفينا صفتها العادية تعقيبات مطولة... ولكنه يعني أيضا الفصل بين الفكر واللغة.

ترى إلى أي حد يبدل غياب صيغة نصب الفعل في اللغة الصينية أو غياب الزمن عند هنود الهوبي أساليب الفكر؟

وبعبارة واحدة، يرجعنا الحديث إلى صيغة لوك Locke الذي قال «لا تعني الكلمات شيئا آخر في معناها الأولي والفوري سوى الأفكار التي تجول في ذهن الشخص الذي يستخدمها» أي أن اللغة تعبر عن فكر سابق التكوين في قسم كبير منها (19). وطبعا تساهم اللغة في تكوين هذه الأفكار، وهكذا أكدنا كثيرا على حقيقة أن نمط اللغة نفسه وتنظيمها النحوي وتنظيم أزمنة أفعالها... الخ، يحدد طريقة التفكير ولا نقاش حول ذلك. وبإمكاننا القول بمثل ذلك بخصوص كل الوسط الثقافي وهذا الأمر واضح، ولكن يستحيل استنباط هذا الأخير، زيادة على أن هذه العناصر تترابط بشكل ما. أما ستيفن بنكر فينتقد عددا معينا من الأفكار الشائعة بخصوص هذا الموضوع. وهكذا فقد تم نقاش طويل حول الطريقة التي من خلالها يمكن لغياب صيغة نصب الفعل في اللغة الصينية وادعاء غياب كلمة تعبر عن الزمن عند هنود الهوبي، أو الفيض الكاذب لمفردات لغة الإسكيمو في تسمية الثلج أو الجليد أو تبدل طريقة التفكير. غير أنه يبدو لستيفن أنه لا قيمة لهذه الاعتراضات. ولكن الموقف الذي أريد الدفاع عنه ذو فارق أكثر دقة.

الباطن Mentalais

وماذا نحكم إذن على نظرية فودر Foder التي تبناها بنكر، والتي تفترض أن لغة باطنية Le Mentalais ضرورية لمعالجة كل معلومة، حتى وإن تعلق الأمر بلغة غير واعية تماما. وقد يكون الباطن فكرا تاما يعبر عن نفسه فيما بعد في شكل كلمات. زيادة على أن هذه النظرية توقع محض ولا تبدو محتملة. وإذا كان الحساب نفسه في كلا النظامين اللذين أوردهما ستانسلاس ديهان في المقال الذي أشرنا إليه آنفا (الحساب الدقيق والحساب التقريبي)، فإننا لا نرى داعيا لأهمية هذه الازدواجية. ولكن لا يزال هناك الكثير من الأقوال.

إذا قبلنا بالقول إن الاستنباط يقلص من مجال تطبيق لغة ما، فإننا نرى نرى بصعوبة كيف يمكن

للباطن تفسير هذه البداهة التي نعاني كل العناء لإيجادها في اللغة، وهي المساند للقسم الأهم لفكرنا، بمعنى قسمه الانفعالي. غير أنه يتضح من تجاربنا اليومية أنه يصعب التعبير عن معظم أفكارنا.

شبكات الخلايا العصبية:

بالإضافة إلى ما سبق ذكره يصطدم الذكاء الاصطناعي بمشكلة المعارف الهائلة التي يجب علينا التحكم فيها كي نستطيع التكلم والفهم أو التصرف، ولا ندري كيف تدمج هذه المعارف في لغة ما. كما أنه من الضروري أن يكون النظام اللاشفوي قادرا على تغطية مجال أوسع من المجال الشفوي.

وفي هذا الإطار بإمكان شبكات أشباه الخلايا العصبية (20) للذكاء الاصطناعي إمدادنا ببعض الأفكار. وتعد هذه الأنماط جذابة للغاية بالنسبة لمختص في علم الأعصاب، حتى وإن فصلت الاختلافات العميقة بين شبكات الدماغ الاصطناعية. ويتأسس هذا الجذب أولا على تناظرات بنيوية لأن الدماغ مكون بلا ريب من وحدات حسابية مجمعة في شكل شبكات معقدة تعقيدا مذهلا.

وتعد هذه التناظرات الوظيفية مدهشة، حيث وهب لكل من الأدمغة، وشبكات الخلايا العصبية وهب ذاكرة لا يمكن تحديدها مكانيا تكتسب عن طريق التكرار. وتستطيع الذاكرة تحسين مقدراتها تدريجيا بالقدر الذي نمدها فيه بمؤشرات إضافية.

ومن المحتمل أن تتدهور الذاكرة شيئا فشيئا إذا دمر مرض (الزهامر Alzheimer مثلا) أو دمر المختبر، أو فصل مصادفة ـ بصفة تزداد أكثر فأكثر – الخلايا العصبية أو أشباه الخلايا العصبية. وزيادة على ذلك فإن هذه الذاكرات معرضة للخطأ، حيث بإمكانها الخلط بين عناصر تختلف بعضها عن البعض بشكل طفيف للغاية، ويمكن أن يكون عيبا ولكنه أيضا امتياز قاطع، لأنه يولد في الاتجاه المعاكس مقدرة أساسية ألا وهي مقدرة الكشف عن التشابهات والتناظرات، التي قد تكون فعلا القاعدة التجريبية للتصنيفات وأصل الأسماء النوعية! غير أن الخاصية الأهم هنا هي أن الشبكات – التي تستعمل اللغة الصورية كلغة قاعدية لهذه الوحدات – لم تعد تملك بصفتها شبكات لغة صورية. ويختلف نمط حساب الشبكات عن نمط ألحوا سيب، بالرغم من أنها تستعمل نمط حساب الحاسوب. ولم تعد الرسائل المنبثقة مؤسسة على مفردات أُعدت سابقا، ووضعتها رموز نحوية معرفة آنفا.

كما لا تتطور هذه الرموز ضمن محور الزمن المنشأ حسب برنامج نحوي صلب، ولكنها تقوم على توزيعات موازنات المشتبكات العصبية التي نتعلمها كلية بواسطة التكرار، وتوصف في فضاء له كذا من الأبعاد. وبهذا الشكل لم يتبق شيء من خصائص لغة ما. والاقتراح المطروح هنا هو أن موازنات المشتبكات العصبية بالضبط هي التي تستطيع بحق – وبصفة قليلة – تمييز فكر دون لغة، وتستطيع تغذية الوحدات اللغوية التي تقلص الأفكار وتشكلها في آن واحد. ونشهد حينئذ تعاون اللغة مع فكر تشكل منه سابقا سوى قسم. بحيث إن خلاصة مقال ديهان **مقاربة** جدا لما سبق ذكره: «يمكن أن تشير هذه النتائج بأن التمثيل اللاشفهي التحتي بالمعنى البشري للكم الرقمي، قد يمدنا بحقيقة التكامل وحقيقة تمثيلات الأعداد المؤسسة على اللغة». وتكمن الصعوبة في أنه يظهر من المريب نوعا ما أن الوحدات اللغوية للدماغ هي نفسها شبكات الخلايا العصبية، ولا ندري كيف يمكن للدماغ المرور من نمط وظيفي إلى آخر.

وباستطاعتنا الثقة بالبحث في هذه النقطة، لأنه سيجيب على ذلك إذا تم طرح الأسئلة بشكل صحيح.

لمزيد من المعلومات

Dominique Laplane, La Pensée d'outre-mots, Les empêcheurs de penser en rond, 1997.
Steven Pinker, L'Instinct de Langage, Odile Jacob, 1999.

الهوامش

(1) S. Dehaene et al., Science, 284 , 970, 1999.
(2) J. Hadamard, Essai sur la psychologie de L'invention dans le Domaine mathématique, GAUTHIER - Villars, 1975.
(3) A, R, Lecours, F. Lhermitte, L'Aphasie, Flammarion, Coll, Medcine Sciences, Paris, 1979.
(4) Y. Joanette et al., "L'Aphasie des aphasique" L´Ahasique , J. Ponzio et al., (eds), Edisem ST Hyacinthe, Québec, et Maloine, Paris, 1991.
(5) Lordat, "Analyse de la parole pour servir á la théorie de divers cas d'alalie et de paralalie (de mutisme et d'imperfection de parler) que les nosologistes ont mal connus", Journal de la Société de médecine pratique de Montpellier, 7, 333, 1843.
(6) E. Alexendre, Diagene, 150, 1990.
(7) R. Wise et al., Brain, 114, 1803, 1991.
(8) L. Rueckert et al., J.Neuroimag., 4, 67, 1999.
(9) M. Leonardo et al., Humain Brain mapping, 3, 83, 1995.
(10)D. Le Bihaen et al., Neurobiology, 90, 11802, 1999.
(11)E. Zaidel, Lexical organisation in the right Hemisphere cerebral Correlates of Conscious Experience, INSERN, ELSEVIER NORTH Holland Biomedical Press, 1978.
(12) H.Karbe et al, Brain and Langage, 64, 215, 1998.
(13) E. Waburton et al, J. Neurol, Neurosurg, Psychiatry, 6, 155, 1999.
(14) R. W. Sperry, Neuropsychologia, 22, 661, 1984.
(15) D. Laplane, La pensée d'outre mots, Les empêcheurs de penser en rond, 1997.
(16) J. Piaget, Le Langage et la pensée chez l'enfant, 1923.
(17) E.Bisiach, "Langage without Thought", Thought without Langage, L. weiskrantz (ed.), Oxford Science Publication, P. 464, 1988.
(18) Th. Alajouanine, P. Mozziconacci, L'Aphasie et la Désintégration fonctionnelle du langage, L'expansion Scientifique Française, sans date.
(19) J. Loke, Essai philosophique concernant l'entendement Humain, trad. Coste 5é ed. 1755, réed. E. Naret, Vrin, Paris, 1972.
(20) La Recherche a puplie:
J. Hérlaut et C. Juttin, "La mémoire des réseaux mimétiques".
La Recherche, no 267, p. 824, 1994.

عن المشروع الأخلاقي الحيوي والتاريخ

المدلولات والسياسات والطب

بقلم: تشارلز روزنبرج

ترجمة: أحمد محمود

لا يسعنا بحال من الأحوال أن نتجاهل ذلك الاعتقاد الذي يشارك فيه كثيرون بأننا نعيش عصر أزمة في الرعاية الصحية. وتلك الأزمة تتعدى كونها اقتصادية وإدارية، وإن كانت أكثر أعراضها سوءا تفصح عن نفسها في هذه الأشكال المتداخلة. وليس على المرء سوى تناول إحدى الصحف أو المجلات لكي يتذكر طبيعة المشكلات الموجودة في كل مكان ومتعددة الأبعاد التي تواجه الطب الأمريكي. وكثير من هذه المعضلات الملحوظة تحدث تغيرا تقنيا سريعا وصعوبة في خلق سياق مؤسساتي واقتصادي، وكذلك أخلاقي، يمكن فيه إدارة هذه الاختيارات الإكلينيكية والسياسية والبحثية الجديدة. وليس مستغربا أن الأخلاق الحيوية كثيرا ما يستعان بها. باعتبارها كلا من الداء والدواء المحتمل. عند مناقشة هذا الواقع المزعج. كيف لنا أن نفكر في هذا المشروع، ونضعه في الفضاء الاجتماعي، ونفهم هوياته العديدة المتداخلة؟ فليست هذه المهام هينة. وتشكل الأخلاق الحيوية المعاصرة تحديا صعبا إلى حد كبير بالنسبة للمؤرخ؛ فقد صورت مسلمات القيمة على الدوام الطب باعتباره مشروعا اجتماعيا، إلا أن مثل هذه القيم كثيرا ما كانت ضمنية وغير معلنة، حيث يتفاعل منطق كل جيل مع العوامل التقنية والمهنية والمؤسساتية والاقتصادية لكي يضع نسقا محدد الزمن للواقع الإكلينيكي.

الرعاية الاجتماعية والالتزام الاجتماعي

ويرى مؤرخ الطب الأمريكي هذا أن بعض مؤشرات التغير المعاصر مذهلة إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال، ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» سنة 1998أن مستشفى مونتفيوري أعلنت عن عزمها الدخول في مشروع برأسمال مشترك مع شركة تستهدف تحقيق الربح؛ وقد اعتزمت فتح سلسلة عيادات تعمل طوال الأربع والعشرين ساعة للإيدز والسرطان. وشرح رئيس مونتفيوري الأمر قائلا: «المشكلة الأولى للمؤسسات التي لا تستهدف الربح هي تكوين رأس المال» (1). وفي مدينتي، فيلادلفيا، باع مستشفى بنسلفانيا، وهو أقدم المستشفيات العامة في أمريكا، قسم العلاج النفسي به بما له من أهمية تاريخية لممول يستهدف تحقيق الربح، ثم باع نفسه، بعد وجود مستقل دام 250 سنة، لكيان أكثر شبابا يسمى النظام الصحي لجامعة بنسلفانيا أعلن اعتزامه إرسال أربعة «خبراء في الهندسة الإلكينيكية للبحث عن طرق لإجراء

العنوان الأصلي للمقال: Meaning, policies and Medicine، وظهر في مجلة DAEDALUS، عدد فريق 1999.

تغييرات اقتصادية تتعلق بخفض التكاليف في الرعاية الإكلينيكية» في المستشفى الذي امتلكه حديثا(2). وكان مستشفى جامعة بنسلفانيا قد انتهى للتو من «إعادة الهندسة» الخاصة به. بل حدث منذ فترة أقرب أن تزعزع نظام الرعاية الصحية في منطقة فيلادلفيا وأصابه الاضطراب من جراء استراتيجية التملك الجريئة الخاصة بنظام الرعاية الصحية الذي يتخذ من بيتسبرج مركزا له، وهو الذي اشترى عيادات ومستشفيات وكليات طب متحدة في مغامرة جريئة في السوق، سرعان ما انتهت بالإفلاس وعدم الوفاء بالالتزامات والمستقبل الخطير لمؤسسات ذات أهمية تاريخية مثل كلية طب هانيمان وكلية طب بنسلفانيا(3).

والمؤشر ذو الدلالة الكبيرة من بين ما جمعته من المؤشرات الإعلامية الحديثة يعد تجاوزا ساخرا - ومعينا على الفهم - للقصص الخبرية التي تحملها الصفحة الأولى من «نيويورك تايمز» (4). ففي الركن الأعلى الأيمن كان هناك تقرير يقول إن ميزانية معاهد الصحة القومية قد تُزاد في ميزانية العام المقبل. وأوضح التقرير أن السرطان قد يتم فهمه وعلاجه. وقال مدير معهد السرطان القومي مؤكدا ذلك: «إننا في عصر الاكتشاف الذهبي، وهو عصر فريد في تاريخ البشرية... فالمعرفة الخاصة بطبيعة السرطان الأساسية تتفجر». كان العلم الأساسي يقترب من عدو البشرية القديم، ويمكن الاعتماد على حشد تأييد واشنطن الذي لا يلين لرعاية هذا المشروع الجدير بالثناء. وكان ائتلاف يضم الأطراف ذات المصلحة - جماعات الدفاع عن المرضى، والأطباء، وكليات الطب - قد اجتمع لدعم الجهود لمضاعفة ميزانية الرعاية على مدى السنوات الخمس المقبلة. ويشرح رئيس مؤسسة حشد التأييد الأمر بصراحة قائلا: «إننا نخطط لحملة محلية داخل الطريق الدائري وخارجه. وسوف تدار الطريقة نفسها التي اتبعتها جماعات ضغط نورثروب جرونمان من أجل الطائرة القاذفة B - 2». وعلى اليسار مباشرة من هذا التقرير المتفائل عن الإنجاز المعملي كانت هناك قصة خبرية كخلفية عن الألم النفسي والبدني المرتبط بالولادات المتعددة الناتجة عن أنواع علاج الخصوبة المعاصرة: فكان «الفرح والأسى يعقبان المعجزة الطبية» أحد العناوين الفرعية لهذا العرض الذي يفيقنا(5). وسواء أكان وضع هاتين القصتين الخبريتين على الصفحة الأولى من «نيويورك تايمز» نزوة من نزوات مخرج الصحيفة أم تعليقا تحريريا ضمنيا، فالرسالة تبدو جلية كل الجلاء. فالتكنولوجيا وحوافز السوق والسياسات العامة قد تغيرت جميعا وتغير كل جانب من جوانب الرعاية الطبية، بينما المجتمع أقل نجاحا في توقعه لعواقب مثل هذا التغيير.

وبغرض تقديم مثال يتصل بالموضوع، خصص عدد الخريف الخاص من مجلة «لايف» لـ «المعجزات الطبية في الألفية المقبلة». وقد وعد الغلاف بـ «21 إنجازا قد تغير حياتك في القرن الحادي والعشرين: العلاج بالجينات/ الطعوم القابلة للأكل/ عقاقير الذاكرة/ ازرع أعضاءك». وقد أعطي قليل من الاهتمام خلال تصوير المجلة الجليل للتقدم المعملي للزيادة التي تدعو للسخرية، وربما اتسمت بالمفارقة لانتشار الخوف من التضمينات الإنسانية لتلك التكنولوجيا. وكان عدد من مجلة «تايم» عن «مستقبل الطب» يلقي ضوءا مماثلا. فالعنوان الفرعي يعد شرح «الطريقة التي سوف تغيرنا بها الهندسة الوراثية في القرن المقبل». وكانت صورة الغلاف المذهلة رسما لرمز الطب - العصا والحية - حيث تتحول رأس الحية إلى ملف من الحمض النووي DNA (6). كيف يمكن الرمز إلى شكل الطب المتغير والمتصارع في عالم التقدم المعملي الذي لا يتوقف والتوقعات العامة التي تزيدها وسائل الإعلام؟ ويمثل المجاز المرئي القوي للغلاف كذلك جانبين من جوانب

الطب المعاصر يبدوان غير متصلين، وإن كان كل منهما ضروريا للآخر: وهما التقني والمقدس ـ أي القوة الثقافية للحداثة المعملية وصمود التراث الأخلاقي الواعي بذاته.

وقد أقول إن هذه العينة المختصرة من تقارير وسائل الإعلام تقدم لنا عالما مصغرا مفيدا للعالم الكبير البنيوي والعاطفي. وهي لا تشي بأزمة مدركة في السياسة العامة وحسب، وإنما بعدم تساوق أساسي بين القيم والتوقعات، وكذلك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الراسخة فيها هذه الاعتقادات والمفاهيم حتما.

ويتسم نظام الرعاية الصحية الخاص بفصل مميز: فمن ناحية هناك إيمان لا حد له بسلطة المعمل والسوق، ومن ناحية أخرى نجد عدم القدرة على التنبؤ بتضمينات التجديد التقني والمؤسساتي والتفاعل معها. وهذه المعضلة تنجم بصورة مباشرة عن إيماننا المطلق بالحلول التقنية للمشاكل الإكلينيكية؛ فكما نعلم جيدا، ليس المرض والألم والموت دائما أمورا تستجيب للتدخل الإكلينيكي. وفي أواخر القرن العشرين، تعد مثل هذه الصراعات قضايا سياسة عامة، وهي حتما عناصر أساسية في العلاقات الفردية بين الطبيب والمريض. والمسألة بطبيعة الحال تربط الخاص بالعام، حيث تفهم الاختيارات التي تواجه الأفراد في التفاعلات الاجتماعية المتكررة ـ وهي تزن بصورة ما درجات الاستقلال الفردي ودرجات الجبر الاجتماعي المهني والجمعي. وقد أوافق على أنه لابد أن تعالج الأخلاق الحيوية في النهاية مثل هذه المسائل التي هي تاريخية بالضرورة وأخلاقية حتما: أي الانتقال من الفردي إلى الاجتماعي، ومن المدلول إلى البنية فيما يتعلق بالطب، ومن المواجهة الإكلينيكية إلى المجتمع الكبير الذي تتم فيه هذه المواجهة.

الطب والمدلول

يرى المؤرخون أن كثيرا من المعضلات التي تحيق بالطب المعاصر تختلف اختلافا كبيرا عن الواقع الموازي في الأجيال الأمريكية السابقة. فقد كان عالم القيمة الاجتماعية على سبيل المثال، وبالتالي الإلزام، مختلفا اختلافا شديدا، عندما فتح «بيت مونتفيوري للمرضى المزمنين» أبوابه سنة 1884، وبالتأكيد عندما أنشئ مستشفى بنسلفانيا في خمسينيات القرن الثامن عشر. كانت النزعة إلى ممارسة النشاط الديني والأخوي ومقايضة الرعاية بالإذعان من الأهمية لمستشفى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بقدر غرابة سوق الأوراق المالية عنها. وكانت الطبقة والتبعية مثلهما مثل التشخيص يحددان موضع الفرد في «نظام» للرعاية الصحية يقع إلى حد كبير في البيت، وكانت الرعاية المؤسساتية فيه مقصورة في المقام الأول على فقراء المدن (7). والواقع أن مصطلح «نظام الرعاية الصحية» المستخدم في أواخر القرن العشرين، بما يفترضه من وجود عالم للطب متعدد الطبقات وبيروقواطي وتفاعلي، وضمنيا عام، لا يتفق وحقبة بلا متخصصين ومعامل، وهي الحقبة التي كان فيها القدر الأعظم من الرعاية الصحية يقدم في بيت المريض، سواء بأيدي أفراد الأسرة أو الأطباء المحترفين. وكان يتفرض أن الفقراء الأفاضل يستحقون رعاية المستشفى التطوعية دون أن يجلبوا الوصمة التي كانت تنالهم عند دخولهم دار المساكين. وكان يفترض أن الأطباء ملزمون بتقديم رعاية مجانية أو بسعر مخفض لمن يعجزون عن دفع أتعابهم. وسواء أكان أمريكيو القرن التاسع عشر من سكان الريف أو الحضر، فقد كان من المفترض أن لهم حقا في مثل هذه الرعاية، دون أن يكون لهم بالطبع الحق في الرعاية المتكافئة ـ التي لا تحسب حسابا للطبقات.

وكان للقطاع العام دور في توفير الرعاية الصحية، ولكن فيما يتعلق بالتبعية وحسب، وليس بهؤلاء الذين ينظر إليهم على أنهم قادرون على رعاية أنفسهم. وكان المعنى الذي تشكل اجتماعيا للخدمة، وللإلزام الأخلاقي الفئوي، وراء جهود أول من أسسوا المستشفيات لدينا، وهو الذي أعطى لتلك الجهود شكلها. فهم لم يكونوا يتوقعون أن يحكم عليهم في المقام الأول بنجاح قرارات السوق أو فشلها (وإن كان المنتظر منهم أن يعملوا بطريقة مسؤولة داخل السوق). وكان من المفترض أن مهنة الطب، على الأقل من الناحية النظرية، يحركها قانون الإحسان الذي يقوم على النبل والإيثار؛ وعلى سبيل المثال، كان تسجيل براءة الاكتشاف - مثل الإعلان عن خدمات الشخص الإكلينيكية - ينظر إليه على أنه دجل مقيت، وليس على أنه سلوك معقول خاص بالسوق. وكانوا يفهمون التنافس الاقتصادي ليس على أنه ضامن للرعاية الصحية الفعالة اقتصاديا، وإنما دافع دائم للتضليل والممارسة الزائفة.

وفي سنة 1800 كانت الأفكار والممارسة الطبية توزع على نطاق واسع في أنحاء المجتمع - بأنماط مختلفة اختلافا شاسعا عن تلك التي بتنا متعودين عليها في أواخر القرن العشرين. فعلى سبيل المثال طغت القيم الأخلاقية التقليدية على كل من أفكار العامة والأفكار المهنية الخاصة بمسببات المرض وعلاجه، غير أنها لم تحظ بالشرعية فيما يتصل بالأفكار الحديثة الخاصة بالمرض المحدد ذي الآلية المميزة. ولم يكن لفئات الأمراض دور بارز في فهم العامة للشذوذ السلوكي، ولا في فهم الأطباء للاختيارات العلاجية والتشخيصية الصحية. وكان السلوك الجنسي الشاذ، على سبيل المثال، فعلا إراديا لا أخلاقيا، وليس مرضا أو نمط شخصية أو مجرد نمط من بين العديد من أنماط أساليب الحياة؛ وكان تلاميذ مدارس اللغات الكلاسيكية أشرارا ولا يتبعون النظام، وليسوا ضحايا لاضطراب فرط النشاط الناجم عن نقص الانتباه. وكان الموت ينطوي على التكهن والألم والمواجهة مع وضع المريض الروحي والفسيولوجي العام. وليس على إدارة الآلات وهيمنة البروتوكولات البيروقراطية ومشروعات التأمين. وكان قتل الرحمة يقصد به المعنى الحرفي للكلمة - الموت اليسير - وكان يقتضي استخدام المهدئات، والتفكير الأخلاقي، والأسرة، وليس أجهزة التنفس الصناعي والتوجهات المتقدمة(8). ولم تكن الأبحاث قد تمكنت بعد من أن يكون لها تفوق ينافس تفوق الدين التقليدي والإلزام المجتمعي.

والواقع أن هناك تواصلا وكذلك تناقضا بين أواخر القرن الثامن عشر وأواخر القرن العشرين. فعلى سبيل المثال، طرح المرض المزمن أسئلة تتعلق بالسلوك والإرادة والنظام الغذائي - تماما مثلما يحدث هذه الأيام عندما يحشد القلق بشأن عوامل احتمال الإصابة بالمرض مشاعر الذنب والمحاسبة (9). وكان الرجال والنساء يشعرون بالألم، ويخافون الموت، ويحزنون على فقدان الأعزاء - وهو مايزالون يفعلونه.

سوف تصبح محاجتي واضحة بما يكفي الآن. فقد كنت أحاول أن أوضح بشكل ملموس الطريقة التي تكون بها الأخلاق والنزعة الأخلاقية، والواجب والمسؤولية، وهي عناصر لا يمكن التغاضي عنها في الرعاية الطبية، وهي في الوقت ذاته عرضية وتاريخية. وكانت الأفكار والممارسات الطبية تعكس على الدوام أفكارا سائدة عن القيم والمسؤولية وتدمجها وتقرها. وهذه الالتزامات الأخلاقية تقتضي الأولويات وتحدد الاختيار؛ وبذلك يكون المدلول والأخلاق كامنين بالضرورة وبطريقة حتمية في كل جانب من جوانب الممارسة الطبية: الخاص منها والعام، والفردي والجماعي.

الواقع الجديد

إذا كان هناك مايجب قوله لتوصيف لحظتنا الراهنة في العلاقات بين تواريخ الطب والثقافة والسياسة العامة المتصلة، فإنها كما سبق وأكدت إحساس جديد بالتغير والصراع، ووعي غير مريح بالمصاعب الكامنة في توازن المقدس والتقني، والفردي والجمعي، وفي تحديد حقوق الأطباء والمرضى الفرادى، والمصلحة العامة. والواقع أن الأخلاق الحيوية نفسها ظهرت نتيجة لمثل هذا الصراع الجلي كحركة وعي ذاتي في الستينيات وأوائل السبعينيات. وكان إنشاؤها نفسه إلى حد ما تبيانا للظلم البيِّن وللفجوة الفاصلة بين تراث الطب الذي يفترض أنه مقدس وتراث الإنسان. ولواقع غالبا ما يكون غير متساوق بصورة غاية في السوء - إلى جانب كونه اعترافا. فقد كان اعترافا بأن هناك شيئا ما يجب عمله (10).

بمعنى آخر، يمكن التفكير في الفجوة الفاصلة بين التراث الإنساني الخاص بالطب والواقع السكاني العنيد والمرض المزمن، إلا أنه عادة ما يتشكل تبعا للإجراءات والمتخصصين (11). وقد أنتج الأمريكيون مخزونا من الطلب الإكلينيكي الذي لا يشبع ولا يلبي حاجته عالم من العروض تسيطر عليه التكنولوجيا، والموردون والمنتجون الذين لا يأبهون بالمشاعر الشخصية - ويتميزون كذلك بارتفاع أسعارهم.

ويجسد عدم التوازن هذا صراعا منظما حذرت منه أقلية من العلماء الاجتماعيين والأطباء بعيدي النظر منذ الحقبة التقدمية في بداية القرن الحالي، عندما أدان هؤلاء النقاد التجاهل الطبي للمشاعر الشخصية والاعتماد على ما رأوا أنها تكنولوجيا تتميز بقدر كبير من الانتشار. والواقع أن مشاعر القلق تلك قد ينظر إليها على أنها بشائر لحركة الأخلاق الحيوية في أواخر القرن العشرين - فهي تأكيد لما هو فردي وللخصوصية في مقابل ما يفرضه علم الأمراض الإكلينيكي من إلغاء للهوية الفردية وتشظ للرعاية، بالإضافة إلى النزعة التخصصية والفهم الاختزالي للصحة والمرض. وقد عشنا قرنا من الأزمات المتكررة في الطريقة التي نرى بها الطب وما نتوقعه منه. ويبدو أننا خلقنا نظاما محكوما فيه على التوقعات المادية بالإحباط، ونظل نسعى فيه بصورة متزايدة ومتناقضة للوصول إلى غايات شخصية (أي غير ملموسة وتجريبية وكلية)، عن طريق الوسائل التقنية - الاختزالية - التي توجهها الآلية.

وهناك قدر حديث آخر من الأدلة الإعلامية يوضح هذه النقطة بصورة أكثر قوة. فقد نشرت مجلة «نيوزويك» أخيرا مقالا عن السببية الوراثية، ليس فقط تلك الخاصة بالأمراض العقلية التي تم تعريفها تعريفا إكلينيكيا جيدا، بل كذلك نوعية محيرة من الغرائب البشرية. وجميعها تفسر على أنها تجليات أقل حدة (علل خفية يحدثها وجود واحد أو أكثر من الجينات «الشاذة») لمرض متعدد الجينات (12). ويشرح مخبر «نيوزويك» الأمر قائلا: «كان يعتقد أن السلوك الغريب وعدم استواء الشخصية على أنها غريبة أو ربما مثيرة للانتباه وحسب، وأنها أمراض عقلية بصورة أو بأخرى تعكس شذوذا في المخ، بل وفي الجينات».

ومع أن هذه القصة الخبرية قد تبدو للوهلة الأولى غير ذات صلة بالتغيرات السابق ذكرها في تلك المؤسسات ذات الأهمية التاريخية، مثل مونتفيوري ومستشفى بنسلفانيا، أو بفهم المكانة الاجتماعية للأخلاق الحيوية، فهي توضح جانبا أساسيا من جوانب طب القرن العشرين يتصل في واقع الأمر بالموضوع اتصالا منطقيا: هو بحثه المميز عن أشكال من الفهم تقوم على آلية لمجموعة كبيرة جدا من أشكال السلوك البشري. وهذا الإصرار على إخضاع كل من السلوك العادي والسلوك الشاذ للطب يلقي ضوءا مساويا وإضافيا على الواقع

الهيكلي الأساسي في نظام الرعاية الصحية لدينا: فالميل إلى مطالبة الطب بالقيام بالمزيد والمزيد من العمل الثقافي، في الوقت الذي يطالب فيه بإعطاء الشرعية لهذا العمل الثقافي من ناحية الآلية البيولوجية. وهذه إلى حد ما أزمة - كما هو مبين في قصة «نيوزويك» عن الحتمية الوراثية لكل شيء من الناحية العملية - تتعلق بكيفية إجازتنا للمعايير، وإدارتنا للشذوذ، وتفكيرنا في أنفسنا. ويمكن اختزال السلوك والفعل والثقافة نفسها بمهارة إلى آليات عصبية كيميائية، حتى وإن ظلت هذه الحتمية تثير ضيق من لديهم شغف للحفاظ على مكان العمل الإنساني والمسؤولية الفردية.

وهذه البينة الخاصة بالأفكار المتصلة ببعضها والعلاقات المؤسساتية التي تمثل عددا من المشاكل لكل من المؤرخ والمتخصص في الأخلاق الحيوية. ولعل الأمر الأكثر أهمية هو الطريقة التي تصبح بها الأفكار والقيم والآمال راسخة في المؤسسات، وفي الممارسات، وفي العلاقات والمصالح الاقتصادية. الأمر الثاني هو الطريقة التي أصبحت بها مفاهيم الطب وممارساته مهمة إلى حد كبير لحياة الرجل والمرأة اليومية، حيث تنتشر على صفحات المال والتجارة وصفحات الافتتاحية، وكذلك على صفحات الأخبار؛ إذ يبدو أننا في سبيلنا ليس لإخضاع الشذوذ وحده للطب، بل نكاد نخضع له كل جانب من جوانب الحياة اليومية. والأمر الثالث هو الطريقة التي يكون بها الطب في وقت واحد داخل السوق وخارجها، وهي مفارقة تطرح أكثر أسئلة وقتنا الراهن التنظيمية إثارة للضيق: هل يمكن للسوق (كما يتم تحقيقها من خلال التأييد العام والعملية السياسية) أن تثبت كفاءتها كوسيلة لتوزيع الحقوق والمنتجات الإكلينيكية، في الوقت الذي يكون فيه تحديد الطلب بما هو أكثر من اللغة المادية؟ هل بإمكان السوق إنتاج حلول (جماعية) منطقية وعقلانية يجب أن تعاش على أسس (فردية) أخلاقية وعاطفية؟

ما حاولت تأكيده هو أن المصلحة النهائية هي أننا لا يمكن أن نزيل افتراضات القيمة أو نعزلها عما هو مؤسساتي وتقني ومفاهيمي في الطب؛ فالرجل والمرأة يعبران حتما عن إحساسهما بالحاجة والأولوية في المجال العام. والطب أمر يجري التفاوض بشأنه، وهو حتما مسألة سياسية، وما هو سياسي هو ثقافي كذلك، كما بتنا نفهم بصورة أكثر عمومية. ويبين الجدل المستعر الذي يدور حاليا حول الرعاية الموجهة، بصورة شديدة الوضوح، طبيعة مثل هذه الصلات الوطيدة بين القيم والمصالح. والمسائل التي يمكن طرحها على أنها أمور خاصة بالعدل والاستقلال، هي في الوقت ذاته مسائل تتعلق بالسيطرة والعائد الاقتصادي. وتشكل مفاهيم الصواب والخطأ ومفاهيم معايير الممارسة الصحيحة واقعا سياسيا قائما بالفعل - فهي متغيرات في التفاوض بشأن البدائل بين السياسات المتنافسة وكذلك في تفاعلات إكلينيكية بعينها. وعلى سبيل المثال، فإن الافتراض الشائع بأنه يصح أن يكون للحكومة دور في تقديم الرعاية الصحية وتقنينها واقع تاريخي وأخلاقي، وبالتالي سياسي، محدد. ولذلك فإن هناك افتراضا على القدر نفسه من الانتشار مؤداه أنه ليس من الأخلاق إلى حد ما أن تقيد الحسابات الاقتصادية وحدها اتخاذ الطبيب للقرار الإكلينيكي. وحقيقة الأمر أن استعدادنا لرعاية الأخلاق الحيوية ويشكل بالمثل اعترافا عاما بهوية الطب الأخلاقية الخاصة.

غير أن هذا الإجماع الأخلاقي الغامض لا يعطي تفويضا بوضع أجندة اجتماعية محددة وغير ملتبسة للأخلاق الحيوية. فقد تم تكليف المشروع الجديد بمهمة عسيرة تصعب على الفهم. ونحن نعيش في عالم متشظ ولكنه متصل ببعضه. عالم يتميز بالتنوع الأيديولوجي والاجتماعي، وبعدم التساوق والظلم،

وبالتغير والجمود. ولا يسعنا مناقشة العلاقات بين الرجل والمرأة، اللذين يختلفان في النفوذ والمعرفة، دون أن نعترف بأشكال الظلم تلك: فالطبقة والجغرافيا والنوع والجنس والتعليم تحدد جميعها مريض كل فئة؛ بينما تحدد الحوافز الاقتصادية وكذلك بنى الطب المؤسساتية والفكرية (كالخصوصية والانتساب التنظيمي) طبيب كل فئة. والوعي المتنامي بمثل هذه التعقيدات جعل الأخلاق الحيوية مشروعا قابلا للتغيير وواعيا بذاته إلى حد كبير. ولعله كذلك مشروعا أقل ثقة بنفسه: فلم يعد إبراز الأساس الأخلاقي المؤسساتي لأعمال اجتماعية بعينها وتطبيقه يبدو هدفا يسهل تحقيقه.

وتشكل الأفكار غير المتساوقة وكذلك التنوع الاجتماعي الاختيارات المتاحة لكل من الطبيب والمريض. وما خلقه مجتمعنا وأعطاه الصفة الشخصية ليس اتفاقا موحدا ومتماسكا، بل هو عالم من الخطاب والممارسة الطبيين يتميز بادعاءات خاصة بثلاثة تجاوزات متنافسة وغير متساوقة على الدوام. أحد هذه التجاوزات هو تراث البحث الأكاديمي بما يميزه من إجلال للبحث المجرد عن المعرفة وإيمان واسع الانتشار بتطبيقه الحتمي. وهو ضرب من النزعة الألفية العلمانية التي لا تعود قوتها فقط لكونها مصدر التفاؤل الثقافي الذي لا يتغير، بل لأنه يتم تحويلها إلى توقعات وآمال خاصة بالأفراد: أي إلى اختيارات مهنية لأطباء وعلماء بعينهم، وإلى تشكيل للسياسة العامة، وإلى الوضع الذي تتمتع به الأقساط الأكاديمية والمستشفيات التعليمية وبرامجها (13) . والتجاوز الثاني والأحدث هو إجلال النظام باعتباره هدفا ونموذجا مثاليا، وافتراض أن المصلحة العامة المثلى يمكن تحقيقها فقط من خلال التنظيم الأمثل للسوق والعلاقات المؤسساتية. والتجاوز الأخير هو بطبيعة الحال الخصوصية الأخلاقية التقليدية للطب، واحترام مسؤولية الطبيب وحقوق المرضى الأفراد - وهو التراث الذي يمتد من العصور القديمة إلى الجدل الذي يدور حاليا بشأن الرعاية الطبية. وكل من هذه الادعاءات الثلاثة للتجاوزات المطالبة بالحق في السلطة الاجتماعية؛ ولم يتوقف ترتيبها وإعادة ترتيبها كوسائل تقنية للطب وأشكال مؤسساتية تطور وتخلق أبحاثا واختيارات إكلينيكية جديدة. والواقع أن الأخلاق الحيوية أصبحت بالفعل عاملا أساسيا في التفاعلات المعقدة التي تميز العلاقات بين مجالات القيمة والقوة الضمنية هذه. وقد سعيت في الصفحات السابقة إلى توضيح عدد من الطرق التي يتم بها تاريخيا وضع القيم الأخلاقية التي تسود الطب والتفاوض بشأنها على المستوى المؤسساتي، مثل أي جانب آخر من جوانب الثقافة، وليس مجرد اشتقاقها من أنماط التحليل الرسمية التي ميزت اللاهوت والفلسفة الأخلاقية على مر التاريخ (وإن كانت صور المبدأ الأساسي هذه هي في حد ذاتها عنصرا من عناصر المفاوضات الاجتماعية التي تشكل الرعاية الصحية وتجعلها منطقية). وصياغات الفلاسفة المعتمدين ورجال وعلماء اللاهوت هي في الوقت ذاته تأكيد للسلطة الثقافية وأحد عوامل التدخل العام في الصراع الاجتماعي.

الأخلاق الحيوية باعتبارها موضوعا تاريخيا

إن وجود مشروع ذي وضوح اجتماعي يسمى الأخلاق الحيوية يعد اعترافا بالصراعات المنظمة المتكررة التي حاولت توضيحها بالحكايات. ولذلك بدأت هذه المناقشة بأمثلة بعينها من التغير المؤسساتي، لأنني أردت التأكيد على الطرق التي يبرز بها تاريخ الأخلاق الحيوية الاستقلال السياقي للطب، وخاصة الطرق التي يجسد بها الطب مجموعة من العناصر الخاصة بالمواقف والقيم، وكذلك القدرة التقنية والممارسة المؤسساتية.

غير أن هذه ما هي إلا طريقة واحدة من الطرق

التي تتصل بها الأخلاق الحيوية والتاريخ. أولى هذه الطرق، من المنظور العلمي للمؤرخ، هي أن الأخلاق الحيوية موضوع معقد إلى حد كبير بالنسبة للبحث الإمبريقي. وثانيتها، وأكثرها أهمية، أنني قد أقر بأنه على رغم سلوك التاريخ الأكاديمي والأخلاق الحيوية لسبيلين مختلفين بصورة عامة، فإنهما يشتركان في تماثل كبير في الإدراك والحساسية تجاه السياق والعلاقات بين الإدراك الفردي، في النهاية أن يكونوا على قدر مشابه من الوعي بأهمية المفارقة والوضع الطارئ، وبالفجوة الكائنة بين النظرية والممارسة، وبين العزم الواعي والمحصلة التي لا يمكن التنبؤ بها.

ويبين تاريخ الأخلاق الحيوية الأمريكية، الذي لايزال قصيرا، هذا الواقع ولا شيء غيره. والأخلاق الحيوية باعتبارها حركة اجتماعية ظهرت في منتصف القرن العشرين كمشروع نقدي، كانت رد فعل لما شعر به الناس من نقص للشفقة والعاطفة في نظامنا الخاص بالرعاية الصحية والبحث الطبي الحيوي. وباعتبار الأخلاق الحيوية رد فعل لإساءات بعينها، فقد ظلت ذات توجه يتصل بالممارسة؛ فالمجتمع يتوقع من الأخلاق الحيوية أن تحل المشاكل الواضحة وضوحا كبيرا، أو على الأقل تخففها.

وبما أن الأخلاق الحيوية نشأت نتيجة لإحساس بالاعتداء الأخلاقي، فقد كان لها أثرها الذي لا ينكره أحد في الواقع الإكلينيكي اليومي. إلا أن هذا المشروع الجديد، من وجهة نظر المؤرخ، كان له دور معقد ويشوبه شيء من الغموض. فالأخلاق الحيوية لم تشكك في السلطة وحسب؛ بل إنها ساعدت في ربع القرن الماضي على إقامتها وإعطائها الشرعية. وكشرط لقبولها، اتخذت الأخلاق الحيوية بطن الحوت الطبي مقرا لها؛ ومع أن مشروع الأخلاق الحيوية يرى نفسه على أنه مستقل، فقد أقام علاقة تكافلية معقدة مع هذا الكائن المضيف. ولم تعد الأخلاق الحيوية (هذا إن كان ذلك هو حالها فيما سبق) حركة إصلاحية معارضة ناقدة من الناحية الاجتماعية لا يقيدها شيء: فهي مجسدة في الكراسي والمراكز، وفي أدبيات تقنية وفيرة وفي مجالس المراجعة واستمارات القبول المؤسساتي، وفي التفويضات الرئاسية وبروتوكولات البحث. وهو ما يعني أنه يمكن رؤيتها على أنها عنصر مصالحة في نظام معقد وعلى قدر كبير من البيروقراطية يجب عليه على رغم ذلك إدارة التغير التقني المستمر. وليست مصادفة أن المشروع الأخلاقي الحيوي ربط بشكل روتيني بين البيروقراطية - أي اللجان واللوائح المؤسساتية واللغة المحسوبة بدقة - وبين المطالبة بمنزلة أخلاقية رفعية.

إلا أن هذا الدور الوظيفي يوحي بأن ثمة صراعا منظما. وعن طريق استدعاء الهوية الثقافية الإنسانية والبارة، بل المقدسة للطب وتصويرها، فإن الأخلاق الحيوية تقوم، على عكس ما هو متوقع، بالحد من قسوة نظام كثيرا ما يكون في صراع مع تلك الهوية التي تصور على أنها مثالية، وبالتالي إدارته وتأييده. وبهذا المعنى يخدم نقد نظام الراية الصحية القائم على المبادئ غرض الحفاظ على النظام. ومفارقات الوعي والقوة هذه هي ما يفسر السبب في ضرورة أن تفكر الأخلاق الحيوية في نفسها من الناحيتن التاريخية والسياسية. وهذه العملية بدأت بالفعل بصورة أو بأخرى (14). فقد أعزت الأخلاق الحيوية بالفعل أبطالها وأوغادها - هنري بيتشر وجوزيف مينجل - وأحيت ذكرى أماكنها المقدسة - ويلورك وتوسكيجي ونورمبرج. والواقع أن بإمكان المرء القول بأن إعادة التقييم التاريخي الذي بدأه الجيل المؤسس للأخلاق الحيوية هو في حد ذاته جانب من جوانب ما قد نسميه التعزيز المؤسساتي (15).

وتخدم التواريخ المشاركة غايات احتفالية وتبعث

على الحيرة وكذلك غايات تحليلية تنطوي على النقد الذاتي. ويمكن استخدام التاريخ لبيان كل من الوعي الزائف والاحتفاء بالضمير. ويصعب على الممارسة الملتزمة ألا تؤكد قيم مجالها ومنجزاتها الإيجابية، وألا ترى نفسها على جانب الملائكة، حيث تحارب حربا عادلة ضد الروتين والإساءة غير الواعية للذات لكل من الرجل والمرأة في السياقات الإكلينيكية والبحثية اليومية. ومن الصعب كذلك رؤية جهاز اللجان واللوائح الذي يحمي حقوق المريض من التكنولوجيا التي لا تعرف العواطف. وعلى سبيل المثال، دعوني أقتبس كلمات أحد المختصين في الأخلاق الحيوية وهو يرد على نسخة قديمة من ملاحظاتي الحالية، وخاصة تلك الفقرة التي أصف فيها الأخلاق الحيوية بأنها بصورة أو بأخرى تكنولوجيا تعكس بالضرورة التكنولوجيا التي سعت إلى تحسينها. وكان تفسير القارئ الغاضب هو أن «الأخلاق الحيوية في أواخر القرن العشرين في الطب الأمريكي دافعت على الدوام عن حقوق المريض الفرد ضد نزوات النظام الطبي. وتمثل مبادئها الأساسية الخاصة بالاستقلال والخيرية والعدل نقيض التكنولوجيا» (16).

وقد لا يكون معظم المعاصرين على هذا القدر من عدم النقد في تقييمهم لأنفسهم، ومع ذلك فمازال هناك من لم يعدوا الإعداد الجيد للتعامل مع ما عرفتها بأنها المفارقة الأساسية للنجاح الأخلاقي الحيوي: فقد لاقت قبول عالم البحث والممارسة الإكلينيكية، إلى درجة أنها أصبحت جزءا من تلك المشروعات المتصلة ببعضها. وبذلك فإن كل نقد لها وكل إصلاح إجرائي ينتج عنها لا يساعد في شيء وإنما يشكل جانبا من جوانب الوجه الأخلاقي العام للطب الحيوي.

بل إن الأخلاق الحيوية، باعتبارها موضوعا إمبريقيا محددا، تمثل جانبا مراوغا - فهو في مراوغة تقييم أثره الاجتماعي النهائي. ويعود السبب في ذلك من ناحية إلى أن المشروع الحيوي الأخلاقي تجميع لثلاثة أنشطة غير متساوقة على الدوام. أحد هذه الأنشطة هو تنمية المبدأ الرسمي، وهي مهمة الأفراد المدربين على تحديد المسائل الأخلاقية المعيارية ومعالجتها. وأنا أشير بالطبع إلى هؤلاء الفلاسفة وعلماء اللاهوت الذين سعوا إلى خلق اتفاق يقوم على المبادئ حول هذه القضايا المحددة للسياسات مثل الاستقلال والخيرية والعدل. والنشاط الثاني هو دور الأخلاق الحيوية في تسوية المشاكل الإكلينيكية اليومية في سياقات اجتماعة بعينها. وفي ذهني السياقات التي لا حصر لها وتجعل فيها مجالس المراجعة المؤسساتية واللجان الحكومية ولغة الاتفاق العليم وطقوس الممارسين والباحثين على وعي بحقوق المرضى والأشخاص الذين تجرى عليهم الأبحاث. والنشاط الثالث هو الطريقة التي يتضمن بها المشروع الأخلاقي الحيوي الخطاب العام، وهو يبدي رد فعله في الصحف والدوريات والتليفزيون - وفي السنوات الأخيرة - والإنترنت تجاه المعضلات الناجمة في كثير من الأحيان، وليس دائما، عن التجديد التكنولوجي. والأخلاق الحيوية بهذا الدور العام تبعث على الاطمئنان، حيث توحي بأن هناك نظاما أخلاقيا ملحوظا يمكن استخدامه بعقلانية لإدارة اختيارات إكلينيكية وبحثية قد تكون مخيفة. وهو منظر غير عادي وطقس من الطقوس، يحقق التطمينات العديدة الخاصة بالهم الأخلاقي، والخبرة المعتمدة، وافتراض أن المبادئ الأخلاقية الأساسية يمكن إدراكها وتطبيقها.

وبذلك تحتل الأخلاق الحيوية ثلاثة فضاءات اجتماعية مميزة (وإن تداخلت في كثير من الأحيان). أحد هذه الفضاءات أكاديمي ورسمي وذو توجه علمي ونصي. وثانيها هو سياق المستشفيات والأبحاث، حيث يكون للأخلاق الحيوية وجود مؤسساتي. أما ثالثها، في رأيي، فهو وسائل الإعلام.

وهذه الفسيفساء من الأدوار والمواقع الخاصة بالعمل الاجتماعي تجعل الأخلاق الحيوية معقدة في بنيتها وصعبة التصوير. وهذا التنوع في المواقع والأفراد والوظيفة يفسر كذلك تجنبي لاستعمال المصطلح «علم» في وصف ما اخترت تسميته بدلا من ذلك بالمشروع الأخلاقي الحيوي: وهو خليط من الخبراء والممارسات والخطاب ذي الطابع الطقسي والنقدي في كل من الفضاء الأكاديمي والفضاء العام.

الأخلاق الحيوية والمعقولية التاريخية

حددت عددا من الطرق التي قد تشترك من خلالها الأخلاق الحيوية والتاريخ في وجهة نظر تحليلية. أولى هذه الطرق، بل قد أقول إنها أهمها، هي أن مهمة الفهم الأخلاقي ينبغي أن توازي مهمة المؤرخ الخاصة بإعداد البناء الثقافي: فلابد أن تسعى نوعيتا الممارسين - وإن كان ذلك بالضرورة بصورة لا تبلغ الكمال - إلى فهم بنية الاختيارات الزمانية والمكانية المحددة كما يدركها مشاركون بعينهم. والطريقة الثانية هي أنني قد أزعم أنه لا يمكننا فهم بنية الاختيار الطبي دون فهم التواريخ المحددة للطب والمجتمع التي خلقت تلك الاختيارات. وكانت تلك هي الحاجة التي تمنيت توضيحها في وصفي السابق للتغير في المستشفيات الأمريكية المعاصرة وتأكيدي على أشكال الفهم الاختزالي إلى حد كبير للمرض. والطريقة الثالثة، وربما كانت أكثرها إزعاجا، هي أننا لابد أن نؤرخ الأخلاق ذاتها. ذلك أنه من الواضح أنها مشروع مرتبط بالوقت، تربطه علاقات بعالم خاص من الطب وبمجتمع أكبر تتم فيه رعاية الطب ويشكله الطب إلى حد ما.

والنقطة الأولى التي أود توضيحها، ولا تبدو أكثر من بدهية بالنسبة للمؤرخ الثقافي، سوف تبدو غير متصلة بالموضوع، أو ربما بدت مادية للعلماء الذين يركزون على توضيح المبادئ الأخلاقية المقتطعة من سياقات اجتماعية ومؤسساتية محددة - حتى ولو كان الدافع وراءها الإساءات التي تحدث في تلك المواقع بعينها. بل إن مثل هذه الأساليب الرسمية الخاصة بالخطاب المعياري تضارع التراث التاريخي الخاص بالأخلاق الطبية، بتأكيدها على ثنائية الطبيب والمريض التي لم تجد حلا، وتعمقه: فطبيب واحد، ومريض واحد، وجانب سرير واحد نموذج للقضية التي قتلت بحثا. إلا أن الاختيار من وجهة نظر المؤرخ ذي التوجه النصي مقيد ومرتب دائما، وهو واقع يجب فهمه في مواقف بعينها، وليس بطريقة مخططة من ناحية الغايات المتصلة ببعضها اتصالا منطقيا وأخلاقيا. وبهذا المعنى التاريخي والسوسيولوجي يكون الاستقلال منتجا وليس هدفا؛ فهو نتيجة محددة المكان والزمان والنظام، للتفاعل بين العالم المصغر الخاص بالمواجهة الإكلينيكية والعالم الكبير (أو العوالم الكبيرة) الخاص بالمجتمع الكبير، والعالم المعرفي والمؤسساتي الخاص بالطب. ولا يجب الاستطراد في هذا في لحظة من الزمان يجد فيها أطباء كثيرون تفاعلاتهم الإكلينيكية وقد حددها من يقدمون الرعاية الموجهة بخمس عشرة دقيقة، إلى جانب تحديد اختياراتهم الشخصية والعلاجية كذلك. ويتم ترتيب الاستقلال والعمل ويعاد تخطيطهما في سياق علاجي. ولا يمكن أن يكون هناك فهم خارج السياق للمعضلات الأخلاقية الحيوية؛ فكما أسلفت، الأخلاق الحيوية سياقية على وجه التحديد، حيث تجد أصولها في البحث عن حلول بعينها للمشاكل الاجتماعية البارزة. والمقاربة التي تخرج عن السياق في الأخلاق الحيوية ليست مجرد مسألة أسلوب علمي؛ إنها فعل سياسي.

وعلى سبيل المثال، فإن مناقشات الموافقة العلمية التي تجرد المشاركين - وهم الإكلينيكيون والباحثون والمرضى والأفراد الذين تجرى عليهم الأبحاث - من أدوارهم الاجتماعية المحددة وهوياتهم الفردية

ليست معينة إلى حد كبير، ولابد أنها تربك هذه العلاقات الاجتماعية، وبذلك تعطى الشرعية لسلطة هؤلاء الأفراد والمؤسسات الفعلية الذين يقومون بـ «الموافقة» (17). وقد يبدو الأمر وكأنني ألقي مواعظ، ولكن دعوني لحظة أبين الطريقة التي يزيل بها الاستعمال العامي لكلمة «يوافق» باعتبارها فعلا يزيل غموض وضع الروتين في إدارة «الاستقلال» و«الإحسان». وهذا الاستخدام دلالة لغوية على القوة والعجز النسبي، وعلى المشارك والغرض من أفعال المشارك. وموافقة المريض معناها تحقيق واقع الظلم الاجتماعي - وإعطائه الشرعية - وكذلك بيان وجود مجتمع «الموافقين» الذي يعي ذاته ويدرك تمام الإدراك الجانب الطقسي والتراتبي لهذه الآلية الأخلاقية التي تشيع في الوقت الراهن.

بل إنني قد أقول إن الأخلاق الحيوية لا يتم تحديدها بسياقها الخاص بالاستخدام وحسب، بل إنها لا يمكن أن تكون واعية بذاتها دون فهم تاريخ الطب في القرن المنصرم: أي الأدوار التي قامت بها الأفكار الجديدة والمحددة الخاصة بالمرض، ونمو النزعة التخصصية والاعتماد، وتحديد موقع المواجهة الإكلينيكية في مؤسسة جرى تحديثها وترتيبها تكنولوجيا، بدلا من البيت أو عيادة الطبيب. ولا يجب الاستطراد في هذه النقطة. فالأخلاق الحيوية مشروع اجتماعي وتاريخي، أو ينبغي أن تكون كذلك. فالقضايا التي تسعى إلى حلها هي نفسها نتاج تاريخ محدَّد وموجِّه. ومن دون التاريخ والإثنوغرافيا والسياسة، لا يمكن للأخلاق الحيوية أن تحدد موضع المعضلات الأخلاقية التي تختار توضيحها. ذلك أن تصبح تكنولوجيا مبالغة في اهتمامها بذاتها تعكس تلك التكنولوجيا المبالغة في الاهتمام بذاتها وتهيمن على كل شيء التي تسعى إلى ترتيبها وفهمها، وتعطيها الشرعية.

غير أنه من السهل الدعوة بطريقة مخططة إلى أن تضع الأخلاق الحيوية نفسها ومهامها في وضع تاريخي، بدلا من إنجاز تلك المهمة، كما أسلفت. فليس هناك من سبيل سهل لفهم وضع الأخلاق الحيوية التاريخي سوى مجموعة من الاختيارات التأويلية التي تعكس وجة نظر من يقوم بالتأويل والمراوغة المتأصلة في الموضوع. ويثير المشروع مجموعة متنوعة من وجهات النظر. إذ يرى بعض النقاد اليساريين أن الأخلاق الحيوية لا تعدو كونها نوعا من الجرافيت المهيمن رش داخل تروس الطب البيروقراطي التي لا تهدأ، بغرض الحد من أصوات الألم الإنساني المزعجة. وتؤكد هذه المحاجة على أن المواقف الأخلاقية، فيما يتصل بالوظيفة الاجتماعية، ما هي إلا طريقة لتهدئة النقد القانوني. بل ركزت الأخلاق الحيوية، طبقا لهذا الوضع، تركيزا شديد الضيق على النموذج الإشكالي النموذجي - أي على سحب الفيشة أو عدم سحبها، وعلى الكائنات المستنسخة أو الاستنساخ المحظور - وتحاشت التفكير في مناقشات السياسة التي يكون إفراغها في قالب درامي أقل سهولة، وفي معضلات جانب السرير العادية. وأخيرا يتفق هؤلاء النقاد على أنه ليس مستغربا أننا خلقنا في مجتمع بيروقراطي كادرا من الخبراء وقدرا من المعرفة، لتوفير مقدار مهدئ من الإنسانية معترف به وذي طابع روتيني.

ومن ناحية أخرى يرى الممارسون والمدافعون المحنكون أن الأخلاق الحيوية عامل تغير إنساني وآلية مهمة لإحداث التغير التكنولوجي والمؤسساتي، وهي ضرب من البرامج التي تسهل تعديل النوعيات الجديدة من الأجهزة. وتقول المحاجة إنها قيد حقيقي، ومشارك أساسي في عملية إعادة التفاوض المعقدة الخاصة بالممارسة الطبية اليومية؛ فقد أثرت الأخلاق الحيوية بالمثل في سلوك البحث الإكلينيكي الذي يجرى على بشر وحيوانات. ولسنا بحاجة سوى إلى الإشارة إلى

وضع إرشادات بحثية من أجل البشر والحيوانات التي تجرى عليهم الأبحاث، وإلى وجود مجالس المراجعة المؤسساتية، وإلى المحاولات الصادقة لجعل الموافقة العلمية واقعا. وحتى إذا كان هناك احتمال أن يكون الاستقلال الفردي الحر نموذجا مثاليا غير قابل للتحقيق، فإن الافتراض على رغم ذلك أن هناك شيئا ما يساهم في وضع إطار عملي للتفكير بشأن القيمة العليا يشكل في حد ذاته وسيلة من وسائل المفاوضات المعقدة التي تحدد الاختيار الفردي والمؤسساتي وتقيده. كان للأخلاق الحيوية كذلك دور بناء في الخطاب العام الذي يدور حول الطب والتجديد الحيوي الطبي، وهو خطاب إعلامي تركز بالضرورة على مشاكل بعينها باعتبارها مشهدا غير عادي، إلا أنه في مثل هذه الأعمال التي تغير المفاهيم يغير بنيتنا الخاصة بالاختيار السياسي[18] وربما كان الأمر الأكثر أهمية هو أن الأخلاق الحيوية تعبر عن الافتراض الاجتماعي - وبالتالي السياسي - الذي يشعر به الناس على نطاق واسع بأن الطب يزيد عن كونه مجموعة من الإجراءات التقنية والمعاملات السوقية، ويجب أن يكون كذلك. وهو يعد بتقديم حلول للمعضلات البشرية التي تتعدى اختيارات السوق المجردة التي تزيد الأرباح، أو الأحلام المراوغة، إن لم تكن المغرية، إلى أقصى حد، الخاصة بالنزعة اليوتوبية التكنولوجية.

التاريخ والوضع الطارئ والأخلاق الحيوية

كما أن مبادئ القيمة الثلاثة في العقارات هي الموقع والموقع والموقع، فهي في التاريخ السياق والسياق والسياق. والمفارقة والوضع الطارئ أمران ضمنيان في أي أسلوب تحليل سياقي؛ فالتاريخ زاخر بالنتائج غير المقصودة، شأنه شأن الحياة ذاتها. إلا أن المؤرخين أوفر حظا من المتخصصين في الأخلاق الحيوية في ناحية من النواحي: إذ لا ينتظر أحد منهم أن يحلوا المشاكل الاجتماعية الطارئة. ومن ناحية أخرى، نشأ المشروع الأخلاقي الحيوي، كما رأينا، كرد فعل للمشاكل الملحوظة. ومازال يقدم لها ليس التحليل فحسب، وإنما الحلول كذلك.

ومع ذلك فإن أشد تلك المشاكل وطأة بطبعها غير قابلة للحل. ونحن ندرك إدراكا تاما أنه ليس هناك حل نهائي للألم والموت، ولا سبيل لتفسير العشوائية الوحشية التي يتم بها توزيع المعاناة. فهذه هي جوانب الظرف الإنساني. وربما كانت بعض القضايا الأخرى أقل وضوحا. فعلى سبيل المثال، ليس هناك كذلك حل سهل للطريقة التي تعيد بها تفاوتات الهوية الاجتماعية نفسها في الرعاية الطبية. وتنشأ مفارقة أخرى عن رغبتنا الطبيعية، وإن كانت متناقضة، في الحصول على الفاعلية التكنولوجية ذات الوجه الإنساني. ولكن الرعاية والعلاج لا يرتبطان ببعضهما بسهولة في سياق واحد؛ ذلك أن الظروف التاريخية التي تنتج المنجزات المعملية التي لا تنكر تنتج كذلك البيروقراطية التي تخيف وتشظي وتنأى بنفسها. وينشأ صراع مشابه عن الفرق بين المصلحة كما يحددها الفرد والمصلحة حسبما تعرفها الجماعة؛ فأي اختبار أو إجراء يمكن أن يفيد فردا واحدا قد يكون غير منطقي من وجهة نظر النظام الاجتماعي. بل إن نظام الرعاية الصحية لدينا أبدى باستمرار القدرة على دمج ما هو متعارض نقديا وأخلاقيا وجعله جانبا من جوانب النظام نفسه. وربما كانت هذه هي المفارقة الأخيرة الخاصة بتاريخ الأخلاق الحيوية: إنها الطبيعة المثابرة، وربما الخادعة، الخاصة برغبتنا في إضفاء الطابع الروتيني على ما هو إنساني، وصياغة القيم غير المرتبطة بزمان بعينه وحمايتها في عالم من التغير المستمر والظلم الاجتماعي والآمال العملية اليوتوبية.

الهوامش

1 _ Ester B.Fein, «Religion to get Clinics giving Specialty Care,» New york Times, 9 Februay 1998, B1.

2 - Andrea Gerlin, "A Venarable Phil. Hospital Charts a New Course." Philadelphia Inquirer, 1 February Karl Stark, للاطلاع على خلفية عن بيع معهد مستشفى بنسلفانيا، انظر؛ "Talk isnt cheap, forcing Change in psychilry" philadelphia Inquirer, 14 September 1997, E1 .1998,DI

3 - أسس هانيمان أول معهد في الولايات المتحدة للتدريب على العلاج بالمثل سنة 1848، وتشتهر كلية الطب في بنسلفانيا لدى المؤرخين بتسميتها الأصلية: كلية البنات الطبية، وهي مؤسسة رائدة تأسست سنة 1850. وأعلنت الكليتان اعتزامهما الاندماج تحت رعاية مؤسسة أليجني للصحة والتعليم والبحث ومقرها بتسبرج؛ وقد فتحا أول فصل بعد ذلك بعامين. انظر Naomi Rogers, An Alternative Path: The Making and Remaking of Hahnemann Medical College and HosPital of Philadelphia (New Brunswick and London: Rutgers University Press, 1998); Guliman F. Alsop, Haistory of the Woman's Medical College. Philadelphia, Pennsylvania, 1850, 1950 (philadelphis: J. B Lippincot, 1950)

4 - Robert Pear, "medical Reaearch to Get More Money from Government; An Investment Health," NewYourk Times, 3 Janiary 1998, Al.

5 - Pam Belluck, "Heartache Frequently Visits parents with multiple Births, New Yourk Times, 3 january 1998.

6- Time, 11 January 1999

7 - وهو ما لا يعني القول إن هذه المتغيرات ليست مهمة. انظر، على سبيل المثال، Charles E. Rosenberg The Care of Strangers: The Rise of America's Hospital System (New York: Bsic Books. 1987); Morris J. Vogel, The Invention of the Modern Hospital: Boston, 1875 - 1930 (Chicago and London: The Universith of Chicago Press, 1980); Dorothy Levenson, Monefiore. The Hospitals Social Instrument, 1884 - 1984 (New York: Farrar, Sraus & Giroux, 1984).

8 - انظر، على سبيل المثال William Munk, Euthanasia: Or, Medical Treatment in Aid of an Easy Death (London: Longmans, Gree, and Co.1887).

9 - انظر: Allan M. Brandt and Paul Rozin, eds., Morality and Health (New York and London: Routledge, 1997).

10 - مع أن العرف جرى على النظر إلى حركة الأخلاق الحيوية على أن أصولها في أواخر القرن العشرين في نورمبرج، فقد جرى العرف كذلك على النظر إليها على أنه تبلورت كحركة واعية بذاتها في الستينيات، كرد فعل تجاه تلك التيارات الاجتماعية التي أنتجت قدرا أكبر من الحساسية تجاه الحقوق الفردية ـ حقوق المرأة والسجناء والأقليات الجنسية والعرقية ـ وباعتبارها نزعة للشك مناوئة للسلطة تجاه الخبرة المعتمدة. للتعرف على الجيل الأول من تاريخ الأخلاق الحيوية، انظر Albert R. Jonsen, The Birth of Bioethics (New York and Oxford: Oxford university Press, 1998); David J.Rothman, Strangers at the Bedside: A History of How Law and Bioethics Transformed Medical Descision Making (New York: Basic Books, 1991); George J. Annas and Michael A Gordin, eds., The Nazi Doctors and the Nuremberg Code: Human Rights in Human Experimentation (New York and Oxford: Oxford University Press, 1992).

11 - لا أقصد الإيحاء بأن الممارسة الطبية كانت في واقع الأمر إنسانية وتوفر الرعاية ومجرد على مر الزمان بشكل ثابت، ولكن الالتزام بهذا النموذج المثالي كان دائما جزءا من الهوية الجمعية الرسمية للمهنة.

12 - Sharon Begley, "Is Evrybody Crazy?" Newsweek, 26 January 1998, 51 - 55.

13 - للاطلاع على محاجة تؤكد الجذور التي تعود للقرن التاسع عشر لأنماط القيمة والعمل المرتبة ترتيبا علميا هذه، انظر Charles E. Rosenberg No Other Gods: On Science and American Social Thought, 2nd ed., rev (Baltimore and London: The Johns Hopkins University Press, 1997).

14 - انظر Jonsen, The Birth of Bioethics; Rothman, Strangers at the Bedside; George Eeisz, ed., Social Science Perspectives on Medical Ethics (Philadelphia: University of pennsylvania Press, 1990); Albert R. Jonsen, ed "The Birth of Bioethics, Special Supplement, Hastings Center Report 23 (1993); Ruth R. Faden and Tom L. Beauchamp. In collaboration with Nancy M. King, A History and Theory of Informed Consent (New York and oxford: Oxford university Press, 1986).

15 - للاطلاع على دليل عليم بشدة بهذا التاريخ كتبه مشارك له تأثيره، أنظر The Birth of Bioethics.

16 - Personal communication, Sheldon Lisker, M. D., to the author, I February 1999.

17 - للاطلاع على دراسة حالة معينة على الفهم، انظر Rene R. Anspach, Deciding Who Lives: Fateful Choices in the Intensive - Care Nursery (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press 1993).

18 - الإنجاز الإعلامي الأخير للدكتور جاك كيفور كيان في جعل قضايا إنهاء الحياة موضوعا عاما مثال لذلك.



التعليم الطبي: والأخلاق الحيوية*

تعليم الجوانب «غير الطب حيوية» في الطب

بقلم: رينيه س. فوكس

ترجمة: د. عاطف أحمد

يتبنى الأمريكيون المشتغلون بالتعليم الطبي حاليا، ويلتزمون من الناحية التربوية، بهدف إكساب طلبة الطب القدرة على إيجاد تكامل بين الطب الحيوي، والعلوم الاجتماعية، والأساليب الأخلاقية في إدراك الأمور والتفكير فيها وفهمها؛ وبين الأدوار التي يعدون أنفسهم لها كجيل جديد من الأطباء: مثل التشخيص والعلاج والتنبؤ بمسار المرض، ورعاية المرضى. وغالبية المدارس الطبية في الولايات المتحدة تعتمد حاليا بشدة على المبحث البيني، الجديد نسبيا، والمسمى بـ«الأخلاق الحيوية Bioethics» من أجل تحقيق ذلك الهدف. وعلى الرغم من أن «الأخلاق الحيوية» كعلم لم يتجاوز عمره الثلاثين عاما بكثير، فإن هذين النمطين ظلا مرتبطين بتاريخ يمتد إلى قرن كامل من محاولات إصلاح التعليم الطبي الأمريكي المتكررة والمتشابهة. والفكرة المحورية والأساسية وراء تلك المحاولات تعبر عنها التقارير الأربعة والعشرون التي تدافع عن تطوير التعليم الطبي، والتي صدرت تباعا منذ نشر تقرير «فلكسنر» الشهير عام 1910، والذي أحدث تغييرات جذرية في التعليم الطبي في الولايات المتحدة. وكما أشار نيكولاس أ. كريستاكس، الطبيب وعالم الاجتماع، في تحليله المضموني لتلك التقارير، فإن كل التقارير اقترحت زيادة مقدار ما يدرس من «العلم الاجتماعي» في المنهج الدراسي، لكن، وكما لاحظ كريستاكس، فإن ما يعتبر «علما اجتماعيا» قد تغير بمرور السنين، فقد لاحظ، في سياق الحديث، أن بواكير الثمانينيات قد شهدت نشأة الميل إلى ربط الأخلاق الطبية بالعلوم الاجتماعية الطبية عموما»(2). وبتعبير أكثر عمومية، فقد أوصت التقارير بصورة متكررة بأنه من خلال وسائط مثل «المجالات غير الطبحيوية» فإن على المدارس الطبية أن تكثف جهودها في تعليم طلبتها ما يمكن تسميته، بالمكونات السلوكية والاجتماعية والنفسية/ الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية لكل من: الصحة والمرض؛ والتعامل مع المرضى بوصفهم أشخاصا؛ والسمات الخلقية وطرق التعامل التي يتسم بها الأطباء «المتعاطفون» و«المعالجون». ويرتبط هذا التوجه بصورة متسقة مع فكرة تعليم الأطباء كيف يشعرون وكيف يضطلعون بمسؤوليتهم المهنية الأكبر والتي تتمثل في تلبية «احتياجات الجماعة البيئية» و«خدمة الجماهير» وتحقيق «المصلحة العامة». وما تتسم به تلك التقارير من تكرار لبعض الأفكار، من هذه الناحية (ومن نواح أخرى)، إنما يرتبط جزئيا بخاصية عامة يتسم بها التعليم الطبي الأمريكي هي التي أشار إليها عالم الاجتماع صمويل و. بلوم بقوله: إن لذلك التعليم تاريخا في الإصلاح لا ينتج تغييرا يذكر، فالتعديلات المتكررة للمناهج لا تحدث - إذا أحدثت - إلا تغييرا طفيفا جدا في خبرة المشاركين الأساسيين: الطلبة والمعلمين» (3).

العنوان الأصلي للمقال:
Is Medical Education Asking Too Much of Bioethics وقد ظهر في مجلة DAEDALUS، عدد خريف 1999

وداخل هذا الإطار من إصلاح المناهج المتكرر كل عام والمصحوب بالحد الأدنى من التغيير في البنية العميقة، اختار المشتغلون بالتعليم الطبي مباحث معينة واعتبروها الوسائل الملائمة لتدريب طلبة الطب الذين يطمحون إلى تعليمهم الجوانب الموقفية والعقلية للعلوم «غير الطبحيوية». على أن المجالات الأساسية التي كان يسند إليها القيام بذلك الدور كانت تتغير عبر الزمن، ففي الخمسينيات والستينيات مثلا؛ كان التعليم الطبي يسند تلك المهمة إلى الطب النفسي والعلوم الاجتماعية (في ذلك الوقت، كان علماء الاجتماع الذين يتم تعيينهم في المدارس الطبية يلحقون بأقسام الطب النفسي)، ومنذ منتصف الستينيات وحتى أواخرها اكتسب طب الجماعة البيئية أهمية بارزة من هذه الناحية. وأما منذ بداية السبعينيات وحتى الوقت الراهن، فقد أصبحت «الأخلاق الحيوية» هي التي تعتبر الوسيلة الأولى لنقل التعليم «غير الطبحيوي» إلى طلبة الطب.

وقد تأثر هذا التتابع بحالة تلك المجالات المعنية وقت صياغة برنامج التعليم الطبي كما تأثرت بالمناخ الاجتماعي الذي ساد داخل وخارج المدرسة الطبية في العقود المعنية. ففي المناخ الذي أعقب الحرب العالمية الثانية خلال الخمسينيات وحتى الستينيات كان الطب النفسي ذو التوجه التحليلي في القمة، وكانت العلوم الاجتماعية مزدهرة. وقد أسهم هذان المجالان، متشار كان أو منفصلان، إسهاما فاعلا، في استكشاف التفاعل الدينامي بين العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية وعبر - الثقافية والبيولوجية، في الصحة والمرض ورعاية المرضى، وفي دراسة خبرات ومشاعر وسلوك المرضى والأسر والأطباء والمرضين، وفي وصف وتحليل خصائص وتأثيرات المستشفى (خاصة المستشفيات العقلية) من حيث هي عالم اجتماعي، وفي ملاحظة وتوصيف عملية التطبع الاجتماعي التي يتحول من خلالها طلبة الطب إلى أطباء.

وكانت تلك هي نوعية المواد الأساسية التي صاغت المدارس الطبية في تلك العقود، من خلالها، ما كانت تسميه عادة مقررات العلوم السلوكية. وقد استهلت الستينيات فترة اتسمت بالتوتر الاجتماعي والاحتجاج، وبارتقاء الوعي حول الفرد والمسؤولية الاجتماعية للمشاركة في عمل من شأنه التخفيف من اللامساواة، وعدم العدالة، والحرمان، وهي الأمور التي شكلت انتهاكا للقيم الأمريكية الأساسية. وقد ساعد ذلك المناخ الثقافي على ازدهار طب المجتمع (في تلك الفترة) وادخاله في علمية تنظيم الأقسام الدراسية وفي المقررات الدراسية للمدارس الطبية. وقد تطابقت نشأة علم الأخلاق الحيوية في بداية السبعينيات، بما يتسم به من تركيز على الجوانب الإشكالية في التقدم العلمي والطبي والتكنولوجي، ومن تركيز على النزعة الفردية الجديدة ومن انشغال - بحق أو دون وجه حق - بمسائل القيم والمعتقدات النهائية، مع التطورات الطبية وما فوق الطبية التي شهدتها الساحة الأمريكية.

فهناك إذن منطق عقلاني وتاريخي بل ومنطق اجتماعي في كون المشتغلين بالتعليم الطبي، يختارون مباحث معينة يحاولون من خلالها إكساب طلبة الطب تبصرات ومعارف غير طبحيوية. رغم ذلك، فالخيارات التي تمت في هذا الصدد لم تكن دائما على بينة من أمرها. فهذا ما يوحي به ميل المشتغلين بالتعليم الطبي في الخمسينيات والستينيات إلى اعتبار كل المباحث غير الطبحيوية علما اجتماعيا سلوكيا، وكذلك ميلهم الحالي إلى جمعها جميعا تحت مسمى «الأخلاق الحيوية». فمثل تلك المصطلحات التي تجمع كل الأشياء دون تفرقة بينها، تكشف عن نقص في وضوح المفاهيم، والمناهج، وطرق التفكير، والأسس

المعرفية لمختلف المجالات غير الطبحيوية التي يستخدمها الأساتذة في التعليم الطبي. كما تكشف عن ميل إلى اعتبارها قابلة لأن يحل بعضها محل الآخر. وتكشف أخيرا عن تصور منقوص أو ربما خاطئ حول الأدوار المتوقع لمثل تلك المباحث أن تلعبها أولا تلعبها في تعليم أطباء المستقبل. فهناك شعور ما بأن المشتغلين بالتعليم الطبي قد تشبثوا دون روية بواحد أو آخر من تلك المجالات في عقود معينة، وتعاملوا معه وكأنه وصفة عقلية سحرية للتعامل مع كافة الصعوبات التي تواجه عملية توسيع مدارك طلبة الطب، بحيث تتجاوز المعارف الطبحيوية بمعناها الدقيق.

والواقع أنه كانت هناك صعوبات في ذلك السبيل: صعوبات طويلة المدى ومزمنة. إذ علينا أن نعترف صراحة أن ذلك البعد في التعليم الطبي كان إشكاليا على الدوام وكان موضع إخفاق في أغلب الأحيان. ولعل نقص معلومات المشتغلين بالتعليم الطبي في المجالات غير الطبحيوية التي ينشدون تدريسها هو أحد مصادر المشكلة. لكن المصدر الأساسي للمشكلة هو ذلك الانفصال المعرفي المعروف والذي يمضي داخل التفكير الطبي العربي الحديث، وكأنه خط عازل - متمثلا في الفصل القاطع بين ما هو طبحيوي وما ليس كذلك. فما ليس طبحيوي إنما يعرف غالبا على طريقة البواقي: فهو يشتمل على كل ما يقع خارج المحددات الفيزيائية والبيولوجية للطب، أي يشتمل على مالا يعتبر شيئا طبيا وموضوعيا وعلميا أصيلا وجزءا لا يتجزأ من الطب. وعلى العكس من ذلك، ينظر إلى الموضوعات والمتغيرات التي ليست طبحيوية، على أنها أكثر «ليونة وذاتيه»، وأقل تماسكا وواقعية. إذ على الرغم من التأكيدات المخلصة التي تصدر عن المشتغلين بالتعليم الطبي والمتحدثين الطبيين الآخرين والتي تدور حول مدى لزوم هذه المباحث للممارسة الكفؤة والمتعاطفة للطب وللميثاق الاجتماعي للمهنة؛ فإن هذه المباحث الطبية ينظر إليها في الواقع على أنها هامشية وأقل أهمية في تدريب وعمل الأطباء، مقارنة بالمباحث الأخرى التي تعتبر علمية بحق.

ومثل هذه النظرة التقييمية تتسلل إلى عقول طلبة الطب من خلال الكيفية التي تتبني وتنتظم بها ـ في حالتها النموذجية - طريقة تعليم المواد غير الطبحيوية. فنحن نجد، في الغالب الأعم، أن مثل تلك الجوانب غير الطبحيوية في التعليم الطبي، يتم تدريسها بمعزل عن كل من المعرفة العلمية الطبية التي يتلقاها الطلبة من ناحية، وعن التدريب والممارسة الإكلينيكية من ناحية أخرى. فطريقة تدريس هذه المواد، في حالتها النموذجية الأصلية، وسواء سميت أخلاقا حيوية أم علما سلوكيا (أو كما تسمى أحيانا: إنسانيات طبية؛ تقوم على إعطائها في مقرر منفصل، غالبا ذي مدة قصيرة، يدرس في السنة الأولى أو الثانية من السنوات الدراسية غير الإكلينيكية. ومثل هذه الطريقة في التدريس تمضي على العكس تماما مما جاء بالتوصيات المتكررة التي صدرت طوال الخمس والستين عاماالماضية، في سلسلة من التقارير حول إصلاح التعليم الطبي الأمريكي. فقد أكدت تلك التقارير باستمرار على أن تدريس المواد غير الطبحيوية والمنظورات المتعلقة بها ـ مثلما فعل تقرير بعثة رابلية التابعة لرابطة الكليات الطبية الأمريكية يجب أن يعتبر جزءا من البرنامج التعليمي النظامي للمواد الطبية، وليس مقررات منفصلة عن الجسم الرئيسي للمعرفة الطبية.

ولعل معظم المشتغلين بالتعليم الطبي يبدون مقتنعين بأن الجوانب غير الطبحيوية في مناهج المدارس الطبية، مرتبطة ارتباطا وثيقا واستراتيجيا بالتكوين السيكلوجي، والاجتماعي، والأخلاقي الذي سيصبح عليه كلية الطب بعد

اجتيازهم العملية الطويلة والشاقة غالبا التي تؤهلهم لأن يصبحوا أطباء. وعلى الرغم من ذلك، لم يبذل جهد منهجي يذكر للربط بين التخطيط لهذه الجوانب من المنهج، وبين ما يواجهه أو ما يخبرخ الطلبة عبر سلسلة المواقف الإكلينيكية وقبل الإكلينيكية التي يمضون خلالها طوال سنواتهم الأربع في المدرسة الطبية. كذلك لم تبذل جهود تذكر لبيان كيف يمكن لتلك الجوانب أن تؤثر في المواقف والسلوكيات والتصورات الخاصة بالدور المهني المستقبلي لهؤلاء الطلبة. وقد أبدى ديمتري كريستاكيس وكريس فودتز في كتابهما ذائع الصيت «الأخلاقيات في معطف أبيض قصير» ملاحظات نقدية حول ذلك الإخفاق من خلال تحليلهما للكيفية التي يتم بها تدريس الأخلاق في كثير من المدارس الطبية. فقد كان محور التركيز في التعليم في رأيهما، هو المسائل والقرارات الأخلاقية التي يواجهها النواب والأطباء الممارسون، أكثر من أن يتركز حول المسائل التي يواجهها الطلاب في حياتهم الدراسية اليومية. فقد رأى كريستاكيس وفودتز أنه أمر غير سوي تربويا أن يتم التركيز على قرارات مختلفة لن يواجهها الطلاب إلا فيما بعد في حياتهم المهنية، بينما هم يجهلون إلى حد كبير القرارات الأخلاقية الأكثر دقة والتي يتخذونها بالفعل كل يوم» وقد كانت إحدى النتائج غير المتعمدة لذلك الانحراف التربوي، وفقا لما ذكره الكاتبان في مقالة لاحقة، هي تجاهل، أو ربما حتى الإسهام في «تآكل» المبادئ الأخلاقية والسلوك، وهو ما اعترف عدد كبير من طلبة الطب بأنهم يلاحظونه في أنفسهم ولدى زملائهم في أثناء ممارستهم لعملهم الإكلينيكي». وقد عزا كل من المؤلفين والطلبة الذين تم استبيان آرائهم، ما سموه «بانحطاط» المبادئ لديهم، بأنه إنما يعود إلى مجموعة من الضغوط الانفعالية والاجتماعية التي تعرضوا لها في جو المستشفى الذي يتسم بأنه مشحون بالتوتر والتراتبية. ولعل من أبرز تلك التوترات، تلك الناشئة عن التناقض بين الرغبة (وأحيانا القهر) الذي يصرح الطلبة بأنهم يشعرون به، والذي يدفعهم إلى أن يكون الواحد منهم متوافقا مع الفريق وأن يكون لاعبا ضمن فريق، وبين شعورهم بأنهم مستجدون وتابعون «بلا حول ولا قوة» إزاء أفعال يشهدونها أو يطلب إليهم أن يساعدوا فيها يقوم بها أطباء الامتياز المقيمون، ويعتبرونها هم غير أخلاقية.

وليس من اليسير وضع برامج دراسية تأخذ في الاعتبار مثل هذه الخبرات وردود الأفعال تجاهها. فمثل تلك الخبرات إنما هي جزء من مسار ناشئ عن موقف تعليمي كان يتخذه طلبة الطب بصورة مشتركة، وهو موقف يقع في العمق بعيدا عن سطح البرنامج الدراسي بأهدافه المعلنة، ويشار إليه بأنه «برنامج خفي»، وقد أتيح لي أن أتعرف على مدى «خفاء» ذلك البرنامج، حينما كنت أعد هذا المقال. إذ وقعت يدي على بعض الملاحظات الميدانية سجلتها في أواسط الخمسينيات حين كنت عضوا في فريق من السوسيولوجيين الذين يجرون بحثا موسعا حول التعليم والتدريب والتطويع الاجتماعي للطلبة في العديد من المدارس الطبية الأمريكية. ففي سياق حوار أجريته مع طالب بالسنة الثالثة طب، أخبرني أن «المكان الوحيد الذي يمضي فيه الطلبة معظم وقتهم في التعبير عن تصوراتهم حول الأخلاقيات الطبية إنما هو الطب النفسي». وكانت نقطة الانطلاق إلى ذلك، المحاضرة التي خصصت للأخلاقيات الطبية والتي ألقيت على طلبة السنة الأولى، في الفصل الثالث من مقرر الطب النفسي. هذا ما حدثني به الطالب لكنه واصل قائلا بأن السبب الرئيسي في ذلك إنما

يكمن في حقيقة أن الطلبة شعروا أن مدرسي الطب النفسي كانوا من ذلك النوع من الأطباء، الذين يستطيعون أن يولوهم ثقتهم في طرح أسئلتهم حول المواقف ذات المضامين الأخلاقية التي يجدون أنفسهم فيها ـ فهم الذين ينصتون باهتمام لما يقولون لهم ويجيبون عليهم دون حساسية تحمل إدانة ما. وأكمل الطالب قائلا: «وأعتقد أن ذلك كان شيئا بارزا جدا، ولعلي أتساءل عما إذا كانت إدارة مدرسة الطب قد أدركت أن ذلك هو ما كانت عليه الأمور» (والإجابة كانت بالنفي).

وأود هنا، ونحن لدينا كل تلك الخلفية، أن أعود إلى الحاضر لأبحث تأثيرات الدور البارز الذي تلعبه الأخلاقيات الحيوية باعتبارها المجال غير الطبحيوي الرئيسي في معظم المدارس الطبية بالولايات المتحدة. وسوف أقدم تحليلي من خلال بعض التأملات في الطبيعة الخلقية والسمات العقلية والدلالة المجتمعية للأخلاق الحيوية الأمريكية، وفي الحالة المعرفية والكفاءة الإكلينيكية للطب الغربي الحديث، ثم في التطبيع الاجتماعي لطلبة الطب، وأخيرا في وضع التعليم الطبي الأمريكي في نهاية القرن العشرين.

صعود الأخلاق الحيوية: وتأثيراتها على التعليم الطبي:

ظهر مصطلح «الأخلاق الحيوية» (وكذلك كلمة عالم أخلاقي) قرب نهاية الستينيات، في ارتباط بالبحث والعمل داخل نطاق متعدد المباحث ظهر وتبلور في الولايات المتحدة حوالي ذلك الوقت. ومنذ بداياته الأولى، تركز هذا المجال الجديد حول مجموعة مترابطة من التقدمات في البيولوجيا وفي الطب، كما تركز حول مسائل ومآزق فعلية أو محتملة أسهمت في خلقها هذه التطورات العلمية والتكنولوجية والإكلينيكية والوسائل التي استخدمت في إنجازها. فثمة العديد من الموضوعات أصبحت تشكل نقاطا مركزية، قوية ومتسقة، داخل نطاق واجتماعات الأخلاقيات الحيوية مثل: الإجهاض، والإنجاب بالمساعدة الصناعية، والمسح والتعديل، والعلاج الجيني، وإحلال الأعضاء (من خلال زرع الأعضاء والأعضاء الصناعية)، وانتشار الأدوات والمعدات التي يستخدمها الطب الحديث في دعم الحياة في وفي إطالتها، والتعجيل بالوفاة تجنبا للألم المبرح، وإجراء الأبحاث الطبية على أفراد البشر. فقد أصبحت التقاطعات والتداخلات المتبادلة بين تلك المشاغل الملموسة للأخلاقيات الحيوية هي مصدر الموضوعات الكبرى الدائمة للأخلاق الحيوية ـــ مثل الموضوعات التي تختص بالحياة والموت والإنسان كشخص، وتعريفات تلك المسائل ومعناها وبداياتها ونهاياتها، ومزايا وحدود ومخاطر التدخل العنيف في الحالة الإنسانية لتخفيف الألم، وتحسين نوعية الوجود، وإدامة الحياة، والتوزيع العادل والمنصف للموارد الحيوية والنادرة التي ليست تكنولوجية ولا اقتصادية، لكنها تشمل أيضا توزيع أعضاء حية تنتمي للشخص نفسه أو للآخرين (أي منح أعضاء بشرية)، وتوزيع الرعاية والاهتمام.

ومعنى ذلك إذن أن الأخلاق لا تلتفت بالدرجة الأولى إلى أمور الحياة اليومية. كذلك فليست موضوعاتها الرئيسية ذات طبيعة طبية أو أخلاقية على وجه الدقة. بل هي أقرب إلى أن تكون ذات مدلولات أخلاقية واجتماعية بل ودينية أيضا. وليس مجرد مصادفة أن «الأخلاق الحيوية» قد ظهرت في المجتمع الأمريكي خلال فترة اتسمت بتوتر اجتماعي وثقافي متشعب وحاد، هي فترة أواخر الستينيات وأوائل

معقولة لنتائج أخلاقية حيوية سيئة». فالقيم التي تعطي وزنا للمشاعر والروابط، لحسن التصاقه مع الآخر أكان معروفا لنا أم لم يكن، ذلك الحس المتجاوز للذات، والتي تعطي وزنا كذلك للجماعة والمجتمع، ولشعور خاص بالواجب يجعلنا نهتم بتخفيف المعاناة عن المحرومين والمستضعفين، هذه القيم توارث إلى الظل تحت تأثير ما أشار إليه البعض على أنه عقلانية ذات «استقلالية غير محدودة» تتسم بها النظرة السائدة في ذلك المجال. وبذلك تصبح الأخلاق الحيوية في وضع يجعلها لا تقلل من دور العوامل الاجتماعية والثقافية ولا تنظر إليها باعتبارها ظاهرة زائدة عن اللزوم فحسب، بل تميل إلى النظر إلى استخدامها بعين الحذر. وهذا الموقف انما ينشأ إلى حد كبير من التزام «الأخلاق الحيوية» العقلي والخلقي بالمثال الأولمبي حول المبادئ الأخلاقية الشاملة، والتي تسمى أحيانا «المبادئ الأخلاقية العامة» كما ينشأ من اهتمام المشتغلين بالأخلاق الحيوية بمسألة الرضوخ «للمعاني المحلية» أو ما يسمونه هم «بالنسبية الثقافية والأخلاقية». فالمعايير الأخلاقية العالمية، تتمثل كما تذهب فيلسوفة الأخلاق الحيوية، روث ماكلين، في الصياغة المعاصرة «لحقوق الإنسان»، والتي تصرفها بأنها: حقوق تنتمي للناس جميعا أينما كانوا وأيا كان النظام السياسي أو التقاليد الثقافية لبلدانهم أو للمناطق التي يعيشون فيها»، فهي مثلها مثل كثير من المشتغلين بالأخلاق الحيوية من الأمريكيين، ترفض فكرة أن «حقوق الإنسان هي اختراع غربي، أو أن فرض مثل ذلك المفهوم العربي على ثقافات ذات تقاليد مختلفة يعتبر نوعا من الإمبريالية الأخلاقية. إذ على الرغم من أنها تعترف بأن مثل تلك المبادئ الخلقية تتطلب نوعا من التأويل حينما تطبق على مؤسسات اجتماعية ذات خصوصية، مثل نظام الرعاية الصحية أو ممارسة الطب» وأنه «داخل تلك الخصوصيات، هناك مساحة واسعة لتقبل التنوع الثقافي»؛ فإنها تعلن بوضوح أن التبني الثقافي والتطبيق الاجتماعي للمبادئ الأخلاقية المشتقة من حقوق الإنسان، يعتبر تقدما أخلاقيا». ومثل هذا الموقف المضاد للنسبية الذي يميل المشتغلون بالأخلاق الحيوية إلى تبنيه، إنما هو موقف وقائي ضد الأشكال الخطرة من الخصوصية التي يمكن، كما قال فيلسوف الأخلاق الحيوية دانييل كالاهان، أن تؤدي إلى الخضوع لمصالح الطبقة أو القبيلة أو الجماهير، أو لمشاعر اللحظة». وفي رأي هؤلاء، أن مثل ذلك الموقف يعتبر ضروريا أيضا لما يعتبره كثير من المشتغلين بالأخلاق الحيوية واحدة من المهام الكبرى والصعبة بالنسبة لعلم الأخلاق: وهي التصدي لإصدار حكم على المدركات الثقافية والسلوكيات الاجتماعية التي «تبدو خاطئة أو ضالة أو شريرة». على أن «الموقف المضاد للنسبية في الأخلاق الحيوية يسير في اتجاه معاكس للفكر التي تؤكد أن العلوم الاجتماعية تعطى أهمية للتعرف على واحترام مغزى، التمسك بالفروق الثقافية والمجتمعية والتاريخية فيما يتعلق بالقيم والمعتقدات والسلوك والنظرة للعالم. الأمر الذي يشكل مصدرا مهما للتوتر بين هذين المجالين.

وهناك سمة أخرى للأخلاق الحيوية هي نظرتها العلمانية، رغم أن بعض مؤسسيها وأهم المشاركين فيها كانوا لاهوتيين أو مشتغلين بعلم الأخلاق الديني، وثمة أسئلة ذات طبيعة دينية تتعلق بأصل الإنسان وهويته ومصيره ومعنى الحياة، وأسرار الحياة والموت - تطرح نفسها باستمرار في مجال الأخلاق الحيوية، لكنها ينظر إليها عامة على أنها مشكلات غير قابلة للحل بحكم طبيعتها وأنها تتعلق بالمعتقدات الخاصة

والشخصية التي تقع خارج نطاق «الأخلاق الحيوية»، أو هي بتوصيف أدق، تتم ترجمتها وتمثلها داخل التصورات الخاصة بعلم الأخلاق وبما هو أخلاقي. وهذه ظاهرة معقدة أسهمت في تكوينها الخلفيات والتواريخ الدينية لذوي التأثير من المشتغلين بالأخلاق الحيوية. بمثل ما أسهمت العقلانية والوضعية والفردية التي ميزت الثقافة العقلية لذلك المجال. وعلى مستوى أوسع نطاقا، فإن حقيقة أن الموضوعات ذات الصبغة الدينية للأخلاق الحيوية قد دفع بها إلى ساحة الرأي العام وإلى سياسات المجتمع الأمريكي والذي هو مجتمع متعدد الديانات، حريص على تجنب أي جدالات دينية شقاقية بدرجة حادة، ومحافظ على المبدأ الدستوري الخاص بالفصل بين الكنيسة والدولة - مارست تأثيرا كبيرا على الطريقة التي أُبعد بها المضمون الديني عن الأخلاق الحيوية أو «اختزاله» إلى علم الأخلاق.

وقد دفعت الانتقادات التي استمرت طوال التسعينيات والتي وجهت لنمط التفكير والخطاب والمنظور الخاص بالأخلاق الحيوية، والتي أتت من داخل المجال مثلما أتت من خارجه ـ الباحثين والخبراء في ذلك المجال إلى بذل الجهود من أجل تغيير بنيته المعرفية، ومنهجيته، وخصائصه العامة. وقد حاولت تلك الجهود أن تكسر طوق السيطرة على المجال بواسطة «المبدئية» المجردة للفلسفة التحليلية، وأولوية المفهوم المستقل ذاتيا والمحدد ذاتيا والخاص بالفردية والحقوق الفردية. كما حاولت تحقيق قدر أكبر من التوافق بين المفاهيم التي ميزت الإطار الأخلاقي والعقلي للأخلاق الحيوية والتي شهدت استقطابا فيما بينها مثل الفردية والجماعية، والعالمية والخصوصية. كذلك حاولت أن تحتوي الأنظمة الفلسفية الأخرى داخل إطار التفكير الأخلاقي الحيوي (مثل الظواهرية، والبراجماتية، وفن الجدل (السفسطة) وأخلاقيات الفضيلة، وأخلاقيات الحكي، والفلسفة النسوية). وأخيرا حاولت أن تستخدم المناهج الإثنوجرافية للبحث كوسيلة للتعرف عن قرب على الكيفية التي تخبر بها المشكلات الأخلاقية إنسانيا وموقفيا. على أنه وحتى الآن لم تحدث سوى تغيرات قليلة نسبيا في حدود ومحتوى وأسلوب التفكير وأيديولوجيا علم الأخلاق الحيوية.

ويمكن القول إن علم الأخلاق الحيوية الأمريكي هو محاولة عقلية واجتماعية ذات أهمية عظيمة، ليس فقط من حيث ارتباطه الوثيق بالتكوين الأخلاقي والقيمي للأطباء، بل أيضا، لأن علم الأخلاق الحيوية، كما كتبت في مكان آخر: ليس مجرد أخلاق حيوية... بل هو أكثر من مجرد مبحث طبي. ذلك أنه إذا كان يستخدم البيولوجيا والطب كلغة استعارية وكوسيط رمزي، إلا أن علم الأخلاق الحيوية... يتعامل مع ما لا يقل عن المعتقدات والقيم والمعايير التي هي أساسية بالنسبة لمجتمعنا، ولقاليده الثقافية ولضميره الجمعي» على رغم ذلك فعلم الأخلاق الحيوية لا يتعرض للبحث في طبيعة دلالاته الأكثر اتساعا ولا لتعليمها. ولا هو من شأنه أن يتناول المسائل الأخلاقية والاجتماعية الأكبر المتعلقة بالطب مثل المعاناة وسوء الحالة الصحية الناجمة عن الفقر، والتشرد، والتعصب والتمييز بين البشر. بل ليس من شأنه حتى أن يتناول ما أسماه الباحث السوسيولوجي دافيد ميكاني: «أكثر العيوب وضوحا في الطب الأمريكي» ـ أي حقيقة أن أكثر من أربعة وأربعين مليونا ليس لديهم تأمين صحي، وأن أكثر من هذا العدد بكثير لديهم تأمين غير كاف: «على الرغم من أن حجم الإنفاق يزيد كثيرا عنه في أي دولة أخرى» (24). وقد

كانت الأخلاق الحيوية تميل، خلال معظم فترات تاريخها، إلى معالجة مشكلات الحصول على الخدمات الصحية باعتبارها مشكلات اجتماعية لا أخلاقية مقيمة حاجزا فاصلا بين الاثنين (25). ولم تبدأ الأخلاق الحيوية، إلا حديثا جدا في التعامل مع بعض المشكلات الأخلاقية التي طرحها انتشار شركات الرعاية الطبية Managed care في الولايات المتحدة. لكن، وإلى حد بعيد، ظلت الأخلاقيات القائمة على علاقة: الطبيب ـ المريض، والطبيب ـ المؤسسة، هي السائدة بينما لم تحظ أخلاقيات مؤسسات الرعاية الصحية، أو التشعبات الأخلاقية للدور البارز الذي بدأت المؤسسات الصحية الهادفة للربح تلعبه في تقديم الرعاية الصحية في الولايات المتحدة منذ الثمانينيات، سوى باهتمام قليل نسبيا.

وقد ركزت الأخلاق الحيوية اهتمامها على نحو متسق بطائفة معينة من المشكلات الأخلاقية والخيارات الحرجة، وأمعنت النظر في نطاق ضيق من مسارات العمل البديلة. فحينما نكون مثلا في مجال ما يسمى بـ «الأخلاق الحيوية الإكلينيكية» نجد أن الاهتمام يتركز على المسائل الأخلاقية التي تحدث بين الأطباء والمرضى المقيمين، دون كبير التفات إلى خلفياتهم الاجتماعية والثقافية، أو إلى حياتهم المعيشية، أو إلى الديناميات النفسية لما يجري بينهم، ولا للوسط الاجتماعي للمستشفى الذي تحدث داخله تلك المواجهات بين الأطباء والمرضى.

وتحديد ما تتضمنه الأخلاق الحيوية وما لا تتضمنه يساعد على توضيح ما يجب وما لا يجب أن يتوقعه طلاب الطب منها. فإذا كان تحليلي صائبا، فالمطلوب من الأخلاق الحيوية على الأقل في صيغتها الراهنة أن تتحمل قدرا كبيرا من المسؤولية إزاء تحديد توجه ومحتوى ونطاق الجوانب غير الطبحيوية، في التعليم والتربية المهنية لطلبة الطب.

تكامل الطب وعلم الأخلاق والعلوم الاجتماعية في النهج الدراسي لمدارس الطب: إنه لشيء معقول أن يتم إدخال تعليم المعارف والمهارات والمواقف والقيم في بنية متكاملة مع تلك الأبعاد لممارسة الطب التي تدور حول المحور الأخلاقي. ذلك أن الطب، يشارك مهنا أخرى، في اهتمامه بالأمور الإنسانية ذات الأهمية الأخلاقية والوجودية الخاصة في حياة الأفراد، وفي ما يسميه دوركايم «الحياة الجادة» للمجتمع. وفي حالة الطب فإن ذلك ينطوي على ما لا يقل عن أن يكون شيئا ذا علاقة محسوسة وحميمة بالجسد الإنساني والنفس الإنسانية، وببعض من أهم الجوانب الأساسية والمفارقة للوضع الإنساني ـ الميلاد، النمو والتطور، المسألة الجنسية، الكبر، الفناء والموت، وبما يحيط «بحكاية» الإنسان من كوميديا وتراجيديا، وأفراح وأحزان، ومعاناة ومسكنة، ومن ألغاز وأسرار لا سبيل إلى فض مغاليقها. وبكلمات الطبيب والعالم ذي النزعة الإنسانية «ليون طاس» فإن ما يتطلبه ذلك ليس شيئا يختص بالعقل أو اليد فحسب، بل بالقلب أيضا، ليس بالعقل والمهارة، بل بالخلق أيضا... فهو شيء متجذر في طبيعتنا الأخلاقية. فالأطباء في حالتهم المثالية، يتوقع أن يتعاملوا مع المشكلات التي يطرحها عليهم المرضى من موقع الثقة، بطريقة لا تخدم احتياجات ورفاهية أولئك الأشخاص كأفراد فحسب، بل يجب أن تخدم (وفقا لعبارة اللاهوتي جيمس م. جو ستافون) «الغايات والأهداف الكبرى للخير الإنساني العام». وبهذا المعنى فأن يصبح المرء طبيبا لا يعني مجرد اكتساب مهنة. بل هو ـ أو يجب على الأقل أن يكون ـ «رسالة» أيضا.

وعلى الرغم من أن جعل بنية التعليم غير الطبحيوي لطلبة الطب تدور حول محور أخلاقي يختص بدور الطبيب وبالتأسيس الأخلاقي لمهنة الطب يعتبر شيئا معقولا، فإن ثمة حاجة لما هو أكبر من تصور علم الأخلاق الحيوية للأخلاق حتى يمكن رفع مستوى الكفاءة والنمو الاجتماعي والعاطفي، والأخلاقي للأطباء تحت التمرين ورفع مستوى قدرتهم على التمسك «بقيمهم البالغة النبل»، وعلى تطبيقها في النواحي المختلفة لحياتهم المهنية. وتنطوي هذه العملية، كما أتصور على إدخال ذلك النوع من المقاربة الموجهة تحت تأثير الأخلاق الحيوية والتي تسود حاليا في المدارس الطبية الأمريكية، في إطار تحليلي سيكلوجي واجتماعي مؤسس على حالات وثيقة الصلة بأخلاقيات الممارسة (الطبية) العادية، ومنفتحة أيضا على منظورات تاريخية وثقافية ومجتمعية واسعة المدى.

ومثل ذلك الإطار لن يتيح تجنب الأسئلة الأخلاقية التي يطرحها الألم والمعاناة، ولن يقلل من الدور الذي تلعبه العوامل اللاعقلانية في وجودنا الفردي والجمعي. كما سيتيح للفروق الثقافية والاجتماعية أن تعلن عن نفسها بالكامل، دون أن تكون مشتقة من خصائص إنسانية عامة ولا من مبادئ عالمية متفق عليها. وسوف يأخذ في الاعتبار تأثيرات تنوع الشخصيات والخلفيات الاجتماعية للمرضى على حالتهم الصحية، وعلى العلاقات التي ينشئونها أولا ينشئونها مع الأطباء، وعلى رد فعلهم تجاه عملية التشخيص والعلاج والتنبؤ بمسار المرض وتجاه الثقافة الطبية. وكذلك سوف يمنح اهتماما منهجيا لعملية التطبع الاجتماعي المهني التي تجري غالبا دون أن تلاحظ والتي يمر بها طلبة الطب ألي العملية التي يتم عن طريقها تعلم مواقف ومشاعر وسلوكيات معينة، والتي تجري في ترافق مع اكتسابهم للمعارف والمهارات، وكذلك يمنح الاهتمام للمصادر والمؤثرات العقلية، والبين شخصية، والموقفية للأبعاد الخاص بتكون الطبيب. وأخيرا سيوضع في الاعتبار الأحداث والتطورات المعاصرة التي تحدث على المسرح الأمريكي الأكبر، والتي تؤثر، مباشرة أو غير مباشرة في قطاع الرعاية الصحية للمجتمع.

وترجمة هذه التصورات إلى منهج دراسي ملموس ليست عملية بسيطة. إذ هي تتطلب تأسيس علاقة متضافرة ومتكاملة وخبيرة بين كل من الطب والأخلاقيات والعلوم الاجتماعية، مترافقة مع قاعدة بيانات تحليلية تحدد متى وأين، في مسار التعليم الطبي ومسار نمو طلبة الطب، يصبح من المناسب إدخال المعلومة المعينة وفي أي صيغة وبواسطة من. فثمة قدر زائد عن الحد من هذه المعارف تضخ لطلبة الطب خلال العامين الأولين حيث تُجنَّد طائفة من المعلمين، تقوم في وقت قصير للغاية، بإعطاء محاضرة أو اثنتين في كل موضوع، بينما لا يتلقى الطلبة في السنة الثالثة أو الرابعة، حيث ترتبط المعارف مباشرة بالخبرات الإكلينيكية التي حصلوا عليها، إلا قدرا ضئيلا من تلك المعارف. بالإضافة إلى ذلك فربما كان من المفيد للمشتغلين بالتعليم الطبي، أن يفكروا فيما إذا كان من الملائم إعطاء بعض من التعاليم الأساسية الخاصة بالصحة والمرض والطب، قبل أن يلتحق الطلبة بكليات الطب، أي وهم لايزالون في المرحلة قبل الجامعية، حيث موقفهم العقلي وبرنامجهم التعليمي يفضي بهم إلى تبني موقف تأملي من تلك الأمور. ذلك أني أعتقد استنادا إلى تاريخي الطويل في تعليم طلبة المرحلة التمهيدية لكلية الطب، أن تلك الفترة ليست فقط فترة مناسبة للغاية للبدء بذلك النوع من التعليم، بل إن المشتغلين بالتعليم الطبي سوف يتمكنون

حينذاك من نقل رسالة قوية حول الأهمية التي يولونها لذلك النوع من التعليم، إذا هم اشترطوا للالتحاق بكلية الطب، أن يؤدي المتقدمون لها مقررا عمليا وثيق الصلة بذلك النوع من التعليم.

التدريب على عدم التيقن
التدريب على الاهتمام المتجرد detached concern

هناك ما هو مطلوب أكثر من الانشغال بتأكيد هذه المكونات في تعليم أطباء المستقبل، أو من الحذق في كيفية إدماج تلك المكونات في المقرر الدراسي لكليات الطب وفي كيفية تدريسها من خلال رؤية واضحة وارتباط بالممارسة الإكلينيكية وتوقيت سليم من الناحية السوسيولوجية والسيكلوجية. ذلك أنه من الضروري أيضا أن يتم كل ذلك في انسجام وتجاوب مع الموضوعات (المسائل) التي يواجهها طلبة الطب، والتي تنشأ من الأوضاع العلمية والإكلينيكية للمجال الذي يتهيأون للدخول فيه. وهي مسائل ذات طبيعة موقفية وفلسفية، مثلما هي ذات طبيعة معرفية وعملية. ولعل من أهم تلك المسائل، كما يشهد بذلك أجيال من طلبة الطب، هي تعلم الإقرار بالحضور الدائم للشعور بعدم التيقن في مجال الطب، وهي الحالة التي توجد على الرغم منه وفي الوقت نفسه بسبب كثرة المعارف وارتقاء المهارات التي يمتلكها الطب ـ وتعلم كيفية التعامل مع ما يتضمنه ذلك الشعور بين أمور مثبطة. وفيما يرى الطبيب والمؤرخ «كينيث لودميرر»، فإن تدريب الأطباء على التعامل مع حالة عدم التيقن وهم يقومون بعملهم الوقائي والتشخيصي والعلاجي والتنبؤي في أثناء ممارستهم للطب، هو، ويجب أن يكون هدفا أساسيا من أهداف التعليم الطبي. وهو هدف اعترف هو نفسه بأن تحقيقه أمر شديد الصعوبة إلى الحد الذي جعله يعتبره أشد المثل العليا مراوغة في التعليم الطبي.

ومنذ بداية انخراطي في البحث المباشر حول التعليم والتطويع الاجتماعي لطلبة الطب خلال الخمسينيات، بدت لي العملية التي أسميتها التدريب على عدم التيقن أساسية وملحة مثلما وصفها «لودميرر» بقوله إنها مثال للتحدي الذي يواجه من يريد أن يصبح طبيبا وأن يمارس العمل الطبي. فإذا كان ثمة جديد، فهو أن العقود القليلة الماضية قد جعلت هذا الأمر أكثر أهمية، حيث إن التغيرات في العلوم الطبية، والتكنولوجيا والممارسة وما أحاط بها من أحوال اجتماعية وثقافية، ساهمت كلها في ظهور تجليات جديدة لعدم التيقن الطبي، كما أدت من بعض الجوانب، إلى زيادة أو تعقيد أنماط قديمة من عدم التيقن.

ولعل أحد أهم مصادر عدم التيقن الطبي في الوقت الحالي هو الثورة البيولوجية، وما نتج عنها من اكتشاف البنية ثنائية الحلزون ذاتية الاكتمال للدنا (D.N.A)، وبروز البيولوجيا الخلوية والجزيئية الجديدة وما أتت به من معارف خاصة فيما يتصل بالمورثات والانفجار المعلوماتي والمعرفي الذي نشأ عن ذلك. وعلى الرغم من الوعود التي جاءت بها تلك التطورات العلمية الهائلة والخاصة بإحداث تحولات في ممارسة الطب، ومن التوقعات العالية التي رافقت ذلك فإنه من غير الواضح كيف ومتى وإلى أي درجة سوف يحدث ذلك التقدم بل ومن غير الواضح، إذا كان سيتحقق فعلا أم لا. فاختبارات الوراثة الجزيئية مازالت طفولتها، ولم تثبت أي من محاولات العلاج بالهندسة الوراثية نجاحها بعد، وثمة هوة غير قابلة للعبور قائمة بين المعارف الجزيئية والوراثية التي تحققت، وبين المستوى الطائفي والباثوفسيولوجي (علم اختلال وظائف الأعضاء) الذي يتعامل معه الطب الإكلينيكي. كذلك فإن ظهور أمراض معدية معينة وعودة أقدمها وهي العملية التي أصبحت لافتة منذ ظهور وانتشار مرض الإيدز، شكل مصدرا رئيسيا

والاشتغال بالطب ليسا فقط أمورا «جادة» بل هما أيضا أمور محركة للمشاعر على المستوى الجسدي والانفعالي والوجودي، وعلى نحو مثير للإزعاج لطبيعته. والشباب الذين في طريقهم لأن يصبحوا أطباء (أو طبيبات) يشهدون بدايات هذه الملامح في مهنتهم من خلال دخولهم في سلسلة من طقوس الدور: تتمثل في خبراتهم المرتبطة بقيامهم بتشريح الجثث، ومشاركتهم في الفحص الطبي للمتوفين، وبذلهم الجهد للحصول على التاريخ الطبي للمرضى والقيام بفحصهم للمرة الأولى، واختلاطهم بالجراثيم المسببة للمرض في المعامل، وبطائفة الأمراض المتنوعة التي يعاني منها المرضى الذين تحت رعايتهم، ورؤيتهم لأول مرة للحظات الميلاد، وللحظات الميلاد، وللحظات وفاة المرضى الذين يتولون متابعتهم. وخلال تأثرهم بمثل هذه الخبرات تبدأ لديهم عملية «التدريب على التفكير المتجرد» أي المعاناة الهادفة إلى اقامة نوع من التوازن بين الاتزان العقلي والشعور بالتعاطف، الأمر الذي يمكنهم من أن يؤدوا دورهم المهني دون أن يفقدوا شعورهم الإنساني (على حد تعبيرهم). وكاستجابة لمثل هذه التجارب المشتركة، يكتب طلبة الطب ميكانزمات دفاعية مشتركة تساعدهم على مواجهة أشد الجوانب السيكولوجية والاجتماعية والأخلاقية صعوبة، وأكثرها عاطفية فيما يتعلق بإعدادهم لكي يمارسوا دور الطبيب ومسؤولياته تجاه رعاية المرضى - وهي دفاعات كثيرات ما تجنح في اتجاه التجرد الهادف لحماية الذات.

والعثور على طرق لنقل معلومات وطرق تفكير وتبصرات ذات جدوى اجتماعية وعلمية وأخلاقية لطلبة الطلب، يتطلب ليس فقط وعيا مبنيا على المعرفة الخاصة بالتدريب على عدم التيقن وعلى الاهتمام المتجرد للذين يمارسونهما، بل يتطلب أيضا إدخال هذه الجوانب الخاصة بتطبيعهم اجتماعيا بطريقة مدروسة، فيما يتم تعليمهم إن بصورة معلنة أو ضمنية.

إلى أين يتجه التعليم الطبي الأمريكي؟

وربما يكون تحقيق إنجاز متميز في مجال التعليم الطبي أكثر صعوبة حاليا مما كان في الماضي، بسبب المشكلات التي تواجهها حاليا المدارس الطبية والمراكز الصحية الأكاديمية الأمريكية، وبسبب طريقتها في التعامل مع تلك المشكلات. وقد قام «كينيث لودميرر» في كتابه: «وقت للشفاء»: التعليم الطبي الأمريكي منذ منعطف القرن حتى عصر الرعاية المنظمة (لتعاقدية) بوصف وتحليل والتأسي على ما شخصه بأنه، تدهور متزايد في المناخ العقلي للمدارس الطبية طوال التسعينيات، وتراجع أهمية التعليم الطبي من حيث هو «رسالة» المراكز الصحية الأكاديمية ومبرر ووجودها.

وقد تسببت سلسلة من العوامل المتداخلة، داخل وخارج المؤسسة الأكاديمية الطبية، في هذا التدهور. ولعل أبرز هذه العوامل هو موجة الاهتمام بمسألة ارتفاع تكاليف الخدمات الصحية، والنمو المصاحب لذلك للسوق التنافسية للرعاية الطبية التي ظهرت منذ الثمانينيات والتي جلبت معها عصر احتواء التكلفة، وأدت إلى النمو المتسارع داخل المجال الطبي الأمريكي، لمؤسسات الرعاية الطبية الهادفة للربح. وقد واجهت المراكز الصحية الأكاديمية تحديا خطيرا من جراء هذه القوى الجديدة ومن غيرها مما دفعها إلى اتخاذ إجراءات متشددة كي توازن أوضاعها المالية داخل سوق رعاية صحية تسحب المرضى والعوائد الإكلينيكية بعيدا عنها. وقد ازدادت الضغوط المالية الناشئة عن شركات الرعاية الطبية نتيجة

الاختزال المقسم إلى مراحل (التدريجي) لنفقات الميديكير خلال العام 2001، تنفيذا لقرار موازنة الميزانية الصادر العام 1997، الذي خفض بشدة المعونات الأساسية المباشرة وغير المباشرة، المخصصة للتعليم في المدارس الطبية، ولتدريب النواب، وللإنفاق على المرضى غير القادرين والقادرين أيضا، وهي المعونات التي ظلت المراكز الصحية الأكاديمية تتسلمها من تلك الجهة لمدة تزيد على الثلاثين عاما.

وكانت إحدى الطرق التي استجابت بها المراكز الصحية الأكاديمية لذلك الموقف هي زيادة كبيرة في عدد الكليات الإكلينيكية العاملة طوال الوقت، والتي تتحدد مسؤوليتها الرئيسية بل الوحيدة تقريبا في رعاية المرضى لا في التعليم ولا في القيام بالأبحاث، حتى أنه يمكن القول إن كثيرا من تلك المراكز الإكلينيكية غير المشتغلة بالتدريس هي كليات بالاسم فقط. والجزء الأكبر من وقت أعضاء تلك الكليات الإكلينيكية كان ينفق في الممارسة الطبية، التي أصبحت المصدر الرئيسي لمرتباتهم ولدخل المراكز الصحية الأكاديمية والمدارس الطبية الملحقة بها. وفي مثل هذا الجو المشبع بروح المال والبيزنس والذي تدعم أكثر بالعدد المتزايد من عقود شركات الرعاية، التي أصبحت المراكز الصحية الأكاديمية تنشئها الآن حتى تكتسب وتحتفظ بقاعدة كبيرة من المرضى، أصبح الأطباء واقعين تحت ضغوط متزايدة لكي يروا أكبر عدد من المرضى في أقصر وقت. وفترة إقامة المرضى أصبحت قصيرة للغاية ليس فقط نتيجة للتقدمات في مجال الطب الحيوي (مثل تطور طرق الجراحة غير التدخلية وطرق التخدير الجديدة)، ولا لزيادة معدلات الأمراض المزمنة التي يمكن أن تتابع في العيادة الخارجية، لكن أيضا نتيجة الأسس الاقتصادية التي تقوم عليها شركات الرعاية الطبية التي تحد من عدد الأيام التي يسمح للمرضى قضاءها في المستشفى والتغطية المالية لهذه الفترة. ومحاولات التحول من التعليم الإكلينيكي إلى الممارسة العلاجية غير التعليمية لم تكن عملية سهلة، حيث إن أطباء المجتمع ــ مثلهم مثل زملائهم الأكاديميين ــ يقعون تحت ضغط متزايد ليكونوا أكثر إنتاجا في مجال رعاية المرضى وبالتالي قد لا يكون لديهم الوقت ليهتموا بتدريب الطلاب. وقد طغت هذه الظروف الخاصة بالممارسة على الوقت الذي كان يمكن لأطباء المجتمع أن يمنحوه للتعليم الطبي التطوعي بالكليات، أو للمشاركة في تدريب أطباء الامتياز بالمستشفى الجامعي، وفضلا عن ذلك فإن المرضى لكونهم يعالجون في مستشفيات خاصة كانوا يرفضون أن يستخدموا لأغراض تعليمية طبية. وقد بدأت المدارس الطبية تعالج الصعوبات الخاصة بأن تكون على علم كاف بأنواع الخبرات التعليمية التي يتلقاها الطلبة في العديد من عيادات الأطباء التي يبعثون إليها بهدف التدريب، والصعوبات الخاصة بتوجيه نوعية التعليم الذي يتلقاه الطلاب.

وكنتيجة لهذه التغيرات العميقة في الظروف المؤسسية والمالية والعملية التي يجري في إطارها التعليم الطبي والجو الاجتماعي والسيكولوجي المحيط بها، أصبحت نسبة ضئيلة من كليات المدارس الطبية العديدة هي التي تدرس طلبة الطب، على أن هذا التدريس والتعليم إنما كان يجري في ظروف لم تكن تسمح للمشتغلين بالتعليم عموما بوقت كاف للتواصل مع التلاميذ، بحيث يصحبون بمنزلة مرشدين ومتابعين وقدوة لهم، وذلك بسبب ضغوط الوقت والممارسة الإكلينيكية والضغوط المالية. وفضلا عن ذلك فإن كثيرا من الكليات قد عانت تدهور نتيجة

لهذه الظروف، ونتيجة لما يعتقد أنه قد نتج عنها من تأثيرات ضارة في نوعية رعاية المرضى والبحث والتعليم (41). كذلك فقد أصبح من الصعوبة بمكان على الطلبة أن يتابعوا تطورات المرض ومعالم تشخيصه ونتائج علاجه، أو أن يقيموا صلات ذات معنى مع مرضى المستشفى المتناقص العدد والذين أدخلت غالبيتهم أما لإجراء فحوصات أو عمليات لا تتطلب ، وفقا للقواعدالجديدة للرعاية الصحية، الإقامة لأكثر من ليلة واحدة، وإما لأن حالتهم استدعت الدخول للعناية المركزة.

وقد دفعت هذه الأوضاع كلا من المشتغلين بالتدريس والطلبة بعيدا عن أسرة المرضى باعتبارها مكان التعلم الطبي، وجعلت من حجرة المؤتمرات، البعيدة عن المرضى، مكان لقائهم المفضل. وعلى الرغم من أن أماكن علاج المرضى قد أصبحت هي الوسط الأكثر منطقية والأكثر فائدة للتعليم الطبي، فإنها، أيضا، أصبحت تتسم بما وصفه «كينيث لودميرر» بعملية الدخول والخروج عالية الكثافة والسرعة للمرضى، وهي عملية من شأنها أن تقوض التميز العلمي والعقلي والإنساني للتعليم الطبي.

ولايزال من غير الواضح إلى ماذا ستؤدي عملية تعليم أطباء المستقبل تحت مثل هذه الظروف. لكن ثمة إشارات توحي، مثلا، بأن طلاب الطب أو الأطباء المقيمين الحاليين أقل مهارة من سابقيهم، في إجراء الفحص الإكلينيكي، وفي القيام بملاحظات طبية، وفي التمييز بين العلامات الجسمانية السوية وهناك أيضا مؤشرات إلى أن لديهم موقفا سلبيا تجاه شركات الرعاية، وهو موقف يزعم أنه ناتج عن تأثير الرسائل «الصريحة والضمنية حول ذلك النظام والتي يتلقونها من مدرس كلية الطب».

ويمكن القول إن أخطر وأهم المشكلات الاجتماعية والأخلاقية التي واجهها التعليم الطبي الأمريكي، هي تلك التي نشأت خلال التحولات التي ألمت بالمدارس الطبية والمراكز الصحية الأكاديمية طوال العقدين الماضيين، ومادام الأمر كذلك، فإن أي خطة فعالة لإحداث تكامل بين العلوم الاجتماعية والأخلاقيات وبين تعليم طلاب الطب، عليها ليس فقط أن تضع تلك المشكلات في الحسبان، بل أن تجعلها جزءا من منهجها الدراسي. على أن الميل طويل المدى لدى المشتغلين بالتعليم الطبي إلى أن يعزوا إلى المناهج المرسومة قدرة سحرية على إحداث تغيير إيجابي وإعادة تشكيل مواقف وسلوك طلبة الطب والأطباء، يبدو مسرفا في التفاؤل بل ومضللا إلى حدما. «فيرنارد لوون»، استاذ أمراض القلب بمدرسة هارفارد للصحة العامة، صور الموضوع بصيغة لا تخلو من حده بقوله: الحديث عن المناهج الدراسية والتعليم الطبي الخاص بالمهارات الإنسانية التفاعلية، يماثل الحديث عن الحياة في أرض لا توجد أبدا.. إذ ما فائدة المهارات التفاعلية اذا لم يكن باستطاعتك أن تقضي مع المريض أكثر من ثماني دقائق؟.

وختاما، فأنا لا أعتبر أنه بمثابة إنكار للأهمية العقلية والموقفية لأهمية التعليم، أن أقرر أنه ما لم تدرك الأكاديميات الطبية أهمية الطبيعة الاجتماعية والأخلاقية وكذلك الاقتصادية للمسائل المترابطة والمتداخلة التي يواجهها كل من التعليم الطبي وممارسة الرعاية الصحية، وما لم تتصد لها بصورة منهجية، فإن واحدة أخرى من محاولات إصلاح المنهج -غير الطبحيوي - والذي يؤكد هذه المرة مناهج تقيم روابط متبادلة بين الأخلاق الحيوية، والطب، والعلوم الاجتماعية - سوف تخفق في إحداث تغير عميق ومستمر.

أين الألم؟

مادة هندية لأخلاق زراعة الأعضاء

بقلم: لورانس كوهين*

ترجمة: د. إبراهيم البجلاتي

مراجعة: أحمد خضر

تمهيد: الندبة

كنا في إحدى الشقق التي أقامها مشروع الإسكان المحلي ذو الغرفة الواحدة في حي الفقراء في شيناي Chennai[1]، والحجرة مليئة بصور فوتوغرافية يظهر فيها صاحب البيت بصحبة قادة التاميل السياسيين. كانت زوجته، وهي واحدة ممن قابلتهن في أحد صباحات شهر يونيو 1998، كانت كل واحدة منهن قد باعت إحدى كليتيها منذ سنوات عدة مقابل 32.000 روبية (حوالي 1200 دولار حسب السعر وقت البيع)، تحكي كيف يقع الفقراء تحت وطأة الديون. أصبحت شيناي والتي يطلق عليها عادة «مدراس»، المكان الذي يسعى إليه الباحثون عن «بيع كلى» لمجرد البقاء على قيد الحياة. دعتنا هذه المرأة، أنا والممرض فليكس كوتينهو، الذي قام بترتيب هذا اللقاء، وأربع نساء أخريات باعت كل منهن إحدى كليتها، لاستخدام منزلها كمكان لإجراء هذه اللقاءات. كن جميعهن من النساء، وكن جميعا قد عبرن من خلال الدكتور ك. س. ريدي لإجراء هذه الجراحة. «عملية جراحية» هذه هي الكلمة الوحيدة التي استطعت أن أميزها في الحوار الذي يترجمه لي السيد كوتينهو من لغة التاميل إلى الإنجليزية. كنت قد عملت في شمال الهند والولايات المتحدة، لكن ليس للإنجليزية أو الهندية أي نفع في هذه اللحظة. فعندما تنتزع الأعضاء من اللحم، تشكل معا مساحات من التحليل الكليّ، ولتحديد هذه المساحات وجدت نفسي قلقا دائما، وأكثر اعتمادا، بشكل غير مريح على الترجمة.

● العنوان الأصلي للمقال: Where it hurts Indian Material for an Ethics of Organ Transplantation، وقد ظهر في مجلة Daedalus عدد خريف 1999.

* لورانس كوهين (Lawrence Cohen): أستاذ مساعد الأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا، بركيلي.

1 شيناي = مدراس: هي عاصمة ولاية التاميل نادو.

أما الدكتور ريدي فهو أكثر المدافعين صراحة عن حق شخص ما في أن يبيع كُليته. كانت مهمته - حتى 1994، عندما كان مسموحا باستئصال «كلية» شخص ما دون وجود علة مرضية - مثالية من الناحية الشكلية: تعريف البائعين المحتملين بالآثار التي تترتب على هذه العملية، عامان من الرعاية الصحية المجانية وكيفية الإفلات من السماسرة وعمولاتهم. كانت زميلتي الأنثروبولوجية باتريشيا مارشال، قد درست هي وجراح زراعة الأعضاء العماني عبدالله ذعار ممارسات الدكتور ريدي وزملائه ولم تجد أي دليل يثبت صحة التقارير الواردة عن وجود احتيال أو سرقة أو تضليل للبائعين. قامت مارشال بتقديمي للدكتور ريدي وللممارس العام الذي يدير عيادة المتابعة خاصته لهؤلاء الباعة المحليين.

عندما زرت عيادة المتابعة هذه للمرة الأولى، وجدت كوتينهو جالسا في الشرفة وبصحبته عدد من المرضين. كان كوتينهو هذا وسيطا سابقا بين العيادة والبائعين ويعرف أين يجدهم. تحدثنا قليلا حيث لم يكن هناك الكثير من المرضى. كانت العيادة قد أغلقت عندما أوقف الدكتور ريدي برنامجه لحظة انتباه الهند في سنة 1994. سمح قانون زراعة الأعضاء البشرية، والذي جرّم بيع الأعضاء البشرية الصلبة بشكل لا غموض فيه، بنزع الأعضاء من «موتى الدماغ»، وقام بمنع التبرع بعضو من أعضاء الجسم من الأحياء بخلاف الأب، الابن، الأخ، أو الزوجة. كانت هناك بعض الاستثناءات، المصرح بها من قبل لجان الترخيص التي أنشئت في كل ولاية من الولايات التي عملت على تطبيق هذا القانون للتأكد من أن المتبرع هو أحد أقارب أو أصدقاء المريض. كانت صحيفة «الجبهة» المحلية التي تصدر في شناي قد نشرت قبل عام تقريرا وثائقيا يكشف عن سهولة خداع هذه اللجان. فمادامت الأوراق سليمة، كما تقول لجان التحقيق، فإنه من المستحيل على أعضاء اللجنة أن يفرقوا بين التبرع إيثارا ودون مقابل والبيع المستتر.

جلست في الشرفة بصحبة كوتينهو ورحنا نتحدث عن مشروعي. كان حريصا على مساعدتي لأنه، هو أيضا، كما يقول، مهتم بالنشاط الاجتماعي. ثم أخبرني عن مشروعه بعد ذلك، مؤسسة الحب (Love Foundation)، وهي عبارة عن بيت للعجائز المعدمين أسسه هو ورفاق كنيسته. هل يمكنني أن أفكر في زيارة «بيت الحب» ومساعدتهم؟ واتفقنا على زيارة أحياء الفقراء بـ «أينفارام» و«أوتري» في صباح اليوم التالي، وعندما أجمع عددا كافيا من باعة الكلى يمكنني أن أتحدث إلى سكرتارية مؤسسة الحب.

سلك العديد من الباحثين هذا الطريق من قبل، في حي الفقراء بـ «شيناي»: قصص المذلة، الصور المكررة لرجل أو امرأة يدير خاصرته إلى آلة التصوير ويشير بإصبعه إلى الندبة. حي الفقراء الأمثل هو «فيلليفاكم» المعروف سخرية بـ «حي الكلى» (Kidney Vakkam) إذ إن الكثير من سكانه أجريت لهم هذه العملية الجراحية. أخبرني راج شنجابا نائب رئيس التحرير بمجلة «الهند اليوم»، أنه بعد أن قام بنشر قصة «فيلليفاكم» في أوائل الستعينيات تحت عنوان «سوق الأعضاء الكبير» غرق في سيل من المكالمات الهاتفية من وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية. وأصبحت همجية «فيلليفاكم» روتينية، إذ إنها عندما استيقظت على الفضيحة والصدمة قامت بخلق قصص - مضادة ظهر فيها البائعون كعملاء مدركين يحددون اختياراتهم الموضوعية، في ظل ظروف لا يحسدون عليها لكنها واقعية. واشترك سماسرة المعلومات مع سماسرة الأعضاء في قيادة صناع الأفلام والصحافيين وفي أثرهم الأنثروبولوجيون، والأخلاقيون وفرق تقصي الحقائق الطبية - عبر طرق ممهدة إلى الحكايات الموثوق بها. ووفق الحاجة، تجسدت مناطق العنف أو القوة والعقل. وامتلأ حي الفقراء بمادة صالحة لكل أنواع العمل الاجتماعي.

قلة قليلة من الأعداد المتزايدة من خبراء حي فيليفا كم هي التي غلقت على معالم حي الفقراء الطوبوغرافية التي تهم الغرباء: تكتظ بمكاتب الرهن حيث يشتري المرابون ويبيعون الذهب وغيره من النفائس. وتعلق اللافتات التي تشير إلى أسعار البيع

والشراء اليومية خارج المحلات التي يكتظ بها المركز التجاري. وتقوم النساء على وجه الخصوص بفحص الحلي حيث الشراء وسيلة لتعزيز الأرباح أو يساومون حول المال أو الدين برهن حليهن. كما يوجد القليل من البنوك.

تساءلت إذا ما كانت فيلليفاكم هي المكان المناسب للبداية، إذ انتابني إحساس بظهور سماسرة الأخبار الذين يغرقون الصحف المحلية ويمدون الباحثين بنسخ من الحكايات يعدلونها وفق رؤيتهم لما يتوقع الباحث أن يجده. سألت كوتينهو إذا ما كان هناك مكان آخر، حيث يمكن للمرء أن يتعلم شيئا جديدا. فانتهينا إلى المشروع المحلي بـ «أينفارام»، في الحجرة مع القادة السياسيين، واستمعنا إلى امرأة تلو الأخرى تروي كل منهن قصتها. قصص متشابهة، لكنها تختلف في قيمتها عن الحكايات الشائعة، حيث لا وجود لاستغلال واضح أو لمكتب تجاري ضخم.كانت هناك انحرافات واضحة: كان كوتينهو مرتبطا بـ «ريدي»، وربما يكون وجوده قد كبح حكايات الاستغلال أو سوء التصرف. وبالمقابل، كان يبدو عليّ الثراء - ألبس كأبناء الطبقة الوسطى، أجنبيا وأبيض - فضاعفت احتمالية الإحساس القادم من روايات الفقر والقنوط. وصلنا في صباح متأخر، في الوقت الذي تعود فيه النساء من أعمالهن المنزلية بينما الرجال ما يزالون في أعمالهم أو يبحثون عن عمل يومي، وبناء على ذلك ربما نكون قد بالغنا في تقدير نسبة النساء إلى الرجال. لكن الرجل الوحيد الذي قابلناه قال إنه بالإضافة إلى النساء هناك عدد قليل من الرجال في هذه الناحية أجريت لهم هذه العملية. وفي كل منطقة ذهبنا إليها، كانت القصص التي استمعنا إليها تختلف من حيث تفاصيل الشخص وظرفه الخاص، لكنها كانت تشترك في العديد من الخطوط العامة.

اتفقت الروايات في: بعت «كليتي» مقابل 32.000 روبية. كنت مضطرا لذلك، تورطنا في دين ولا نستطيع العيش. خضعت صديقتي للعملية وأخبرتني كيف أتصرف. لم أكن أعرف ما هي الكلى؛ أراني الأطباء شريط فيديو. تقوم الكلى بإفراز الماء، وتنقية الدم. لديك اثنتان. يمكنن الحياة بواحدة، لكن ربما تمرضين أو تموتين من جراء العملية أو من أيّ شيء آخر. يجب أن تخضعي لعملية تحديد النسل لأنه من غير ا لكلى يصبح خطرا عليك. كنت قد أجريت هذه العملية من قبل.

بالإضافة إلى: ما هي الاختيارات المتاحة لي؟ حقا كنت بعد العملية، وأحيانا أشعر بالتعب. لكن بشكل عام أنا مثل ما كنت من قبل. نعم، من الممكن أن أفعل ذلك مرة ثانية لو أن لديّ واحدة أخرى. مضطرة لذلك. ذهب المال الذي حصلنا عليه، وأصبحنا مدينين مرة أخرى. يحتاج زوجي لقوته من أجل العمل، ولن يقوى على العمل إذا أجريت له هذه العملية. نعم، وأنا أيضا أعمل.

تناثرت من حولنا صور عدة تجمع الزوج برئيس وزراء «التاميل نادو» الراحل، المعروف بالحروف الأولى من اسمه: أم. ج. آر (M. G. R.). كان الزوج قد نظم احتفالا في مقر مشروع الإيواء لـ «أنّا دارفيدا مونترا كازاجام». تقول الزوجة إنه كان على علاقة قوية بالقادة في عهد أم. ج. آر. وأشارت إلى صورته قائلة: كان هو الآخر يحتاج إلي كلى. كان يموت، وحصل على هذه الكلى من ابنة أخته؛ أجريت له الجراحة في أمريكا. ولو كنت أعرف، لأعطيته كليتي. لماذا شيناي؟ الفقر المدقع والديون منتشران في كل مكان، لكن الجنوب الحضري كان أول تربة خصبة لجني الأعضاء. جزء من الإجابة ليس مفاجئا. فالرعاية الصحية الأولية والابتكار الطبي أكثر تطورا في جنوب الهند، مما أدى ليس فقط إلى إجراء الكثير من جراحات زراعة الأعضاء الأولى في الهند لكن أيضا إلى سهولة وصول أشخاص من الطبقات المختلفة إلى المعاهد الطبية. أما فيما يخص بيع الكلى الآن في شيناي، فمن الواضح أن العلاقة بين الطب وما يمكن أن نطلق عليه «التكوين الجسدي للمواطن» قد تم وضعها على أساس الجنس.

ما الذي يمكن أن تؤدي إليه هذه الرابطة بين الجنس، والمواطنة، وزراعة الأعضاء؟ أجرت سيسليا فان هولن دراسة قارنت فيها بين الاستخدام الكثيف

لطب التكاثر وتنظيم الأسرة من جانب النساء الفقيرات في شناي ومدن التاميل الأخرى. يختلف الوضع هنا بشكل ملحوظ عن شمال الهند، حيث لا تلجأ النساء كثيرا إلى البرامج الحكومية الطبية مثل «ربط البوق» (Tubal ligation). بينما تحتوي أجساد الكثير من النساء الفقيرات في شيناي على آثار جراحات التوليد وتنظيم الأسرة. ترجع النتائج التي توصلت إليها فان هولن إلى شمولية وكثافة النظام الطبي ومركزيته بالنسبة لقدرة النساء على مواجهة الدولة. ماذا قلن في «أينفارام»: لقد أجريت هذه الجراحة من قبل. قالوا إن عليّ أن أجريها قبل عملية الكلى، لكنني كنت قد خضعت لها بالفعل.

هكذا، قررت الغالبية من النساء أن يخضعن لعملية «ربط البوق» قبل أن يكون بيع الكلى مجرد تصور. إذن يمكن تحول شيناي إلى «حي الكلى» في الطواعية الجراحية الأولية لهذه الأجساد. العملية هنا هي شرط محوري للمواطنة، أقصد لممارسة القوة في مواجهة الدولة. ليست «العملية» إذن مجرد نموذج للقوة؛ إنها الخلفية الأساس للقوة. وبعبارة أخرى، أصبح خضوع النساء لـ «عملية» وسيلة شائعة مهيمنة في محاولتهن تأمين المستقبل،. إلى درجة اختفاء الحدود بين الوسائل والغايات: لكي تكون شخصا ذا اختيارات يجب أن تخضع للعملية، ولكي تخضع للعملية يجب أن تكون شخصا قادرا على الاختيار. إذن ليست العملية مجرد إجراء له مخاطره وفوائده وقيمته الثقافية؛ إنها تمنح الفرد ذلك النوع من القوة الذي أطلق عليه «المواطنة».

قيل في هذه اللقاءات إن العملية تضعف الرجل أكثر مما تضعف المرأة. وفي وقت سابق في أثناء مناقشة القابلية للجراحة، إبان «الطوارئ» القومية قبل عقدين من الزمان وما صاحبها من إجبار المواطنين على تحديد النسل عن طريق الجراحة، خاصة «قطع القناة الدافقة» (Vasectomy) تعيد الرواية السائدة الآن عن مخاطر العملية بالنسبة للرجال إلى الأذهان، ذكرى هذه الأيام. كما تعيد إلى الأذهان ظاهرة القلق الذكري العام في مواجهة القدرة المزعومة للأنثى على التجدد. تتجلى في حكايات أولئك النسوة فيما يخص أزواجهن، أن «المواطنة» الجراحية تحمل مخاطر أعلى بالنسبة للرجال: حرفيا «تخصيهم». فمناطق مثل مناطق الكلى في ريف التاميل نادو والتي تغذي الصناعة في بانجالور (2)، يوجد عدد أكبر من الرجال الذين قاموا ببيع كلى أكثر مما يوجد في شيناي، وغالبا ما تحتوي هذه المناطق على مستعمرات سكنية تؤوي العمال الذكور المهاجرين والذين يدفعون ديونا طائلة في أثناء انهيار صناعة الأنسجة التي تعتمد على الأنوال اليدوية. وظلت النساء في القرية، واحتمالات دخولهن إلى المستشفى من أجل ولادة طفل أو إجراء جراحة مثل ربط البوق أقل كثيرا من نساء المدينة.

لو كان ممكنا لأعطيته كليتاي: إذا كانت الشروط النوعية (ذكر أم أنثى) للمواطنة قد تأسست جزئيا في شيناي على قابلية شخص ما للجراحة، وبما أن النساء هن الموضع الأساس لهذه العملية الجراحية، إذن يمكن إعادة النظر في اقتراح هذه المرأة بأن تهب كليتيها لـ «أم. ج. آر». تبدو إيماءة هذه المرأة كما لو كانت نوعا من تطهير النقص الجراحي للمواطنة بوضعه في إطار الهبة التي كان من الممكن أن تنقذ حياة القائد الشهير. وبذلك تكون مضيفتنا قد حولت جراحتها الثانية من إجراء مذل إلى فعل يحيي رئيس وزراء تاميل نادو الراحل المحبوب. وفي وقت متأخر من هذا اليوم، اشتكى لنا أحد الشبان، ابن لامرأة أخرى كانت قد باعت واحدة من كليتيها؛ أن الآخرين ينادونه بـ «يا ابن بائعة الكلى». إن النسق الحالي الذي يحول كل شيء إلى سلعة، والذي في ظله أدت العملية الجراحية إلى تحويل هذه الأم إلى داعرة، يعادله إنعاش أم. ج. آر الأب الروحي والنظام المثالي الذي يمثله هذا الزعيم. وباستشهاد هذه السيدة بحاجة أم. ج. آر إلى كلى يتحول البيع إلى هبة لزعيم التاميل تسترجع العلاقات الاجتماعية النموذجية لذلك الوقت وتجعل من كل هذا البيع شيئا لا لزوم له.

أيّ صيغة يمكن أن يتخذها الألم، في إطار هذه الهبة الوهمية؟ قدمت إحدى النسوة الجالسات

بالغرفة بداية للإجابة. قالت هذه المرأة إن العملية آلمتها. «مازالت تؤلم». أشارت المرأة إلى خاصرتها، إلى الندبة. «تؤلم هنا». طلبت منها، عبر كوتينهو، أن تصف الألم. لا توجد في الهند بيانات عن الآثار السلبية لاستئصال الكلى من أولئك الباعة الفقراء كما يفتقد غالبيتهم إلى المتابعة الطبية على المدى البعيد. وبدأت أطرح عليها أسئلة أكثر تحديدا، في محاولة لاستشفاف الأعراض.

نظرت إليّ، ثم إلى كوتينهو. راحت تتكلم، قبل أن أسألها عن هذا الألم، عن زوجها: العمل الغير منتظم، الإحباط، والسكر. كنا نستمع؛ حولت نظرها إلى موضع الندبة، وقالت: اعتاد أن يضربني هنا، هنا. حيث لم تعد هناك أي نقود.

كتب آرثر كلينمان (Arthur Kleinman) في دراسة إثنوجرافية تعنى بما هو جوهري، صيغة رائعة خادعة الشفافية. فمعنى الندبة هنا يختلف بالنسبة للنسوة الجالسات في الغرفة، عنه بالنسبة للأطباء في بانجلور، عنه بالنسبة للزوج الذي يضرب، عنه بالنسبة لي. بالنسبة للنساء، تملك الندبة لحظتين: الماضي القريب حيث تسجل هذه اللحظة نجاح جهودهم في التخلص من الدين الثقيل والمحافظة على ممتلكاتهم، والحاضر المؤسف حين تصبح الندبة علامة على قصور هذا النجاح. علامة تجسد القروض التي يبحث عنها شخص ما لدعم الاحتياجات ومنح الحياة لأسرة ما، كما توضح الندبة حتمية أن يقدم شخص ما جسده كإضافة تعويضية وفي الوقت ذاته محدودية هذه الإضافة. إذ يمكن للشخص أن يعطي كلية واحدة فقط، بينما تظل شروط الاستدانة قائمة. وفي لحظة ما تنفذ النقود ويحتاج المرء إلى دين جديد، وهنا تتوقف الندبة التي تغطي الجرح عن الإشارة إلى «هبة» لتصبح علامة على دين.

أما بالنسبة للأطباء، فتشير الندبة إلى أن عملية استئصال الكلى يمكن أن تلتئم أو التأمت بالفعل، مؤكدة على خبرتهم ومهارتهم والتزامهم تجاه ما يفعلون. حياة مقابل حياة، قالها أحد الأطباء: الجرح الحقيقي هو الفقر، والعملية تقدم المال الذي يشفي من هذا الفقر.

ومع ذلك هناك خوف دائم، إذ تقول المعلومات المضادة إن الأشياء يمكن أن تسير أو هي بالفعل تسير في الاتجاه الخاطئ، ليس فقط في التئام اللحم بل في التئام الإفقار الذي يتحمله اللحم. يعلم الأطباء أن هؤلاء البائعين لا يملكون مدخلا للرعاية الصحية، فهم غالبا يضطرون إلى العمل في الخدمات الشاقة، كما أنهم يعانون من سوء التغذية، وأنهم يعيشون في المناطق الفقيرة حيث تستوطن الأمراض المعدية وإدمان الكحول. ويعلمون أيضا أن الكثير من هذا المال سيفر سريعا من أيدي البائعين ليستقر في أيدي المرابين، وأن الكثير من هؤلاء البائعين لا يملكون حسابا مصرفيا. ومن جهة أخرى، يدرك الأطباء اهتمام العامة بالشائعات التي تدور حول عصابات سرقة الأعضاء، وأن المستشفيات المنافسة ربما توجه تهمة ضد أيّ منهم: كل من القلق العام واستراتيجيات المتنافسين يمكنها أن تستحضر الشرطة في أيّ لحظة. وأيّا كانت البراعة التي أجريت بها الجراحة، تظل الندبة دليلا عليهم، لذا يجب على البائعين أن يظلوا بعيدا عن العيون. ومثل الساديين، يحاول الأطباء محو كل ما يدل على الجرح.

وبالنسبة لي، كان هناك اقتفاء آثار رواية طبية ذات مصداقية أكبر. كذلك، وبقدر أقل من الثقة كانت هناك إثارة الصيد، ومتعة بناء نظرية، وربما القلق المبتسر بشأن التعديلات الحيوية ـ الاجتماعية الجديدة التي يسميها بول رابينو « التطهرية»، كان كل هذا يوجه انقضاضي على الممارسات الطبية من علياء مزعومة.

وبالنسبة للزوج؟ لم أقابله أبدا، ولأجل راحتي إن لم يكن الاشمئزاز الدائم لا أستطيع أن أتخيل كيف يستتشعر ألم الجرح الكائن في جسد آخر أو الفراغ الكامن تحت قوس لكماته. يظل إدراك المرء للتشوه الذي يعتري الأمل المرجو من العملية ناقصا، فمع هذا التشوه تتحول الندبة ببطء من علامة تبادل إيجابي إلى علامة على دين دائم.

حياة مقابل حياة

يتخذ الجدل الدائر الآن حول أخلاقيات بيع

أعضاء الفقراء المستأصلة جراحيا موقعا جديدا. حيث يتجه الفلاسفة والأطباء وعلماء الاجتماع بشكل متزايد نحو عدم الفصل أو التفكير في قضية سوق الأعضاء البشرية. وفي الهند ـ الأكثر شهرة بين عدد كبير من الدول التي تؤيد ظهور سوق للكلى ـ بدل عدد من المعارضين لبيع الأعضاء مواقعهم. يظهر أر. أر. كيشور كواحد من أكثر المعبرين عن هذا التحول، بينما هو أحد القيادات الطبية البيروقراطية سابقا، وحاليا هو عنصر فاعل في المؤتمرات المتعددة الأطراف وفي الحملات المكثفة المؤسسة للتوسع الكوني في مجال الأخلاقيات الطبية. وهو أيضا أحد مهندسي قانون زراعة الأعضاء البشرية الذي صدر في سنة 1994، وفي سنة 1998، في مقابلة أجرتها معه في دلهي الزميلة مالكت جيوبتا (Malkeet Gupta)، أعلن أن مشاركته في صياغة هذا القانون كانت خطأ فادحا. يمضي كيشور في تفكيره هادئا، حيث يقول، مرددا للادعاءات الشائعة أن الحصول على الأعضاء من جثث الموتى لا يصلح لبلادنا. فالبنية التحتية تعاني من قصور شديد ولن تتقبل العقلية الهندية ذلك. حتى وإن كنا سنتمكن خلال سنوات من إنبات الأجنة كـ«الفشار» ـ عبارة معذبة ـ فإن استخدام تكنولوجيا الاستنساخ سيكون لها هي الأخرى محاذيرها الأخلاقية. وبالنسبة لاحتياجات شعبنا، يقترح كيشور، يجب أن نعيد التفكير في موقفنا. وأضاف، متقمصا جدية ممثل مسرحي: أنا رجل يموت من الجوع. أسأل هذا مساعدة، هو لا يملك شيئا. ثم أسألك. فتجيب: «وأنا أيضا أموت. أريد عضوا. سوف أساعدك إذا ساعدتني». فالسماح بأن يعطي أحدهم مالا فائضا مقابل كلية فائضة لدى شخص آخر ليس تجارة غير مشروعة، يقول كيشور مستنتجا، بل حياة مقابل حياة. والكل يربح.

أما النسخة الأكثر سفسطائية في قضية بيع الأعضاء هذه فقد صاغتها الفيلسوفة البريطانية جانيت رادكليف ـ ريتشاردز، وقد صدق على هذه النسخة زملاؤها من أعضاء المنتدى الدولي لأخلاقيات زراعة الأعضاء الذي تدعمه منظمة الصحة الدولية، ونشرت في سنة 1998 في مجلة «لانست الطبية» (3). وباختصار، أقرت هذه المجموعة أربع نقاط:

1 ـ يستند المعارضون لبيع الكلى إلى العاطفة أكثر من اعتمادهم على المنطق، ويتطلب موقفهم هذا ما يبرر الرفض الأبوي لحق الأشخاص في التصرف بأجسادهم وفق رغبتهم.

2 ـ تخلق هذه المناظرات من الاستغلال والإكراه والمخاطر التي تحيط ببيع الأعضاء قضية استثنائية في حين أنها تتجاهل المظاهر التي لا حصر لها من الاستغلال والإكراه والمخاطر التي يضطر إليها الفقراء من أجل أن يظلوا أحياء، وسوف يضطرون إلى ما هو أكثر من ذلك إذا تم حظر بيع الأعضاء.

3 ـ تعود الأشكال الخاصة من الاستغلال المتضمنة في تجارة الأعضاء بدرجة كبيرة إلى الحظر المفروض على هذه التجارة، والطريقة المثلى للتغلب على ذلك ربما تكمن في جعل هذه التجارة رسمية، وشرعية ومركزية.

4 ـ الحقيقة التي مفادها أن عددا قليلا فقط من مرضى الفشل المزمن في وظائف الكلى هم القادرون على الاستفادة من هذه الوسيلة المكلفة، ليس اتهاما ضد تجارة الكلى في ذاتها، بل لطبيعة الطب الاستثماري الخاص، وبصيغة أعم الاقتصاد السياسي حيث يجب أن تتركز ردود الأفعال.

ويستمر كتاب مقالة «لانست» في تحدي المشتركين، عبر منحدرات لزجة وإنكار للتجارة يقوم بصياغتها المؤيدون لإنشاء سوق منظم. وباختصار، تجارة الكلى، إذا نظمت جيدا بواسطة الدولة، هي صيغة رابح ـ رابح. أنت تحصل على كلى، وأنا أحصل على النقود، وهكذا نظل أنا وأنت أحياء على رغم أنف الجميع.

وأود هنا أن أقدم بعض الاقتراحات المستمدة من الواقع المادي والتي ربما تفسر لماذا تفتقد الصياغات النظرية التي يسوقها كيشور والمنتدى الدولي للمصداقية على أرض الواقع. ليست هذه الصياغات هي السائدة بالضرورة، لا في الهند ولا في الجدل

الكوني الدائر في عالم الأخلاقيات الطبية، لكنها تكتسب أهميتها من تحديها لما يعرف بـ «الأبوية السهلة». سآخذ دعوة رادكليف - ريتشاردز بالذهاب إلى ما وراء المخالفات الأولية في بيع الأعضاء، وعامدا إلى قراءة اقتراحها بتوافق مع انتقادات رابينو لأخلاقيات الشك في مقالته الخاصة بصراع الجينات. تطلب من دراكليف - ريتشاردز أن ننظر في قضية بيع الأعضاء دون القفز إلى نوع من التحذير والندم الأخلاقي - التطهري الذي يصوره رابينو. هذا يكفي. لكن نظرا لأن الأبوية الأخلاقية كما تصورها رادكليف - ريتشاردز تفترض «استمرار المشين» بشكل مبتسر، قبل التأكد، وبالتالي (بالاتفاق مع زملائها في مقالة «لانست») تتوصل إلى العديد من الاستنتاجات - المضادة المبتسرة بشأن المناطق الواضحة للتجارة، والمخاطر، والتبادل والبيروقراطية القومية.

هكذا، تقنع أبويتنا التطهرية،عبر قراءة فاجعة، ببيع عضو ما من أعضاء الجسم في إطار مصطلحات شكلية، دون السؤال عن المخاطر النسبية أو الفوائد التي يمكن أن تعود على أشخاص لن يختفي بؤسهم تحت راية هذه الصفقات. لكن وبشكل متوار، يرضى تفكير رادكليف - ريتشاردز الموضوعي بأن يستنتج من قصاصات الصحف المتناثرة، وما يقابلها من القصص البائسة (على سبيل المثال، قصة الرجل التركي الذي ماتت ابنته لأنه لم يتمكن من بيع كليته من أجل إنقاذها) أن بإمكاننا التحدث بشكل من أشكال الوصاية عن مخاطر وفوائد أحياء الكلى (Kidneyvakkams) الناشطة في العالم دون إصدار حكم نهائي.

المرجعية هنا مسألة جوهرية. فكل من الخصم الأبوي والمناظر الموضوعي يعالج المسألة من خلال تأجيل خاص به، وهو ما شددت عليه باعتباره المثابرة على الكتابة دون يقين. وهذه المثابرة ليست عرضية، لذا أفترض، باستثناء بعض من كتاباتنا، أننا نشكل ما يمكن أن أطلق عليه «دعاية أخلاقية». ولكي نتوصل إلى ما أعنيه بهذا المصطلح، سأقوم بتقسيم حجتي إلى ثلاثة أجزاء تعنى بالأخلاق باعتبارها ممارسة محورية بشكل أو بآخر، بالنسبة لعلماء الاجتماع والباحثين في الأنثروبولوجيا الطبية، وفق ضرورات العولمة. الأخلاق في ذاتها مثالية. فإذا كانت حجتي - التي ينبثق مفهومها للأخلاق باعتبارها عنصرا مركزيا في العولمة من أطروحة جديدة لـ «رابينو» - سيتم اختزالها إلى مجرد هجوم تأديبي، أكون إذن قد فشلت.

أولا، سأفترض أن منطق التأجيل يسمح باختزال التحليل الأخلاقي إلى مجرد إطار إجرائي ينظر إلى كل ما هو خارج ثنائيات بائع/ مشتر، متبرع/ مستقبل، أو طبيب/ مريض باعتبارها إجراءات ثانوية. يقدم كتاب آلان فرتيمر «الاستغلال» مثالا على قيمة وحدود هذا الاختزال بشكل أكثر عمومية. وبالنسبة للمنتدى الدولي كما بالنسبة لـ «كيشور» يتمثل الهدف في الوصول إلى سيناريو رابح - رابح، يمكن إنجازه باعتباره حياة مقابل حياة. والسياسة يجب أن تنهض على فهم للتحليل الاجتماعي باعتباره تجمعا لصفقات فردية.

ثانيا، تتميز الأطر الإجرائية - توصف بمجرد أن يتم اختزال الأشكال والإجراءات الاجتماعية إلى ظواهر ثانوية - بالمرونة وإمكان التصدير. هناك جمهور عريض يتابع مجلة «لانست»، لكن حتى من قبل أن يتم نشر هذا التقرير كان كل من قابلتهم من جراحي زراعة الأعضاء من الهنود في بانجالور وشيناي قد اطلعوا على كتابات رادكليف - ريتشاردز. يجب على الأخلاق أن تتحرك بخفة. فلا النظرة التطهرية الأخلاقية ذات المرجعة الدينية، ولا النظرة العلمية - الاجتماعية، ولا الصياغالت النقدية أو صياغات ما بعد - التكوينية تلائم اللحظة الراهنة. فهي ليست عالمية، وليست اقتصادية، وبالتالي تفشل في تقييم موضوع العولمة المتنامي. بينما تعنى أخلاقية رادكليف - ريتشاردز بالأقلية الهندية التي يمكنها تحمل نفقات الغسيل الكلوي وزراعة الكلى. أما الباقون، فلا يوجد مكان للقلق عليهم من بيع الأعضاء، إذ إن تغييرا اجتماعيا ضخما هو فقط الذي يمكن أن يؤثر في مستوى الرعاية الصحية التي يحصلون عليها. وحيث

إن الرعاية الطبية والتكنولوجيا الحيوية المكلفة أصبحتا مترادفتين إذن فعلى الفقراء أن يحلموا برعاية صحية أفضل في العالم الآخر. عديد من جراحي بنجالور، على عكس ك. س. ريدي، يقدمون متابعة غير كافية أو لا يوفرون هذه المتابعة على الأطلاق لهؤلاء البائعين الفقراء، كانوا من بين أشد المتحمسين لنشر كتابات رادكليف - ريتشاردز ولما كتب بعد ذلك في «لانست». ستساء قراءة المناظرات دائما، لكن المغزى هنا هو أن بعض الأخلاقيات ستمر بسهولة نظرا للمرونة التي تتمتع بها هذه الأطر الإجرائية ذات الطابع الاختزالي.

ثالثا، ليست فقط مرنة، لكن الأخلاق التطهرية يمكن إزاحتها أيضا لكي تخدم ضرورات اللحظة. تفجرت فضائح الكلى بشكل منتظم في بانجالور، ودلهي وأماكن أخري من الهند، وتم اعتقال عدد من الأطباء بتهمة خداع الفقراء وإجراء جراحات غير ضرورية لهم يتم خلالها استئصال الكلى. من المؤكد أن هذه الحوادث قد حدثت من آن لآخر، إلا أن الفضيحة التي قمت بدراستها كانت مبنية على اتهامات ملفقة. حيث يقوم أصحاب المستشفيات والسياسيون المتحالفون معهم بالتعاون مع جهاز الشرطة باستغلال هذه الاتهامات ضد التحالفات المضادة من الأطباء والساسيين: مشيعين اهتماما شعبيا عاما بشأن سرقة الأعضاء، إذن تستخدم فضائح الكلى كوسائل تدمير في أيدي السياسيين ورجال الأعمال، وبذلك تزداد قيمتها كآلية من آليات فرض النظام.

ما هي العلاقة بين الأخلاق المرنة لـ« حياة مقابل حياة» والأخلاق التطهرية لـ «استمرار المشين»؟ أعتقد، على الرغم من التعارض المتبادل بينهما، فإن طريقتهما في الاشتباك تشترك على الأقل في بعض الأشياء، أشياء أجمعها معا تحت مسمى «الدعاية». أصبحت الأخلاق هي مودة الأحاديث العامة بشأن الأوضاع الاجتماعية - الحيوية الناشطة. وأقصد بالأحاديث العامة ذلك المعنى المزدوج المنبثق عن «كانت» و«إبرامز»، وأعمالهما النقدية الموجهة ضد «هوركهيمر» و«أدورنو»، وصولا إلى «مايكل فارنر»: أحاديث لا تتموضع فقط في الجانب الشعبي بل تشكل مكونا أساسيا من مكوناته. سأطلق على العقلانية المنبثقة من الحيوية الاجتماعية عبر المنطق المرن لسيناريو «رابح - رابح»، وهو منطق يفترض التماثل «حياة مقابل حياة» بين الحياة الثرية نسبيا لشخص يعاني من فشل في وظائف عضو من أعضاء جسمه وحياة أخرى غارقة في دين ومجبرة على بيع عضو من أعضائها، وصف «الدعاية الأخلاقية». وكما لاحظت نانسي شيبر - هوجز، ينقسم هذا الجمهور إلى أجساد أخرى تصنف كـ «باعة» الأول زبون للحيوية الاجتماعية الجديدة والثاني هو الذي يبيع لهذا. على خلاف الدعاية الأخلاقية وواقعيتها، تتطلب «الدعاية الفضائحية» - والتي أضم إليها إزاحة الأخلاق التطهرية إلى فضيحة عامة - جمهورا موحدا ضد القرصنة التي تربط نزيف الأنسجة الحقيقي والوهمي معا.

الموقف الذي يحتله البحث الفلسفي - الدراسة التجريدية لقضية بيع الأعضاء - هو موقف دفاعي ضعيف في مواجهة إساءة التطبيق التي يمارسها من يحتلون مكانة مرموقة في الدعاية الأخلاقية. إن الاعتراضات التي ساقها الأنثروبولوجيون في مواجهة الدعاية الأخلاقية، على رغم اشتراكهما (بما في ذلك هذه الأطروحة)، في القذف التطهري نفسه الذي يغشي الإدارك المنطقي، تظل مجرد مناورات نقدية ما دام خيال البحث الأخلاقي المتعالي يحل محل الإجراءات المرنة على المستويين المحلي والمؤسساتي. وبشكل خاص، ترسم مساهمات أرثر كلينمان النقدية ورفض نانسي شيبر - هوجز الواضح، لأي استئصال نقوم به من أجساد وحياة المتبرعين والبائعين الفقراء وردود أفعال الإثنوجرافيين والتي يجب أن تملأ الفراغ النقدي. المشكلة الأولى هي الثنائيات. خذ مثلا، ادعاءات البائعين بقدرتهم على التصرف بهذه الثروة المفاجئة كما يحلو لهم. ترى الأخلاق المرنة في البائعين أناسا لهم احتياجات (للمال) ورغبة (في بيع عضو من الجسد مقابل هذا المال). «نعم، لكنت فعلتها مرة

أخرى». لكن استمع أكثر في شيناي «...لو كنت أملك كلى أخرى لأعطيتها». وأكثر «كنت مضطرا لذلك». يعد تشكك رادكليف ـ ريتشاردز في المنكرين الأبويين، حركة مفهومة موجهة ضد المنطق الطليعي الذي يثير الوعي الزائف عندما لا يقوم «الفقير» بإخبار الإثنوجرافي بما يريد أن يسمعه. لكن المشكلة ليست ما إذا كانت عبارة «لكنت فعلتها مرة أخرى» كلاما قسريا أو محرفا، لكن ماذا يحدث عندما تظل تسمع «كنت مضطرا لذلك». فهل تضاد التجارة والإجبار هو المسؤول عن هذه الـ «كنت مضطرا لذلك».

المشكلة في هذا النوع من الجدل الأخلاقي هو التسليم بإمكان اختزال الأخلاق إلى مجرد إجراء أوليّ. يؤطر هذا الاختزال كل الاعتبارات الوثيقة الصلة بالموضوع باعتبارها ظواهر ثانوية مولدا بذلك معادلة طوبوية: إذا كان التحكم بالظواهر الثانوية ممكنا، فإن الأخلاق تصبح ممكنة. لكن، في الحقيقة، يتشكل الإجراء الأوليّ من أكثر الظواهر ثانوية لدرجة أن يذعن له المحللون: دين يومي وعبودية للدين لا تطاق يفر فيها المال من يد المريض عبر المتبرع إلى المرابي وغيره من أصحاب الديون الأخرى. فإذا استمر المرء في الإصغاء، بعيدا عن الرغبة التي تخلق حركة السوق، يمكنه إذن أن يستعيد الزمن المفقود في هذه التحليلات الإجرائية: كنت مضطرا لذلك. طارت النقود، وتورطنا في دين جديد. في ريف التاميل بنطاقه الكلوي، الديون هي القاعدة. لكن ليست الديون فقط هي التي تشكل إطار الصفقة الأولى مثيرة لأكذوبة «حياة مقابل حياة». في شيناي، يتقاطع الدّين مع القابلية للجراحة والمنطق المتماس للتنظيم السياسي الحيوي. تشكل النساء اللواتي يمكنهن تحمل العملية الجراحية مخرجا جانبيا من الدّين ـ ويحملن الندبة. يحتاج زوجي إلى قوته من أجل العمل، ولا يمكنه من أن يعمل إذا أجريت له العملية. «نعم، وأنا أيضا أعمل».

على عكس ما هو شائع، يشكل نوعي الدعاية قاعدتين شعبيتين متبادلتين. بالنسبة للدعاية الأخلاقية، يصبح الدّين والجنس (ذكر/ أنثى) ظاهرة ثانوية، بينما تلعب الأخلاق دور العامل المنطقي الذي ينظم سرعة السير. فما كان يحدث طوال شهور عدة قد تم حذفه. أما الاعتبارات العقلانية فيبدو أنها لم تفصل فقط عن التطهرية بل فصلت أيضا عن النتائج البعيدة وفي الوقت نفسه من الصفقة الأولى.

أما بالنسبة للدعاية الفضائحية، كما يتجلى ذلك في وسائل الإعلام الهندية والدولية، بحيث تزخر بصور الضحايا من الذكور وهم يحملون الندبة الناتجة عن استئصال الكلى قسرا، ليست هذه أجساد الشائعات: هناك عملية جراحية أجريت، ربما تحمل شكلا من أشكال الإكراه. لكن الملاحظ هنا أن الندبة العامة هي في أغلب الأحيان «ذكر»: يمثل الرجال المظهر النموذجي الذي يحمل الندوب التي تغطي العمليات الجراحية التي أجريت للنساء. وهكذا، تعيد الدعاية الفضائحية تشكل «الظروف الطارئة».

كيف يمكننا أن نشق طريقنا بين أخلاق مرنة تختزل الواقع إلى مجموعة من الصفقات الثنائية، وبين أخلاق تطهرية تهدم الاستغلال الفعلي والوهمي في إطار اهتمامات معقدة؟ مازلت في منتصف دراسة تستغرق أربع سنوات في شيناي، وبنجالور، ودلهي، وبومباي، وبدلا من أقدم إجابة كاملة للسؤال أقترح ست نقاط كجزء من بحث مازال جاريا.

1 ـ لا توجد بيانات بشأن الآثار البعيدة المدى لاستئصال الكلى على البائعين وعائلاتهم.

قرر العديد من الجراحين في هذه المدن الأربعة أنه لا توجد آثار بعيدة المدى، كما أنهم أصروا على استحالة إجراء متابعة طبية لهؤلاء البائعين نظرا لعدم إمكان معرفة إلى أين يذهب هؤلاء البائعون الجوالون أو الجهلة. في حين تتبئ جهود الأطباء الموضوعيين، ولجان تقصي الحقائق من الأخلاقيين والصحافيين من أجل تحديد أماكن هؤلاء البائعين أن إجراء بحث وبائي (Epidemiological) بشأن هذه الآثار البعيدة المدى، ممكن جدا بل ومن الممكن أن يتنبأ بالاحتمالات المستقبلية الخاصة بنسبة المخاطر إلى الفوائد.

بعد ريدي، هناك اثنان من الأطباء البارزين على

المستوى الدولي من أشد المتحمسين لبيع الأعضاء هما الدكتور إس. سوندر والدكتور أ. ك. هوليجول، وهما ينتميان لمعهد كارنتاكا لأمراض الكلى وزراعة الأعضاء (K. A. N. T. I) الكائن بمستشفى بانجلاور ليكسايد (Bangalor Lakeside Hospital). يقدر كل الأطباء في بانجالور وشيناي المستوى العلاجي المرتفع الذي يقدمه هذا المعهد: من الناحية الطبية هو مكان مثاليّ. ومثل ريدي لا يخفي سوندر وهوليجول اشتراكهم في بيع الأعضاء وفق مفهوم رابح - رابح في إطار الظروف المحلية. ومثل ريدي أيضا، يبدو أنهم قد اطلعوا على رادكليف - ريتشاردز ويستخدمونها في مواجهة المعارضين باعتبار أنهما ليسا مفكرين بارعين. ولكن، على خلاف ريدي، راوغ سوندر، في العديد من المقابلات التي أجريتها معه في سنة 1998 في الإجابة على سؤال بشأن مقابلة البائعين السابقين. وبعد ممارسة المزيد من الضغط، دافع عن موقفه باستحالة الوصول إليهم أو الحصول على معلومات مفيدة منهم.

ينتمي الكثير من بائعي الكلى في بانجالور إلى سيلام - إرود. وطبقا لروايات الباحثين الاجتماعيين والصحافيين المحليين، أن هؤلاء البائعين هم من الرجال الذين تركوا أراضيهم «البور» سعيا وراء عمل ثابت حيث انتقلت صناعة النسيج التي تعتمد على الأنوال الكهربائية من مدن مثل شيناي إلى أماكن أخرى أقل تكلفة. وعلى خلاف «أينفارام» و«فيلليفاكم»، يبدو أن هؤلاء الرجال هم على الأرجح من المهاجرين حديثا والذين تصعب متابعتهم بالفعل. وقد استخدمت هذه الصعوبة في إحباط محاولات العثور على بيانات.

يعود حرص سوندار جزئيا إلى خشية من الكشف عن تورط (K. A. N. T. I) في هذه التجارة. كما ينكر سوندار معرفته بأي عمليات غير مشروعة. إذا قال المريض إن المتبرع هو واحد من أقاربه أو صديق للعائلة، وإذا وافقت لجنة التصاريح الخاصة بالولاية، فمن الخطأ عدم إجراء العملية. يمتاز سوندار بصراحته في ما يخص المرضى الذين طلبوا رأي اللجنة. وحقيقة الأمر أن (K. A. N. T. I) تتباهى بشفافيتها. حيث تغطى جدران حجرة الانتظار بلوحات حائطية كبيرة أدرجت بها أعداد العمليات التي أجريت في هذا المعهد وغيره من المعاهد المتخصصة بالولاية. كما تعلق على هذه مقتطفات من الصحف تشهد على مدى شعبية (K. A. N. T. I) في بنغلاديش بمصاحبة لافتة مصممة بالكمبيوتر من المرضى البنغاليين يشكرون فيها المستشفى.

وعلى الرغم من هذه الشفافية، أقر ثلاثة من أعضاء لجنة التصاريح بولاية كارنتاكا والذين تمت مقابلتهم أن عددا قليلا فقط من المتبرعين الذين سئلت اللجنة بشأنهم، كانوا بالفعل من أقارب المرضى أو من أصدقائهم، سواء من (K. A. N. T. I) أو من غيرها من المراكز الطبية الأخرى في بانجالور. إذن لماذا توافق اللجنة على هؤلاء المتبرعين؟ قال لي سكرتير اللجنة في مقابلة خاصة أجريتها معه أن للمرضى والأطباء تحالفات سياسية تمارس ضغوطا على اللجنة من أجل الحصول على الموافقة. يقف ريدي على رأس العديد من أطباء زراعة الأعضاء الذين يتهمون سوندار وهوليجول بأنهما قد «ذهبا بعيدا» في تحويل زراعة الأعضاء إلى تجارة واسعة. كما يدعي ريدي أن (K. A. N. T. I) قد قامت بعمل إعلانات للمرضى في سيرلانكا وبنغلاديش، وأن سوندار وهوليجول قد ذهبا إلى أحياء الكلى في شيناي بحثا عن بائعين. بعض من قلق ريدي هذا ربما يعود لأسباب إقليمية: أمدت أحياء الكلى الحضرية مستشفيات شيناي بالبائعين طوال سنوات عدة، بينما وفرت مناطق الكلى الريفية الواقعة إلى الغرب البائعين لمستشفيات بنجالور. «لقد أصبحوا شرهين» قال ريدي مفترضا في الوقت نفسه، بالإضافة إلى عدم القدرة على تحديد مصادر الكلى، أن سوندار وهوليجول أنفسهما يعملان كسماسرة.

ربما يكون سوندار وهوليجول ضحايا اتهامات مغرضة من منافسيهما. لكن مقاومتهما لأبحاث المتابعة الخاصة بالمرضى تبدو لافتة للانتباه. بينما تبدو الأشياء الوحيدة المفتقدة في الإعلانات الضخمة عن البيانات التي تبرزها (K. A. N. T. I) على

جدرانها وفي نشراتها، أو في موقعها على شبكة الإنترنت، وفي تعاملاتها مع الصحافة، هي الأجساد والإحصاءات الخاصة بالمتبرعين. في المرة الثانية التي حاولت خلالها أن أجبر سوندار على الحديث بشأن المتابعة الطبية المحتملة لهؤلاء المتبرعين، قام بإخراج نسخة من مقال رادكليف - ريتشاردز من مكتبه وسأل عما إذا كنت قد قرأت هذا المقال أم لا. وقام هو بقراءة مقتطفات مختارة من المقال، رافضا اهتمامي الأبوي بهؤلاء البائعين. لكن أين المتبرعون؟ إذا كان سوق زراعة الأعضاء يصرف الانتباه عن الأجساد الحقيقية للبائعين إلى تفويض أيديولوجي، فما مدى تورط الأخلاق المرنة في استمرار تجاهل متابعة البائعين طبيا؟

2 - **يبدو أن قرار بيع الكلى لا يتخذ لمجابهة ارتفاع تكاليف بعض الأهداف الآنية أو المستقبلية، بل من أجل سداد دين كبير لمصلحة المرابين. وكثيرا ما يعود البائعون إلى الدين مرة أخرى خلال سنوات عدة.**

يصف المقيمون بحي الفقراء بـ «أينافارم» من الذين قاموا ببيع «كلى» دوافع البيع ورغبتهم في البيع مرة أخرى إذا كان ذلك ممكنا من الناحية البيولوجية، باعتباره صفقة ليست مع الحاضر أو مع المستقبل - أتعاب عملية جراحية، شراء منزل، إنشاء بقالة، نفقات زواج - بل كأتعاب كصفقة مع الماضي. كانوا غارقين في الدين، ولم يعد بإمكانهم التعامل مع ديونهم، ومازال في أعناقهم أسرة يطعمونها ويقومون بحمايتها. هذه الملاحظات ليست نهائية حيث تتم غالبية صفقات الإقراض والاستعارة هذه عبر المرابين وأصحاب محلات الرهن الصغيرة وليس من خلال البنوك الحكومية أو الخاصة أو شركات الضمان مما يزيد من صعوبة الحصول على بيانات تحدد مواصفات المديونية للبائعين وغير البائعين. لكن قصص البائعين تتفق مع تحقيقات الصحافيين في شيناي. بالإضافة إلى ذلك، يمكن فهم هذه القصص في الإطار الطبوغرافي للديون في الأطراف الفقيرة لـ «شيناي»، حيث ينتشر المرابون ومحلات الرهن.

لم يدع أي من بائعي شيناي الذين تمت مقابلتهم أنه يمتلك حسابا مصرفيا بل قدموا المبررات المعتادة نفسها: كانوا أميين أو محدودي التعليم وينتمون للطبقات الدنيا، وبالتالي لم يكن بمقدروهم التعامل مع لغة وممارسات البيروقراطية المصرفية على أي نحو من الثقة. كما أن قصص ضياع النقود في البنوك كانت شائعة. بينما قدمت المجوهرات، على ما يبدو، وسيلة أكثر عملية للتوفير، على رغم أن حوادث سرقة الذهب ليست أقل شيوعا. يذهب الجزء الأكبر من نقود بيع الكلى لسداد الدين، ويذهب الباقي لنفقات الزوج وتعليم وزواج وعلاج الأبناء إضافة إلى الرسوم القانونية. كما ذكر الكثير من النساء اللواتي تمت مقابلتهن أن بعض الرجال ينفق ما يتبقى من هذه النقود على شرب الخمر.

إذن، يبيع الناس «كلى» من أجل التخلص من الدين، لكن شروط الاستدانة لا تختفي. فقد وقع كل البائعين الثلاثين الذين قابلتهم مع كوتينهو، في قبضة الدين مرة أخرى. ليست الأعضاء وليس الدم، من منظور سماسرة الديون، سوى وسيلتين من الوسائل المتعددة للضمانات الإضافية لدى الفقير، والتي تتضمن الأشكال المختلفة للعبودية للدين، وتمتد لتشمل شجرة النسب مفسحة المجال لأسواق جيدة تستغل الأطفال في التبني، والعمل، والدعارة.

الخلاصة هنا أن قرار البيع يفرض على المدين من قبل الدائنين، الذين يقرضونهم المال من خلال حساب تكاملي لقيمة الضمان الإضافي. بعبارة أخري، تتناسب القسوة والعنف الذي يستخدمه الدائنون في المطالبة بديونهم مع ما إذا كان المدين يعيش في منطقة تحولت بالفعل إلى منطقة بيع كلى. إذا كان الأمر كذلك، إذن فقرار أن يبيع المرء أم لا يُتَّخذ ليس تلبية لاحتياجات طبيعية يفرضها الفقر بل نتيجة لأزمة مديونية ربما لم تكن لتحدث إذا لم يكن اختيار البيع مطروحا. اعتمادا على هذه المقابلات والمناقشات التي دارت مع عدد من المؤرخين، والباحثين الاجتماعيين، والصحافيين العاملين بشيناي، ينبثق افتراضي أن مناطق الكلى هذه - في فيلليفاكم وحزام التاميل نادو - قد نشأت عبر تفاعل الجراحين المقاولين،

والأشخاص الغارقين في الديون وسماسرة الطب. فعندما يوقن السماسمرة أن منطقة ما قد تحولت بالفعل إلى منطقة بيع كلى، يزداد نشاطهم بحثا عن باعة جدد. وهكذا يسهل الوصول إلى المدينين.

في المناطق الحضرية تستجيب النساء أكثر من الرجال. كما يستجيب المقرضون، الذين يقدمون قروضا ربوية بعيون مفتوحة ليس فقط على الدخل بل أيضا على الضمانات الإضافية والتناسل - أي على ما يمكن الحصول عليه من المدين بشرط الإبقاء عليه حيا وبقدر ما من العافية يمكنه من الدفع مستقبلا وفي الوقت نفسه الحصول على مزيد من الديون - لهذه الملابسات والظروف المتغيرة.

أما روايات المدينين حول هذه العملية فتدعم هذه النظرية، كما تدعمها مشاهداتي الغير رسمية للمرابين ومحاوراتي مع الصحافيين المحليين بالتاميل نادو وشيناي والباحثين الاجتماعيين الذين يقومون بتغطية مشكلات القروض والديون. ومازال هناك حاجة إلى المزيد من التحليل لأعمال القروض المحلية.

3 - **عدد قليل فقط من الهنود هم الذين يستطيعون تحمل نفقات زراعة لكلى أو الغسيل الكلوي، لذا سواء سمح ببيع الأعضاء أم لا فإن الغالبية من مرضى الفشل الكلوي المزمن سوف يموتون. برامج الوقاية من الفشل الكلوي قليلة للغاية، والوقاية ليست جزءا من المداولات الأوروبية أو الأمريكية الخاصة ببيع الأعضاء، سواء في ذلك من هم معه ومن هم ضده.**

الجزء الأول من هذه الملاحظة مألوف. وتقبل به رادكليف - ريتشاردز وزملاؤها لكنهم يجادلون في ما إذا كان وصول الفقراء إلى الرعاية الطبية أكثر صعوبة من قدرتهم على الوصول إلى جراحة زارعة الأعضاء. أما القلق التطهري حول الأعضاء فهو نوع من ترضية الذات كبديل عن الاهتمام بالرعاية الصحية على المستوى العام.

ومرة أخرى، يمكن فهم هذه المناورة المنطقية عند مسافة وهمية. لكنها تصاب بالتشوه عند إعادة صياغتها في إطار الدعاية الأخلاقية. عندما سألت الدكتور سوندار، في K. A. N. T. I، كيف يمكنه أن يؤيد سوقا لبيع الكلى في غياب بيانات عن المخاطر التي يمكن أن يكابدها الباعة الهنود، أجاب، مثل غيره من أطباء زراعة الأعضاء الذين قابلتهم، عندما يأتي شخص يموت من الفقر إلى بابك ويسألك لماذا لا تساعدني، فإن الموقف يقتضي أن تفعل شيئا. هذا السيناريو الذي يمثل شخصا يموت ويستجدي هو سيناريو محبط وإشكالي، خاصة أن غالبية الأشخاص الذين يعيشون ويموتون من جراء أمراض الكلى لا يستطيعون ولن يضطروا إلى حضور هذا المشهد، إذ إنهم ببساطة لا يملكون نفقات غسيل الكلى أو زراعتها. يتوافق هؤلاء الباعة مع مقتضيات السيناريو الأخلاقي كما وضعه هؤلاء الأطباء: شخص يموت يسألك أن تساعده - فماذا تفعل؟ بطريقة أو بأخرى هذا السيناريو لا يزعج هؤلاء الأطباء عندما يظهر المرضى الذين يعرفون ماذا يفعلون.

عندما سألت فريق العمل K. A. N. T. I عن هذا التناقض الظاهري، أجابوا بابتسامة متسامحة. نحن بلد فقير، ذكرني ذلك سوندار، وما دام هذا يحسن أعمالي حتى تضطر الحكومة لأن تتكفل بنفقات زراعة الأعضاء لغالبية الهنود، ولا أعتقد أن هذا يمثل أولوية لنا. فأموال الحكومة يجب أن تذهب للرعاية الصحية الأولية.

كانت هذه نقلة مؤثرة ومدوخة. فـ «سوندار» وغالبية أطباء زراعة الأعضاء الذين يتفقون معه، هم من أساتذة الدعاية الأخلاقية. ولا توجد حاجة للقلق بشأن المخاطر الصحية التي يمكن أن يتعرض لها البائع الفقير، لأن الطبيب يجب أن يقلق دائما بشأن المريض الفرد: فاندماجه أو اندماجها الأخلاقي ينتمي للمعاناة الفردية. وفوق ذلك، لا يوجد مكان للقلق بشأن غالبية الأفراد الذين يعانون، لأن الطبيب الهندي يجب أن يفكر على مستوى مجتمعي، حيث يمكن إنفاق المال بشكل أفضل على حملات التطعيم. لكن المزعج هو البراعة التي يتبادل بها دعاة الفردانية ودعاة العمل الجماعي الموضوعيون مواقعهم في محاولة تبرير التجارة كما هو معتاد.

في هذا السياق، تكتسب الغفلة عن إجراءات الوقاية وطب الكلى الذي يمكن أن يشكل على المدى البعيد نهجا مؤثرا ومن الممكن تحمل نفقاته بالنسبة «لبلد فقير» دلالة خاصة. بينما يؤدي الموقف الجمعي المنطقي فقط إلى تبرير الغفلة وعزل المرضى من الفقراء عن المستشفيات الحكومية. على الرغم من انغماس أطباء زراعة الأعضاء في الأخلاق الطبية والمناشدات الجماعية فإنهم وباستثناءات نادرة، لا يشتركون في حملات التوعية العامة أو في تطوير بدائل قليلة التكلفة للغسيل الكلوي المطبق حاليا. كما تشكل مقاومتهم التي لا تكل للحصول على الأعضاء من المتبرعين من موتى الدماغ، والتي يمكن أن توفر بديلا لأعضاء الفقراء، مصدرا للقلق. تعتقد الغالبية من الجراحين الذين جرت مقابلتهم أن البنية التحتية والعقلية الهندية مشكلة، لكن تنهض في الوقت ذاته العديد من البرامج الرائدة للحصول على الأعضاء من موتى الدماغ في الهند، ويعتقد مؤسسو هذه البرامج أن العقبة الوحيدة التي تعوق نجاح هذه البرامج هي عزوف مستشفيات زراعة الأعضاء الخاصة عن المشاركة في هذا المشروع. لأن الاعتماد على موتى الدماغ يقطع مددا جاهزا من الأعضاء وبالتالي يقلل من الأرباح. في بانجالور، استهل جون ورابيكا توماس - تلقيا تدريبهما في بيتسبرج (Pittsburgh)، مركز زراعة الأعضاء - محاولة لبناء مرادف لـ «شبكة موحدة لتقاسم الأعضاء» (United Network for Organ Sharing)، وهي شبكة للمعلومات والتوزيع تربط موتى الدماغ بالمرضى الموجودين على قائمة الانتظار. وقد قوبلت جهودهما، على الرغم من المباركة الدعائية، بمقاومة ملموسة. حيث لم توافق المستشفيات على الاستغناء عن موتاها لحساب قائمة عامة. هذا، ولا يشكل كل من زراعة الأعضاء اعتمادا على موتى الدماغ أو القوائم العامة بديلا مثاليا كما يدلل على ذلك البحث الذي أجرته مارجريت لوك على النوع الأول، أو البحث الذي أجرته شيبر - هوجز على النوع الثاني. لكن الجدل بشأن الموتى لم ينصب على الحدود الطبية والأخلاقية لموت المخ كمفهوم حيوي. بالأحرى، سيؤدي التملق إلى التأجيل الأبدي لتطوير البناء التحتي وإمكانات المؤسسات.

4 - يستخف مشترو الكلى بالمخاطر وبتكاليف العلاج المثبط لجهاز المناعة على المدى البعيد، مما يؤدي إلى إنقاص الجرعة تدريجيا ورفض العضو الذي تمت زراعته بعد نفقات هائلة.

ليس مشترو الكلى بأقل بعدا عن المخاطر من البائعين. أجرت شيبر - هوجز بحثا موفقا عن مأزق مستقبلي الأعضاء من الفقراء في البرازيل الذين لا يستطيعون تحمل نفقات عقار السيكلوسبورين المثبط لجهاز المناعة وبالتالي ينقصون الجرعة تدريجيا أو يتقاسمونها. كما يروي أعضاء جمعية رعاية مرضى الكلى في بناجالور، الذين يلتقون مرة واحدة كل شهر في أحد الحدائق العامة، لتوزيع الأدوية المثبطة لجهاز المناعة من النوع الرخيص (وليس عقار السيكلوسبورين الأكثر أهمية والأغلى سعرا). حكايات مشابهة عن أبناء الطبقة الوسطى والعمال الذين يستخدمون شبكات - الأقارب، المميزات الوظيفية، التأمين الصحي، والصندوق الحكومي المخصص للطوارئ الطبية - لتحمل نفقات العملية الجراحية، وثمن شراء الكلى في حال شرائها، والأدوية. ويواجه هؤلاء المستقبلون للأعضاء نقص متوقع في الأدوية المثبطة لجهاز المناعة خلال فترة تتراوح ما بين سنة إلى ثلاث سنوات، وهذا يعني إما أنهم لم يقدروا تكاليف العلاج على المدى البعيد تقديرا صحيحا، أو أنهم لم يدركوا أن العلاج سيستغرق سنوات كثيرة. فالجرعة الشهرية من الـ «سيكلوسبورين» تتكلف أكثر كثيرا من مجموع دخول الكثير من هذه العائلات خلال شهر. بالأحرى، هناك حاجة إلى بحث إثنوجرافي لدراسة مستوى التفاهم بين المرضى والأطباء لمعرفة ما هي الرسالة التي يتلقاها المرضى بخصوص النفقات على المدى البعيد وكيف يفسرها المرضى.

يكمن جزء من المشكلة في مدى اهتمام أطباء الكلى من الشبان بدرجة التوافق النسيجي بين المستقبل والمتبرع من أجل الشروع في إجراء الجراحة.

فوجد عقار الـ «سيكلوسبورين»، بالإضافة إلى عقاقير أخرى، جعل من زراعة الأعضاء في وجود نسبة ضعيفة من التوافق النسيجي شيئا ممكنا في بعض الحالات. بموجب قانون 1994)، فإن هذه الدرجة الأقل من التوافق تعني سهولة العثور على بائعين وزيادة في عدد العمليات التي يتم إجراؤها. لقد كنت شاهدا على مناقشة درات بين عدد من الأطباء القدامى والأطباء الشبان حول الدرجة المناسبة من التوافق. وبما أن درجة التوافق هذه قد أصبحت أقل أهمية، فإن هذا يعني أن فترة تعاطي عقار الـ «سيكلوسبورين» ستمتد. ذكر الأطباء والمرضى ثلاث سنوات باعتبارها الفترة الزمنية التقريبية التي يتوقف المريض بعدها عن تعاطي هذا العقار، لكن هذا الرقم ربما يعتمد على بيانات ناتجة عن شروط مغايرة من حيث درجة توافق الأنسجة.

أما شركة نوفاريتس (Novartis)، محتكرة السيكلوسبورين، فهي كلية الوجود في عالم زراعة الأعضاء كونيا كما في الهند. وقد عقدت هذه المؤسسة العديد من المؤتمرات، ليس فقط فيما يخص زراعة الأعضاء، بل أيضا في أخلاق الطب بشكل عام، كما يحضر مندوبوها اللقاءات كتلك التي تنظمها «جمعية الرعاية». وفي إحدى هذه اللقاءات، استجدى والد أحد المرضى مندوب الشركة الدوائية أن يعطيه جرعة شهرية مجانية حيث لم يعد لديه ما يدفعه. وقد تم إمداده بالدواء، ويبدو أن هذا المشهد يتكرر كثيرا. وهكذا أصبحت نوفاريتس هي المحسن العظيم لهؤلاء المرضى، بينما لم يتخذ أي إجراء لخفض أسعار الدواء.

5. في المراكز الطبية المهمة أدى العدد المتزايد من برامج زراعة الأعضاء في منتصف التسعينيات إلى اشتداد حدة التنافس على المرضى الذين يستطيعون دفع تكاليف العملية: لا تتأثر أخلاقيات زراعة الأعضاء في الهند بنقص المتبرعين بقدر ما تتأثر بحاجات السوق التي تشير إلى نقص المستقبلين من المرضى.

تعد (K. A. N. T. I) واحدا من ثمانية مراكز متخصصة في زراعة الأعضاء أنشئت جميعها في بانجالور خلال عقد واحد، في ولاية لا يوجد بها غسيل الكلى تقريبا. تم هذا التوسع المتسارع، جزئيا تلبية لاحتياج، لكن مخزون الأشخاص الذين يستطيعون تحمل النفقات الثلاثية للعملية الجراحية، والعضو المشترى، والأدوية سرعان ما تم استهلاكه. وفوق هذا الاحتياج، تعلن صناعة زراعة الأعضاء عن افتتاح مستشفيات خاصة جديدة أو منافسة عصرية ومجهزة بأحدث الوسائل العلاجية: هذه السمعة ربما تفوق ربحيتها الدخل الحقيقي الذي يحققه القسم نفسه. فزراعة الأعضاء هي دلالة على حداثة صالحة للعرض في الأسواق.

عندما تقلص مخزون الأشخاص الذين يستطيعون تحمل نفقات العملية الجراحية، ازدادت حدة التنافس بين هذه البرامج العدة، واتجه مديرو هذه المستشفيات إلى البحث عن أسواق جديدة. ومع صدور قانون زراعة الأعضاء في سنة 1994، انخفض عدد المرضى الأجانب - من منطقة الخليج العربي، وأوروبا، وآسيا على وجه التحديد - بشدة. خافت المستشفيات من الفضيحة، إذ إنه من الصعب تمرير المتبرع المحلي باعتباره صديقا أو واحدا من أقارب المريض الأجنبي. لذا اتجهت المراكز الشبيهة بـ (K. A. N. T. I) إلى كل من سريلانكا وبنغلاديش، حيث يمكن للمرضى الذين لا أقارب لهم أن يحصلوا على متبرعين أو بائعين. وبتناقص عدد الراغبين في الحصول على كلى، من المحتمل أن يكون أصحاب المستشفيات قد اتجهوا ونجحوا في الوصول بقوة إلى المرضى من أبناء الطبقتين المتوسطة والعاملة، الذين يستطيعون تحمل نفقات العملية الجراحية فقط لكنهم لا يستطيعون تحمل تكلفة الأدوية المثبطة لجهاز المناعة. هذا الانطباع قدمه لي أعضاء جمعية الرفاهية لكنه يحتاج إلى المزيد من الدراسة.

إذا كانت هذه المراكز لا تواجه نقصا في الأعضاء بل نقصا في الأشخاص القادرين ماديا بما يكفي لكي تتخطفهم، فإن هذا يعني أن تتركز جهودهم في البحث عن مصدر للمادة البشرية أكثر طواعية وأقل

تكلفة. فالمستقبلون يمكنهم أن يذهبوا إلى مكان آخر، ولابد أن يملك الواحد منهم كلى جاهزة. فأعمال هذه المراكز تعتمد على السوق، ويمكن لهذه الأعمال أن تتعرض لمخاطر جسيمة إذا تم التوجه إلى الحصول على الأعضاء من موتى الدماغ.

تتجه المسألة هنا عكس الحديث المتواصل عن «النقص» والذي يسلم به بعض الأخلاقيين. فإذا ونحينا جانبا الرأي المغيظ حول ما إذا كان من حقنا أن نتحدث عن نقص في أعضاء الناس - وهي قضية تغري بالتحليل الفلسفي للملكية الممتد من لوك إلى ماركس والذي لم يستخدم أبدا في الكتابات الأخلاقية المعتبرة هنا - ونتعجب من أن النقص ليس في المتبرعين، بل في المستقبلين. فالممارسة والأخلاق التي يجب أن نضعها في اعتبارنا تتجذر في اقتصاديات هذا النقص في عدد المستقبلين.

6. **كان النمو السريع لطب زراعة الأعضاء في التسعينيات جزءا من فترة بناء المعاهد الطبية في الهند، أصبح فيها العلاج الطبي الخاص الرفيع المستوى أحد المجالات المهمة للاستثمار وتبادل العملات الأجنبية، وتجمعات القطاعين العام والخاص الناشئة والتي تربط المعاهد الطبية والنفوذ السياسي بمصادر متنوعة لرأس المال - السائل، والأسلحة، والأدوية، و«الأموال القذرة».**

أصبح طب زراعة الأعضاء، باعتباره مهمازا للقلق الشعبي والأجنبي، موضعا إستراتيجيا للتدخل في وبين التحالفات المتصارعة. ويبدو أن صناعة الفضائح المتكررة والتي يسجن فيها الأطباء بتهمة سرقة الكلى هي أحد أشكال هذه التدخلات.

يجب أن نفرق بين «الفزع الكلوي» و«فضائح الكلى». في الفزع، تدور القصص حول أطفال فقدوا أو قتلوا ويتملك الناس الخوف من سارقي الكلى ومن التورط المحلي والدولي. و كثيرا ما تعتمد هذه القصص على حوادث اختفاء حقيقية وضياع للأطفال في سياق سوء التغذية والجوع والعبودية للدين وعمل الأطفال. وتقع سلطة الولاية في براثن الاستجواب أو الهجوم، وتتمركز ردود فعل الولاية حول إنكار هذه القصص وتقديم المواد اللازمة لإعادة خلق الحكايات.

أما الفضائح فلا تهدد نظام الولاية لكنها شكل من أشكال الدعاية التي تتم بالتعاون بين الوكالات غير الحكومية والولاية نفسها. تقوم الشرطة بتوقيف مجموعة من الأطباء ويتم إعلام الصحف. وتوضع التقارير الصحافية ليس في إطار يفترض وجود عصابات خفية وتآمر من جانب الولاية، لكن باعتبارها قصصا تدل على الجشع والفساد. حيث يتواطأ الأطباء والسماسرة معا في خداع الناس ويقومون بإجراء فحوص طبية مع وعد بوظيفة ما، ويستيقظ المرء على وجود ندبة. وقعت مثل هذه الحوادث في بومباي 1993، وجايبور 1996 وإقليم نوايدا التابع لـ «دلهي» 1998. ومازال الكثير من هذه القضايا معلقا إلى الآن.

من الممكن بالطبع أن يكون هؤلاء الأطباء مدانين في كل التهم المنسوبة إليهم. أجرت شيبر - هيوز تحقيقا موثقا عن سرقة الأعضاء على مستوى العالم، وعلى الرغم من أنها بدأت بحثها بغية إثبات العكس: هذه الروايات هي علامات من تاريخ الفقر وعنف الدولة لكنها ليست بالضرورة سرقات «حقيقية». من المؤكد أن النماذج الأسوأ من الجرائم الطبية تحدث يوميا. لكن يجب أن نحتاط. ففي ظل وجود عدد كبير ومتزايد من المدينين لا يرجح أن يحدث نقص مفاجئ في عدد البائعين، وبالتالي لا يتضح لماذا تلجأ المراكز الطبية لمخاطرة خداع أحدهم. بالإضافة إلى أن الشرطة يمكن أن تنجح بسهولة، وغالبا ما يكون الضحايا في معظم الحوارات (وليس كلها) من المهمشين اجتماعيا، ومن غير المحتمل أن يسمع بهم أحد. وفي الوقت الحاضر يفضل تأجيل الحكم النهائي.

لماذا، مع ذلك، تعمل الشرطة في كل هذه الحالات بمثل هذه السرعة وبناء على ادعاءات الفقراء والمهمشين اجتماعيا؟ في نوايدا، أُرسل أحد كبار المديرين بجهاز الشرطة من ذوي الثقافة الطبية خصيصا لمباشرة القضية. كان الأطباء المتهمون قد قاموا بتحريك صلاتهم السياسية في محاولة للإفراج

عنهم، لكن وفق ما قال لي العديد من القيادات الطبية الرسمية بالولاية، مع ضرورة إغفال الأسماء، بأن الأوامر كانت قد صدرت من مكتب رئيس الوزراء بعدم إفساد القضية.

أحيطت الفضيحة القديمة في بانجالور بقدر مماثل من الأقاويل. فمستشفى يالاما داسابا (Yellamma Dasasppa)، حيث تركزت الفضيحة، تمتلكها مجموعة صناعية تنافس مع مجموعة صناعية أخرى من أجل الحصول على تعاقد حكومي مربح، في شأن إمداد الولايات بمشروبات كحولية رخيصة (الغالبية من مستشفيات المدينة تملكها شركات صناعية كبرى، والكثير منها أيضا تملكه شركات الخمور). وقد اعتقد الكثير من الإداريين بالمستشفيات، والباحثين الاجتماعيين والصحافيين أن المفاوضات الدائرة في شأن هذه المناقصة هي الدافع وراء صنع هذه الفضيحة، بينما أنكر جهاز الشرطة ذلك.

تبدو كلمة «صنع» مخادعة هنا. فإذا كانت الغالبية من مراكز زراعة الأعضاء قد اخترقت نصوص وروح قانون العقوبات الهندي وقانون زراعة الأعضاء الصادر في سنة 1994، باستغلال البائعين أو تقديمهم باعتبارهم أقارب أو أصدقاء للمرضى، وإذا كانت هذه المراكز قد قدمت أقل قدر ممكن من الرعاية لهؤلاء البائعين وأعادتهم إلى قراهم أو أحياء الفقراء، فإن هذا يعني أن هذه المراكز معرضة للاتهام - ومن هنا جاءت استراتيجية K. A. N. T. I في ممارسة الشفافية. لكن لماذا تتدخل الشرطة؟ يتحتم على الغالبية من هذه المراكز والمستشفيات أن تعتمد على رعاية سياسية مكثفة لكي تتمكن من الخوض في القواعد المنصوص عليها من أجل تطوير القطاع الصحي الحكومي وتحجيم نمو القطاع الخاص. كذلك، توجد مساحات من أراضي المدن محتلة بغيرحق، ويقتضي الأمر توفيررأس مال سياسي مؤثر من أجل تحريك هذا المستودع من الأصوات الانتخابية المحتملة. وبالمقابل، توفر هذه المستشفيات الجديدة خدمات متنوعة للسياسيين ورجال الأعمال، ابتداء من كونها مصدرا للقوة السياسية إلى اعتبارها غطاء ضرائبيا واقعيا. أما بالنسبة لرجال الأعمال وغيرهم من المتهمين الجارية محاكمتهم بشأن تهريب النقد الأجنبي والتهرب الضريبي، فبإمكانهم دخول المستشفى وتأجيل المحاكمة إلى الأبد. وقد وضع الصحافيون وغيرهم من المواطنين العالميين العاملين في هذه المدن السابقة الذكر، والتي تفجرت فيها فضائح الكلى، عشرات من التقارير حول العلاقات المشبوهة التي تربط الطب الجديد برجال السياسة والصناعة، وقد صمد بعضها، ولم يصمد البعض.

ولأن زراعة الأعضاء تشكل بؤرة أساسية للدعاية تنتشر من حولها المخاوف تباعا، ولأنها كثيرا ما تخوض في سلسلة متشابكة من الانتهاكات القانونية مؤدية إلى نشوء طبقة من المستثمرين، أصبحت زراعة الأعضاء مركزا أساسيا يتفاوض من حوله المتنافسون على السيطرة على المواد الطبية والسياسية والصناعية. وتأتي المفارقة هنا من محاولة السياسات أن تلطف من المخاوف بشأن سرقات الكلى وفي الوقت نفسه تحرض على إبراز الفضائح دوريا.

ما هي الصلة الوثيقة بين هذه الفضائح وعلم اجتماع وأخلاق سوق الأعضاء؟ أولا، إن هذا يدفعنا إلى التعامل بجدية مع الحاجة إلى إجراء دراسة عرقية للدولة. قدمت رادكليف - ريتشاردز وزملاؤها أطروحة كلاسيكية الشفافية، تتوازى مع الأطروحات التي طالبت بإلغاء حظر أو تجريم الدعارة والمخدرات: إذا كان هناك استغلال، إذن يمكن أن يؤدي تشريع وتنظيم السوق إلى تنظيفه وفي الوقت نفسه يعطي البائعين استقلالهم. لكن هذه الأطروحة تفترض وجود بنية للدولة، تؤدي فيها زيادة التنظيم إلى تأثير محدد ويؤدي فيها تنظيم الدولة إلى تنظيم السوق. لكن ما العمل إذا كان تنظيم التجارة يشبه تنظيم الدولة في الهند من حيث حاجتها إلى سماسرة؟ الفرضية التي يقول بها الأخلاقيون هنا تفترض أنه بمجرد أن تتوصل الهند إلى توحيد الأشكال البيروقراطية العقلانية، سيختفي الاستغلال الموجود الآن. كما أن هذه الأطروحة ترتب قصص تطور الدولة بقليل من الأسس

التجريبية. وباعتبار العمل الحديث لـ «أخيل جوبتا» حول التركيب العرقي للهند بالإضافة إلي كتابات «فينا داس»، و«رافي راجان» وآخرين، حول الأداء البيروقراطي الذي عولجت به مشكلة ضحايا كارثة الغاز في بوبال مما يرجح أن أي مركزية طبية جديدة يمكن أن تؤدي إلى خلق فئة جديدة من العملاء، تطالب بنصيب مما يحصل عليه البائعون. مثل هذا النوع من السماسرة الطب ـ أخلاقيين من الممكن أن يدعم، بدلا من أن يستأصل، سماسرة الأعضاء وسماسرة الديون الموجودين في حي الفقراء بالفعل. وعلى أي حال، ليست هذه سوى أسئلة تجريبية تتطلب الاستمرار في الدراسات العرقية قبل الوصول إلى تحفظات موضوعية.

خاتمة: أخلاق أخرى

على رغم التغير السريع، فإنه لا كيشور ولا ريدي ولا سوندار ولا عملاء الفضيحة العامة يملك الملعب في الهند الآن. ومازالت المنظمات الطبية الموضوعية مثل الجمعية الهندية الصحية التطوعية، تجذب الدعم المالي وتشق طريقا وسطا بين قبول بعض الممارسات الشنيعة، وتجاوز موضوع زراعة الأعضاء وصولا إلى مشاكل أكثر إلحاحا مثل الأمراض المعدية، والتحلل الاجتماعي، وكيفية الحصول على الرعاية الصحية الأولية. فالصيغة السائدة في الأخلاق الطبية الهندية تطهرية، لكن مع اختلاف بسيط في المسار عن الأخلاق كما يصورها رابينو. تهيمن المواعظ التبشيرية والرؤى الجمالية، وتؤكد الرسالة التي يحملها العلم الجديد على أهمية الرعاية مقابل التجارة والحب، مقابل الوصاية، وأن يوفر الطب الراحة للمجتمع مقابل الشعور بالإهمال والاندراج في قوائم ساكني المستعمرات. وتسير هذه الأخلاق التبشيرية القادمة من عالم مغاير متمهلة عبر مسارات محددة. ففي المؤتمر الدولي الرابع لـ «أخلاق الطب» والذي عقد في طوكيو، باليابان، في سنة 1998، كان درايل أر. ج. ماسر مؤلف كتاب «أخلاق الطب هي حب الحياة: كتاب بديل»، هو أحد الوجوه البارزة. اعترض ماسر على المواقف الأخلاقية للمهنيين، لكن في ترديده الدائم لعبارة «كل ما نحتاجه هو الحب»، كان كل ما يمكن أن تستشعره من المعادلة هو السياسة. ضد الأخلاق المرنة، استخف ماسر وأتباعه بكل ردود أفعال الجمعيات التطوعية، وأقاموا مفوضية كونية، سكرتارية للحب.

لكن إذا كانت كل البدائل المطروحة لعالم منقسم إلى زبائن وبائعين هي مجرد تنويعات من الحب المسيحي، فإن البائعين يمكنهم أن يقدموا أنفسهم باعتبارهم «متبرعين» بينما يلعب الزبائن دور «المحسنين». وقد سمعت في بانجالور ودلهي حكايات عن أشخاص أصيبوا بهوس التبرع: رجل شديد الإصرار على تقديم أي عضو من أعضائه؛ زوجين أصرا على أن يوقع المدعوون لحفل زفافهما على التبرع بأي شيء. وفي الحديث مع المستقبلين أي المرضى الذين أجريت لهم زراعة كلى، ظلت كلمة الحب تتردد بشكل مختلف: لماذا أعرض أحد أفراد العائلة الذين أحبهم للخطر، بأن أطلب منه أن يتبرع لي بعضو من أعضائه بينما أستطيع شراء هذا العضو؟

تصون صناعة الفضائح، من خلال روابط اجتماعية معقدة بين الدولة والسوق ووسائل الإعلام الجديدة والقديمة، صورة لجهاز دولة متميز يستطيع أن يتدخل من أجل تقنين استغلال الطب للفقراء. هذه الصورة هي محور الدعاية الأخلاقية، وهي مبرر افتراضها لوجود تكوين عام وليبرالي للدولة يسمح للأيدي الخفية للمنفعة والعقل أن تقود أخلاقا فردية لاستقلالية جذرية. ويتطور ويستهلك الإنتاج العام لهذا النوع من الأخلاق بواسطة العاملين في مجال زراعة الأعضاء وبشكل أكثر عمومية بواسطة المشترك / السياسي الهجين للرعاية الصحية المعاصرة.

إلى أي عالم تتحدث هذه الأخلاق؟ في منتصف هذا البحث، نقف مع علامات متناثرة: امرأة تعرض كليتيها لـ أم. ج. آر؛ رجل في الحديقة يستعطف مندوب شركة نوفاريتس، وندبة ما بعد الجراحة التي بدأت تؤلم عندما نفدت النقود.

هل المجاعة في طريقها إلى الزوال؟

بقلم جيرار موريس

ترجمة محمد الدنيا

بلغ عدد سكان العالم 6 مليارات نسمة، وسيرتفع عددهم العام 2050 إلى 10 مليارات. وإذا كان هناك جيوب مجاعة قائمة حتى اليوم، ففي غضون السنوات الخمسين القادمة يجب ألا يمنع شيء، باستثناء الحروب، من أن يحصل كل واحد على ما يكفيه من الطعام.

مراجعة: د. المنصف الشنوفي

صندوق الأمم المتحدة للسكان كان قد أعلن ذلك: الإنسان رقم ستة مليار ولد في 12 أكتوبر 1999. وهكذا، فقد تضاعف سكان العالم منذ العام 1960. وفي العام 2050، حتى لو استمر معدل النمو في الانخفاض (1)، مثلما حدث خلال الثلاثين سنة الماضية (حيث هبط من + 2,4 في المئة إلى + 1,3 في المئة اليوم)، سيتراوح عددنا بين 7,3 و10.7 مليار شخص، وفقا للسيناريوهات.

ولما كان إمكان حصول نحو 800 مليون نسمة على الغذاء (أكثر من سكان أوروبا والولايات المتحدة مجتمعين) هو اليوم دون العتبة التغذوية - العتبة التي تتيح البقاء على قيد الحياة، فكيف سيمكن للأرض أن تطعم عددا أكبر بكثير من الأفواه؟ تتطلب الإجابة على هذا السؤال طرح سؤال آخر مباشرة: ما هو السبب الحقيقي للمجاعات، حيثما وجدت؟ سنلاحظ في سطور لاحقة أن الأمر متعلق بحالة الحرب.

ولكن، لنتذكر أولا بعض الوقائع. مثلا، أن الإنتاج الزراعي العالمي، بكل أنواع منتجاته، يزداد منذ بداية الستينيات على نحو أسرع من ازدياد عدد السكان، بما في ذلك منطقة جنوب آسيا، وشرق آسيا، وأمريكا اللاتينية (+3 في المئة في العام). وهكذا، فقد تضاعف إنتاج المحاصيل الرئيسية - القمح والذرة الصفراء والأرز - خلال السنوات الثلاثين الأخيرة.

يعود هذا التقدم الهائل إلى آسيا، حيث تعيش الغالبية العظمى من سكان العالم. أول منتج عالمي للأرز والقمح، وثاني منتج للذرة الصفراء هي الصين، التي أصبحت اليوم أول منتج للمحاصيل على الصعيد العالمي. في العام 1960، قل إنتاجها من القمح عن مثيله السوفييتي بمقدار ثلاث مرات، واليوم ازداد هذا الإنتاج بنسبة 50 في المئة، وهو أعلى الآن بمرتين من إنتاج الولايات المتحدة.

كان التقدم مذهلا أيضا في ميدان الإنتاجات الحيوانية. ففي عشرين عاما، تضاعف إنتاج الصين الحيواني أربع مرات، في حين لم يتضاعف سوى مرتين في الاتحاد الأوروبي وازداد بمقدار الثلث فقط في الولايات المتحدة. وتوفر الصين 53 في المئة من إنتاج لحم الخنزير العالمي، أي أكثر من الإنتاج الأوروبي بمرتين ومن إنتاج الولايات المتحدة بخمس



• باتت بلدان العالم الثالث تنتج من الزروع أكثر مما تنتج البلدان الغنية منها بالزراعة المكثفة. ولكن تبقى طرق الزراعة والحصاد قديمة. (هنا حصاد القمح باليد، في الصين)، مما يبقى الباب مفتوحا لازدياد هائل في المردودات.

العنوان الأصلي للمقال La Famie en voie وظهر في مجلة Science & Vie، عدد يناير 2000

مرات. كما أن أداء الهند، التي لم تبدأ «ثورتها الخضراء» إلا منذ خمسة عشر عاما فقط، مدهش هو الآخر: تنتج كمية الولايات المتحدة نفسها من القمح تقريبا، وأصبحت أول منتج عالمي للحليب.

إجمالا، يشهد سيئو التغذية انحسارا بمعدل 8 ملايين في العام وسطيا (40 مليون خلال السنوات الخمس الأخيرة). أفريقيا جنوب الصحراء وحدها تشهد ازديادا في أعداد سيئي التغذية.

يتوافق نمو الإنتاج الزراعي المهم وخيار سياسي نعرفه جيدا في أوروبا. إنه الخيار الذي أنجزناه مع السياسة الزراعية المشتركة: توفير الأمن الغذائي في واحدة من المناطق الأكثر اكتظاظا بالسكان في الكرة الأرضية، حيث لم يكن يوجد سوى القليل من الأراضي القابلة للزراعة المتاحة، وفقا لتأكيد «لوسيان بورجوا»، مدير الدراسات الاقتصادية في المجلس الدائم للغرف الزراعية (مؤلف كتاب «السياسات الزراعية»): «عندما نجعل المزارعين يشعرون بالأمان، من خلال تقليص أضرار المنافسة الخارجية وكبح الانخفاض في الأسعار عبر التدخل في الأسواق، يستطيعون التفكير جديا بالتكنولوجيا، وزيادة مردودياتهم سريعا جدا، وتخفيض كلف الإنتاج. هكذا تضاعفت مردوديات القمح خمس مرات في فرنسا قياسا مع مستوى ما بين الحربين العالميتين، وانخفض سعره أربع مرات منذ العام 1960. كل البلدان، التي تسعى لتحقيق هدف الأمن الغذائي وتجعله في مرتبة الأمن العسكري، تتمكن من بلوغه».

يدل كل شيء على أن هذه الملاحظات الأخيرة ستبقى مقبولة خلال السنوات القادمة، وأن قهر الجوع في العالم لا يشكل تحديا لا يمكن التغلب عليه. مع ذلك، الجدل على أشده بين اقتصاديين مثل «لوسيان بورجوا» أو «جون كلتزمان» (مؤلف كتاب «إطعام عشرة مليارات إنسان»)، الذين يؤكدون أن سوء التغذية لا يمكن أن يعزى إلى الإنتاج، والمالتوسيين الجدد من يؤمنون بنظرية مالتوس، مثل «لستر براون»، من World Watch Institute، الذين يقولون إن نمو الإنتاج في البلدان النامية سيكون محدودا.



• القطن والذرة البيضاء المزروعان بالبذار المباشر على غطاء من بقايا القش.

أساسا، يبني هؤلاء تكهناتهم على تلك الفكرة التي تفيد بأن التمدين الجاري ينزع نحو تقليص المساحات القابلة للزراعة الأكثر إنتاجية: يتم غرس المدن في الأودية وليس على الجبال، والأراضي الآيلة إلى بناء المساكن أو المشاغل وتنفيذ البنيات التحتية هي تلك التي يسهل الوصول إليها بشكل عام، والقابلة للري مع إسهامات مهمة من الطمي. ويشيرون أيضا إلى أن هذا التضاؤل في المساحات القابلة للزراعة(2) وصعوبة الاستمرار في زيادة المردود سريعا بعد «الثورة الخضراء» الأولى، سيتمخض عن تباطؤ مفاجئ في نمو الإنتاج، واسع النطاق وبنتائج خطيرة.

عادات جديدة

بالإضافة إلى ذلك، لن يعود هذا الإنتاج متوافقا مع العادات الغذائية الجديدة (استهلاك المنتجات اللبنية، واللحوم، والفاكهة، والمنتجات المجمدة...) لـ «جماعات النخبة» والشريحة الميسورة بين سكان الدول النامية التي تقتبس العادات الغربية.

ويرد اللامالتوسيون non-malthusiens، الذين يبرهن تاريخهم الاقتصادي، في جميع الميادين، عن صواب آرائهم دائما:

- ما يزال العالم يضم جزءا من الأرض القابلة

للزراعة المستريحة حاليا، وبالأخص في أفريقيا وأمريكا الجنوبية. ويمكن زرع هذه الأراضي المتاحة، المقدرة بـ 12 في المئة، في غضون السنوات القادمة.

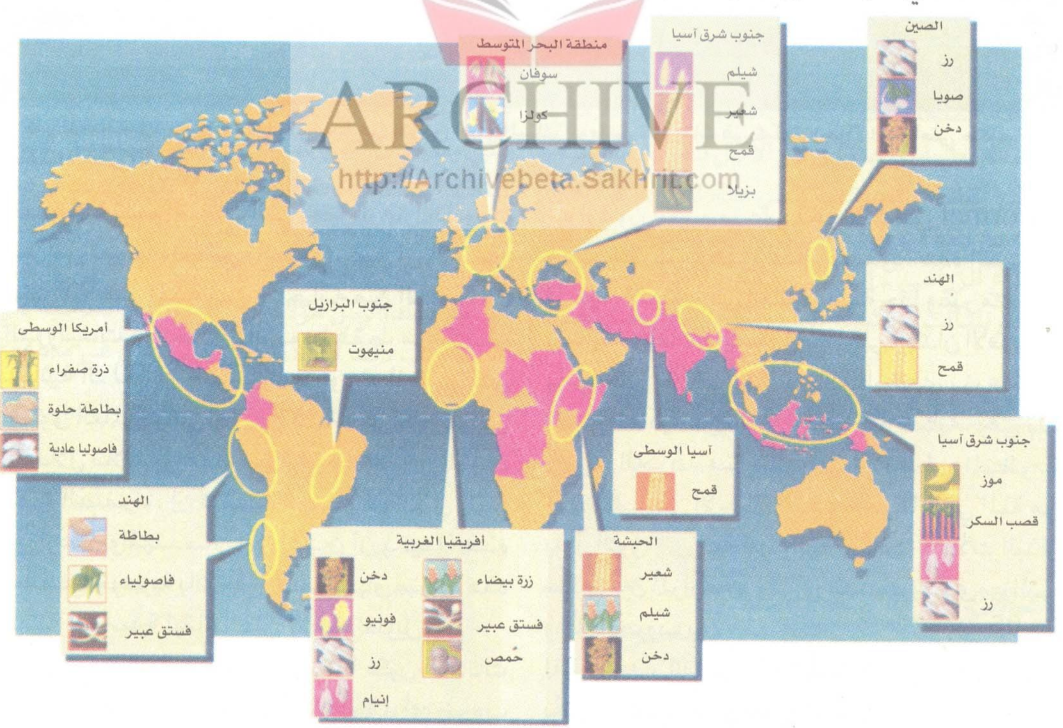
ـ الأسمدة المستخدمة حاليا في البلدان النامية هي أقل بمرتين للهكتار بالقياس مع البلدان الصناعية. إذن، فالتكثيف المدروس ممكن.

ـ المردود الحاصل في البلدان النامية لا يصل إلى المستويات الغربية، على رغم التطورات الراهنة. إذن، يمكن تصور حدوث هامش من التقدم على مستوى genetique وراثيات الجينيات والطرق الزراعية والدقة على حد سواء.

ـ تشكل الحروب السبب الحقيقي للمجاعة. فخلال السنوات الخمسين الماضية، لم يكف عدد الصراعات المسلحة عن الازدياد في العالم. ومنذ العام 1945، أحصي منها ثلاثون صراعا «كبيرا» ومائة صراع «صغير»، معظمها في أفريقيا، حيث دمرت الحروب خلال التسعينيات وحدها أربعة عشر بلدا.

تعمل الحرب على تخريب الحقول وتهجير السكان. والأكثر إيذاء من ذلك هو أنه عندما تقضي الحروب على تنوع الموارد الجينية، تضر بالمزارعين المحليين في العمق. ذلك أن التنوع الحيوي، التنوع الوراثي في قلب كل نوع، يشكل أساس الزراعة الحديثة نفسه. ومن المعروف أن هنالك أرزا أفريقيا (Oryza glaberrima) وأرزا آسيويا (Oryza sativa). ونعرف بقدر أقل، وفقا لمعطيات منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (إف. إي. أو) F. A. O. الفاو، أنه يوجد أكثر من 100 ألف نوع من الأرز الآسيوي وحده.

وتفيد معطيات منظمة الأمم المتحدة للعلوم والثقافة (اليونيسكو) (3) «بأنه يوجد في العالم نصف مليون نبات من باديات الزهر phanerogame (



● تنوع حيوي: تنتج كل منطقة من مناطق العالم أنواعا نباتية نوعية، وتلك الموجودة في البلدان التي تشهد الصراعات الأعنف (مناطق مشار إليها بالأحمر على الخارطة) مهددة بالانطفاء النهائي.



● كنز للمستقبل: حفظ الأنواع المحلية في خزائن أدراج البنك الوطني للجينات في كينيا. إجراء احتياطي حكيم، لكنه استثناء حتى الآن.

شعبة نباتية تضم النباتات التي تحمل أزهارا في وقت معين من نموها وتتكاثر بالبذور)، غير أن الإنسان يلبي 95 في المئة من حاجاته من الحريرات والبروتينات من خلال 30 نوعا فقط من الأنواع النباتية الـ 7000 التي يزرعها أو يقطفها. وعلى المستوى العالمي، يأتي أكثر من نصف مورده الطاقي من خلال ثلاث زراعات كبيرة فقط: الأرز، والقمح، والذرة الصفراء. إن تنوعها الجيني هو الذي يتيح للمزارعين والمهندسين الزراعيين أن يكيفوا هذه النباتات الجوهرية باستمرار وفقا لسياق متغير، هذه العملية الحاسمة لبقائنا على الأمد الطويل».

في زراعة العالم الثالث، غالبا ما تكون النباتات حتى من «الضروب المزروعة» cultivars، أي ضروب أنواع نباتية غير موجودة في الطبيعة، كانت قد كيفت مع الشروط المحلية وحسنت من جيل إلى جيل. ويدير المزارعون أنفسهم، على نحو لا شكلي informel، وغير ممركز، وعلى نطاق محدود، هذه الضروب المحلية، التي هي في الغالب قديمة جدا وغير مفهرسة رسميا. ووفقا لليونيسكو أيضا: «في البلدان الأفريقية، يأتي حتى 90 في المئة من البذار الذي يزرع خلال السنة العادية من هذه المصادر اللاشكلية. وفي بلد دمرته الحرب، مثل سيراليون، تعطي المنظومة اللاشكلية في الأحوال العادية نحو 80 في المئة من بذار الأرز، الزراعة الرئيسية، وكانت تبادلات البذار سائدة بين المزارعين. وفي رواندا، وبوروندي، وزائير، وقبل الحروب بين هذه البلدان، كان أكثر من 95 في المئة من بذار الفاصولياء، المصدر الرئيسي للبروتينات، يأتي من منظومات التمون غير البنيوية.

عندما تجبر الجماعات الريفية على الهروب، تتخرب شبكة التعاضد المنسوجة حول البذار: لا

يستطيع المزارعون، في أيام الحصاد، إعادة البذار الذي استلفوه في أوان البذار، بحيث تنهار المنظومة. من دون الأمن، الذي يؤمنه السلام، لا تستطيع الجماعات الريفية تغذية الأسواق بالبذار، ولا يعرف أحد إذا كان ما يقوم بزرعه سيمكنه أن يجنيه بالفعل في غضون أربعة، أو تسعة أو ثمانية عشر شهرا (دورات الفاصولياء، والبطاطة، والمنيهوت)».

بذار مجلوبة:

ما الذي يمكن أن تفعله المنظمات الإنسانية؟ «من المفارقة أنها غالبا ما تفاقم الوضع: تستجيب لتصدع المنظومات المحلية بتزويد المزارعين بالبذار ذي المنشأ الخارجي. وبعد المساعدة الغذائية، يأتي توزيع البذار والأدوات بشكل عام في المرتبة الثانية من سلم الأولويات. إلا أن البذار في أغلب الأحيان بذار «مجلوبة»، غير مختبرة، ولا متكيفة مع الشروط المحلية وطرق عمل المزارعين».

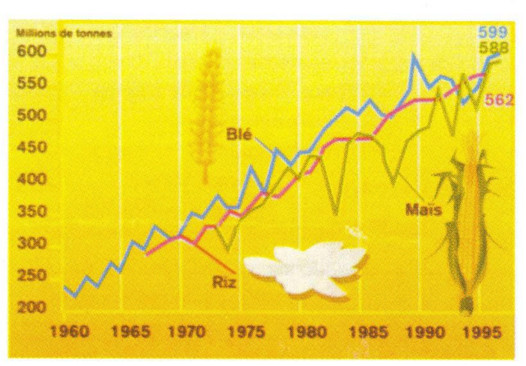
ومن الصحيح القول، ضمن الحالة الراهنة للأمور، إن العالم يواجه توزعا ليس هو الأمثل للموارد الغذائية. تستأثر البلدان الصناعية بثلثي هذه الموارد، في حين أن 5 في المئة وسطيا من سكانها العاملين يعملون في القطاع الزراعي ـ الغذائي، مقابل 50 في المئة في العالم الثالث. ويشير «لستر براون»، مع ما يجب اعتباره دعاية سوداء، إلى أن «تأثيرات التخمة الغذائية وسوء التغذية هي نفسها: ازدياد مخاطر الأمراض، وانخفاض معدل طول الحياة، وتضاؤل الإنتاجية».

ومن المؤكد أن تدمير مزارعي البلدان الأغنى، أمام سيطرة الجوع على بلدان العالم الثالث، للإنتاجات الزراعية الفائضة يشكل وضعا صادما، بل صعب التحمل. مع ذلك هل تكمن حلول المشكلة في التضامن والمساعدات؟

آفة اقتصادية:

يجب أولا تحديد الأمور. ليس فرط إنتاجنا قدرا، ولا حقيقة غير قابلة للتغير. إنه نتيجة لسياسة زراعية توجيهية جدا لاقت نجاحا كبيرا. وتحول هذا الفرط الإنتاجي إلى آفة اقتصادية تكافحها جميع الحكومات، التي تسعى لتخفيض كلف نفقات دعم الأسواق. في نهاية المطاف، المواطنون مسددو الضرائب هم من يسددون هذه الكلف. فهل هؤلاء المكلفون، أن كل فرد من السكان، قادرون على تمويل الآليات التضامنية التي يمكن أن تتيح تطبيق ممارسة سياسية الهبات المنظمة لتغطية الحاجات، التي لا تتوافر وسائل دفع أثمانها في العالم الثالث؟ ذاك هو السؤال الأول الذي ينبغي طرحه بالفعل.

مع ذلك، ليس مؤكدا أن المساعدة الغذائية هي شيء جيد. ذلك لأنها تتحول إلى سلاح في مصلحة



40
30
20
10
0
Millions de tonnes
Chine
38
Union européenne
16
Urss + Europe de l'Est
8
6
Etats-Unis
1976
1981
1986
1991
1996

استئثار الصين بكل الأرقام القياسية: في غضون ثلاثين عاما، في عالم ضاعف إنتاجه من الزروع، أصبحت الصين في المقدمة. وأحرزت تقدما كبيرا في ميدان تربية الماشية، وتضاعف إنتاجها للحم الخنزير أربع مرات.



فائض تصعب إدارته: إذا كان فائض الإنتاج في البلدان الصناعية يعني الاتلاف، فإن سياسة المنح المنظم لبلدان العالم الثالث غير واردة بالضرورة

البلدان المانحة التي قد تمارس ضغطا على متلقي المساعدة، ولأن ذلك لا يشجع المتلقين على تطوير الإنتاج الزراعي في بلدانهم، والأسوأ من ذلك، لأن للأمر علاقة بأقوى إغراق (4) dumping يمكن تصوره، والذي يؤدي إلى تثبيط الإنتاج المحلي ويقود الفلاحين إلى الإفلاس والزوال. «إن الحكومات التي تستفيد من المساعدة الغذائية إنما تستخدمها غالبا من أجل تهدئة الصراعات الناجمة عن التمدين المتنامي والبطالة، بتخفيض أسعار الخبز والأطعمة الأكثر تناولا، مما يتمخض عن انهيار مداخيل المنتجين المحليين»، وفقا لعبارة «لوسيان بورجوا».

في هذه الحال، المنح يعني التدمير والقتل.

تقنيات للعالم الثالث بذر من دون حراثة

ما يزال 12 في المئة من أراضي العالم الصالحة للزراعة في حالة استراحة حتى اليوم ويقع معظم هذه الأراضي في أمريكا الجنوبية وأفريقيا، في مناطق استوائية تتعرض تربتها الضعيفة للتآكل بسهولة. ولكن هنالك نمط جديد من الزراعة في الطريق إلى حل هذه المشكلة. ونعني بها الزراعة بلا حراثة، على غطاء نباتي، والتي لا يتردد مركز التعاون العالمي للبحوث الزراعية من أجل التنمية (Ciard)، الذي ساهم في «اختراعها»، في التأكيد بأنها ستكون «الزراعة الاستوائية للألفية القادمة». ويؤكدون أنه سيتوجب على هذه الزراعة زيادة الإنتاج مع حماية البيئة في الوقت نفسه، حتى على صعيد استخدام الماء - حيث ينظر بعض الاقتصاديين إلى ندرة الماء الشروب في العالم، على أنه أحد معوقات تطوير الإنتاج الزراعي التي يصعب التغلب عليها. ومع هذه التقنية الجديدة، يتم البذر عبر غطاء من النبات.

تستعد التربة هنا، التي لا تعود تحرث، والمحفوظة بغطاء نباتي، حياتها البيولوجية وخصوبتها، وتتعزز وتبقى في مأمن من التآكل. ويؤدي «الغطاء» أيضا مهمة إعادة تدوير العناصر المخصبة قبل أن تضيع في الأعماق وتخفف من آثار التقلبات المناخية. من جانب آخر، تقسم كلف الإنتاج والزمن المخصص للأعمال في هذه التقنية على اثنين. وقد أنجز علماء Ciard تجاربهم الأولى في السباسب الرطبة لوسط غرب البرازيل (سرادوس). في هذه المناطق، تمت زراعة 3,5 مليون هكتار (صويا، وذرة صفراء، وأرز، وقطن، ومراع...) على أساس هذا النمط الزراعي الاستوائي الجديد. وتضاف إلى بقايا الجني، التي تغطي التربة، أغطية حية (نجيليات (نباتات من وحيدات الفلقة تشمل النباتات الحبية والعلفية) وقطانيات (فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين، تشمل الفول والعدس والحمص...))، تبذر مباشرة ببذور المزروعات الاستوائية. لقد استوحيت هذه المنظومة الزراعية من المنظومة البيئية الاستوائية، التي تنمو على نفسها، دون موردوات وبلا ضياع. وقد بدأ Ciard في نقل هذه التجديدات من البرازيل إلى أفريقيا (ساحل العاج، والكاميرون، والغابون)، والمحيط الهندي (مدغشقر، ولاريونيون). ويجري حاليا بناء مشروعات أخرى في آسيا وأفريقيا ومدغشقر.

السماد الأخضر

تنطوي الـ Sesbania rostrata، وهي من قطانيات أفريقيا الغربية، التي تنمو في التربة الرطبة وفي المناقع بسرعة نمو استثنائية (بمعدل 10 سم في اليوم خلال موسم الأمطار)، على قدرة تثبيت بيولوجي عالية جدا للآزوت. وهذه القدرة ناجمة عن وجود العديد من عقيدات التثبيت البيولوجي في الوقت نفسه على جذر وساق النبتة. وقد جعلت منها هذه الخاصيات سمادا أخضر ممتازا. وكانت قد أنجزت تجارب، طيلة سبع سنوات، على استخدام الـ Sesbania rostrata كسماد أخضر في حقول الأرز في «كاسامانس» السنغال. وعلى نحو مواز لبذر الأرز في المشتل، أخذت بذور الـ Sesbania rostrata بالانتعاش، بعد زراعتها خلال خمسة أسابيع، ثم طمرت في تربة حقول الأرز قبل أسبوع من غرس الأرز ثانية. ووصل مردود الأرز إلى 4 طن / هكتار بالنسبة لقطع الأرض التي تلقت الـ Sesbania rostrata مقابل 1,7 طن لقطع الأرض الشاهدة. وللأسف، توقفت هذه التجارب الواعدة بسبب الحرب في كاسامانس.

هذه الديدان التي تخصب التربة

من المعروف أن ديدان الأرض، من نوع الخرطون lombric، تعمل وتحفر في التربة. ومن بين 245 تجربة منجزة في البلدان الاستوائية، حصل معهد البحوث من أجل التنمية (باريس/ فرنسا)، بعد تلقيح الديدان في الأتربة التي لا تتواجد فيها، على زيادة وسطية في الإنتاج مقدارها 63 في المئة. وقد تم التوصل إلى حل أدنى من التلقيح أيضا: تلزم كتلة حيوية biomasse حيوانية مقدارها 30 إلى 40 غ من الديدان في المتر المربع للحصول على نتيجة يعتد بها. وهكذا، للوصول إلى نوعية جيدة من التربة، بدئ بإدخال ديدان إلى البلدان الاستوائية على نطاق واسع ووضعها في خنادق (تعمل أيضا على إبطاء التآكل)،



الخرطون، دودة الأرض هذه، هي أكثر فاعلية للحرث من سكة المحراث.

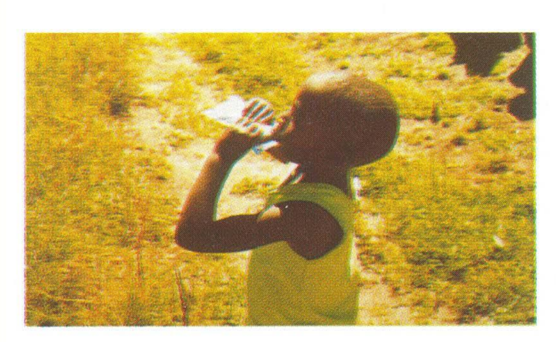
حيث تقدم لها الفضلات العضوية التي تمكنها من التغذي (نشارة الخشب، وعيدان أغصان مكسرة، وكسب البن...). إذن يجب أن يخص القلق حول مستقبل الإنتاج الزراعي البلدان الصناعية أكثر مما يخص بلدان العالم الثالث. ويقول المهندس الزراعي «باتريك لافيل»، من معهد البحوث من أجل التنمية: «ترتكز الزراعة الحديثة على استخدام النباتات المزروعة ذات الأداء العالي جدا، وعلى الاستخدام الشامل للأسمدة ومبيدات الهوام وعلى عمل التربة الكثيفة والعميقة. وتتجاهل هذه الطرق موردا جوهريا، حيوانات التربة، وبالأخص ديدان الأرض»

أرز منشط بالفيتامين «أ»

أتاح مؤخرا مشروع موله الاتحاد الأوروبي انجبال incorporation إنتاج البيتا ـ كاروتين Betacartene في الأرز، بنجاح. وسيسمح هذا التقدم العلمي، الذي لون عرضا حبوب الأرز بالأصفر، الوقاية من العوز المهم إلى الفيتامين «أ» في البلدان التي يشكل فيها الأرز الطعام الأساسي للسكان. ويشمل ذلك أكثر من مليارى إنسان. ويعتبر هذا العوز إلى الفيتامين «أ» مشكلة صحية عامة في 118 بلدا، ويسبب ليس فقط جفاف الملتحمة xerophtalmie، السبب الرئيسي للعمى الطفلي في البلدان النامية، بل يحد أيضا من مقاومة أمراض خطيرة وشائعة، كالإنتانات التنفسية، والإسهال، والحصبة. ووفقا لمعطيات منظمة الصحة العالمية، فإن ازدياد موورد الفيتامين «أ» عند الأطفال يحد من الوفيات المرتبطة بالأمراض الإسهالية بنسبة 33 في المئة. ويعاني نحو 250 مليون طفل في مختلف أنحاء العالم اليوم من العوز إلى الفيتامين «أ».

حريرات مكثفة

من أجل مساعدة بلدان العالم الثالث، في مواجهة المجاعات، تم إيجاد ما هو أفضل من مسحوق الحليب التقليدي. فمؤخرا، توصل الدكتور «أندريه بريان»،



الحرارة والرطوبة لا تؤثران في الـ Plumpy'Nut، الغذاء الكامل، الطاقي، الجاهز للاستهلاك دون إضافة ماء.

الباحث في معهد البحوث من أجل التنمية، مع شركة nutriset، إلى ابتكار الـ Plumpy'Nut، وهو مستحضر ينطوي على تجديد رئيسي: «جاهز للاستهلاك» دون إضافة ماء. ويتركب من عجينة الفول السوداني التي مزجت بمصالة اللبن lacctoserum على شكل مسحوق. ويحوي هذا الطعام الكامل قيمة طاقية عالية جدا: 540 حريرة كبيرة لكل 100 غ من العجينة، بدلا من 100 حريرة كبيرة لكل 100 غ بالنسبة للأطعمة اللبنية المعتادة. ولما كان خاليا من الماء، فإنه يقي من خطر التكاثر الجرثومي. وقد غلف بأكياس بلاستيكية صغيرة مكسوة بالألومنيوم، وبالتالي يمكن حفظه لمدة أشهر عدة ، حتى ضمن الشروط غير المواتية كثيرا المعروفة في البلدان الاستوائية. والـ Plumpy' Nut كثيف للغاية: يشغل كل طن منه مترا مكعبا تقريبا (مقابل مترين مكعبين بالنسبة لمستحضر مسحوق من وزن مماثل)، مما يسهل نقلة في الحالات المستعجلة. وقد تم مؤخرا توزيع عشرات الأطنان من هذا المستحضر في السودان وتشاد والصحراء الغربية.

الهوامش

(1) لهذا التباطؤ سبب مرعب: اتساع رقعة وباء الإيدز.
(2) باتت الزراعة تستهلك 70 في المئة من الماء العذب المتاح في العالم.
(3) Le Courrier de L'unesco, juillet- août 1999.
(4) البيع بخسارة من أجل التحكم الاحتكاري بالسوق.

كيف تتصور القرن المقبل؟

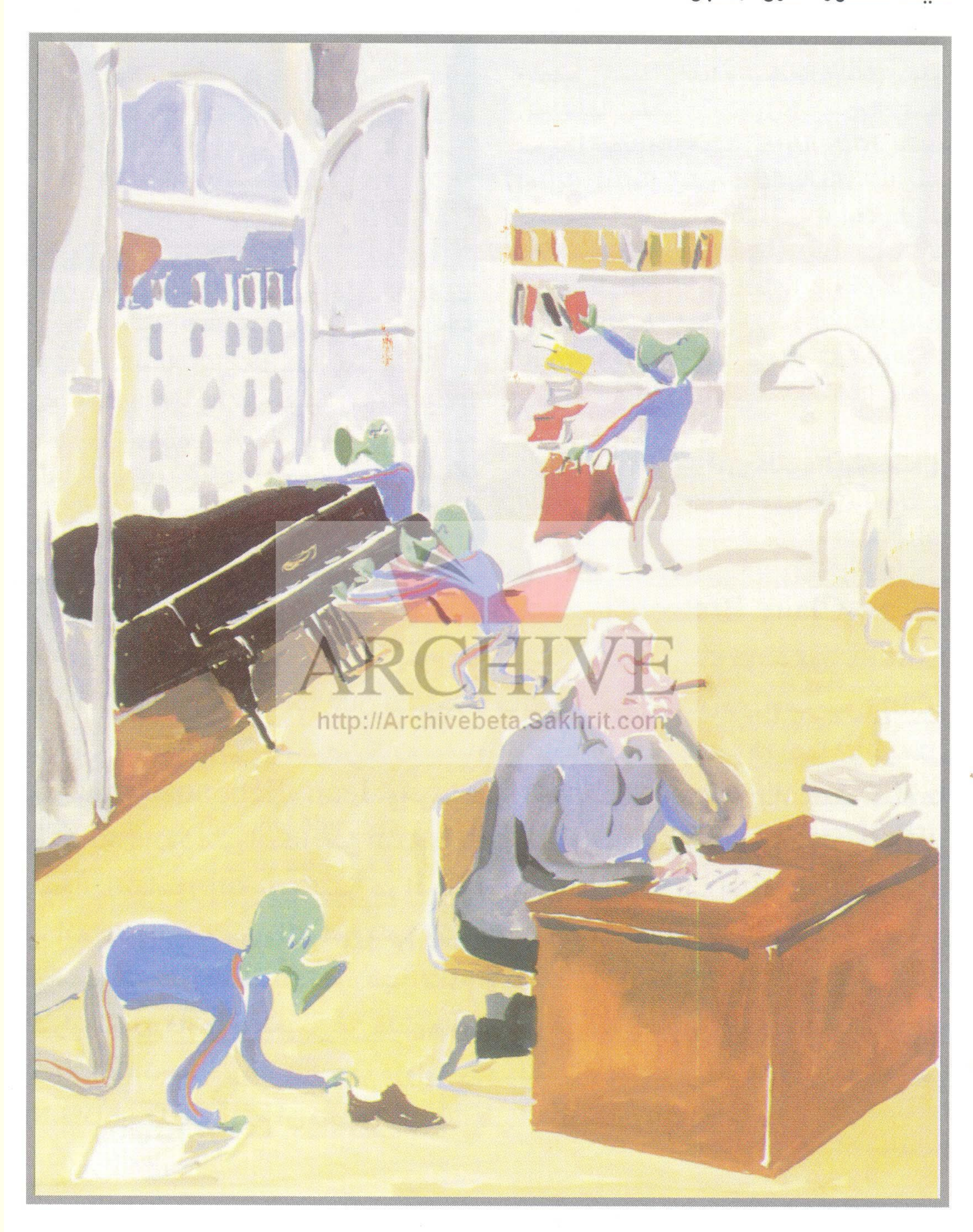
ترجمة: ماجدة أباظة

فضل العديد من الكتاب عدم الرد على السؤال، إذ اعتبره البعض سؤالا ينذر بالموت مثل كلير بريتيشير Claire Bretecher، والبعض الآخر رأى أنه لا يملك هذا المفهوم عن الزمن مثل لوريت نوبيكور Lorette Nobecourt. وهناك من كان منشغلا بالعمل مثل جان دي أومرسون Jean d'Ormesson إلى جانب من كان، ببساطة، لا يدري بماذا يدلي في هذا الأمر مثل جان إشنور Jean Echenoz. ومن بينهم، أجاب سبعة وعشرون بأساليب متنوعة ومبهجة. علاوة على أشكال من الندم وأفكار وآمال (ربما ذات لمحات ورعة وتقية!). أثار السؤال التباسا: «التصوير ليس هو الحلم أو الابتكار بالنظر إلى التوقع أو التخوف؟». إلا أنه على الرغم من ذلك لم ينتهز كثير من الكتاب هذه الحرية الروائية. فبدلا من قيامهم بتشكيل مستقبل تغرد فيه الأيام أو باستدعاء الحشرات التي تزقزق في وجه أشرار الكون، قاموا بالتعبير عن قلقهم ورغبتهم في عدم تجاوز «المكان والزمان».

إلا أننا نجد طرفة من هنا ورواية جميلة من هناك أو قليلا من الدلال في الإجابات. عليكم أنتم أن تجدوا كل هذا في الصفحات التالية:

العنوان الأصلي للمقال:

Comment Imaginez - Vous Ie Prochain Siécle?† ونشر في مجلة Lire عدد ديسمبر 1999.



أكتب لكم بمزيد من الأسى إن كل ما يتعلق بالخيال لا يهمني كثيرا



القوة ! المزيد من إضفاء القوة على كتاباتي، حتى لا يسخروا مني عندما يأتي النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين ويصفونني بدلوعة العام 2000.

نحن نتفق على الأشياء التي نسمعها في كل لغات العالم، الأشياء البدائية، البحر الذي يجلب الخير والطعام، الهواء وأيضا احترام الأطفال.

أطفال يتعلمون القراءة والكتابة ورفع الجباه مطالبين بالحرية في كل البقاع سواء توجد تلك التي بها ماء وبحار وأرض أو تلك التي لا تفتقر إلى كل هذا. ولكن بمجرد أن أكتب هذا الكلام لا يعود حلما بل يصبح دعاء، دعاء يضيع في أول يوم من أيام الألفية الجديدة. من الذي سيسمع هذا الدعاء، من الذي سيسمع نفسه؟

بيير سانسو Pierre Sansot.

.بالطبع أنا لا أستطيع أن أتصور شيئا إلا

على المدى القريب. السنوات العشر المقبلة، أستطيع أن أقول إن الأسرة في الستينيات من القرن العشرين كانت مؤسسة باطلة. أما اليوم فالناس تقوم باتخاذ إجراءات الخطوبة ثم الزواج، ولذلك مغزى، ألا وهو الحذر. ما أخشاه هو إجراء تعديلات على الإنسان، على جسده، على نفسيته.

هناك بعض الأنماط التي ربما تضعف مثل الأبوة أو الأمومة في حالة ظهور أساليب جديدة للإنجاب. ولكنني أظل متفائلا، منسجما مع ذاتي. أميل إلى التأني وأعتقد أنه سيكتسب أرضية في ظل ثقافتنا التي تتسم بالعنف.

قد تكون هذه التأثيرات إيجابية: العمل سيبعد الناس عن العمل. إنني أفضل الحياة الحالمة المتروكة على سجيتها عن الحياة العنيفة. سيشهد القرن المقبل بالتأكيد تغيرات. انظروا إلى الأهمية التي تكتسبها الفلسفات الشرقية التقليدية، بعيدا عن ثقافتنا القائمة على العنف. فعلى سبيل المثال، أعتقد أن جاذبية الحديقة تكمن في الكشف عن الرغبة في العودة إلى ما هو نباتي، ولكنها أيضا أسلوب لإعادة النظر في العالم: إذ إن الإنسان لا يسيء معاملة حديقته. هذا ينطبق على الاحتفالات: ففي هذه الأيام أصبحنا نجتمع من أجل كل شيء، ليس بغرض أن نثور أو أن نعلن رفضنا ولكن لكي نتواجد سويا. نجتمع سويا لكي لا نفعل شيئا في حقيقة الأمر، إذ أصبح الموضوع يدور حول التعامل والارتقاء بالأشياء الصغيرة .أعتقد في المدى القريب أن مجتمعنا سيصبح أكثر إنسانية على الرغم من كل التهديدات التكنولوجية والصناعية. ولكن تظل دلالات الاهتمام بالحدائق وبالاحتفالات دلالات غير خادعة.

ليدنا لي Linda Le:

بالنسبة للسؤال المطروح، لا أجد إلا إجابة محددة: سيئ.

ليدي سلفيري Lydie Salvayre:

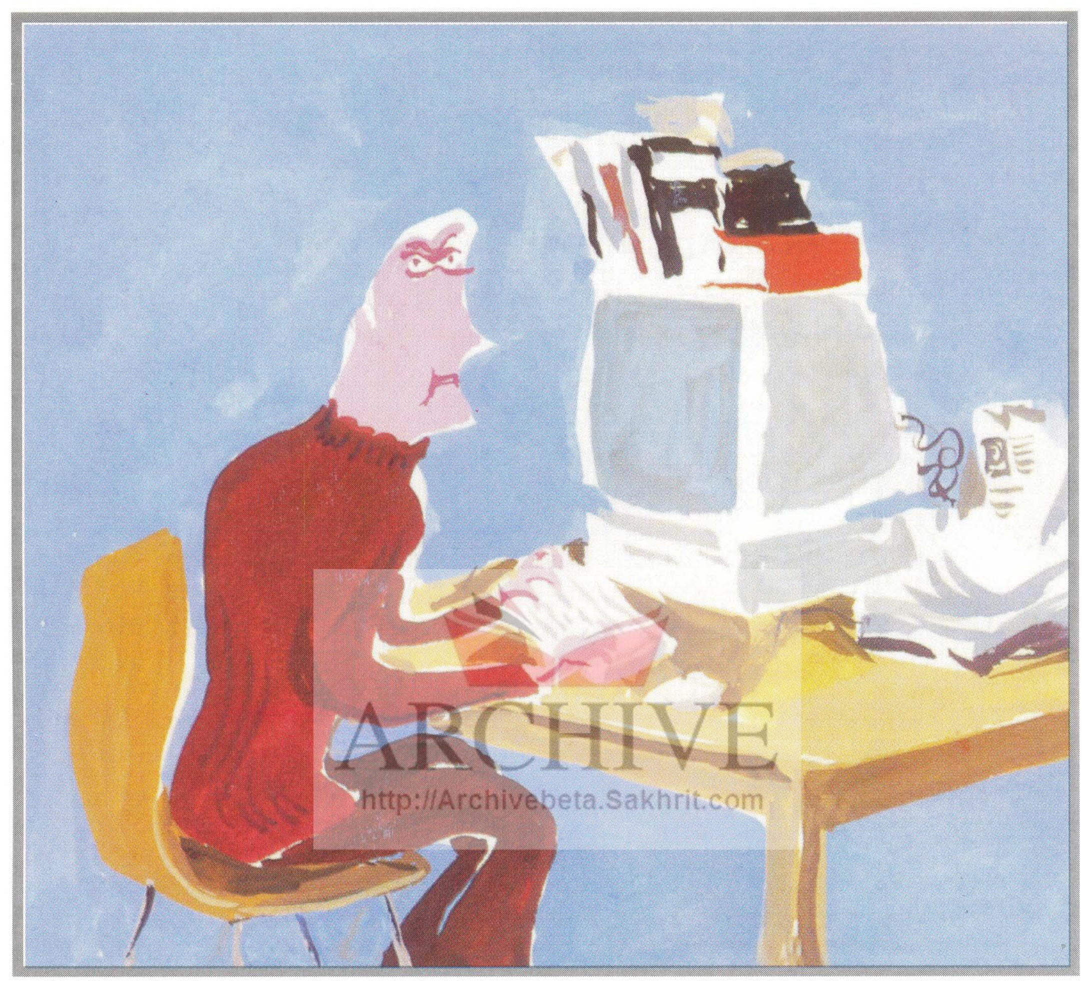
عندما أنظر إلى المستقبل يذكرني بـ Plume. فمن أجل أن يغويني، يريني في البداية ثرواته وأجهزته التكنولوجية المتطورة، يريني الزهور والنافورات التي في حديقته، يريني الخضروات الخالية من المواد الكيماوية والسماد المعالج. ثم يعود إلى طبيعته، يكشف عن الصخور القاتلة ثم عن البراكين التي توشك على الانفجار ثم عن حافة الهاوية ثم الحضيض ثم عن التلف اللانهائى الذي أصابه.

إسماعيل قدري Ismail Kadare

أثبت القرن المنصرم ـــ من وجهة نظر الضمير الإنساني ومن خلال أحداث عدة في أوروبا ـ أننا كنا نسير نحو التقدم، نحو البحث عن عالم أو دولة أكثر إنسانية. أما فيما يتعلق بالنظرة الشمولية للثقافة فأنا أكثر قلقا. فنحن نعلم، أنه كلما أصبحت الثقافة عالمية تصاب بالضعف كما هو الأمر بالنسبة للغة عندما تصبح عالمية. ليست الإنسانية بهذا الاتساع حتى تدار من خلال ثقافات متعددة، ولكنها من الجهة الأخرى ليست بهذا الصغر لتسيطر عليها جهة واحدة. سيكون لزاما علينا أن نجد حلا وسطا يجمع بين هذين الاتجاهين المتناقضين للذين يذكيان الخلافات العميقة: التنوع والتوحد. أن نجد طريقة نحمي بها هذا التنوع على أن نحده في الوقت نفسه. تعتبر هذه المشكلة مشكلة جوهرية ذات بعد عملي وفلسفي في آن واحد.

جان رود Jean Rouaud

هذا الموضوع يذكرني بالزمن الجميل الماضي، سنوات الستينيات من القرن العشرين



سقوط بلزاك وفلوبير في غياهب النسيان، ومما يسبب لي الخجل أن تصبح كتاباتي العاطفية التي نشرت في الثمانينيات من القرن العشرين من كلاسيكيات القرن الحادي والعشرين

عندما كانوا يقترحون علينا تعلم اللغة الإنجليزية في أثناء النوم، من خلال وضع شريط مسجل تحت الوسادة على شرط أن نكون قد خلعنا سدادات الأذن. وفي الصباح كنا نستقبل المحبوبة بالجملة الإنجليزية «Have a nice day, honey» يوم سعيد يا محبوبتي، في حين أن الفتاة كانت تترك شعرها مشعثا في محاولة لتطرد ما تبقى من النعاس، كانت تداهمنا عندئذ - على استحياء - فكرة بخصوص الرجال/ الكتب، شخوص رواية 451 فهرنهايت، الذين كانوا ينكبون على أنفسهم يحفظون، على ظهر قلب، الأعمال المكتوبة الكاملة من أجل الحفاظ على الذاكرة.

ولكن من الآن فصاعدا، يكفي مجرد قرص صغير الحجم يكاد لا يرى يتم توصيله بالمخ حتى نتعرف في الحال على ما تحتويه مكتبة Pleiada ، وبعد فترة وجيزة سيتعلق الأمر بإدخال البنك الوطني الفرنسي في الرأس، ثم

يلي ذلك إدخال العالم أجمع.

تقدم مذهل سيسهل عمل النقد الأدبي وعمل البوسطجي الذي لن يضطر بعد ذلك إلى نقل أطنان من الكتب أو نقل الغابات التي سنحتاج إليها من أجل حصر تأثير المشاتل أو الصوبات.

أنا شخصيا، سأستمر في قراءة أعمال شاتوبريان ومالكون لوري بالأسلوب التقليدي. ولكن فيما يتعلق بالكتاب الآخرين فإنني سأفكر في الأمر، أما بالنسبة لتعلم اللغة الإنجليزية في يوم واحد، فقد حسم الأمر، كم سيكون رائعا هذا اليوم.

فسلافا زيمبورسكا
Wislawa Szymborska
(جائزة نوبل للآداب)

أتمنى أن تزول في القرن المقبل هذه القصيدة الشعرية: الكراهية.

انظروا كيف تظل الكراهية فاعلة وكيف تحافظ على نفسها في القرن الذي نعيش فيه.

انظروا كيف تجتاز أكبر الحواجز بكل طبيعية، كيف تستطيع بكل سهولة أن تقفز وأن تسيطر.

لتذهب بقية المشاعر الهزيلة والواهنة بعيدا.

فمتى كانت مشاعر الأخوة تجذب الجماهير العريضة؟

فهل رأينا أبدا الرحمة تتعامل مع الآخرين على حين غرة؟

فكم عدد المهتدين الذين وقعوا في براثن الشك؟

الكراهية وحدها هي القادرة على الإثارة ولا يثيرها أحد.

نقول عن الكراهية إنها عمياء، أحقا يمكن أن تكون كذلك؟

وعيناها، كأعين الصيادين؟

الكراهية شجاعة، إذ إنها تنظر إلى المستقبل في وجهه.

هي فقط كذلك.

بول نيزون Paul Nizon

إنني أرى قرنا مليئا بالمصائب، وأنظمة غير مرئية - تخرج من عباءة الرأسمالية - تعيد تنظيم ذاتها. أرى اختفاء الأدب أو التجاء نوع منه إلى شبكة صغيرة للمقاومة. أرى أشياء مخيفة وليدة التلاعب بالجينات من أجل الحصول على نوع من البشرية لا نعرفها. أرى مزارع تحت البحر تنبح الطحالب، وهجرة جماعية إلى القمر، أرى اكتظاظا سكانيا منقسما إلى قسمين، القسم الأكبر منه دمر نفسه بنفسه في الحروب، والقسم الآخر مجموعة من الأغنياء شبه معزولة تقوم بإدارة أشياء لا أعرف عنها شيئا.

اريك هولدير Eric Holder

إن الدخول إلى القرن الحادي والعشرين لا يلهمني أفكارا شخصية، بل أقول لا يلهمني أي فكرة على الإطلاق. مجرد أن كلمة مثل «الدخول» في ذاتها يمكن أن... أريد أن أقول: كيف يمكن العام 2000 أن يشغلني في حد ذاته، إذ إن الأمر لا يتعلق بالتحيز أو عدم التحيز العام 2000، فلماذا تشغلنا الأرقام؟

هناك استثناء واحد: وهو الفتيات الصغيرات، أما الأطفال الصغار لا يدخلون في هذا الاستثناء بالدرجة نفسها. فخلال الخمس عشرة سنة المقبلة في القرن الجديد، سيتسلحون من داخل الترسانات التي صنعناها بل وللأسف من داخل الترسانات التي نصنعها أيضا. يعتبر العام 2000 بالنسبة لنا هو الغد والأمس أو حتى الحاضر كما كان يكتب



سأحتل في القرن الحادي والعشرين المساحة الأدبية أطول فترة ممكنة
وذلك بفضل التقدم الطبي مما سيسبب الإحباط للمنافسين

جيل توردجمان. Gilles Tordjman

بالنسبة للفتيات الصغيرات سيكون ذلك تاريخا. إن الزمن الذي يمر بهذا البطء في هذه المرحلة السنية سيسرع كثيرا فيما بعد. سيقلن نحن نعيش الحياة الحقيقية وهن مستلقيات على شط البحر أمام الصخور في حالة من الاسترخاء.

لقاءات على الشاطئ أيها الشباب في ليل رأس السنة. سيكون هناك ألعاب نارية، من أجلكم، بمنزلة توجيه الدعوة لكم للحضور. ولكن ـ اسمحوا لنا ـ رغم كل شيء أن نسدي لكم النصيحة: افعلوا ما هو أفضل من ذلك. سيأتي الدور على كل فرد ليذهب إلى الحفلة.

فينسانت رافاليك Vincent Ravalec

سيكون القرن الحادي والعشرون بالضرورة قرنا رومانسيا ومنيرا!

كريستين أنجو Christine Angot

كيف أرى العام 2000؟ أو كيف أتصوره؟ الإجابة بالنفي. فأنا لا أتصوره ولا أراه، فأنا لست منجمة. ولكنني على الرغم من ذلك ألمس حدوثه وهذا في ذاته جيد. لا يمكن التكهن به قبل أن يأتي، لا يمكن أن أتكهن به قبل حدوثه بعشر سنوات أو بشهرين أو حتى بيوم واحد. إنها أكاذيب، الرؤى أكاذيب الكلمة، والأحلام أحلام عن الحياة. بينما الحياة تستحق ما هو أفضل من ذلك. إن الأشياء التي أعرفها، أعرف أنها ستأتي ولكنني لا أملك الجرأة أن أقول إنني أعرف ذلك. لا يجوز أن يفعل المرء ذلك. إذ إنه سر. إليك الأشياء التي لا يجوز الحديث عنها: وهي الأشياء التي نعرفها بخصوص المستقبل. الأشياء التي نتيقن من حدوثها عاجلا أم آجلا. لا يمكن البوح بها لمخلوق. أما باقي الأشياء فلا غضاضة. فإذا أفصحنا نكون قد حرمنا الأشياء من إمكانية أن تكون ذاتها بحرية.

إن القول إنني أرى ذلك بهذه الطريقة أو تلك أو سترون بالضرورة أو أنه سيحدث حتما، أو حتى مجرد القول إنني أحب أن أو أريد أن أتمنى أن يحدث هذا لمن الوقاحة الشديدة.

من يمكنه التكهن بما سيحدث في العام 2000 أو أي عام آخر، من يجرؤ أن يقول ما لا يعلم (أحيانا يحدث ذلك في أضيق الحدود بين أقرب المقربين ـ الذين لم يعد لي منهم أحد ـ وعلى رغم ذلك، يعتبر ذلك تجاوزا). من يستطيع ذلك؟ ولكن أن يريد الإنسان شيئا ـ مع الإقرار أن الزمن أقوى منه ـ فيمكن أن ينكره أو أن يأتي بعكسه. لا يجب أن نلعب هذه اللعبة، إنه الحلم.

مارلين ديسبيول Maryline Desbiolles

إنني لا أتصور القرن المقبل لأنني أتحدى التصور. لا أتصور القرن المقبل لأنني أتحدى المستقبل. إنني أراهن على ما هو أكثر طموحا وأكثر صعوبة ألا وهو عدم التكهن، عدم التوقع وعدم الانتظار وعدم الرجاء وعدم وضع الخطط بناء على عناصر وهمية. إنني أراهن رهانا مجنونا على أنني أعيش هنا الآن.

بول فورنيل Paul Fournel

وفقا لتقديراتي، فإن القرن الحادي والعشرين يجب أن يستمر بضع مئات من السنين.

ميشيل هولبيك
Michel Houellebecq

يجب أن نؤقلم العقل الإنساني على الرياضيات، أن ندخل به ربما الشرائح المبرمجة. إذ إن حقيقة العالم ذات طبيعة رياضية، ولأن القلة هم الذي يعملون لذلك حسابا فهم فقط القادرون على فهم العالم. لا يبدو الأمر خطيرا إلا أنه كذلك. إن النجاح الذي تحققه الطوائف والشيع يزداد، بسبب العجز عن فهم الوصف الذي يقدمه العلماء عن العالم.

إن عمر الحياة سيطول وهذا أمر جيد. ولكن من الضروري أن نتحرك من أجل السيطرة على معدل المواليد في العالم. ذهب العديد من الجهود العلمية والتقنية أدراج الرياح، ظل من دون جدوى وغير قادر على تحسين مستوى المعيشة للأغلبية العظمى بسبب الفشل في السيطرة على معدل المواليد. يعتبر الأدب نشاطا لا يستطيع الإنسان التخلي

عنه. نحن نكتب ونقرأ لأننا نملك عقولا غليظة بالنسبة للحياة التي نحياها، ولا أجد طائلا من تضييق هذه المساحة التي تفصل بينهما. أعتقد أن الفنانين يستمرون في القيام بأنشطتهم حتى في ظل انعدام المشاكل، لرغبتهم في ممارسة الملكات الذهنية غير الموضوعة في مراكزها الصحيحة داخل العقل. سأستمر، أنا، في كل الأحوال، حتى لو افترضت نفسي سعيدا جدا.

مادلين شابسال Madeleine Chapsal

أشعر بنفور حيال هذه السنوات التي ستشهد مماتي. ولكن على الرغم من هذا، فإنني أريد أن أشعر بالتفاؤل في هذا القرن الذي سيبتلعني وأسعد بالتغيرات الجارية والمستقبلية. وأستمتع على وجه الخصوص بالإمكانات المتوافرة لنا بفضل التكنولوجيا الحديثة التي تحقق لنا رغباتنا، وبفضل الجراحات التجميلية وثورة المعلومات التي تتيح لنا الحركة الفردية بعدما ذرفنا الدموع على الأنشطة الجماعية في القرن العشرين... كم سيكون رائعا! سنصرخ عاليا يا أهلا بالأعمال المنزلية مما سيؤدي إلى وجود أكلات دسمة بالفعل.

ويمكننا أن نسترجع شبابنا! وأن يصبح لنا وجه الفتاة الشابة، وأن نذهب إلى هونولولو، بسرعة أسرع من الضوء. كل شيء - بدأ من الطبيعة إلى الجسد مرورا بالديكورات التي نفضلها - يمكن أن يخضع لرغباتنا. سواء كنا كتابا أم لا، سيتطلب الأمر أن نحلم، فلكي تصبح الأشياء ممكنة الحدوث يجب أن نحلم بها أولا.

إرى دي لوكا Erri de Luca

من دوني. وأنتم تعرفون ذلك «الدنيا من دوني يا حبيبتي يمكن تصورها».

فريد Fred

يعتبر العام 2000 بالنسبة لي ذكرى، حلم طفولي قديم. كنا نتصور العام 2000 كما نتصور اليوم العام 3000: الحياة على كوكب آخر، رحلات بين الكواكب عن طريق التاكسي الطائر... لم أتخيل أنني سأصل إليه في يوم من الأيام. وأخيرا وصلت أوربما كدت أصل - ولكنني في حالة من اللامبالاة! لا أدري إذا كنت سأحتفل بليلة رأس السنة أم لا. لا أبالي إطلاقا بالعام 2000. يأمل البعض أن يكون هذا العام عام انتهاء الحروب وبداية المساواة بين الشعوب. ولكن هذا كله هراء. الحقيقة إن الأمور تزداد سوءا يوم... العام 2000، لا يعني شيئا! إن الأمر يتعلق بانزواء بحر الألفية الثانية.

فيليب ديليرم Philippe Delerm

بعد طول بحث في قاموسي الشخصي عن القافية الداخلية، لم أجد إلا قافية واحدة للعام 2000 ألا وهي أنه هش. هشاشة الزمن الذي يمر، هشاشة أكبر فيما يتعلق بالرغبة في التفكير فيه ومداعبة الجرأة من خشية شموليته الزهيدة والعدمية.

على قمة برج إيفل يقولون إنه أقل من شيء ما، وإنه سيكون شيئا آخر بعد أن كان لا شيء، وذلك عندما نعرف أكثر؟ كل من أحب سيكون عندئذ عجوزا، أما الباقي فلا يهمني كثيرا. إنه هش، هذا العام 2000.

فرانسوا بوك Francois Boucq

أعتقد أن القرن المقبل سيعتمد كثيرا على العنصر المرئي من الوجهة الثقافية. إذ ستطغى الفنون المرئية. وعموما، فإنني أتمنى أن القرن لا يتغير. ففي كل مرة أرادوا فيها تغيير العالم ازدادت المشاكل. أريد القرن المقبل شبيها بهذا

القرن مع القدر نفسه من العنف والعاطفة والحنان والإبداع. حتى أستطيع أن أحكي روايات بالقدر نفسه من التمايز. أتمنى أن تظل وسائل التعبير ذاتها موجودة وأن نجد وسائل أخرى للتعبير عن العالم لا تكون بالضرورة وسائل الاتصال. لأن أدوات الاتصال الحالية تصيبني بالخوف: إنها شمولية الكمبيوتر والإنترنت. فإذا لم يعد هناك إلا هذه الوسائل، سيتحول الأمر إلى كارثة. في حين أنه مع وجود مفهوم التكاتف الإنساني ومع وجود الرسوم المتحركة والأدب، يظل الوضع محتملا.

كولم مكان Colum Mccann

يعتبر القرن العشرون من أكثر الحقبات التي يمكن أن نطلق عليها صفة الإنسانية واللاإنسانية في الوقت ذاته. كم أود أن أعتقد أننا قادرون على التقليل من حروبنا والإكثار من النجاحات في القرن المقبل، وعلى كل حال هذه رغبة وليست توقعا.

هل سنشهد قرنا من السلام والحب والوئام؟ في الأغلب لا. هل يجب أن نرغب في مثل هذا القرن؟ في الحقيقة نعم بالطبع. وعلى العموم، لم يعتبر أبدا الأمل جريمة.

إريك فاي Eric Faye

لو كنا وجهنا سؤالا إلى أحد كتاب نهاية القرن التاسع عشر عن تصوره للمائة عام المقبلة، لكان وجد صعوبة بالغة في إدراك النسبية العامة والميكانيكا الكمية أو الرواية الحديثة أو الإنترنت أو موسيقى الراب، أو برامج التوك شو التي تذاع في ساعات الذروة. إن الروائي جول فيرن عندما كتب في واقع الأمر إنما كتب عن أبحاث كانت جنينية آنذاك. ولكن يظل البحث في غياهب القرن الحادي والعشرين المعتم أمرا بالغ التعقيد. ما هو القاسم المشترك بين العام 2012 والعام 2088؟ ما هي العوالم التي ستحقق الخطط الخمسية التي سيشهدها القرن المقبل؟ هناك شيء مؤكد وهو عودة سنوات الستينيات، ولكن ستأخذ كل الأشياء أحجاما كبيرة فلا تضحكوا كثيرا إذ سيتضخم حجم التحديات والمخاطر والغزوات. سيتم اتخاذ خطوات واسعة في اتجاه تحقيق «العوالم الفضلي». ستتراكم الابتكارات والاكتشافات وأنواع الدمار التي ستلحق بالإنسان بسرعة كبيرة جدا. ولكن ستجد كل من الحكمة والسعادة محلا لها، نعم وذلك عندما سيقوم الأطفال بتأمل الأرض من الفضاء، أو عندما سنكتب شعرا ونحن في حالة من التباطؤ، أو عندما يكف آكلوا لحوم البشر إشارة إلى رجال المال عن خلق أدبيات السوق والمنتجات المربحة غير الإنسانية. هل يمكننا أن نتخيل دون أن نصبح خياليين كاتبا يعيش في العام 2099 يقوم بتخيل القرن الثاني والعشرين؟

زوي فالديس Zoe Valdes

القرن المقبل، الإجابة ستكون فضفاضة بالضرورة بالقياس لمائة عام لقرن يئن. وبالنسبة لقرن آخر ينتظرنا وينظر إلينا. ماذا ننتظر؟ أنا لا أرى إلا نمو حجم أيدي طفلتي، هذه الأيدي تدعم توازني. إنني أشعر بتأثر من جراء الشك حيال الألفيتين. العام المقبل، سنعيد الحديث عن الأحلام، عن باقة من الأحلام تستمر زمن العناق. سنطلب التقرب إلى الشعر أكثر من الحرب. أتخيل الحرية التي ستعم جزيرتي وابتسامة ابنتي وهي تسبح على شواطئه. القرن المقبل، سنعود إلى الكتب بمزيد من الحمية ومتسع من الوقت، وسنحب لأن الحب هو ما تبقى لنا.



السيمفونيات المرئية لستانلي كوبريك*

بقلم: بابلو جالونسي

ترجمة: أنوار الرضوان

لا يعيش ستانلي كوبريك إلا لفنه، وأعماله كانت مثار جدل واسع، واليوم يرحب به عشاق السينما باعتباره أحد صناع تاريخ السينما الجدد. فهل نتذكر كم كان مصدرا للنقد السلبي (باستثناء فرنسا!) الذي رافق ظهور أفلامه الأكثر شعبية: «2001 أوديسا الفضاء»، أو «البرتقالة الميكانيكية» أو «إشراق»؟ ويتذكر كذلك عشاق الموسيقى، وقاحة المخرج الذي تجرأ بمجاراة «فالس الدانوب الأزرق» ليوهان شتراوس، و«هكذا تحدث زرادشت» لسميه ريتشارد شتراوس في فيلم خيال علمي، بل والأسوأ من ذلك استهانته بالسيمفونية التاسعة لبيتهوفن، عندما استخدمها في حكاية عن الجنس والعنف.

العنوان الأصلي للمقال:

Les Symphonies visuelles de Stanley Kubrick Le Monde de la Musique

التصقت بستانلي كوبريك صفتا الابن المزعج والطاغية المستبد. والواقع أن كوبريك الذي ولد العام 1928 في نيويورك، رجل عصامي، وعاشق للجاز بجنون (حتى أنه حلم بأن يصبح عازفا للطبول)، ولاعب شطرنج محترفا، تعلم كل شيء بنفسه وبسرعة، خاصة مع كاميرا التصوير التي قدمها له والده وهو في الثالثة عشرة من عمره. لم يكن له أستاذ أو مثل أعلى، ولم يلتحق بأي جامعة. وكان تركيزه الكلي على عمله قد حوله، مثل فلوبير، إلى متقشف مخلص لفنه. وهو يقوم بمراقبة أدق تفاصيل أفلامه، حالة نادرة في تاريخ السينما نجح في العمل في استوديوهات هوليوود الكبيرة محتفظا بسيطرة تامة على أعماله. طموحه: خلق سينما لا تعتمد إلا على وسائله الخاصة في التعبير، دون أي علاقة مع المسرح أو الرسم. وإذا كان هناك فن آخر يؤثر في أفلامه (غير الكتب التي يستوحي منها السيناريوهات) فهو الموسيقى. «عندما تناسب الموسيقى فيلما ما، فإنها تضيف بعدا لا يمكن لأي شيء آخر أن يضاهيه، فهي ذات أهمية أساسية» (1). ألم يقل، عن فيلمه «2001 أوديسا الفضاء»، أنه يجب شرحه «من خلال ألفاظ موسيقية والحديث عن الدوافع وعن التنويعات وعن الصدى »(2)؟

نجهل الكثير من ذوق كوبريك الموسيقي، فهل كان استخدام المقطوعات دلالة على شيء؟ لا نعرف بالضبط. من الواضح أنه يحب الكلاسيكيات الكبرى، بتهوفن، وموتسارت وشوبرت، ويكره الابتكار بحد ذاته... خصوصا في الموسيقى. ويعتقد بشدة أن الخطأ في فن القرن العشرين يكمن، في الواقع، في زرع الابتكار بأي ثمن. وفيما يخص الموسيقى، فإنه يؤيد الرجوع إلى بعض الكلاسيكية: «حتى كبار المبدعين مثل بتهوفن لم يكن منقطعا كليا عن العصر السابق عليه. فالتجديد هو أن يتقدم الفرد للأمام دون التخلي عن الماضي» (3).

ومع ذلك نرى الابتكار في استخدام الموسيقى في أفلامه. وإن لم يكن هو الأول أو الوحيد الذي فعل ذلك، فإنه بالتأكيد الأكثر جرأة، والأكثر نظامية في استخداماته للموسيقى الكلاسيكية. بل وأصبح له «أسلوبه» الخاص، إذا جاز لنا التحدث عن «أسلوب كوبريك الموسيقي» فمن كان بوسعه أن يبدي مثل هذه الجرأة في مزج المشاهد مع الأعمال الموسيقية المستمدة من الماضي والحاضر؟ ونحن نعرف مخاطر مثل هذا السلوك: إذ يجب أن نرى على الشاشة تنافسا مع عظمة سيمفونية لبتهوفن أو أوبرا لموتسارت أو قصيد سيمفوني لشتراوس. ولم يكن هناك أحد آخر غير كوبريك يسعى لاكتشاف مثل هذا الانسجام سوى فرانسس فورد كوبولا (نهاية العالم الآن)، وجون بورمان (سيف الأسطورة)، ولو تشينو فيسكونتي (الإحساس والموت وفينيسيا)، لكن أيا منهم لم يتماد إلى هذا الحد.

في أربعة أعمال لكوبريك («2001 أوديسا الفضاء»، و«البرتقالة الميكانية»، و«باري ليندون» و«إشراق»)، تتدخل الموسيقى الحية - كما يسمونها - على نحو حاسم. فهي لا تقتصر فقط على التعليق على المشاهد، أو على إعطائها الخلفية التي تتناسب معها، إنما تصبح عنصرا أساسيا من الحكاية، بأهمية الصورة نفسها أو الحوار. وأحيانا، نجدها أكثر أهمية من الحوار، لأن كوبريك (الذي يخشى ويتحاشى النظريات) يعرف السينما بأنها خبرة غير شفهية: «أحسن ما في الفيلم أن تقوم الصورة مع الموسيقى بخلق الحدث. نستطيع أن نتخيل الفيلم حيث الصور نفسها والموسيقى تستخدم فيه بطريقة شعرية أو موسيقية»(4). من شاهد «2001 أوديسا الفضاء» أو «باري ليندون» قد يصدم من قلة الحوار، الذي يجيء أحيانا متعمدا منه، ومن



● «باري ليندون»: المبارزة بين ريدموند باري ولورد بولينجتون. يشارك في هذا المشهد أيضا موسيقى باخ وموسيقى باخ وموتسارت وشوبرت.

التناقض الواضح مع تفوق مكانة الموسيقى. لماذا إذن لا نرضى بموسيقى مؤلفة مناسبة، تتآلف مع الصور بطريقة وظيفية)؟ ففي أغلب أفلام هوليوود، تحتل الموسيقى مكانة ثانوية، للزينة بالمعنى الحرفي للكلمة. ويلزمنا مؤلف موسيقي مثل برنارد هيرمان، لاسيما في مقطوعاته لأفلام ألفريد هتشكوك، حتى نستغل تماما إمكانات الجمع ما بين الموسيقى والمشاهد. وفيما يتعلق بخارج النظام الهوليوودي، هناك بروكوفييف وأيزنشتاين في روسيا، حيث سبق وأن اكتشفا تلك الإمكانات في فيلم «ألكساندر نفسكي» (المعركة الشهيرة على البحيرة الثلجية عبارة عن مشهد لباليه رائع لم نشهده في السينما قبل فيلم «2001 أوديسا الفضاء») وفيلم «إيفان الرهيب». ولكنهما ليسا سوى استثناء شاذ عن القاعدة.

ومن خلال مقابلاته الصحافية النادرة التي أجراها، عبر كوبريك بوضوح عن هذه المسألة: «إلا إذا كنتم تريدون استخدام موسيقى البوب، فمن العبث أن نلجأ إلى أحد لا يساوي موتسارت، أو بتهوفن أو شتراوس حتى نلحن موسيقى أوكسترالية. لهذا، لدينا خيارات واسعة في الموسيقى من الماضي»(5). والواقع أن الخطوات المعتادة المتعلقة بتصور مهنة المخرج تنتفي تماما في حالة ستانلي كوبريك، فهو يسير على كل خطوة، حتى في انتقاء الصالات التي ستعرض أفلامه.

ومع ذلك، لم يتمكن كوبريك من اختيار موسيقاه بنفسه إلا بعد مراحل متقدمة من عمله. ففي أولى أفلامه الطويلة - «الخوف والرغبة 1953»، و«قبلة القاتل 1955»، و«القتل 1956»، و«دروب المجد 1958»، و«سبارتاكوس 1960»، و«لوليتا 1962» - استدعى مؤلفين موسيقيين، لاسيما صديقه جيرالد فريد لأفلامه الأربع الأولى. ولكن ابتداء من فيلمه «دكتور الحب الغريب 1964»، كشف عن مهاراته في استخدام الموسيقى بطريقة غير مباشرة، وفي إثارة الصدمة بين الصورة واللحن. حيث يصاحب المشاهد الأخيرة للفيلم التي تصور رعب الفطر النووي أغنية عاطفية تافهة، هي We shall meet Again («سنلتقي ثانية، لا أدري أين، لا أدري متى، تحت

الشمس). ونرى المفارقة ذاتها في مصاحبة أغنية Singing in the rain (الغناء تحت المطر) لمشهد اغتصاب في فيلم «البرتقالة الميكانيكية».

وبعد أربع سنوات، أخرج كوبريك فيلمه الشخصي الأكثر غرابة، والأكثر قربا من تصوره لسينما «فن السينما النقي»، التي لا تعتمد إلا على قدراته الذاتية على التعبير المرئي: وهو فيلم «2001، أوديسا الفضاء». والواقع أن هذا الفيلم لا يشبه أي فيلم آخر، بما في ذلك أفلام كوبريك نفسه. ففيلم الخيال العلمي، «السيمفونية المرئية»(6) يطرح في الوقت نفسه تساؤلات عن احتمال وجود مخلوقات فضائية، حيث تصبح التقنيات هي المبدأ الأسمى، وكذلك تساؤلات عن تطور الإنسانية.

الموسيقى... مفتاح نجاح «2001 أوديسا الفضاء»

بعد ثلاثين عاما من ظهوره، مازال في مشاهده وموسيقاه سحر فائق. وكان كوبريك قد تخلى عن استخدام موسيقى أليكس نورث، المؤلف الموسيقي الهوليوودي اللامع الذي تعاون معه قبلها في فيلم «سبارتاكوس»، ولحسن الحظ استبعد فكرة الاستعانة بموسيقى كارل أورف. والفيلم شبه صامت (الشخصية الأكثر ثرثرة في الفيلم هي شخصية «هال»، الإنسان الآلي الجبار)، والقصة تقتصر على استخدام الصور في جمال خارق. ولكن المعنى الحقيقي للحكاية لا نجده غالبا إلا في الموسيقى المصاحبة لها، أو بالأحرى المخصبة لها. فاختيار الأعمال الموسيقية التي تشكل الشريط الصوتي هي أحد أسرار الفيلم. حيث افتتاحية «هكذا تحدث زرادشت» (قصيد سيمفوني لرتشارد شتراوس)، تتحدث عن محتوى الفيلم بطريقة نتشة. وعلى لحن «لغز العالم»، الحركة الأولى لقصيد رتشارد شتراوس السيمفوني، تتوالى المشاهد التي ترينا «الحداثة الإنسانية» مستحوذة على كل الدلالات: الصراع من أجل السلطة، هيمنة القرد على الآخرين مرتبطة بظهور الحجر الأسود، إنه تأثير فضائي لكنه أيضا رمز للحكمة والرغبة في امتلاك القوة. وقد صاحب هذا الظهور موسيقى «قداس» لجيورجي ليجيتي. وهكذا فإن الأوركسترا الكلاسيكية تواجه ألحانا غير مألوفة من موسيقى حديثة حتى تعطي لمحة عن المجهول. ونقطة التحول لحاضرنا الحالي تكمن في القطع الأروع في كل تاريخ السينما (العظام التي كانت تستخدم للقتل تتحول إلى مركبة فضائية)، ثم تقودنا إلى رقصة باليه للسفن الفضائية. الألحان الموسيقية وديعة، رائعة، دون خطر من فالس «الدانوب



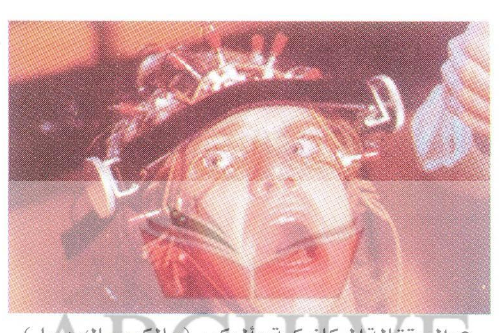
- «إشراق»: يتحدث جاك نيكلسون مع البارمان في حوار قلق في الفندق المسحور. وهذا المقطع من الفيلم تصاحبه موسيقى بارتوك، بندريكي وليجيتي.

الأزرق» ليوهان شتراوس، وهو أحسن تعليق على حضارة هائئة في ذاتها، لكنها عدمية بالمعنى الذي قصده نتشه بهذا التعبير؟

وهذه لحظة من الرضا والسعادة تمدنا بشعور يشبه انعدام الجاذبية حيث رقصة باليه «جاياني» لأرام خاتشادوريان، التي تعبر في الوقت نفسه عن هدوء الفضاء الخارجي والحياة المملة على متن سفينة الفضاء. وعندما تدخل المركبة الفضائية أحد الأبعاد الجديدة. نسمع مجددا موسيقى ليجيتي: انسجام الطيف الجوي يشكل ممرا للدخول في عالم غريب، حيث بومان، رجل الفضاء، سيكون في الوقت نفسه مادة للدراسة وشاهدا على تطوره الخاص. والواقع أن بنية الفيلم نفسه موسيقية: فاللازمة الموسيقية تدخل ضمن بنية منطقية كاملة لا تعتمد على أي شرح شفهي. ويكفي أن يقودنا إيقاع الصور وتعاقب الموسيقى. أما الظهور الرابع للحجر الأسود فتصاحبه عودة «هكذا تحدث زرادشت»: أصبحت الدورة الآن كاملة، ذهب الرجل إلى قدره. وعيون الطفل الذي سيولد تستطيع أن ترى العالم بكل براءة.

العلاج لودوفيجو

هل كانت عيون أليكس في بداية فيلمه التالي «البرتقالة الميكانيكية» تنظر بالتلقائية نفسها؟ ففي هذا الفيلم (1971)، عمل كوبريك على الشريط الصوتي بدقة متناهية. وكان كوبريك لم يمس المقطوعات الموسيقية في فيلم «2001 أوديسا الفضاء»، لكنه في فيلم «البرتقالة الميكانيكية» قام بتحريف السيمفونية التاسعة لبيتهوفن في أغلب الأوقات بطريقة مبتذلة على يد الموزع الموسيقي والتر كارلوس، الذي سبق واحتلت أسطوانته Switch on Bach قمة الأعمال الأعلى مبيعا. وهذا الكاريكاتور لبيتهوفن ما هو إلا انعكاس للذوق الفاسد لأليكس، الذي يتعطش للعنف وممارسة الجنس الذي يساوي حبه لـ «لودفيج فان».



• «البرتقالة الميكانيكية»: أليكس (مالكوم ماك دويل) خلال تلقيه العلاج لودوفيكو مع موسيقى بتهوفن.

ولم يكن بيتهوفن المؤلف الوحيد في هذا الفيلم، فقد ظهرت موسيقى روسيني مرتين، الأولى خلال مشاجرة مع خصم تافه، بدت كباليه حقيقي على لحن افتتاحية أوبرا «العقعق السارق»، والثانية عندما كان بارتو في غرفة أليكس، وهذه المرة على إيقاع افتتاحية أوبرا «ويليام تل». كذلك أعطيت موسيقى «مأتم الملكة ماري» للمؤلف الموسيقي هنري بورسل لأحد الموزعين، وهناك لحن من «الأبهة والظروف» لإلجار يعزف عندما يحين وصول وزير الداخلية الثمل إلى السجن حيث يوجد أليكس، وتجليات صورة صلب السيد المسيح على أنغام «شهرزاد» لريمسكي كورساكوف. ولكن من كان له وظيفة رمزية هو بتهوفن: فبتحريف موسيقاه يذكرنا بـ «فشل الثقافة في المجال الأخلاقي»(7). والواقع أن العلاج الذي سيتلقاه أليكس سمي لودفيجو (وهو تحريف للاسم الأول لبتهوفن)، والنتيجة النهائية أن أليكس سينفر من السيمفونية التاسعة، علامة أخرى على ارتيابية كوبريك في إمكانات الفن المتحرر.

بعد هذه الثلاثية المتحررة، لم يكن فيلم «باري

ليندون» أقل غرابة، بالرغم من أن موضوعه يبدو أكثر تقليدية ومباشرة. وهنا لا يقود جمال الصور والمشاهد إلا لإثارة الشعور بالانحطاط، والفساد، والاختناق. وبالنسبة للملابس، وجدها كوبريك في موديلات القرن الثامن عشر، لكن هذا الأمر لا ينطبق دائما على الموسيقى، رغم أنه يعلن دائما عشقه «لكل موسيقى القرن الثامن عشر. لكنه يقول إنه من أجل أن يحكي هذه القصة، حيث موضوعها هو الحب (أو بالأحرى غياب الحب)، لم يجد في هذه المجموعة الواسعة شيئا من الولع، لا شيء قادرا، حتى ولو من بعيد، على إثارة فكرة الحب» (8). وهذا يبرر لنا اختياره لثلاثية شوبرت مصنف رقم 100، التي تمنح مشهد إغراء الليدي ليندون نسمته المأساوية. وعندما قام ردموند باري بإغراء الليدي ليندون خلال لعبة الورق، لم يكن لتتابع الأدوار التي تتبادلها الشخصيات علاقة بالحدث. فكل المشاعر منبثقة من الصورة، والإطار، والتمثيل، وأخيرا وليس آخرا من الحركة الثانية للثلاثية مصنف رقم 100 ذاتها، فالموسيقى هنا ليست مصاحبة، لكنها جزء من المشهد.

ولم تكن تلك هي المفارقة التاريخية الوحيدة في الفيلم: فالليدي ليندون تعزف كونشيرتو الهاربسكورد لباخ في عصر كان قد نسي فيه، وابنها اللورد بولنجتون يعزف على الكمان. ونسمع لحنا موسيقيا من «إيدومينيو» لموتسارت في غمرة حرب السنوات السبع، أي قبل عشرين سنة من تأليفه. غير أن الواقعية لم تكن هي هم كوبريك. فاختيار إيدومينيو لم يكن مصادفة: ألم يكن موضوع تلك الأوبرا هو أحد الدوافع الرئيسية التي أتت بباري ليندون للبحث عن أب ضائع؟ وبطريقة أقل وضوحا من «البرتقالة الميكانيكية»، كان توزيع القطع الموسيقية بالغ الدقة مع المؤلف الأمريكي ليونارد روزنمان. بالنسبة لمشاهد المصارعة، استخدم كوبريك لحن رقصة الزارابانذا كتتمة للحن هاربسكورد هاندل. وكان أداء الأوركسترا التي قادها روزنمان بطيئا، وخفيضا وكئيبا، فأصبحت هذه الرقصة النبيلة مشية جنائزية. ومن خلال الفكرة نفسها، أعلن موت ابن باري ليندون.

بعد الخوض في القرن الثامن عشر، يأتي فيلم «إشراق» (1980) الذي يعود بنا إلى وقتنا المعاصر، أو بالأحرى إلى زمن بلا تحديد: يبدو الوقت مجمدا في الفندق، ومثل فيلم «2001 أوديسا الفضاء»، استخدم كوبريك موسيقى حديثة للتعبير عن المجهول. وباستثناء وحيد، كانت كل موسيقى الفيلم من القرن العشرين. ويميل كوبريك إلى إحداث تعادل بين المرئي والروائي، وذلك ينطبق على «موسيقى للوتريات وآلات النقر والسلستا» لبيلا بارتوك. فالحدود بين العقل والجنون، بين الطبيعي وغير الطبيعي، نجدها يلفها غموض غير حقيقي في الحركة الثالثة من عمله. ومن ثم ففي مقدمة الفيلم، يضع كوبريك مقطوعة لحن «مارش الإعدام» من «السيمفونية الخيالية» لبرليوز (في ترتيب للصوت وتوزيع وندي كارلوس)، ومجددا يستخدم موسيقى ليجيتي وكريستوف بندريكي بمصاحبة بارتوك للتعبير عن التتابع القلق للصمت والموسيقى، التي نجدها هنا أيضا أكثر أهمية من الحوار.

ملاحظات

(1) Michel Ciment, Kubrick, Calmann-levy, 1980, pp. 175-176.

(2) المرجع نفسه، صفحة 192 - 193.

(3) المرجع نفسه، صفحة 176.

(4) المرجع نفسه، صفحة 156.

(5) المرجع نفسه، صفحة 153.

(6) المرجع نفسه، صفحة 127.

(7) المرجع نفسه، صفحة 163.

(8) المرجع نفسه، صفحة 172.

سول بيلو يتأجج مجددا

مع طفلة جديدة ورواية جديدة، يعود الروائي العالمي، الحائز على جائزة نوبل، إلى الساحة الأدبية برائعة جديدة.

بقلم: بول جراي

في عامه الرابع والثمانين، يبدو أديب نوبل سول بيلو، على حد تعبير إحدى شخصياته الروائية الكوميدية، على أفضل ما يكون. فهو بداية أب فخور لطفلة وليدة، تحمل اسم ناوومي روز، أبصرت النور في 23 ديسمبر الماضي، أنجبتها زوجته الخامسة جانيس فريدمان.

وعندما التقيته في مكتبه في جامعة بوسطن كان يرتدي ربطة عنق زرقاء عريضة الطرفين وبدلة مجعدة، وتحدث بيلو بحماسة عن الوافدة الجديدة: «أعتقد أن البنت أكثر تشوقا للدخول في علاقة ما مع والديها أكثر من الأولاد» (لبيلو ثلاثة أبناء ذكور، أكبرهم في السادة والخمسين، أنجبهم من زيجاته السابقة). وهي تلتقط كل شيء - وأتمتع بمشاهدتها وهي تتأمل وجهي في صمت - وهي صبورة إلى حد ما. بل إنها تقلدني».

ويعي بيلو أن كونه أبا في هذا السن المتقدم يثير بالضرورة قلقا - وإن كان غير معلن - استبقني إليه بيلو قائلا: «حسنا، زوجتي لن تكون وحدها عندما أموت. سيكون لديها شخص ما». وهو يعرف أيضا أن كونه أبا لطفلة وهو في الثمانين أمر يثير الكثير من الدهشة بين الغرباء، وحتى بين أصدقائه. ويقول بيلو «يحاولون مداعبتي، لكنني أقول لهم، الممارسة تجعل الأبوة مكتملة».

أما السبب الآخر لانتشاء بيلو فهو ظهور روايته «رافلستين»، روايته الثالثة عشرة، في الولايات المتحدة. غير أن استمتاعه بهذا الوافد الجديد قد شابه بعض الإزعاج. فمعظم النميمة التي دارت حول **رافلستين Ravelstein** قبل نشرها اعتبرت أنها ليست سوى مجرد حكاية عن الصداقة الحميمة التي جمعت بين بيلو وآلان بلوم، زميله في جامعة شيكاغو، ومؤلف «**إغلاق العقل الأمريكي**» **The Closing of the American Mind** (**1987**)، الكتاب الظاهرة الذي احتل لفترة طويلة قمة الكتب الأكثر مبيعا. وعندما مات بلوم، الذي جعلته كتاباته بطلا في عيون المحافظين الأمريكيين، في العام 1992، كان السبب الرسمي المعلن لوفاته هو الفشل الكبدي. لكن رافلستين، الشخصية التي يزعم أنها تمثل بلوم في رواية بيلو، يظهر مثليا في السر يصاب بفيروس نقص المناعة المكتسبة ويموت في نهاية المطاف بمرض مرتبط بالإيدز. وغني عن

العنوان الأصلي للمقال - Saull Bellow Blooms Again، **وظهر في مجلة** TIME **عدد** 8 **مايو** 2000



القول إنه في عصر الإثارة الإعلامية الذي نعيشه، فقد أثارت رواية رافلستين بالفعل الكثير من النميمة.

ويشعر بيلو بالسخط والإحباط عندما يسمع أن روايته الجديدة ليست سوى فضح وكشف لحقيقة صديق عزيز. ويقول بيلو: «هذه مشكلة تجابه دائما كتاب الروايات في هذا البلد. فالناس هنا عقولهم حرفية ضيقة، وهم يقولون، هل هي حقيقة؟ وإذا كانت حقيقة، هل هي دقيقة واقعيا؟ وإذا لم تكن دقيقة واقعيا، فلماذا إذن هي ليست دقيقة واقعيا؟

ثم تربط نفسك بعقد، لأن كتابة رواية قد تبدو في نواح عدة أقرب إلى كتابة السيرة الذاتية، لكنها حقيقة ليست كذلك، فهي حاملة بالخلق. وإذا لم يكن هناك خلق، فإنها لن تكون مقروءة. الخلق، الحرية. إذا كنت تحتاج إلى ظروف، فإنك تخلقها في ذهنك. لكن من الواضح أن هذا ليس هو منظور ذوي العقول الحرفية الضيقة. والواقع أن هؤلاء الذين ألفوا قراءة الروايات عندهم فكرة عن هذا الموضوع، لكن كثيرين غيرهم لا يعرفون عنه شيئا. لقد نفد صبري».

وقد نفد صبره بالفعل إلى حد أنه عندما طرحت أمامه موضوع بلوم والإيدز، قال بحدة: «إنني آسف لأنني أراك تجرني في هذا الاتجاه، وأنا لا أريد الانجرار إليه». وكل ما قاله عن هذا الموضوع، دون أن يذكر بلوم بالاسم، هو: «لقد قال، إنني

أثق في ما ستكتبه. وأعلم أنها ستصبح رواية، وأضاف، وأحب أن تفعل هذا».

وكانت روايات بيلو السابقة هي التي شجعت هذه التساؤلات حول القصة الحقيقية للرواية، وعلى الأخص روايته الفائزة بجائزة بوليتزر **هدية هامبولت** Humboldts Gift (1975). ففي هذه الرواية، عرف على نطاق واسع أن شخصية الشاعر العبقري ذا العقل الآخذ في التدهور فون هامبرت فليشر، كانت هي نسخة الرواية لشخصية ديلمور شفارتز، صديق بيلو الشاب ومعلمه في بداية حياته. ولم يذكر المؤلف أبدا العلاقة المتخيلة بين هامبولت وشفارتز، ولم يعتقد أبدا أن هذا الموضوع يستحق النقاش. وكان على حق في ذلك. فطوال ربع قرن، كان آلاف الأشخاص الذين قرأوا رواية هدية هامبلوت ولم يسمعوا أبدا بديلمور شفارتز قد استمتعوا بالشخصية الروائية القائمة بذاتها. وهذا الضبط ما سيفعله آلاف القراء، الذي لا يعرفون شيئا عن آلان بلوم، عندما يقرؤون رواية **رافلستين**.

والرواية الجديدة، مثلها في ذلك مثل رواية **هدية هامبولت**، تصور تأثيرات شخصية قوية على مراقب حساس، وهو هنا تشيك الذي تحكى الرواية على لسانه. وفي الرواية، يذهب آب رافلستين، صديق تشيك وزميله الأكاديمي في جامعة شيكاغو، الجميع، بمن فيهم تشيك نفسه، عندما أصدر كتابا جعله واسع الثراء. ويقول تشيك: «إن أفكار رافلستين الأكثر جدية، الواردة في كتابه، والتي كان من الممكن أن تحوله إلى مليونير، كانت مضحكة بالتأكيد. فقد أخذت روح الرأسمالية لتجعل من الأفكار، والآراء والتعليم سلعا ذات قيمة».

وكان رافلستين يدين بشهرته وثروته لتشيك الذي اقترح أن يكتب صديقه كتابا على أمل أن يجعل هناك تناسبا بين ذوقه الرفيع الذي يكلفه مالا كثيرا ودخله المهني. لكن تشيك لا يعتبر نفسه محسنا لرافلستين أو معلما له: «على رغم أنني كنت أسبقه مهنيا ببضع سنوات، فإنه كان يعتبر نفسه أستاذا لي». وكان تشيك ينظر إلى الأمور بالطريقة نفسها ويطيع بإرادته تعليمات رافلستين: «أرادني أن أكتب سيرته الذاتية، وفي الوقت نفسه أراد أن ينقذني من عاداتي الضارة. فقد اعتقد أنني حبيس خصوصيتي وأنه يتعين علي الاندماج ثانية في المجتمع. وكان يقول لي كثيرا سنوات عدة أمضيتها وأنت حبيس ذاتك». ووجد تشيك أنه من الغريب أن يسأله رافلستين، الرجل الأصغر سنا، الإشادة بذكراه، لكنه أذعن لرغبته وبدأ بكتابة ملاحظاته.

وعندما أصبح رافلستين مريضا وبدأ في التدهور باتجاه الموت، يدرك تشيك أن مهمة كتابة سيرة صديقه الذاتية، التي تعامل معها في البداية باستخفاف، ولم يتصور أبدا أنه سيعيش بعده، قد تحلوت إلى أمر جاد بالفعل. وبعد مرور سنوات باهتة وتجاوز بعض المصاعب، كانت الثمرة هي رواية **رافلستين**، وهي تدور، بمعنى من المعاني، حول كتابة الرواية.

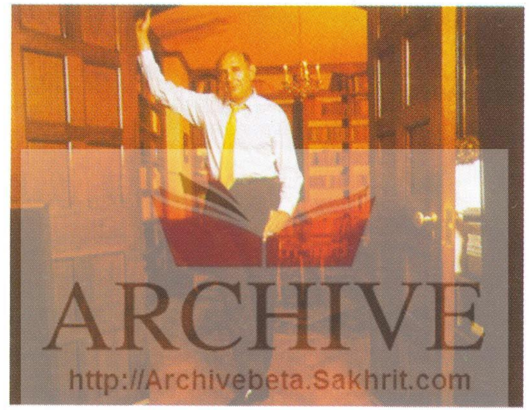
• غلاف رواية سول بيلو الجديدة

وربما تسبب هذه الأنباء بعض الانزعاج في صفوف القراء، لكن على هؤلاء ألا ينزعجوا على الإطلاق، فالحبكة لم تكن هي السهم الأمضى في جعبة بيلو، **ورافلستين** تثبت صحة هذا. وربما تنتمي، مثل أعمال المؤلف الأولى، إلى ما يسمى برواية الأفكار، لكن هذا لن يكون سوى وصف شاحب لإنجاز بيلو المميز. فهو يصور مجددا، كما كان عهده دائما، أناسا من أصحاب الأفكار - أشياء جيدة وأشياء لا عقلانية - يتصادمون ببعضهم البعض ويأتون بردود أفعال غير متوقعة. وقراء بيلو الموسميين لا يتطلعون إلى ما سيحدث في اللحظة التالية، لكن إلى ما ستفكر فيه شخصياته المفعمة بالحيوية، وبالتالي ما ستقوله في المرة التالية عندما تلتقي وتتجادل.

ومع كل الحب والإعجاب اللذين يكنهما تشيك لرافلستين، فإنه يشير أيضا إلى بعض خلافاتهما العميقة حول قضايا جوهرية. فرافلستين، المدرس العبقري للفلسفة الكلاسيكية والنظرية السياسية، يرى أن مزاجية تشيك الفنية، باعتباره كاتبا روائيا، تمثل رفضا للنضوج وللتواصل مع العالم الواقعي للعلاقات العامة: «فإما أن تواصل العيش في تجلياتك أو تتخلص منها جميعا وتستأنف التواصل مع مهنتك وأعمالك، وتتبنى مبادئ عاقلة وتجعل نفسك مهموما بالمجتمع أو السياسة». وكان رد تشيك: «كانت قسوته مفيدة بالنسبة لي»، ويضيف: «ومع ذلك، لم يكن في نيتي إزالة العدسات الميتافيزيقية التي ولدت بها بعملية جراحية».

وتغطي الحوارات بين تشيك ورافلستين طائفة واسعة من التساؤلات الأبدية، بما في ذلك، لا محالة، الموت، واحتمالات الحياة بعد الموت. لكن الرواية تقرأ كنقيض جدلي للتجريدات. فرافلستين مفعم بالحياة بفضل حياة تشيك، وهذا ما يتبدى في الملاحظات المضحكة على المشاهد السابقة. مثل السقاة الفرنسيين «الذين يعملون كالبهلوانات» في حفل العشاء الذي أقامه رافلستين لتشيك في مطعم باريسي فخم. وكذلك وصف تشيك لعادات رافلستين الفاضحة في تناول الطعام «فرشت مضيفتنا الخبيرة أوراق الصحف تحت كرسيه». وأيضا مندهشا يضحك «مثل حصان بيكاسو الجريح في لوحته الجورنيكا، منتصبا على قائمتيه الخلفيتين». وهكذا فإن هذه الانطباعات التي لا تمحى هي التي يمكن أن تتركها المادة الأدبية، وليس النميمة بالطبع.

وقرب نهاية الرواية، بعد موت رافلستين، كاد تشيك نفسه أن يموت بعد أن تناول وجبة فاسدة من لحم سمك النهاش الأحمر في أثناء عطلة أمضاها في الكاريبي بصحبة زوجته الجديدة روزاموند. ويعترف بيلو صراحة أن هذا الجزء من الرواية قد استقاه مباشرة من حياته الشخصية العام 1994. وهو يقول: «كنت في سان مارتن، وذهبت إلى مطعم فرنسي صغير. وقلت لهم، هل عندكم سمك من الصيد المحلي؟ متصورا أنني **سأفوقه** دهاء حتى لايأتوا بسمك مجمد. لكن دهائي لم يفلح، لأن الأسماك المحلية، التي تعيش داخل الحيد البحري، هي وحدها التي تصاب بهذه السموم». وبفضل تفكير جانيس فريدمان السريع في استدعاء الإسعاف، نقل بيلو على الفور بالطائرة إلى بوسطن حيث حل ضيفا على غرفة العناية المركزة. وقال الإشاعات آنذاك إن بيلو في لحظاته الأخيرة. ويقول بيلو: «استغرق الأمر عامين لأتعافى من هذه الأزمة». لكنها تركت تأثيرات مستمرة. «نعم أحيانا أتعثر في أثناء السير، وقد أتعرض للسقوط. وتحكمي في حركتي لم يعد كما كان. ولاأعلم إن كان سبب ذلك هو التقدم في العمر، أم أنه السم».



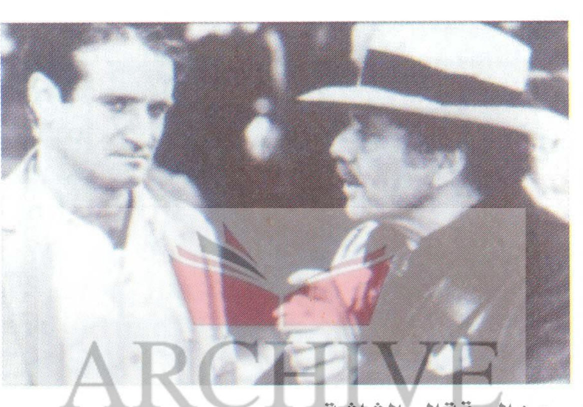
● آلان بالوم في العام 1988، يقول بيلو إن بالوم قال له: «إنني أثق في ما ستكتبه»

ويعترف بيلو بأن الموت كثيرا ما يرد على عقله، لكن ليس لأنه في الرابعة والثمانين. فقد بدأت التفكير في الموت عندما توفيت أمي وأنا في سن السابعة عشر». وترك شيكاغو في العام 1993 « لأن كثيرا جدا من أصدقائي قد ماتوا. وكلما ذهبت إلى مكان، كنت أتذكرهم. لذا قلت لنفسي، حسنا من الأفضل أن أذهب إلى مكان ليس لي فيه أقرباء أو أصدقاء ميتين».

لذا فقد توجه إلى بوسطن، وإلى جامعة بوسطن، حيث لايزال يدرس، ويستمتع بالعلاقة مع تلامذته. وهو يقول: «بعضهم لا يعرف شيئا على الإطلاق.

وهم لا يعرفون أبدا كيف يكتبون. ومع ذلك فإن البعض الآخر، تقريبا النسبة المئوية نفسها التي كانت موجودة في الماضي، يتحدث جيدا، ويكتب جيدا، وهؤلاء أذكياء وعطوفون، ويقرأون بعمق». ويضيف: «كنت قلقا من أن يكون التليفزيون قد دفن الأدب. لكنني لا أعتقد ذلك».

ولا تساور المؤلف أي مشاعر عدائية تجاه الكمبيوتر، لكنه يقاوم استخدامه. وهو يقول: «فيليب روث يدفعني نحو ذلك أكثر من أي شخص آخر. وهو يقول إن هذا سيجعلني أوفر الكثير من الوقت». لكن بيلو مازال يعمل بالطريقة القديمة. يكتب أولا بيده، ثم يطبع ما كتبه على الآلة الكاتبة، ويقوم بتصحيحاته، ثم يطبع كل شيء مجددا على الآلة الكاتبة». ويقول بيلو: «لدي موضوع أعمل عليه الآن. الكتاب عندما لا يكتبون يصبحون مخلوقات مزعجة بالفعل. ربما علي أن أتوقف عن الكتابة». ويضيف مبتسما: «فأنا الآن على أبواب الخامسة والثمانين».



من الورقة إلى الشاشة

«اغتنم اليوم»: روبي ويليامز وجيري ستيلر في الفيلم الذي أنتج العام 1986 مأخوذا عن رواية لسول بيلو. وكانت معظم رواياته قد أثبتت نجاحا باهرا عندما حوِّلت إلى أفلام.

وقد نجح بيلو بشكل أو بآخر في الإبحار عبر كل الصخور التي تحطم عليها الكثير من الروائيين الأمريكيين: الاحتراق الداخلي، والإدمان على الخمر، والإحباط والانتحار. والمؤشر الوحيد على الاضطراب الداخلي في حياته هو حقيقة أنه تزوج خمس مرات. وهو يمزح على ذلك قائلا: «إذا لم تنجح في المرة الأولى عليك أن تجرب ثانية». ثم يقدم تفسيرا أكثر جدية: «الزمن كان دائما شديد الاضطراب، وكل شيء كان في مهب الريح. وكنتيجة لذلك تحاول أن ترسو. أنت تفتش عن مرسى، وعليك أن تعثر على امرأة جذابة جدا، إذا كانت موجودة أصلا، لتقترب منها. لكنهن لسن دائما قادرات على التحول إلى زوجات، والاقتران بزوج ليس سوى روح أخرى هائمة في الليل». هو يمنح جانيس فريدمان (زوجته الحالية) أجمل إطراء يمكن أن يصدر عن بيلو: «لا يمكنني أبدا أن أقول لها شيئا لا تفهمه. وليس فقط تفهمه، بل إنها أحيانا تتوقعه حتى قبل أن أقوله».

ويشعر بيلو بالسعادة لكل تلك الجوائز والتقديرات التي حظيت به أعماله، لكن هذا لم يصبه بالغرور يوما: «كان الناس يمزحون معي وأنا صغير ويقولون لي نعم ستحصل على جائزة نوبل يوما ما. وستغطى مثل شجرة مع لحاء». وهو يرفض إضفاء الطابع الرومانسي على أعماله: «أنا لست كاتبا معذبا. كنت لبعض الوقت أيام شبابي كاتبا معذبا. وقررت أنه إذا كان العذاب جزءا من هذه المهنة، فسأتركها».

لكن ما جعله يواصل العطاء يعود جزئيا إلى ما قرأه في شبابه للكاتب الروسي فاسيلي روزانوف: «ظللت أتذكر ذلك المقطع الذي قال فيه فتحت عيناي وها هو العالم. ها هو ذا الإنسان العظيم والمغامرة المقدسة. قد بدا الأمر وكأنني قد فتحت عيني للتو حقا على ماهية الوجود الإنساني. وبدأ دوري». وهكذا يبدأ بيلو دوره مجددا، ويتساءل بطفولية مطلقة، في **رافلستين**، على لسان تشيك: «في فسحة الضوء بين الظلمة التي تنتظر فيها ميلادك الأول وظلمة الموت التي ستستقبلك، عليك أن تصنع ما بوسعك من الحقيقة، التي كانت في صورة تطور شديد التقدم. وقد انتظرت حتى الألفية لأرى ذلك».

حادث السنوات السبع*

رواية جديدة لمؤلف المريض الإنجليزي.. أجمل حتى مما كنا نتوقع

بقلم: تيم آدامز

هذا الكتاب
Michael Ondaatje
ANIL'S GHOST
311 pp - Bloomsbury. 16.99

مرت سنوات سبع منذ أن نشر مايكل أونداتجي روايته «**المريض الإنلجيزي**». وقبل **المريض الإنجليزي**، وقبل جائزة بوكر، وقبل فيلم رالف فينيس وجوائز الأوسكار السبع، كتب أونداتجي روايتين أخريين، فضلا عن مذكرات حازت إعجاب النقاد وعشرة دووابن شعرية، بما في ذلك رائعته «**الأعمال الكاملة للفتى بيلي**». وقد كان كاتبا يحظى بإعجاب واسع، وربما أساسا، من الكتاب الآخرين للطريقة التي تمكن من خلالها من العثور على شاعرية حادة النبرة في أكثر الأماكن ترويعا، وللمغامرات المحفوفة بالمخاطر التي ذهب إليها بنثره.

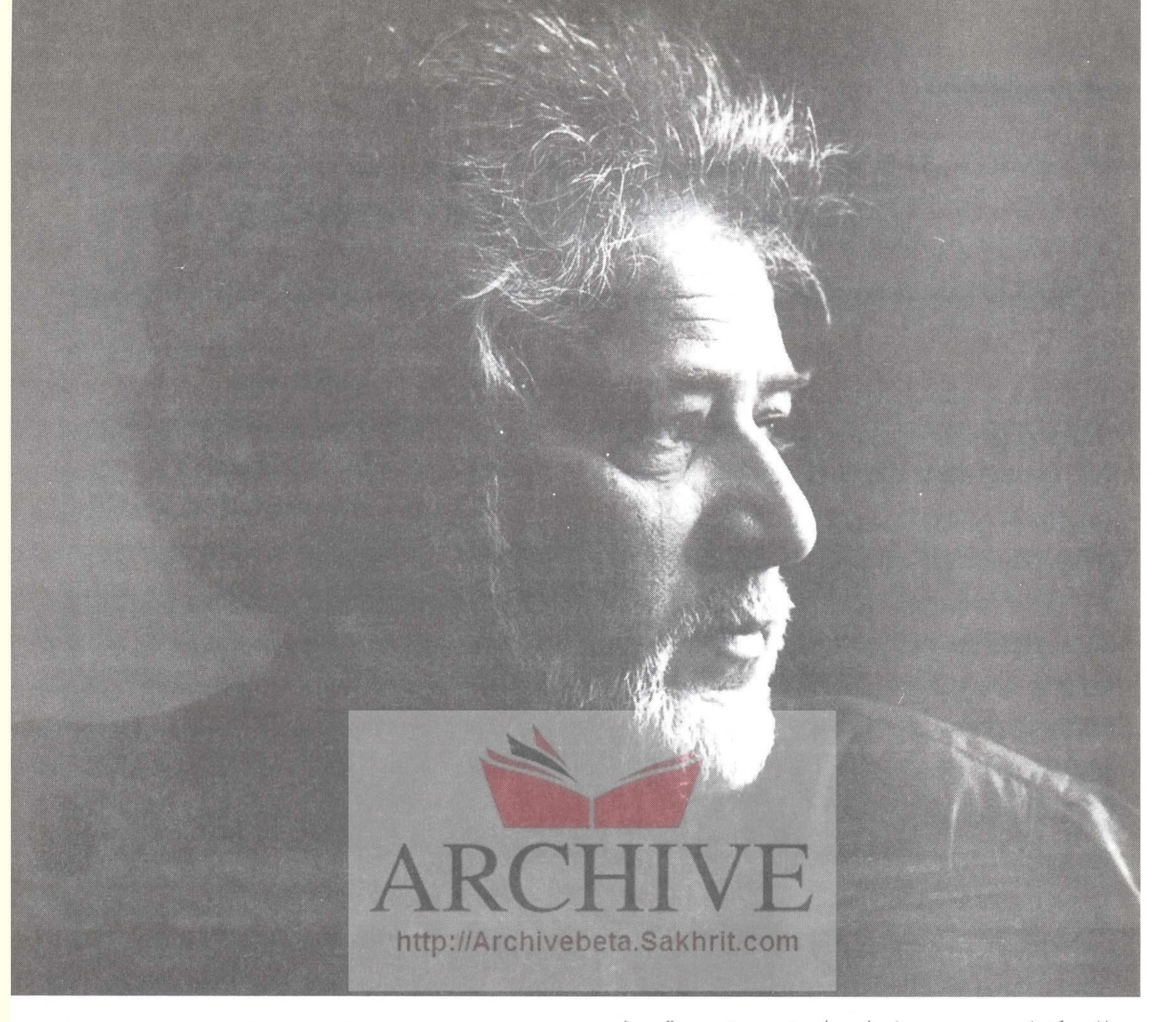
وفي محاولاتهم لتسويقه، اعتاد الناشرون والنقاد مقارنة أونداتجي بسلمان رشدي ما قبل الفتوى، أو آنيتا ديساي أو شيفا نايباول، أي باعتباره روائيا من دول الكومنولث يحاول إضفاء الطابع الوطني على الزمن من خلال ارتياد واقع ما قبل الاستعمار الذي عاشه كحقيقة مرة في سريلانكا. لكن رواية «**المريض الإنجليزي**» غيرت كل هذا: فقد جعلت «**المريض الإنجليزي**» من أونداتجي اسما لا يحتاج إلى أي تصنيف. لكنها تركته أيضا يواجه أجمل مشكلة: ماذا يمكن لروائي شاعر أن يفعل عندما تصل مبيعات أعماله إلى رقم وأمامه ستة أصفار.

لكن ما كان يفعله على ما يبدو طوال هذه السنوات السبع أنه كان في مرحلة تقشف روحي متعمد. فقد عاد إلى موطنه سريلانكا، أولا ليكتب ديوانا شعريا حمل اسم «كتابة باليد»، اقتحم فيه بعض عوالم أساطير الجزيرة، وليكتب رواية عن الواقع الأكثر قسوة للزمن الذي تلا هجرته الأولى: فظائع الحرب الأهلية الثلاثية الأطراف التي جرت في منتصف الثمانينيات ومطلع التسعينيات. ويبدو كلا المشروعين مسعى لنبش واستنطاق جانبين من أسطورة ميلاده، لكنه في هذه الحالة نبش أدبي: تروى أحداث رواية «**شبح آنيل**» أساسا من خلال عيون أخصائية في علم الباثولوجي.

وقد كان أونداتجي دائما كاتبا يفتش تحت جلد مواضيع رواياته. ففي رواية «المريض الإنجليزي»، اقتحم منطقة كيف يبدأ الإحساس عندما يشرع الجلد في الاحتراق، وهنا يزيح طبقة أخرى وينفذ إلى عظام وطنه المحترق جزيرة سريلانكا. وفي الرواية، تعود آنيل، التي تروى معظم الرواية من خلالها،

---

* العنوان الأصلي للمقال The seven Years Glitch، وقد ظهر في ملحق الـ Observer، عدد 30 أبريل 2000.



إلى كولومبو بعد غياب استمر خمسة عشر عاما، أمضتها في قاعات المحاضرات الهادئة في مستشفى جي، ثم في مدرسة الطب الشرعي.

وكانت آنيل قد اخترعت لنفسها سلسلة من وسائل الحماية ـ ليس أقلها الاسم الرجالي الذي «اشترته» من شقيقها منذ زمن بعيد في مقابل مائة روبية وخدمة جنسية ـ لتحمي نفسها في مواجهة القسوة التي تعرضها لها مهنتها. وعلى كل الأحوال، كانت مقتنعة بأنها ظلت بعيدة بما يكفي لكي «تفهم سريلانكا بالتأمل عن بعد». وهي تعود للوطن كمبعوثة للأمم المتحدة مهمتا كشف جرائم القتل السرية التي حدثت في الجزيرة من خلال دراسة بقايا الجثث التي تم اكتشافها.

وفي الغرب، يكتب أونداتجي إن آنيل: «توقعت أن تجد طرقا واضحة المعالم إلى مصدر معظم الألغاز». لكن هنا ـ في سريلانكا ـ ليس هناك معالم لأي طريق. وتعيش آنيل أغلب لحظات هذه الرواية في الظلمة، فهي تشق طريقها في الكهوف القديمة على الضوء المرتعش لأعواد الثقاب، وتعمل في عنابر سفن مهجورة وفي أقبية بيوت مهدمة. وحتى عندما بدأت تدرك مراقبة السلطات بها، اتخذ القمر شكل نور المختبر لتحاول في ظل وهجه الباهت تشريح جثة معينة لرجل تشك في أنه قتل

على يد الحكومة، لتكشف أسرارها. وتلقى آنيل المساعدة في عملها من عالم آثار محلي يدعى ساراث أونداتجي الترخيص للتجول في ماضي سريلانكا الأسطوري ولنبش التوازي بينه وبين مجزرتها الراهنة.

وهكذا فإن حجر رسل بوذا Bhoddhisattvas* مع الأعضاء المفقودة الموزعة في متاحف العالم تستحضر واقع ضحايا الألغام، والجثث المعذبة للنشطاء السياسيين المختفين، التي ترقد في الخفاء في مقابر مقدسة. وتصف آنيل ساراث بقولها: «علماء الآثار يمكنهم قراءة حفنة من التراب مثل رواية تاريخية جيدة»، لكن التراب هنا يروي حكايته كسلسلة من الشظايا. وتحاكي رواية أونداتجي هذه القراءة للتاريخ. ومع تطور أحداثها، تصبح الرواية أكثر إطنابا.

وعلى هامش الرواية، تظهر شخصيات شبحية ترتبط تواريخها من خلال كتابتها بخط مائل: مثل فتاة المدرسة التي تسلك الطريق نفسه إلى المدرسة كل يوم وذات صباح تشاهد رؤوس أربع تلاميذ معلقة على عصي فوق جسر يعبره الكثيرون، والطبيب الشهير الذي يختطفه المتمردون ويجبرونه على مجابهة واقع القتل اليومي من الفجر إلى الغسق.

والقتل هنا يحدث مثل الهمسات: رهبان يقتلون بالرصاص وهم نيام، ورجال يختفون بهدوء ويلقى بهم من نوافذ قطارات تعبر أنفاقا. والواقع أن «شبح آنيل»، مثلها مثل «المريض الإنلجيزي»، هي جزئيا رواية عن التبلد في مواجهة بشاعات الحرب، والاستراتيجيات التي يلجأ إليها العقل ليستعيد إنسانيته، والتركيز على التفاصيل الدقيقة، وحب الكلمات القدية، وإمكانات الحب.

فمع تنقيبها عن الحقيقة، تكشف آنيل حيوات مثل حياتها حبلى بالحزن المكتوم، خاصة وحدة ساراث الغامضة وآناندا الفضولي، السكير مدمن شراب العرق، ورسام عيون بوذا وصانع نماذج الجماجم البشرية.

ويتمثل خطر التبلد المرسوم بدقة في أنه بوسعه الانتشار؛ ولم يفتقر أونداتجي يوما إلى الجملة الآنيقة، لكن هنا يلون روايته بلغة أكثر حزنا. وفي إحدى لحظات الرواية، يقترح ساراث، الذي كان يقوم بتشريح إحدى الجثث، زيارة لمعبد محلي والشمس تغرب. ويكتب أونداتجي إن آنيل: «لم يعجبها التحول الفظ إلى شيء جمالي». وبالمثل يمكن أن ينطبق قلقها أحيانا على مناهج المؤلف ذاته. فالاستعارات تبدو أحيانا في هذه الرواية وكأنها تشمس نفسها على الصخر، والمرضى ينزعون إلى التمدد مخدرين على الطاولات بينما المؤلف يواصل وصفه للمساء الذي يمتد قبالة السماء.

ومن حين لآخر ـ ومن لا يريد أن يكتب رواية أخرى مثل المريض الإنجليزي؟ ـ يبدو الأمر وكأن مايكل أونداتجي قد قرر أن يكتب رواية لمايكل أونداتجي، ونتيجة لذلك يظهر وعي ذاتي في الشاعرية التي غابت عن الأعمال المبكرة للمؤلف. فهناك الكثير جدا من الشعر في هذه الرواية، لكن بمعنى آخر ليس هناك ما يكفي من الشعر.

* رسل بوذا Bhoddhisattvas، تعبير سنكريستي معناه الحرفي «ذلك المنذور لمن جوهره هو النور». ويشير المصطلح إلى كل من وصل، عبر عشر مراحل، إلى الكمال الروحي، لكنه بدلا من البلوغ النهائي يختار أن يؤخر الجائزة الكبرى، النيرفانا، ليعمل من أجل خلاص كل الكائنات التي تتمتع بالإحساس، (المحرر).